التفسير الكاشف

محمد جواد مغنية

المجلد الثاني

من آل عمران والنساء

دار الأنوار

التفسير الكاشف

٢

شبكة الفكر
alfeker.net

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرّابعة

دار الأنوار
طباعة-نشر-توزيع
بيروت - لبنان
Email:daralanwar2009@yahoo.com

محمد جواد مغنية

التفسير الكاشف

المجلد الثاني

في سورتي

آل عمران والنساء

دار الأنوار

سورة آل عمران

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الم★ اللهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ★ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ★ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ★ إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ★ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ★

الاعراب :

مصدقاً حال من الكتاب ، وهدى مفعول من أجله لانزل ، ويجوز أن يكون حالاً ، وكيف محل نصب قائم مقام المفعول المطلق ، أي يصوركم تصويراً أيّ تصوير يشاءه ، مثل أفعل كيف شئت ، والمعنى أيّ فعل شئت ، ويجوز أن تكون حالاً .

المعنى :

(الم) . مر تفسيرها في أول سورة البقرة . (الله لا إله إلا هو الحي القيوم). مر تفسيرها في أول آية الكرسي ٢٥٥ سورة البقرة .

(نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه) . المراد بالكتاب القرآن ، وهو مصدق للكتب المنزلة على الأنبياء السابقين ، وبديهة ان تصديق ما انزل على الأنبياء لا يستلزم تصديق الكتب التي ينسبها اليهم بعض الطوائف .. وها نحن المسلمين نؤمن بقول رسول الله (ص) ، ومع ذلك لا نؤمن بكل ما في كتب الحديث المروية عنه ، أما من يؤمن بالكتب المنزلة على الأنبياء السابقين فعليه أن يؤمن حتماً بالقرآن ، وإلا ناقض نفسه بنفسه ، لأن القرآن مصدق لتلك الكتب ، فتكذيبه تكذيب لها بالذات .

(ونزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس) . ووصْف التوراة والانجيل بالهدى يستلزم انهما قد انزلا بالحق ، كما ان وصف القرآن بأنه نزل بالحق يستلزم أن يكون هدى للناس .. إذن ، فكل واحد من الكتب الثلاثة حق وهدى .

والمراد بالهدى هنا بيان الله سبحانه للحلال والحرام على لسان أنبيائه ، وهذا البيان يفيد العلم بأحكام الله ، أما العمل بها فيحتاج إلى هدى من نوع آخر زائداً على البيان ، ولا أجد لفظاً أعبّر عنه سوى التوفيق ، وهو المشار اليه بقوله تعالى : « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء – القصص ٥٦ » .

التوراة والانجيل :

يطلق القرآن لفظ التوراة على ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى (ع) ، ويطلق لفظ الانجيل على الوحي الذي أنزله على عيسى (ع) . ولكن القرآن قد بيّن وسجّل ان التوراة والانجيل اللذين يعترف بهما هما غير التوراة والانجيل الموجودين الآن عند اليهود والنصارى ، قال تعالى في الآية ٤٥ من سورة النساء : « من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه » . وقال في الآية ١٤ من سورة المائدة : « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذُكّروا به » . وفي الآية ١٥ من السورة المذكورة : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب » .

والمبشرون المسيحيون أعرف الناس بهذه الحقيقة ، ومع ذلك يدلسون ويوهمون العوام بأن القرآن يعترف بالتوراة والانجيل اللذين لعبت بهما يد التحريف .. ان القرآن بكامله هو كلام واحد ، وجملة واحدة ، لا يجوز الايمان ببعضه،والكفر ببعضه الآخر .

والتوراة كلمة عبرانية ، ومعناها الشريعة ، وتطلق عند أهل الكتاب على خمسة أسفار : الأول سفر التكوين ، وفيه الكلام عن بدء الخليقة ، وأخبار الأنبياء ، الثاني سفر الخروج ، وفيه تاريخ بني اسرائيل وقصة موسى ، الثالث سفر التثنية ، وفيه أحكام الشريعة اليهودية ، الرابع سفر اللاويين ، واللاويون هم نسل لاوي أحد أبناء يعقوب،وفيه العبادات والمحرمات من الطيور والحيوانات، الخامس سفر العدد ، وفيه احصاء لقبائل بني اسرائيل وجيوشهم، وهذه الأسفار الخمسة هي من مجموعة أسفار بلغ تسعة وثلاثين سفراً ، ويطلق النصارى عليها اسم العهد القديم .

أما الإنجيل فكلمة يونانية الأصل،ومعناها البشارة ، والأناجيل عند المسيحين أربعة : الأول انجيل متى ، ويرجع تاريخ تأليفه إلى حوالي سنة ٦٠ بعد الميلاد، وقد ألف باللهجة الآرامية . الثاني انجيل مرقص ، وألفه باللغة اليونانية حوالي سنة ٦٣ أو ٦٥ ، الثالث انجيل لوقا ، ألفه باللغة اليونانية بتاريخ انجيل مرقص، الرابع انجيل يوحنا ، ألفه باللغة اليونانية حوالي سنة ٩٠ بعد الميلاد .

وقد استقر رأي المسيحين في أوائل القرن الخامس الميلادي على اعتماد سبعة وعشرين سفراً من أسفارهم ، وقالوا : انها موحى بها لأصحابها من الرب ، ولكن بمعانيها لا بألفاظها ، وأطلقوا عليها اسم العهد الجديد ، للمقابلة بينها ، وبين ما اعتمد من أسفار اليهود المقدسة التي أطلقوا عليها اسم العهد القديم . فالقديم يرجع إلى عهد موسى ، والجديد الى عهد عيسى ، ومعنى العهد الميثاق[1]. ومر ما يتصل بهذا الموضوع عند تفسير الآية ٣ من سورة البقرة فقرة « يؤمنون بما أنزل اليك » .

(وأنزل الفرقان) . الفرقان مصدر فرق ، وهو ما يفرق بين الحق والباطل،

---

١ تلخيص من كتاب « الاسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام » لعلي عبد الواحد وافي .

وقد اختلفوا في المراد منه : هل هو العقل ، أو الزبور ، أو القرآن ، أو كل دلالة فاصلة بين الحق والباطل ، واختار الشيخ محمد عبده العقل ، وصاحب مجمع البيان القرآن . ولفظ الآية يحتمل المعنيين .

(ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ان الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) . قال المفسرون : ان ستين رجلاً من نصارى نجران اليمن وفدوا على رسول الله السنة التاسعة للهجرة ، وهي السنة المعروفة بعام الوفود ، حيث توافد فيه الناس على النبي (ص) من شتى بقاع الجزيرة العربية يخطبون وده بعد أن نصره الله على أعداء الاسلام[1] واحتج وفد نجران لعقيدة النصارى بالتثليث وألوهية عيسى ، احتج بأن عيسى ولد من غير أب ، وبما جرى على يديه من المعجزات التي اعترف بها القرآن .

وقال المفسرون أيضاً : ان سورة آل عمران من أولها إلى نحو ثمانين آية نزلت في نصارى نجران ، والرد عليهم ، فبدأ الله سبحانه بذكر التوحيد نفياً للتثليث، ثم ذكر القرآن والتوراة والانجيل ، لأن هذه الكتب الثلاثة تنزه الله عن الولد ، والحلول أو الاتحاد ، وتنفي عن عيسى طبيعة الالوهية ، ثم ذكر سبحانه: (ان الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) للرد على قول النصارى بأن عيسى كان يعلم الغيب .

ثم ذكر جل وعلا انه (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) . ذكر سبحانه هذا ليبطل به قول النصارى بأن عيسى إله لأنه من غير أب ، ووجه البطلان ان الإله لا يُخلق ويوجد في الأرحام ، وإنما الإله هو الخالق المصور للمخلوق في رحم أمه ، فان شاء خلقه وصوره بواسطة الأب ، وان شاء خلقه بغير هذه الواسطة حسبما تستدعيه حكمته القدسية .

وخلاصة القول ان الإخبار ببعض المغيبات ، وإحياء بعض الأموات ،والولادة بلا أب لا يدل شيء منها على ان عيسى إله ، لأن الإله هو الذي يعلم جميع المغيبات ، لا بعضها ، والذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ،

---

[1] التفصيل عند تفسير الآية ٦١ المعروفة بآية المباهلة . فإلى هناك .

والذي يحيي جميع الأموات ، دون استثناء ، والذي يقدر على كل شيء ، حتى على الخلق من غير أب ، وايجاد الشيء من لا شيء .. وبديهة ان عيسى لم يكن يعلم جميع المغيبات ، ولا يقدر على إحياء جميع الأموات ، ولم يخلق أحداً في رحم أمه بواسطة الأب أو بلا أب، بل العكس هو الصحيح فإنه هو الذي خُلق في الرحم .

المحكم والمتشابه الآية ٧ – ٩ :

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ★ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ★ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ★

اللغة :

أحكم الأمر إذا اتقنه ، والمراد بالمحكم هنا اللفظ الواضح الذي لا يحتاج إلى تفسير ، والمتشابه ما يحتاج إلى التفسير ، والزيغ مطلق الميل ، والمقصود به هنا الميل عن الحق ، والتأويل من آل إلى كذا ، والمراد به هنا التفسير ، والرسوخ الثبوت .

الإعراب :

منه متعلق بمحذوف خـبر مقدم ، وآيات مبتدأ مؤخر ، ومحكمات صفة ، وهن أم الكتاب مبتدأ وخبر ، وآخر صفة لآيات محذوفة ، وابتغاء مفعول من أجله ليتبعون ، وليوم اللام بمعنى في ، وربنا منادى ، أي يا ربنا .

المعنى :

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات).
تنقسم آيات القرآن بالنظر الى الوضوح والخفاء إلى نوعين : محكم ومتشابه :

والمحكم هو الذي لا يحتاج إلى تفسير ، ويدل على المعنى المقصود منـه دلالة واضحة قطعية لا تحتمل تأويلاً ولا تخصصاً ولا نسخاً ، ولا تترك مجـالاً للذين في قلوبهم مرض أن يضللوا ويفتنوا بالتأويل والتحريف .. ومن أمثلة المحكم قوله تعالى : قل هو الله أحد .. والله بكل شيء عليم .. ولا يظلم مثقال ذرة .. ان الله لا يأمر بالفحشاء .. وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وما إلى ذلك مما يستوي في فهمه العالم والجاهل .

والمتشابه ضد المحكم ، وهو على أنواع :

« منها » : ما يعرف معناه على سبيل الاجمال دون التفصيل ، مثل قوله تعالى: ونفخنا فيها من روحنا .. فان منتهى معرفتنا بالروح انها سر إلهي يحدث للانسان بسببه الادراك والشعور ، أما معرفة هذا السر بكهنه وحقيقته فهو من أمر ربي لا يعرفه،حتى العلماء ، وليس الشرط لصحة الخطاب بالشيء أن يعرفه المخاطب بالتفصيل ، بل تكفي المعرفة الاجمالية .

و « منها » : أن يدل اللفظ على شيء يأباه العقل ، مثل ثم استوى عـلى العرش .. فلفظ العرش يدل على السرير ، والعقل يرفض هـذه الدلالة ، لأن الله سبحانه فوق الزمان والمكان ، فيتعين التأويل ، وهو من اختصاص أهل العلم، إذ لا بد للتأويل من دليل صحيح بصرف اللفظ الى معنى صحيح ، ولا يعرف هذين إلا أهل الاختصاص .

و « منها » : أن يتردد اللفظ بين معنيين أو أكثر ، مثل قوله تعالى : والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء،حيث يطلق القرء على الطهر والحيض معاً .

و « منها » أن يكون اللفظ عاماً يشمل بظاهره جميع المكلفين ، ولكن المراد منه بعض أفراده ، لا جميعها ، مثل قوله تعالى : والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما .. مع العلم بأن السارق لا يُقطع إذا كان أباً لصاحب المال ، ولا في سنة المجاعة ، ولا إذا كان المسروق في غير حرز ، أو كان دون ربع دينار .

و « منها » : الحكم المنسوخ،كالصلاة الى بيت المقدس ، حيث دل الدليل على ثبوت هذه القبلة واستمرار حكمها في بدء الدعوة ، ثم جاء دليل الناسخ ، وحوّلها إلى الكعبة .

وليس من شرط المتشابه ان لا تُرجى معرفته اطلاقاً ، حتى للعلماء ، وبشتى أنواعه .. كلا ، فان جميع أنواع المتشابه — ما عدا النوع الأول — يمكن لعلماء الأصول العارفين بطرق التأويل ، وأحكام الخاص والعام،والناسخ والمنسوخ، والترجيح بين المتعارضين — ان يستخرجوا الخاص من العام ، ويميزوا بين الناسخ والمنسوخ ، والراجح والمرجوح ، والمعنى المعقول الذي أوّلت به الدلالة اللفظية بعد أن رفضها العقل .. وعلى هذا يكون المتشابه بالنسبة إلى العالم واضحاً،ولكن بعد البحث والاستقصاء ، وعملية الموازنة والمقارنة بين المتشابه ، وبين ما يتصل به من القرائن والدلائل .. أجل ، يبقى المتشابه على أشكاله بالنسبة إلى الجاهل الذي لا يجوز له أن يُؤوّل ، أو يأخذ بظاهر يقبل التخصيص أو النسخ .

وخلاصة القول ان العلماء يعلمون معاني القرآن ، وهو بلاغ مبين بالنسبة اليهم ؛ إذ لا يجوز بحال أن ينزل الله كلاماً لا معنى له ، أو لا يفهمه أحد ، حتى العلماء .. كيف ؟ وقد أمر الله بتدبر القرآن ، ولا يكون التدبر والتعقل إلا للمعقول .. والذي لا يُفهم لا يمكن تدبره وتعقله .

وتسأل : ان الله قد وصف كتابه العزيز بأن آياته كلها محكمة ، قال عز من قائل في الآية ١ من سورة هود : « كتاب أحكمت آياته » .. وأيضاً وصف كتابه بأن آياته كلها متشابهة ، قال في الآية ٢٣ الزمر : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً » .. وأيضاً وصف كتابه بأن بعض آياته محكمة ،

وبعضها متشابهة،قال فى الآية التي نحن بصددها : « هو الذي نزل اليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » .. فما هو طريق الجمع بين هذه الآيات ؟.

الجواب : ان المراد بقوله تعالى : (أحكمت آياته) أنها أحكمت في النظم والاتقان ، وانها جميعاً فصيحة اللفظ ، صحيحة المعنى،والمراد بقوله : (كتاباً متشابهاً) ان بعضه يشبه بعضاً في البلاغة والهداية ، قال أمير المؤمنين : القرآن ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض ، والمـــراد بقوله : (منه آيات محكمات .. وأخر متشابهات) ان بعضها واضح المعنى لا يحتاج إلى تفسير،وبعضها غامض يحتاج فهمه إلى تفسير ، والتفسير يحتاج إلى المعرفة والعلم بالصناعة ، كما أشرنا .. فلا تهافت بين الآيات الثلاث بعد اختلاف الجهـــة ، فهي أشبه بقول القائل : احب السفر ، ولا أحب السفر ، ثم أوضح مراده بقوله : أحب السفر براً ، ولا أحبه بحراً ، قال بعض الصوفية مخاطباً ربه :

يا من أراه ولا يراني   يا من يراني ولا أراه

يريد أرى الله مفضلاً عليّ ، ولا يراني مطيعاً له ، ويراني عاصياً،ولا أراه معاقباً .

سؤال ثانٍ : ما هو المراد من الأم في قوله تعالى : هن أم الكتاب ؟.

الجواب : بعد أن أوضح سبحانه ان في كتابه آيات متشابهات لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم قال : ولكن الآيات الـــتي وردت في أصول العقيدة ، كالايمان بالله ونفي الشريك عنه ، وكالايمان بنبوة محمد (ص) واليوم الآخر ، ان هذه الآيات واضحة المعنى بيّنة القصد ، لا التباس فيها ولا غموض ، ولا مجال فيها للتأويـــل ، أو التخصيص ، أو النسخ ، ويستوي في فهمهـــا العالِم والجاهل ، وهـي في نفس الوقت الأصل والأساس في كتـــاب الله ، لأنها في العقيدة ، وما عداها يتفرع عنها ، ويرجع اليها .

وعلى هذا فلا وجه ، ولا مبرر لوفد نجران اليمن وغـيره أن يطلب الآيات المتشابهة ، مثل الآية التي وصفت عيسى بأنه روح الله ، ويتجاهل تلك الآيات

الواضحة التي نفت الربوبية عن عيسى ، لا مبرر لمن يتجاهل المحكم ، ويطلب المتشابه إلا مرض القلب ، والقصد الفاسد .

سؤال ثالث : لماذا قال : هن أم الكتاب ، ولم يقل أمهات الكتاب ؟

الجواب : انه أفرد الأم لبيان ان الآيات المحكمات بمجموعها هي ام الكتاب وأصله ، وليست كل آية بمفردها اماً ، ومثله قوله تعالى : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) ولم يقل آيتين ، لأن كلاً منهما جزء متمم للآية ، فهي لا تكون آية إلا به ، وهو لا يكون آية إلا بها .

(فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله). معنى الزيغ هنا الميل والانحراف عن الحق ، وابتغاء الفتنة اشارة إلى أن أصحاب المقاصد الفاسدة يطلبون المتشابه ويؤلونه تأويلاً باطلاً ليفسدوا القلوب ، ويفتنوا الناس عن دين الحق ، ويستشهدوا بمثل قوله تعالى : ونفخنا فيها من روحنا على أن المسيح من جنس الله ، لأن كلاً منهما روح ، ويتجاهلون الآيات المحكمة الواضحة ، مثل قوله تعالى : لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم – المائدة ١٦ . وقوله: ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . وأمه صديقة – المائدة ٧٤ ، وقوله : ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون – آل عمران ٥٩ .. بالإضافة إلى أن الله سبحانه نفخ في آدم من روحه ، حيث قال عز من قائل : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي – الحجر ٢٩ » . فينبغي أن يكون آدم على زعمهم إلهاً، والفرق تحكم .

جاء في مجمع البيان ان أوائل سورة آل عمران الى نيف وثمانين آية نزلت بوفد نجران ، وكانوا ستين راكباً قدموا على رسول الله (ص) بالمدينة ، وحين حانت صلاتهم أقبلوا يضربون بالناقوس ، وقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ، فقال الأصحاب : يا رسول الله هذا في مسجدك ؟ فقال : دعوهم ، فصلّوا إلى المشرق .. وبعد أن انتهوا من الصلاة قال النبي (ص) للسيد والعاقب ، وهما رئيسا الوفد : أسلما قالا له : قد اسلمنا قبلك . قال : كذبتما ، يمنعكم من الإسلام الزعم بأن لله ولداً ، وعبادة الصليب ، وأكل لحم الخنزير .

قالا : ان لم يكن عيسى ابن الله فمن أبوه ؟ قال : ألا تعلمون ان الولد

يشبه أباه ؟ قالوا : بلى . قال : ألا تعلمون ان الله حي لا يموت، وان عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى . قال : ألا تعلمون ان الله قيم على كل شيء؟ قالوا : بلى . قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : ألا تعلمون ان الله لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ؟ قالوا : بلى . قال : ألا تعلمون ان عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم أرضعته ، وغـذي كما يغذى الصبي ، وانه كان يأكل ويشرب ويُحدث ؟ قالوا : بلى . قال : فكيف يكون رباً ؟ فسكتوا عجزاً وإفحاماً ، فأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية .

(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) . قال بعض الناس ، يجب الوقوف عند لفظ الجلالة . أما الراسخون في العلم فكلام مستأنف ، والمعنى ان الله قد استأثر وحده بعلم المتشابه دون العلماء الراسخين في العلم ..

ويلاحظ على هـذا القول بأن الله سبحانه حكيم لا يخاطب الناس بأشياء لا يفهمونها ، ولا يريد أن يفهموها .. كما سبق بيانـه .. والصحيح ان الراسخين في العلم معطوف على لفظ الجلالة ، وان المعنى يعلم تأويل المتشابه الله والراسخون في العلم ، قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : ذاك القرآن الصـامت ، وأنا القرآن الناطق ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين في العلم ، أنا أعلم تأويله.. ونجمل الاشارة إلى أن العالم الحق هو الذي يحجم عن القول من غير علم ، بل من الرسوخ في العلم الاحجام عن القول من غير علم ، وفي الحديث : الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات .

وتسأل : لماذا جعل الله سبحانه بعض آيات القرآن محكمة يفهمها الجميع ، وبعضها متشابهة لا يفهمها إلا الراسخون في العلم ، ولم يجعلها واضحة بكاملها ، يستوي في فهمها العالِم والجاهل ؟.

وأجيب عن هذا السؤال بأجوبة عديدة ، أرجحها ان دعوة القرآن موجهـة إلى العالم والجاهل ، والذكي والبليد ، وان من المعاني ما هو معروف ومألوف للجميع ، ولا تحتاج معرفته إلى علم ودراسة ، فيُكشف عنه بعبـارة واضحـة يفهمها كل مخاطب ، ومنها ما هو عميق ودقيق لا يُفهم إلا بعد الدرس والعلم،

ولا يمكن فهمه من غير مؤهلات لذلك مهما كان التعبير ، وهذه حقيقة يعرفها كل انسان .. فالواقع – إذن – هو الذي يحتم أن تكون بعض الآيات ظاهرة المعنى ، دون بعض .. بالاضافة الى أن الحكمة تستدعي أحياناً الابهام ، كقوله تعالى ، على لسان نبيه في الآية ٢٤ من سورة سبأ : « وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » .

(يقولون آمنا به كل من عند ربنا) . هذا كلام مستأنف ، والمعنى ان العالم المؤمن حقاً يقول : ان كلاً من المحكم والمتشابه وحي من الله .. ومن تجاهل المحكم ، وتشبث بالمتشابه ابتغاء الدس والفتنة فهو فاسد القصد ، مريض القلب .

(وما يذكّر إلا أولو الألباب) الذين يدركون الحكمة من وجود المحكم والمتشابه في القرآن ، ولا يتخذون من المتشابه وسيلة للتمويه والتضليل ، شأن من يحاول الطعن في الاسلام .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) . دعاء يدعو به كل عالم مخلص خشية أن يقع في الخطأ ، ويقصر في البحث عن الصواب .

لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم الآية ١٠ – ١٣ :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَأُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ★ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ★ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ★ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ

مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلْأَبْصَارِ★

اللغة :

الوقود بفتح الواو حطب النار ؛ والدأب العادة ، والمهاد الفراش ، والآية العلامة ، والعبرة مأخوذة من العبور من جانب الى جانب ، والمراد بها هنا العظة، لأنها تنتقل بالانسان من الجهالة إلى التدبر .

الإعراب :

شيئاً مفعول مطلق ، لأن المراد به هنا شيء من الاغناء ، وكدأب متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير دأبهم كدأب آل فرعون ، فئة مرفوع بالابتداء ، والخبر محذوف ، أي من الفئتين فئة ، ويجوز الجر على انها بدل بعض من فئتين ؛ والنصب على الحال ، ورأي العين مفعول مطلق ليرونهم .

المعنى :

(ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم وأولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار) . من يتتبع آي الذكر الحكيم ، وحديثه عن الأثرياء وأرباب المال يرى انه قد وصفهم بأقبح الأوصاف والرذائل ، منها الطغيان ، كما جاء في الآية ٦ من سورة العلق : « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » ومنها الغرور والجحود : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة – الكهف ٣٦ . ومنها الطمع وطلب المزيد : « وجعلت له مالاً ممدوداً – إلى قوله – ثم يطمع ان أزيد – المدثر ١٥ .

ومنها التوهم الباطل بأن الأموال تصونهم من عذاب الله وعقابه : « وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » ٣٥ سبأ .

ودفع الله سبحانه هذا التوهم بأن الأموال والأولاد لا يغنيان صاحبها شيئاً ، بل ان الأموال تجعل صاحبها غداً وقوداً للنار ، تماماً كالحطب والخشب ، وقد يظن أهل الباطل ان لهم من أموالهم وأولادهم حماية ووقاية في هذه الحياة ، حتى إذا وقفوا مع أهل الحق وجهاً لوجه في ساحة القتال والجهاد استبان لهم عجزهم وضعفهم ، لأن الله يؤيد الصادقين بنصره ، ويذل من هو مسرف كذاب .

أرباب المال :

ما عرف التاريخ أسوأ وأفدح وأعظم من اسواء أرباب المال والثروات المكدسة في هذا العصر .. انهم يثيرون الفتن والحروب ويدبرون المكائد والمصائد ضد كل حركة تحررية في أي طرف من أطراف العالم .. فيبثون كتائب العملاء، ووحدات الأساطيل ، وجواسيس المخابرات في كل بقعة من بقاع الأرض ، ليحوّلوا العالم بكامله إلى شركة مساهمة يملكها أصحاب الملايين .. انهم لا يؤمنون بالله ، ولا بالانسانية ، ولا بشيء إلا بالأسهم ، تدفع الشعوب أرباحها من خبزها ودمائها ومستقبلها ، ويستغلون دولهم لاشاعة الرعب والتخويف والضغط الاقتصادي والسياسي على الضعفاء ، ويعملون بكل سبيل لتجزئة البلد الواحد ، وتفتيت الوحدة الوطنية ، ليخضع الجميع لاستثماراتهم واحتكاراتهم .. ومن أجل هذا حرّم الإسلام الاحتكار ، والثراء غير المشروع ، واستخدام القوة والضغط على الضعفاء ، وهدد الذين يكنزون الأموال ولا ينفقونها في سبيل الله،ووصفهم بالطغاة العتاة .

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذّبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) . أي ان كثرة المال والولد ليست سبباً للفوز والنجاة ، فكثيراً ما تغلّب الفقراء على الأغنياء ، والقلة على الكثرة ، والتاريخ مملوء بالشواهد على هذه الحقيقة .. فلقد كان لفرعون وقومه الجاه والسلطان ، والمال

والعدة والعدد ، ومع ذلك خذلهم الله ، ونصر موسى وقومه ، ولا مال لهم ولا عدة ولا عدد ، كما نصر من قبل نوحاً على قومه ، وابراهيم على النمرود، وهوداً على عاد ، وصالحاً على ثمود .. فالكثرة والثروة – اذن – ليستا بضمان ولا أمان ، وعليه فالذين كذبوا محمداً (ص) معرّضون لنفس المصير .

(قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) . جاء في مجمع البيان ان الله سبحانه لما نصر نبيّه ببدر قدم المدينة ، وجمع اليهود، وقال لهم : احذروا من الله أن يصيبكم ما أصاب قريشاً ببدر ، وأسلموا .. فقالوا : لا يغرنك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، ولو قاتلناك لعرفت أنّا نحن الناس ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية . وقد صدق الله وعده ، فقتل المسلمون بني قريظة الخائنين ، وأجلوا بني النضير المنافقين ، وفتحوا خيبر ، وضربوا الجزية على من عداهم من اليهود .

(قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار). وعظ الله بهذه الآية اليهود والنصارى والمسلمين وأولي الأبصار أجمعين، وعظهم بوقعة بدر ، حيث التقى حزب الرحمن ، وهم محمد وأصحابه ، مع حزب الشيطان ، وهم أبو سفيان وأذنابه ، ومكان العظة في هذه الواقعة ان حزب الشيطان كانوا أكثر من ألف مدججين بالسلاح الكافي الوافي ، وكان حزب الرحمن بمقدار ثلثهم عدداً ، لا يملكون من العدة إلا فرسين ، وسبعة أدرع ، وثمانية سيوف،ومع ذلك كتب الله النصر للفئة القليلة على الفئة الكثيرة، وأرى الله المشركين ان المسلمين مثليهم مع قلة عددهم ، وهذه الآية نظير الآية ٤٤ من سورة الأنفال : « واذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً والى الله ترجع الأمور » . وأمر الله سبحانه هو أن يتخاذل المشركون ، ويهابوا المسلمين ، وينصرهم الله على أعدائه.

وبهذه المناسبة نذكر نصيحة الإمام علي (ع) للخليفة الثاني حين استشاره في غزو الروم بنفسه ، قال الإمام :

« الذي نصر المسلمين ، وهم قليل لا ينتصرون ، ومنعهم ، وهم قليل لا

يمتنعون حي لا يموت ، انك متى تسر الى هذا العدو بنفسك ، فتلقهم بشخصك فتُنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم،ليس بعدك مرجع يرجعون اليه ، فابعث اليهم رجلاً مجرباً ، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة ، فان أظهر الله فذاك ما تحب ، وان تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ، ومثابة للمسلمين».

حب الشهوات الآية ١٤ :

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلْمَآبِ★

المعنى :

زين مبني للمجهول ، وقد اختلف المفسرون في فاعل التزيين من هو؟ فنهم من قال : انه الله . وقال آخرون : بل هو الشيطان . والصحيح ان الله سبحانه أنشأ الانسان على طبيعة تميل إلى اللذائذ والرغبات .. والشيطان يوسوس ويُحسّن للانسان الأعمال القبيحة ، ويقبّح له الأعمال الحسنة ، وحب النساء والبنين والمال ليس قبيحاً في ذاته ، والله سبحانه لم يحرّم شيئاً من هذه الأنواع الستة ، ولم يرد بهذه الآية التنفير منها .. كيف ؟ وهو القائل : قل أحل لكم الطيبات .. قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق .. وقال الرسول الأعظم (ص) : أُحب من دنياكم ثلاثاً : الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة ؟!.

والمراد بالشهوات هنا الأشياء المرغوب فيها التي يشتهيها الانسان ، ويشعر بالغبطة والسعادة إذا حصل عليها ، كما يريد .

وتسأل : ان الشهوة تتضمن معنى الحب ، كما ان الحب يتضمن معنى الشهوة ، وعليه يكون معنى الآية ان الناس يحبون الحب ، ويشتهون الشهوة .. ومثل هذا ليس بمستقيم ، وكلام الله يجب أن يحمل على أحسن المحامل ؟.

الجواب : ان حب الانسان للشيء على نوعين : الأول أن يحبه ، ولا يحب ان يحبه ، أي انه يود من أعماق نفسه لو انقلب حبه لهذا الشيء كرهاً وبغضاً، كمن اعتاد على مشروب ضار ، وهذا يوشك أن يرجع عن حبه يوماً ..

النوع الثاني : ان يحب الشيء ، وهو راضٍ ، ومغتبط بهذا الحب ، كمن اعتاد على فعل الخير ، قال تعالى حكاية عن سليمان : « اني أحببت حب الخير – ٣٢ صاد » . وهذا أقصى درجات الحب ، وصاحبه لا يكاد يرجع عنه.

والقناطير المقنطرة كناية عن الكثرة ، وفي الحديث : لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوفه إلا التراب .. اما الخيل المسومة فقيل : هي الراعية من السوم . وقيل : المعلّمة بالزينات . والأرجح انها المطهمة الحسان . وبديهة ان زمن الخيل قد ولّى ، وجاء زمن السيارة والطيارة .. والمراد بالانعام الإبل والبقر والغنم .. وهذه أيضاً قد ذهب التكاثر والتفاخر بها، وجاء زمن المصانع وناطحات السحاب .. والحرث الزرع على اختلاف أنواعه .

وحب الثلاثة : النساء والبنين والأموال لا يختص بعصر دون عصر ، بل هي شهوة كل النفوس في كل عصر ، أما حب الخيل والانعام والحرث فقد خصها الله بالذكر لأنها كانت مثلاً أعلى للرغائب في ذاك العصر .

وقد أطال كثير من المفسرين ، ومنهم الرازي وصاحب المنار ، أطالوا في ذكر ما لكل واحد من الأنواع الستة من اللذة والمتعة .. ولكنهم أتوا بالبديهيات التي يعرفها ويحسها الجميع ، لذا لم نشغل أنفسنا والقارىء بها .. ورأينا من الأفضل ان نتكلم عن السعادة في الفقرة التالية .

السعادة :

يرى بعض المؤلفين ان السعادة تتم للانسان إذا توافرت له هذه الأركان

الأربعة : الصحة ، والزوجة الملائمة ، والمال الذي يسد الحاجة ، والجاه الذي يحفظ الكرامة .. وأحسب ان صاحب هذا الرأي قد نظر الى السعادة من خلال نفسه وحاجته ، لا من خلال الواقع .. وإلا فأين الشعور بمشاكل العالم ، وآلام الناس ؟. وأين الخوف من الوقوع في الأخطاء ، ومن سوء العاقبة والمصير ؟. وأين حملات الكذب والتشهير ؟. إلى ما لا نهاية من الهموم التي تتكدس وتتراكم على القلب .

والحق ان السعادة المطلقة في كل شيء وسائر الأحوال لم تتحقق لانسان .. وأحسب انها لن تتحقق إلا في غير هذه الحياة .. أما السعادة نسبياً وآنياً فقد مرت بكل انسان ، ولو في عهد طفولته .. ومن المفيد أن نوضح السعادة النسبية بالبيان التالي :

ان للاستمتاع بالحياة مظاهر شتى ، منها التمتع بالربيع والأشجار، والشلالات والأنهار ، ومنها تذوق الشعر والفن،ومنها الاطمئنان والخلود الى الزوجة والصديق، ومنها التلذذ بالحديث والمطالعة ، إلى غير ذلك من المتع واللذائذ الروحية .

ومن مظاهر المتع المادية النساء والمال والبنون ، أما الخيل والانعام والحرث فتدخل في المال ، لأنها من جملة أقسامه وأفراده ، تماماً كالذهب والفضة ، ولكن هذه اللذائذ والرغائب بشتى مظاهرها لا تحقق السعادة المطلقة للانسان ، لأن الدنيا لا تصفو لأحد من جميع الجهات .. فان كان في يسر من العيش شكا الأمراض والاسقام ، وان جمع بين الصحة والثراء شكا من بيته أو أرحامه؛ قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : « وان جانب منها اعذوذب واحلولى أمرّ منها جانب فأوبى ، لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً إلا أرهقته من نوائبها تعباً » .

أما السعادة النسبية ، أي في حال دون حال ، فلا يخلو منها إنسان . وخير مثال يوضح هذه السعادة ما قرأته في بعض الكتب ، قال صاحب الكتاب : « خرجت عائلة الى النزهة ، فيها نساء وأطفال ، وعم وخال ، وأب وجد .. ولما بلغوا جميعاً المتنزه تقلب طفل على العشب ، ونضد آخر عقوداً من الأقحوان، وصنعت الأم شطيرة وسندويش ، ونهش العم تفاحة ذات ماء ، وأدار الخال اسطوانة على الحاكي ، وتمدد الأب على الثرى ، يتطلع إلى قطيع من الغنم ،

واستغرق الجد في تدخين غليونه » .

ان كل واحد من هؤلاء استشعر الغبطة من نفسه ، ولكن في هذا الحال ، لا في سائر الأحوال ، لأن الحكمة الإلهية قضت أن لا توجد هـذه السعادة إلا في الحياة الآخرة .. ولأجل هـذا قال عز من قائل بعد ذكر النساء والبنين والأموال : « قل اؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار » .

ورأيت رواية عن الإمام جعفر الصادق (ع) تعتبر التوفيق الإلهي ركناً من الأركان الأساسية للسعادة ، وقد أدركت هذه الحقيقة بالحس والتجربة .

اؤنبئكم بخير من ذلكم الآية ١٥ ـ ١٧ :

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ★ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ★ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ★

الإعراب :

اؤنبئكم الهمزة للاستفهام ، والشيء المستفهم عنه ينتهي عند قوله تعالى (عند ربهم) وجنّات كلام مستأنف ، كأنه قيل : ما هو ذاك الخير ؟. فقيـل : هو جنات ، فجنات خبر مبتدأ محذوف ، والذين يقولون ربنا محـل نصب على

المدح ، أي أعني أو امدح الذين الخ ، ومثله الصابرين ، وبقية الصفات معطوفة على الصابرين .

المعنى :

(قل اؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) . ذكر سبحانه أولاً حب الناس للنساء والمال والبنين ، ثم نعت هذه الأشياء وما اليها بمتاع الحياة الدنيا ، والدنيا بما فيها الى زوال ، ثم بيّن ان الله عنده حسن المآب ، أي ان الانسان بعد رجوعه إلى ربه يجد عنده خيراً من النساء والمال والبنين ، ومن الدنيا كلها ، ثم فصّل في هذه الآية،وهي : قل اؤنبئكم الخ ما أجمله في الآية السابقة ، وهو قوله : « والله عنده حسن المآب » .

(جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) . هذه الثلاثة هي خير من النساء والمال والبنين ، وهي حسن المآب: الأول منها جنات لا تزول كالحرث والخيل والانعام ، الثاني : أزواج مطهرة من الحيض والأحداث والأخباث ، ومن كل ما تنفر النفوس منه ، الثالث : رضوان الله ، وهو أكبر وأعظم من الدنيا والآخرة مجتمعتين ، كل ذلك جعله الله جزاء لمن خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى .

(الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار) الصابر هو الذي يكافح ويناضل متكلاً على الله ، ويرضى بنتيجة كفاحه مهما تكن،والصادق هو الذي يؤثر الصدق ، حيث يضره على الكذب ، حيث ينفعه ، والقانت هو العابد المطيع ، والمنفق هو الذي ينفق أمواله على نفسه وعياله ، وفي سبيل الله، والسحَر هو الوقت الذي قبل الفجر ، وهو خير الأوقات كلها للعبادة والدعاء ، كما جاء في الحديث ، لأنه أبعد عن شبهة الرياء ، ولأنه الوقت الذي يطيب فيه النوم ، ويشق القيام ، وأفضل الأعمال أشقها وأحمزها ، مع العلم بأن خدمة الانسان أفضل من عامة الصلاة والصيام .

ثمرة الإيمان :

وهذه الأوصاف الخمسة ، أي الصبر والصدق والقنوت والانفاق والاستغفار هي ثمرة لأصول الدين الثلاثة ، وأعني بها الإيمان بالله الواحد الأحد ، ونبوة محمد (ص) وباليوم الآخر . ان هذه الأصول ليست مجرد شعار ديني يرفعه الإسلام ، ويكتفي به ، بل لها ثمرات وحقائق يجمعها الخلق الكريم ، والعمل النافع في الحياة ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم – ٢٣ الأنفال » . ان كل أصل من أصول الاسلام ، وكل فرع من فروعه يقوم على هذا المبدأ ، مبدأ ربط الدين بالعمل من أجل الحياة: « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون – ٩٢ الحجر » . « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله المجاهدين منكم ويعلم الصابرين –١٤٢ آل عمران ».

وتواتر في الحديث ان أفضل أنواع العبادات والطاعات هو العمل لحياة أفضل، وان أكبر الكبائر والمعاصي هو الفساد والعدوان على العباد ، قال الرسول الأعظم (ص) : أقرب ما يكون العبد الى ربه اذا أدخل على قلب أخيه مسرة.. وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) : بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد ، وقال حفيده الإمام الباقر (ع) : ان لله عباداً ميامين يعيشون ويعيش الناس في أكنافهم ، وهم في عباده مثل القَطر ، وان لله عباداً ملاعين يعيشون ولا يعيش الناس في أكنافهم ، وهم في عباده بمنزلة الجراد ، لا يقعون على شيء الا أتوا عليه .

الله والملائكة واولو العلم الآية ١٨ – ٢٠ :

شَهِدَ ٱللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَائِماً بِٱلْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ★ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللهِ ٱلْإِسْلَامُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ

وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللهِ فَإِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ★ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَٱللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ★

اللغة :

شهد الشيء إذا حضره ، وشهد بالشيء إذا أخبر به ، ولكن كثر استعمال كلمة شهد في أداء الشهادة، فانصرفت إلى هذا المعنى وحده، الا مع القرينة، والقسط العدل ، وحاجّوك من الحجاج، ومعناه الجدال .

الاعراب :

قائماً حال من اسم الله ، وبغياً مفعول من أجله لاختلاف ، واتّبعنِ أصلها بالياء ، وحذفت للتخفيف ومن فاعل لفعل محذوف ، والتقدير وأسلم من اتبعني ، ولا يجوز أن تكون مفعولاً معه ، لأن وجهي مفعول به لأسلمت ، فيلزم أن يكون التابع للرسول (ص) شريكاً له في وجهه .

المعنى :

(شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) . شهادة الله لنفسه بالوحدانية عبارة عن أفعاله التي لا يقدر عليها إلا هو ، قال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه

الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد – ٥٣ فصلت » . أما شهادة الملائكة لله بالوحدانية فلأنهم مفطورون على الايمان . والمراد بأولي العلم هنا الأنبياء وجميع العلماء بالله الذين أقامهم مقام الأنبياء في الدعوة اليه سبحانه ، وشهادة العالم تقترن بالحجة التي من شأنها أن تقنع طالب الحقيقة ، والمراد بالقسط في قوله : (قائماً بالقسط) العدل في الدين والشريعة ، وفي سنن الطبيعة ونظامها ، قال تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين – ١٦ الأنبياء » .

وتسأل : ما هو الغرض من تكرار « لا إله إلا هو » في آية واحدة ؟.

الجواب : ان المعروف من طريقة القرآن أن يكرر ويؤكد أصول العقيدة والمبادىء الهامة بخاصة الوحدانية دفعاً لكل شبهة ، وتكلمنا عن التكرار بفقرة مستقلة عند تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة ، وقيل : ان الغرض من قوله أولاً : لا إله إلا هو ان يُعلم انه هو وحده يستحق العبادة ، ومن قوله ثانية : لا إله إلا هو ان يُعلم انه لا أحد يقوم بالعدل سواه .

ان الدين عند الله الاسلام :

وتسأل : ان ظاهر هذه الآية يدل على ان جميع أديان الأنبياء ، حتى دين ابراهيم وغيره من الأنبياء ليست بشيء عند الله الا دين محمد فقط ، مع العلم بأن كل ما جاء به الأنبياء حق وصدق باعتراف محمد (ص) والقرآن ؟.

الجواب : ان هذه الآية تدل تماماً على العكس مما تقول ، فإن ظاهرها ينطق بلسان مبين أن كل دين جاء به نبي من الأنبياء السابقين يتضمن في جوهره الدعوة الاسلامية التي دعا اليها محمد بن عبدالله (ص) . واليك هذه الحقائق الثلاث :

١ – ان الاسلام يرتكز قبل كل شيء على أصول ثلاثة : الايمان بالله ووحدانيته ، والوحي وعصمته ، والبعث وجزائه .. وكلنا يعلم علم اليقين ، ويؤمن ايماناً لا يشوبه ريب بأن الله سبحانه ما أرسل نبياً من الأنبياء الا بهذه الأصول ، لاستحالة تبديلها أو تعديلها ، ولذا قال الرسول الأعظم (ص) : « إنّا معاشر

الأنبياء ديننا واحد » .. وقال : « الأنبيـــاء اخوة لعلات ، أبوهم واحـد ، وامهاتهم شتى . »

٢ – ان لفظ الإسلام يطلق على معانٍ ، منها الخضوع والاستسلام ، ومنها الخلوص والسلامة من الشوائب والأدران ، وليس من شك ان كل دين جاء به نبي من أنبياء الله فهو خالص وسالم من الشوائب ، وعـــلى هذا يصح أن نطلق اسم الإسلام على دين الأنبياء جميعاً .

٣ – ان مصدر القرآن واحد لا اختلاف بين آياته كثيراً ولا قليلاً ، بـل ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض – كما قـــال الإمام علي (ع) – فإذا وردت فيه آيـــة في مسألة من المسائل ، أو موضوع من الموضوعات فلا يجوز أن ننظر اليها مستقلة ، بل يجب أن نتتبع كل آية لها صلة بتلك المسألة ، وذاك الموضوع ، ونجمعها جميعاً في كلام واحد ، معطوفاً بعضها على بعض ، ثم نستخرج معنى واحداً من الآيات المتشابكة،مجتمعة لا متفرقة[1] .

وإذا نظرنا الى الآيات المشتملة على لفظ الاسلام في ضوء هذه الحقائق نجـــد أن الله سبحانه قد وصف جميع الأنبياء بالإسلام في العديد من الآيات ، وبذلك نعلم ان الحصر في قوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » هو حصر لجميع الأديان الحقة بالاسلام ، لا حصر للاسلام بدين دون دين من الأديان التي جاء بهـــا الأنبياء من عند الله .. والسر في ذلك ما أشرنا اليه من أن جميع أديان الأنبياء تتضمن الدعوة الاسلامية في حقيقتها وجوهرها،عنيت الإيمان بالله والوحي والبعث .. والتنوع والاختـــلاف انما هو في الفروع والأحكام ، لا في أصول العقيدة والإيمان .

وتعال معي الآن لنقرأ الآيات التي وصف بها الله أنبياءه بالإسلام من عهـــد

---

١ وأوضح مثـال على ذلك مـا ذكرناه عند تفسير الآية ٧ من هـذه السورة .. فقد وصف الله سبحانه كتابه بأن جميـع آياته محكمة ، حيث قـال في الآية ١ من سورة هود : « كتاب أحكمت آياتـه » . ووصفه بأن آياته كلهـــا متشابهة في الآية ٢٣ الزمر : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً » ووصف بعض آياته بالمحكمة وبعضها بالمتشابهة بقوله : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخـر متشابهات» – آل عمران ٧ . انظر تفسير هذه الآية لترى وجه الجمع .

نوح (ع) إلى عهد محمد (ص) . قال تعالى في حق نوح : « واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قومِ – إلى قوله – وأمرت أن أكون من المسلمين – يونس ٧٢ » .

وقال تعالى في ابراهيم ويعقوب : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه . ولقد اصطفيناه في الدنيا . وإنه في الآخرة لمن الصالحين . اذ قال له ربه أسلم قال اسلمت لرب العالمين .. ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون – ١٣٣ البقرة » .

وقال عن يوسف : « أنت وليِّي في الدنيا والآخرة توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين – ١٠١ يوسف » .

وقال عن موسى : « وقال موسى لقومه يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين – ٨٤ يونس » .

وقال عن أمة عيسى : « وإذ أوحيت إلى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون – ١١١ المائدة » .

والآية التي هي أصرح من الكل، وتعم الأولين والآخرين من الأنبياء وتابعيهم، وتابعي التابعين قوله تعالى في الآية ٨٥ من سورة آل عمران : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ». وإذا لم يقبل الله إلا من المسلمين، وقد قبل من آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى وجميع النبيّين، والتابعين لهم باحسان فتكون النتيجة الحتمية ان النبيين من عهد آدم ، حتى محمد (ص) والمؤمنين بهم كلهم من المسلمين .

قال الإمام علي (ع) : الاسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل .

(وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم). قيل: المراد بأهل الكتاب هنا اليهود . وقيل : بل النصارى . وقيل : هما معاً ، وهو الصواب ، لأن اللفظ عام ، ولا دليل على التخصيص ، ويؤيد العموم ان الله سبحانه أشار إلى اختلاف النصارى بعضهم مع بعض في الآية ١٤ من سورة المائدة : « ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكّروا به

فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » . وأشار إلى اختلاف اليهود في الآية ٦٤ من السورة المذكورة : « وقالت اليهود يد الله مغلولة — الى قوله — والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » .

ومن الأمور التي اختلف فيها اليهود الحياة بعد الموت .. فبعض فرقهم تقول: لا بعث أبداً لا في هذه الحياة ، ولا في غيرها ، وان عقاب المسيء ، وثواب المحسن يحصلان في هذه الحياة . وتقول فرقة أخرى : ان الصالحين من الأموات يُنشرون في هذه الأرض ثانية ، ليشتركوا في ملك المسيح الذي يــأتي في آخر الزمن ، كما نقل عنهم ، الى غير ذلك من الاختلافات .

أما العقيدة المسيحية فقد تطورت ، واجتازت أكثر من مرحلة قبل أن تستقر على التثليث،فقد كانت في البدء تدعو الى عبادة إله واحد ، ثم انقسم المسيحيون فرقتين : فرقة جنحت الى الشرك ، وفرقة بقيت على التوحيد ، ثم اختلفوا فيما بينهم : هل لعيسى طبيعتان : إلهية ، واخرى ناسوتية ، أو طبيعة إلهية فقط؟ إلى غير ما هو مسطور في كتب تاريخ الأديان ، وقد أدت الاختلافات الدينية المسيحية الى مجازر لا مثيل لفظاعتها في تاريخ الانسانية .

ولم يكن اختلاف كلٍ من اليهود والنصارى فيما بينهم عن جهل بالحقيقة ، فقد جاء اليهود العلم بالبعث والنشر ، كما جاء النصارى العلم بأن عيسى عبد من عباد الله ، ولكنهم اختلفوا لارادة العلو في الأرض بالبغي والفساد .

تفترق أمتي ٧٣ فرقة :

اشتهر عن النبي (ص) انه قال : افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة .

وقد كثر الكلام وطال حول هذا الحديث ، فمن قائل : انه ضعيف لا يعول عليه . وقائل : انه خبر واحد ، وهو ليس بحجة في الموضوعات . وقال ثالث: إن « كلها في النار » من دسائس الملاحدة للتشنيع على المسلمين . ورواه رابع

بلفظ « كلها في الجنة الا الزنادقة » . ونحن على شك من هذا الحديث ، لأن الأصل عدم الأخذ بما ينسب الى الرسول (ص) حتّى يثبت العكس .. ولكن إذا خُيّرنا بين: كلها في النار ، وبين : كلها في الجنة، نختار الجنة على النار .. أولاً انها أقرب الى رحمة الله . ثانياً ان الفرق الإسلاميـــة على أساس الاختلاف في الأصول لا تبلغ ٧٣ ، والاختلاف في الفروع لا يستدعي الدخول في النار، لأن الخطأ فيها مغتفر إذا حصل مع التحفظ ، وبعد الجد والاجتهاد .. وما أبعد ما بين هذا الحديث المنسوب إلى النبي (ص) وقول ابن عربي في كتاب الفتوحات: لا يُعذَّب أحد من أمة محمد (ص) ببركة أهل البيت .. (أنظر تفسير الآية ٣٩ من سورة البقرة ، فقرة أهل البيت) .

(فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) .. كثيراً ما يبتلى العالِم المحق بالمبطل اللجوج .. ولا دواء لهذا الا الإعراض عنه .. ومن خاصم المشاكس المشاغب شاركه في الإثم . قال الإمام علي (ع) : من بالغ في الخصومة أثم .. ومن أجل هذا ، أمر الله نبيه الكريم أن يترك المبطلين المعاندين وشأنهم ، حيث لا مزيد من البينات والبراهين ، « انما عليك وعلينا الحساب » .

(قل للذين اوتوا الكتاب) أي اليهود والنصارى (والأميين) أي مشركي العرب ، ونسبهم الله الى الأمية لجهلهم بالقراءة والكتابة الا النادر (أأسلمتم) بعد ما جاءتكم البينات (فإن أسلموا فقد اهتدوا) . حيث لا شيء وراء الإسلام الا الكفـــر والضلال ، والا الزيغ والباطل (وان تولوا فإنما عليك البلاغ) . وبالبلاغ تنتهي وظيفة الرسول عن الله ، إذ به تم الحجة (والله بصير بالعباد) يعامل كلاً بما هو أهل له .

والذي نستفيده من هذه الآية ان الله سبحانه قد اختار محمداً (ص) لرسالته، وانه قد رسم له منهجاً لتبليغها ، وهو الدعوة بالحجة والبرهان ، مـــع ضبط النفس ، وتجنّب الخصومة مع اللجوج المعاند ، وبهذا الأسلوب الحكيم تم الحجة على من خالف وعاند ، ولم يبق له من عذر يتشبث به ، ويلجأ اليه .. وأولى الناس باتباع الرسول والسير على منهجه هم أهل العلم بدينه وشريعته ، الداعون الى الأخذ بتعاليمه وسننه .

الذين يقتلون النبيين الآية ٢١ - ٢٢ :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ★ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ★

المعنى :

(ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) . وتسأل : ان الشرائع بكاملها السماوية والوضعية تحرم القتل ، بل جميع الناس يرون القاتل مجرماً ، بخاصة إذا كان المعتدى عليه من أهل الخير والصلاح ، وعلى هذا يكون الاخبار بأن القاتل مجرم يستحق العذاب والعقاب أشبه بتوضيح الواضحات ، مع العلم بأن كلام الله يجب أن يحمل على أحسن المحامل ؟

الجواب : ان المقصود بالآية اليهود والنصارى الذين كانوا في عهد النبي (ص) ، ورفضوا الإسلام . وقد أشارت الآية إلى أنه لا غرابة في رفضهم وعنادهم للاسلام.. لأن أسلاف اليهود قتلوا الأنبياء كزكريا ويحيى ، وأسلاف النصارى قتلوا من جاهر بالوحدانية وبشرية المسيح،قتلوهم لا لشيء إلا لأنهم أمروا بالقسط والعدل وعملوا به ، فالآية تقريع وتوبيخ ، كما هي تهديد ووعيد .

سؤال ثان : ان القتل لم يقع من أهل الكتاب الذين كانوا في زمن محمد(ص) فكيف صحت نسبته اليهم ؟.

الجواب : سبق أكثر من مرة ان الأمة في تكافلها تجري مجرى الشخص الواحد ، وان الخلف قد رضي بفعل السلف ، ومن رضي بفعل قوم شاركهم فيه ، وكثيراً ما يضاف صنع الأب الى الابن .

سؤال ثالث : ان قتل الأنبياء لا يكون الا بغير حق ، فما الفائدة من هذا القيد ؟.

الجواب : للاشارة الى أن فظاعة قتل الأنبياء لم تكن لمكانتهم وعظمتهم ، بل لأنه لا مبرر له اطلاقاً .. وبكلمة ان المسألة ليست مسألة أشخاص وفئات ، وانما هي مسألة حق وعدم حق .

(أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) . أما الحبط في الدنيا فلأنهم ملعونون على كل لسان ، لما تركوه من سوء الآثار ، وأما في الآخرة فلأنهم معاقبون .

الأمر بالمعروف مع خوف الضرر :

ذكر الفقهاء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً ، منها أن لا يخاف الآمر الضرر على نفسه وأهله وماله .. وبعض الفقهاء أنكر هذا الشرط ، وأوجب الأمر بالمعروف ، وان أدى الى القتل ، واستدل بهذه الآية ، ووجه الدلالة بزعمه ان الأنبياء قد أمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وقتلوا في هذه السبيل بشهادة القرآن الكريم .

والذي نراه ان للأنبياء في التبليغ عن الله شأناً غير شأن العلماء ، لأنهم يقدمون ويحجمون بوحي من الله سبحانه ، فإذا قتلوا في سبيل التبليغ فإنهم قد أقدموا بأمر منه تعالى ، أما العلماء فيعتمدون على ما يفهمونه من مدارك الأحكام ومصادرها ، والذي نفهمه نحن من هذه الأدلة والمصادر ان أي انسان يسوغ له السكوت عن المنكر اذا غلب على ظنه ان الانكار لا يحقق أية فائدة دينية ، وفي الوقت نفسه يؤدي الى المضرة والمفسدة .

أما اذا غلب على ظنه ان وجود المنفعة الدينية من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، مع تضرره منه فتجب ، والحال هذه ، المقارنة بين دفع الضرر عن النفس ، وبين المنفعة المترتبة على الأمر والنهي ، فإن كانت المنفعة الدينية أهم ، كالقضاء على الكفر والظلم والفساد في الأرض جاز تحمّل الضرر في هذه السبيل ،

وقد يجب .. وان كان دفع الضرر عن النفس أهم من انكار المنكر ، كالنهي عن أكل المتنجس – مثلاً – جاز الاحجام دفعاً للضرر ، وقد يجب ، فالمسألة، اذن ، تختلف باختلاف الموارد ، وبهذا يتبين معنا ان قياس غير الأنبياء على الأنبياء في هذا المقام قياس مع وجود الفارق .. وقد نعود الى الموضوع بمناسبة ثانية .

أيضاً اليهود ٢٣ – ٢٥ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ★ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ★ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ★

الإعراب :

جملة يدعون حال من الضمير في أوتوا ، وجملة هم معرضون حال مؤكدة من يتولى فريق،لأن التولي معناه الاعراض ، ويجوز معدودة ومعدودات وكلاهما ورد في القرآن الكريم ، وتقول جبال شاهقة وشاهقات ، وكيف خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير كيف حالهم ، لأن كيف موضوعة للسؤال عن الأحوال ، لا عن الأعيان .

المعنى :

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) . قال المفسرون : المقصود من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم اليهود ، وإنما قال هنا أوتوا نصيباً من الكتاب ، ولم يقل اوتوا الكتاب ، أو أهل الكتاب ، كما في الكثير من الآيات ، لأن اليهود الذين حاجوا النبي (ص) ، ودعاهم الى التوراة لتحكم بينهم لم يحفظوا كل ما فيها ، وإنما حفظوا بعضاً منها، كما قال كثير من المفسرين ، أو حفظوا ألفاظ التوراة، ولم يتدبروا معانيها ، كما قال الشيخ محمد عبده .

وكثيرون هم الذين يدعون الايمان بالكتب السماوية والقيم الانسانية ، ولا يعملون بها ، وإذا احتج عليهم بما يؤمنون توانوا أو تأولوا ، والأمثلة على ذلك لا تحصيها كثرة ، منها : ان الذين أثاروا الحروب وقتلوا الملايين يزعمون انهم من أنصار السلام .

ومنها : ان الدول التي اضطهدت الأحرار والملونين تدعي الايمان بالحق والعدالة .

ومنها : اليهود الذين دعاهم النبي (ص) إلى كتابهم وتوراتهم ، وقال لهم: هلموا اليها ، فإن فيها صفتي ، فاعرضوا وعاندوا .. فنزلت هذه الآية : «يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » .

وقال جماعة من أهل التفسير : انها نزلت في يهودي زنى بيهودية ، واختلف اليهود في أمرهما الى فريقين : فريق أراد الرجم ، وفريق أراد التخفيف ، ولما اشتد بينهم النزاع تحاكموا الى النبي (ص) ، فحكم بالرجم ، فرفض الفريق الذي لا يتفق الرجم مع أهوائهم ، فدعاهم النبي (ص) الى حكم التوراة التي نصت على الرجم فتولوا ، وهم معرضون .

ومهما يكن سبب النزول ، فان الآية جارية وشاملة لكل من أعلن شعاراً ، ثم تجاهله ، وأعرض عنه عند العمل ، لأن العبرة بالأعمال، لا بالسمات والشعائر، قال الإمام علي (ع) : لن يفوز بالخير الا عامله ، ولا يجزى جزاء الشر الا فاعله .

(ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون) . لقد سجل الله على اليهود في كتابه العزيز ألواناً من القبائح والرذائل .. منها : قتلهم الأنبياء الذي ذكره في العديد من الآيات . ومنها عبادتهم العجل . ومنها : قولهم : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً . ومنها: انهم أبناء الله وأحباؤه . ومنها : زعمهم بأن النار لن تمسهم الا قليلاً .

ونقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده انه قال : « ليس في كتب اليهود التي بين أيديهم وعد بالآخرة ولا وعيد » .. ونقل عن اليهود عدم ايمانهم بالآخرة كثيرون من أهل التتبع والتثبت ، وهذا النقل يتنافى مع قول القرآن عنهم : لن تمسنا النار الا أياماً معدودات ، وقولهم : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً .. وغير بعيد أن أسلاف اليهود كانوا مؤمنين بالآخرة، ثم حرّف الخلف ، وحذف من كتبهم الدينية كل ما له صلة بالآخرة .. وفي تفسير المنار نقلاً عن الشيخ عبده أيضاً ان الباحثين الأوروبيين أثبتوا ان التوراة كُتبت بعد موسى (ع) بمئات السنين .

وأغرب من كل ذلك ادعاء اليهود بأن الله متحيز لهم ، وانه لهم وحدهم، وانه خلق من عداهم من الناس لخدمتهم ومصلحتهم ، تماماً كالحيوانات .. ومن أجل هذا يسمّون أنفسهم بشعب الله المختار ..

وبصرف النظر عن استحالة هذا الزعم وبطلانه بحكم العقل فإنه رجم بالغيب، وتحكّم على الله ، حيث لا يعرف أمر من أمور الغيب الا بوحي من الله تعالى، وقد نطق الوحي بلعنهم وخزيهم وعذابهم ، وسيتجلى لهم هذا الخزي والعذاب في يوم لا حيلة لهم في دفعه .. والى هذا أشار سبحانه بقوله : (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون). فلا يُنقص من ثواب المطيع شيئاً ، وقد يزداد ، ولكن لا يزاد أبداً على عقاب العاصي ، وقد ينقص العقاب ، بل قد يعفو الله ويصفح .

واني على علم اليقين بأن من رجا الله في دنياه هذه ، ولم يرجُ سواه ، متكلاً عليه وحده في النوائب مهما تكن النتائج ، مؤمناً ان من عداه ليس بشيء الا أن يكون وسيلة وأداة ، انا على يقين ان هذا سيجد عند الله ما يرضيه لامحالة برغم ما له من سيئات وهفوات .

تؤتي الملك من تشاء الآية ٢٦ ـ ٢٧ :

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ★ تُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ★

الإعراب :

اللهم ، أي يا الله،ومالك الملك منصوب على أنه منادى ثان ، أي يا مالك الملك ، ومن في من تشاء مفعول ثان لتؤتي ، وبيدك الخير مبتدأ وخبر ، والجملة حال من الضمير في تؤتي .

المعنى :

ان ظاهر الآية ينطبق تماماً على حال المسلمين في بدء الدعوة الاسلامية ، حيث لم يكن لهم آنذاك شيء من الملك وعزة السلطان ، فلقد بدأ الاسلام غريباً، كما قال رسول الله (ص) ، وكان الملك والسلطان موزعاً بين الفرس والروم .. وبعد أن جاء نصر الله انعكست الآية ، وأصبح الذليل عزيزاً ، والعزيز ذليلاً، وصار الفرس والروم محكومين للمسلمين بعد أن كانوا حاكمين ، والمسلمون حكاماً بعد أن كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس ، وتحققت ارادة الله تعالى التي بيّنها بقوله: « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ـ القصص ٥ .

(قل اللهم مالك الملك) . المراد بملك الله للملك قدرته على كل شيء ، فكأنه قال : الله مالك القدرة ، وانما أطلق لفظ الملك على القدرة ، لأن أبرز

آثار الشيء المملوك هي قدرة المالك على التصرف فيه ، ولا أحد يقدر على شيء ، أو يملك شيئاً إلا أن يملكه الله إياه ، ويمنحه القدرة عليه .. شأن الممكن مع الواجب: « الا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ».(تؤتي الملك من تشاء). وقد أعطاه المسلمين الأُول ، حين استجابوا لدعوة الإسلام،وبه كانوا يعملون . (وتنزع الملك ممن تشاء) . نزعه من الفرس والروم لكفرهم بالله والحق . (وتعز من تشاء) . وهم المسلمون . (وتذل من تشاء) . الفرس والروم ومشركو العرب . (بيدك الخير) . المراد بيد الله قدرته ، والخير يشمل كل ما فيه منفعة محللة معنوية كانت أو مادية ، وقد ساق الله للمسلمين خيراً كثيراً ببركة الإسلام . (انك على كل شيء قدير) . ومن دلائل قدرته سبحانه انه نزع الملك من الأقوياء ، وأعطاه للضعفاء .

(تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل). حيث تتحرك الأفلاك بقدرته وعنايته ، ويدور بعضها حول بعض ، فتتعدد الفصول ، ويأخذ الليل من النهار في فصل ، حتى يصير ١٥ ساعة ، والنهار ٩ ساعات ، ويأخذ النهار من الليل في فصل ، حتى يصير ١٥ ساعة ، والليل ٩ . (وتخرج الحي من الميت) . من ذلك اخراج المؤمن من الكافر ، والعزيز من الذليل . (وتخرج الميت من الحي) . ومنه اخراج الكافر من المؤمن ، والذليل من العزيز . (ويرزق من يشاء بغير حساب) . تماماً كما رزق المسلمين الأُول الملك وعلو الشأن ببركة الإسلام .

وإذا سألت : هل ملك الحاكم الجائر وسلطانه من الله ، وبإرادته ومشيئته ؟. فإنك تجد الجواب عن سؤالك هذا في تفسير الآية ٢٤٦ من سورة البقرة .

وبعد ، فإن ظاهر الآية يعزز ما قاله جماعة من المفسرين في سبب نزولها ، وخلاصته ان رسول الله (ص) لما خط الخندق عام الأحزاب بإشارة سلمان الفارسي قطع لكل عشرة من أصحابه أربعين ذراعاً ، وكان سلمان رجلاً قوياً ، فأراد الأنصار أن يكون معهم في الحفر ، وقالوا : سلمان منا . وأراده المهاجرون ، وقالوا : بل سلمان منا . فقال النبي كلمته المتواترة : سلمان منا أهل البيت ، وبينما سلمان يحفر إذ اعترضته صخرة لا تعمل المعاول فيها شيئاً ، فرفع الأمر إلى رسول الله (ص)، فأخذ المعول من يد سلمان ، وفتت الصخرة بثلاث ضربات

برقت منها ثلاث مرات ، رأى النبي من خلالها قصور الفرس والروم واليمن ، وقال لأصحابه : ان أمته ستستولي على ملك كسرى وقيصر ، ولما سخر المنافقون من هذه النبوءة أنزل الله : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء » .

وسواء أكان هذا هو سبب الآية ، أو لم يكن فإن ظاهر اللفظ لا يأباه ، ووقائع التاريخ تؤيده .

موالاة المؤمن للكافر الآية ٢٨ – ٣٠ :

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرِ★ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ★ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللهُ نَفْسَهُ وَٱللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ★

اللغة :

أولياء واحده ولي ، والمراد به هنا النصير ، وتقاة من الوقاية ، والأمد المدة التي لها حد معلوم ، ومحضراً ، أي حاضراً .

الإعراب :

في شيء متعلق بمحذوف خبر ليس ، ومن الله متعلق بمحذوف حال من شيء ، وجاز أن يكون صاحب الحال نكرة لتأخره ، كما قال النحاة . وقال صاحب مجمع البيان : ان المصدر من أن تتقوا مجرور بباء محذوفة .. والذي نراه انه مفعول من أجله ، أي الا أن تفعلوا ذلك لاتقاء شرهم ، ويعلم ما في السموات برفع يعلم لا بجزمها لأن الواو للاستئناف ، ويوم تجد يومَ منصوب بمحذوف ، أي احذروا يوم تجد الخ ، وقيل : منصوب بتود ، ومحضراً حال من الضمير في تجد ، وما عملت الواو للاستئناف ، وما موصولة مبتدأ ، وجملة تود خبر .

المعنى :

(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) . لم يكتف سبحانه بالنهي عن موالاة الكافر ، لنقول : انها محرمة ، وكفى ، كالكذب والغيبة ، بل اعتبرها كفراً بدليل قوله : (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) فإن الظاهر منه ان الله بريء ممن يتولى الكافرين ، ومن تبرأ الله منه فهو كافر .. ويؤيد هذا قوله تعالى : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم – المائدة ٥١ » .. وقوله: « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم – المجادلة ٢٢ » . فهذه الآيات تدل بظاهرها على ان من يتولى الكافر فهو كافر .. أجل ، ان لموالاة الكافر أقساماً شتى ، منها ما يستوجب الكفر ، ومنها لا يستوجبه ، والتفصيل في الفقرة التالية .

أقسام موالاة الكافر :

كل من قال : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله كان له ما للمسلمين ،

وعليه ما عليهم إلا في حالات ، منها أن يتولى الكافرين على التفصيل التالي :

١ ـ أن يكون راضياً عن كفرهم ، وهذا يستحيل أن يكون مسلماً ، لأن الرضى بالكفر كفر .

٢ ـ أن يتقرب إلى الكافرين على حساب الدين .. فيؤوّل آيات الله تعالى وأحاديث رسوله (ص) بما يتفق مع أهواء الكفار أعداء الله والرسول ، على ان يتنافى تأويله مع أصول الإسلام والعقيدة .. يفعل ذلك عن علم وعمد . وهذا كافر أيضاً .

وتسأل : ان الذي يفعل ذلك جاحداً للاسلام يكون كافراً بلا ريب ، أما اذا فعله عن تهاون فينبغي أن يكون فاسقاً ، لا كافراً ، تماماً كمن ترك الصلاة ، وهو مؤمن بوجوبها ، وشرب الخمر ، وهو جازم بتحريمها ؟.

الجواب : ان التفصيل بين المتهاون والجاحد انما يتأتى في الفروع ، كالصلاة وشرب الخمر ، أما فيما يعود الى أصول الدين والعقيدة ، كالوحدانية ، ونبوة محمد ، وما اليها فإن النطق بإنكار شيء منهـا يستوجب الكفر ، سواء أكان الناطق متهاوناً أو جاحداً ، جاداً أو هازلاً .

٣ ـ أن يكون عيناً وجاسوساً للكافرين على المسلمين .. وهذا ينظر في أمره .. فإن فعل ذلك طمعاً في المال أو الجاه فهو مجرم فاسق ، وان فعله حباً بالكافرين ، بما هم كافرون ، وبغضاً للمسلمين بما هم مسلمون فهو كافر من غير شك .

٤ ـ أن يلقي بالمودة الى أهل الكفـر ، وهو على يقـين انهم حرب على المسلمين ، يعملون على اذلالهم واستعبادهم ونهب مقدراتهم .. وهذا مجرم آثم ، وشريك للظالم في ظلمه ، حتى ولو كان الظالم مسلماً .

٥ ـ أن يستعين بالكفار المسالمين على الكفار المحاربين .. وهـذه الاستعانة جائزة بالاجماع ، فقد نقل أهل التاريخ والتفسير ان النبي (ص) حالف خزاعة ، مع انهم كانوا مشركـين ، واستعان بصفوان بن أميـة قبل اسلامه على حرب هوازن ، كما استعان بيهود بني قنيقاع ، وخصهم بشيء من المـال ، بل جاء في تذكرة العلامة الحلي ان جماعة من الفقهاء أجازوا الاستعانة بالكفار على حرب أهل البغي من المسلمين ، لأن الاستعانة بهم كانت لاحقاق الحق ، لا لابطال الباطل .

٦ – أن يصادق المسلم الكافر ، لأسباب عادية ، ومألوفة ، كالجوار ، وتلاؤم الأخلاق ، والزمالة في الدرس ، والمشاركة في المهنة ، أو في التجارة ، وما اليها مما لا يمس بالدين .. وهذه الصداقة جائزة أيضاً بالإجماع ؛ لأن مودة الكافر انما تكون حراماً اذا استدعت الوقوع في الحرام ، أما اذا لم تكن وسيلة للمعصية فلا تحريم ، بل قد تكون راجحة اذا عادت بالنفع والخير على بلد من البلدان ، أو أي انسان كان ، بل ان الله سبحانه أمر بالحب والالفة والتعاون بين الناس أجمعين من غير نظر الى دينهم وملتهم ، قال سبحانه : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم مودة والله قدير والله غفور رحيم . لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين – الممتحنة ٨ .

ونحن لا نشك ان في (الكافرين) من هو أحسن سيرة وأنبل خلقاً – من حيث الصدق والأمانة والوفاء – ، أحسن بكثير من الذين نسميهم ويسمون أنفسهم (مسلمين) وان صداقته خير للانسانية والصالح العام من العملاء الخونة الذين يتظاهرون بالدين والاسلام .. وألف صلاة وسلام على من قال : القريب من قربته الأخلاق .. رب قريب أبعد من بعيد ، ورب بعيد أقرب من قريب.

وهذه حقيقة يدركها الانسان بفطرته وينساق معها بغريزته من غير شعور .

التقية :

يبتدىء تاريخ التقية بتاريخ الاسلام يوم كان هذا الدين ضعيفاً .. وبطلها الأول الصحابي الشهير عمار بن ياسر ، حيث أسلم هو وأبوه وأمه ، وعُذبوا في سبيل الله ، فاحتملوا الأذى والعذاب من غير شكاة .. مر رسول الله بآل ياسر ، وهم يعذبون ، فلم يزد ياسر على ان قال : الدهر هكذا يا رسول الله . فقال النبي (ص) : صبراً آل ياسر ، فان موعدكم الجنة ، وكان ياسر وامرأته سمية أول شهيدين في الاسلام .

وأكره المشركون عماراً على قول السوء في رسول الله ، فقالهُ دفعاً للضرر

عن نفسه ، فقـــال بعض الأصحاب : كفر عمار . فقال النبي : كلا ، ان عماراً يغمره الايمان من قرنه إلى قدمه .. وجاء عمار الى النبي ، وهـــو يبكي نادماً . فسح النبي عينيه وقال له : لا تبك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت . فنزل في عمار قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان – النحل ١٠٦ » . ولم يختلف اثنان في أن هذه الآية نزلت في عمار .. وبديهة ان العبرة بعموم اللفظ ، لا بسبب النزول ، واللفظ هنا عام يشمل كل من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان .

ثم نزلت الآية ٢٨ من سورة آل عمران التي نحن في صددها تؤكد آية عمار ابن ياسر، ومثلها الآية ٢٧ من سورة المؤمن : «وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه » . والآية ١١٩ من سورة الانعام : « إلا ما اضطررتم اليه » ..

وكما جاءت الرخصة في كتاب الله بالتقية فقد جاءت أيضاً في سنة رسوله ، قال الرازي في تفسيره الكبير ، والسيد رشيد رضا في تفسير المنار ، وغيرهمـــا كثير ، قالوا : ان مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ، فقال لأحدهما : أتشهد اني رسول الله ؟ قال : نعم . فأطلقه . وقال للثاني : أتشهد اني رسول الله ؟ فلم يشهد . فقتله . ولما بلغ رسول الله ذلك قال : أما المقتول فضى على يقينه وصدقه ، فهنيئاً له ، وأما الآخر فقبل الرخصة فلا تبعة عليه .

وجاء في تفسير المنار : « ان البخاري نقل في صحيحه عن عائشة ان رجلاً استأذن على رسول الله ، فقال النبي : بئس ابن العشيرة ، ثم اذن له ، ولما دخل ألان له الرسول القول . وبعد أن خرج قالت عائشة للنبي : قلت في هذا الرجل ما قلت ، ثم ألنت له القول ؟ فقال : ان من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه . وفي البخاري أيضاً في حديث أبي الـدرداء : إنّا لنكشر – أي نبتسم – في وجوه قوم ، وان قلوبنا لتلعنهم » .

هذا، بالاضافة الى أحاديث أخرى تدل بعمومها على جواز التقية مثل حديث: « لا ضرر ولا ضرار » . وحديث : « رفع عن أمتي ما اضطروا اليه » .. وهذان الحديثان متواتران عند السنة والشيعة .

واستناداً إلى كتاب الله ، وسنة نبيه المتواترة أجمع السنة والشيعة قولاً واحداً على جواز التقية ، قال الجصاص – من أئمة الحنفية – في الجزء الثاني من كتاب

أحكام القرآن ص ١٠ طبعة ١٣٤٧ هـ ما نصه بالحرف : « الا أن تتقوا منهم تقاة » ، يعني أن تخافوا تلف النفس،أو بعض الأعضاء ، فتتقوهم باظهار الموالاة من غير اعتقاد لها .. وعليه جمهور أهل العلم » . ونقل الرازي في تفسيره عن الحسن البصري انه قال : التقية جائزة إلى يوم القيامة ، وأيضاً نقل عن الشافعي انه أجاز التقية وعممها للمسلم إذا خاف من المسلم لما بينهما من الاختلاف فيما يعود الى مسائل الدين .

وقال صاحب تفسير المنار عند تفسير قوله تعالى : إلا أن تتقوا منهم تقاة ما نصه بالحرف : « من نطق بكلمة الكفر مكرهاً وقاية لنفسه من الهلاك ، لا شارحاً للكفر صدراً ، ولا مستحباً للدنيا على الآخرة لا يكون كافراً ، بل يُعذر ، كما عُذر عمار بن ياسر ، وقال الشيخ مصطفى الزرقا في كتاب الفقه الاسلامي في ثوبه الجديد مادة ٦٠٠ : « التهديد بالقتل للأكراه على الكفر يبيح للشخص التظاهر به مع اطمئنان قلبه بالإيمان » . الى غير ذلك كثير .

وبالاضافة الى كتاب الله ، وسنّة رسوله ، واجماع المسلمين سنّة وشيعة على جواز التقية فإن العقل يحكم بها أيضاً ويبررها لقاعدة : « الضرورات تبيح المحظورات » .

وبهذا يتبين معنا ان التقية قاعدة شرعية يستند اليها المجتهد الشيعي والسني في استنباط الأحكام ، وان الدليل عليها الكتاب والسنة والاجماع والعقل ، وعليه تكون التقية مبدأ اسلامياً عاماً تؤمن به جميع المذاهب الإسلامية ، وليست مذهباً خاصاً بفريق دون فريق ، ومذهب دون مذهب ، كما يتوهم – الا الخوارج –

وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو اذا كانت التقية جائزة كتاباً وسنة وعقلاً واجماعاً من الشيعة والسنة فلماذا نسبت الى الشيعة فقط ، حتى ان كثيراً من شيوخ السنة شنعوا على الشيعة ، ونسبوهم الى البدعة من أجلها ؟.

الجواب : أما نسبتها الى الشيعة فقط ، أو اشتهار الشيعة بها فقد يكون سببه ان الشيعة اضطروا للعمل بها أكثر من غيرهم بالنظر لما لاقوه من الاضطهاد في

العصر الأموي والعصر العباسي ، وما تلاهما[1] ومن أجل اضطرار الشيعة الى الأخذ بالتقية كثيراً أو أكثر من غيرهم اهتم بهـا فقهاؤهم ، وذكروها في مناسبات شتى في كتب الفقه ، وحددوا مفهومها ، وبينوا قيودها وحدودها، متى تجوز ؟ ومتى لا تجوز .. وخلاصة ما قالوه: انها تجوز لرفع الضرر عن النفس، ولا تجوز لجلب المنفعة ، ولا لادخال الضرر على الغير .

أما من خصّ التقية بالشيعة فقط ، وشنّع بها عليهم فهو اما جاهل ، واما متجاهل ، ومهما يكن ، فلا موضوع اليوم ولا موجب للعمل بالتقية من غير فرق بين السنة والشيعة فتوىً وعملاً بعد أن ولّى زمن الخوف والاضطهاد .

(ويحذركم الله نفسه) . أي ذاته التي تعلم كل شيء ، وتقدر على كل شيء ، وتجازي كل انسان حسب عمله . (واليه المصير) . والمرجع ، وهناك تُوفى كل نفس ما عملت .

(قل ان تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات والأرض) . بعد ان أجاز سبحانه التقية ، ورخّص بهـا للمضطر قال : ان المعول عند الله على ما في القلوب ، وهو يعلم ما تنطوي عليه ، سواء أسررتم، أم أعلنتم .

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) . لما كان الله سبحانه عالماً بكل شيء ، وقادراً على كل شيء ، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه ، وعادلاً لا يظلم أحداً ، لما كان كذلك تحتّم أن يجد كل انسان في ذاك اليوم جزاء عمله.

وقال البعض : ان الانسان غداً يرى عمله مجسماً في تمثال جميل مؤنس ان كان خيراً ، وقبيح موحش ان كان شراً .. ويلاحـظ ان العمل من الأمور العرضية التي لا تبقى ، ولا يمكن اعادتها ورؤيتها ، فيتعين أن يكون المراد ان الانسان يوم القيامة يرى جزاء عمله ، لا عمله بالذات .

---

[1] انظر كتابنا « الشيعة والحاكمون » وكتاب « مقاتل الطالبيين » . وأول الجزء الثالث من شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد .. وستجد في هـذه الكتب ألواناً من اضطهاد الحكام للشيعة لا يتصورها العقل .

(وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمداً بعيداً). الواو للاستئناف، والمعنى ان من يعصي الله في هذه الحياة يتمنى غداً أن لا يرى جزاء عمله ، بل يتمنى أن يكون بينه وبين ذاك اليوم بعد المشرقين . (والله رؤوف بالعباد) . حتى العاصين منهم لأنه كلفهم بما يطيقون ، وحذرهم عاقبة العصيان ، وفتح باب التوبة لمن سولت له نفسه ، ولم يُبق عذراً لمعتذر .

محبة الله الآية ٣١ – ٣٢ :

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ★ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ★

المعنى :

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني) . من أحب الله يلزمه حتماً أن يحب رسول الله وأهل بيته لحب الرسول لهم ، ومن أحب الرسول يلزمه حتماً أن يحب الله ، والتفكيك محال ، قال تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله – النساء ٨٠ ، لأن الرسول هو لسان الله وبيانه .. والعكس صحيح ، أي من نصب العداء للرسول وآله فقد نصب العداء لله من حيث يريد أو لا يريد . فأهل الأديان الأخر الذين يدعون الايمان بالله ، ثم ينصبون العداء لمحمد (ص) هم من أعدى أعداء الله .

وان قال قائل : ان جهلهم بنبوة محمد عذر مبرر . قلنا في جوابه لا عذر اطلاقاً لمن اتبع أهواءه ، وقلد آباءه الا بعد التثبت والنظر الى جميع الدلائل

على نبوة محمد ، وما نظر عارف الى هذه الدلائل نظرة عدل وانصاف إلا آمن وأذعن .

ولا معنى لحب الصغير للكبير ، والعبد للسيد إلا الطاعة والمتابعة .. وكل من أحب ما أبغض الله ورسوله،وأبغض ما أحب الله ورسوله فهو عدو لله ورسوله، وان خيل اليه انـــه من المحبين . لأن ما يُظن انه حب دون أن يبرز له أثر ملموس فهو مجرد وهم وخيال .

(قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) ظاهر هذه الآية ان حقيقة الدين هي طاعة الله والرسول ، وان ترك هـــذه الطاعة يستلزم الكفر ، بل هو الكفر بالذات ، لأنه قال تعالى : (فإن تولوا فان الله لا يحب الكافرين) ولم يقل : ان الله يمقت العاصين أو يعاقبهم ، أي انه اعتبر سبحانه العصيان كفراً ، لا سبباً للمقت والعقاب فقط .

وهذا شيء خطير ومخيف جداً ، حيث لا يبقى واحد عـلى الدين والاسلام إلا النادر النادر .. اللهم إلا ان يراد بالكفر هنا العصيان ، مثـل قوله تعالى : ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عـــن العالمين – ٩٧ آل عمران .

وعلى أية حال ، فنحن مأمورون ديناً وشرعاً أن نعامل من نطق بالشهـادتين معاملة المسلم من حيث الارث والزواج والطهارة ، وصيانة المال والدم ، وما عدا ذلك متروك الى الله سبحانه ، ولسنا مسؤولين عنه .

أم مريم الآية ٣٣ – ٣٧ :

إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلى ٱلْعَالَمِينَ ★ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ★ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّــــلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ★ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ★ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ★

اللغة :

الاصطفاء الاختيار ، والمراد بمحرر هنا الخالص لخدمة الله وعبادته ، ومريم في اللغة العبرية خادم الرب ، والمحراب هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ، وهو مقصورة في مقدم المعبد يصعد اليها بسلّم ، وعند المسلمين مقام الإمام في المسجد .

الإعراب :

نوح اسم أعجمي ، وفيه علتان توجبان منعه من الصرف ، وهما العلمية والعجمة ، ولكن لما كان ثلاثياً ساكن الوسط كان خفيفاً في التلفظ ، ولذا صرف مثل هند ، وعمران ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، ولو كان عربياً لمنع أيضاً لزيادة الألف والنون ، وذرية منصوب على انه بدل من آل ابراهيم وآل عمران ، ويجوز أن يكون حالاً منها ، وبعضها من بعض مبتدأ وخبر ، والجملة صفة ذرية ، وإذ ظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر ، ومحرّراً حال

من (ما في بطني) وأنثى حال ، ونباتاً مفعول مطلق بمعنى انباتاً كي يطابق الفعل ، وهو أنبتها .

المعنى :

(ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) . قال محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي في تفسيره الكبير المسمى بالبحر المحيط ، قال : « قرأ عبدالله وآل محمد على العالمين » . وسواء أصحت هذه القراءة ، أم لم تصح فإن آية التطهير : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً – ٣٣ الأحزاب » . ان هذه الآية كافية وافية في الدلالة على اصطفاء الله لآل محمد ، ومنزلتهم وعظمتهم .. ان محمداً (ص) أفضل الأنبياء جميعاً ، فآله أيضاً أفضل الآل جميعاً ، بل ان علماء أمته كأنبياء بني اسرائيل ، أو أفضل من أنبياء بني اسرائيل ، ولا أذكر لفظ الحديث , فبالأولى إذا كان العلماء من آله الأطهار بشهادة الله تعالى .

ومهما يكن ، فقد ابتدأ الله سبحانه بذكر آدم ، لأنه أبو البشر الأول ، وثنى بنوح ، وهو أبو البشر الثاني ، لأن جميع سكان الأرض من نسله وحده، من أولاده الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث ، حيث قضى الطوفان على جميع الناس إلا نوحاً .. واصطفى الله كلاً من آدم ونوح بشخصه ، ولذا لم يقترن اسمها بآل ، أما ابراهيم وعمران فقد اصطفاهما مع الآل .. وكما ان آدم ونوحاً هما أبوا البشر فان ابراهيم أبو الأنبياء جميعاً بعد نوح ، حيث لا نبي منذ ابراهيم إلا من نسله .

والظاهر ان المراد بعمران في قوله : (آل عمران) هو أبو مريم جد عيسى لا أبو موسى الكليم ، لتكراره في الآية الثانية : (اذ قالت امرأة عمران)فهو نظير تكرار الاسم في جملتين وردتا في سياق واحد، نحو أكرم زيداً ان زيداً رجل صالح ، وعلى هذا يكون المراد بآل عمران السيد المسيح وأمه مريم ، وقيل : انه كان لعمران أبي موسى الكليم بنت اسمها مريم أكبر من موسى سناً،وان بين

عمران هذا ، وعمران جد المسيح ألف وثمانمئة سنة . والمراد بقوله تعالى :(على العالمين) ان الله قد اختار كل واحد ممن ذكرهم ، لأنه كان الصفوة الممتازة في أهل زمانه ، لا في كل زمان .

(ذرية بعضها من بعض) . ليس من شك أن نوحاً فرع عن آدم ، وابراهيم وآله فرع عن نوح ، وآل عمران فرع عن ابراهيم ، وبيان هذا أشبه بتوضيح الواضح وكلام الله يجب أن يحمل على أحسن المحامل .. اذن ، ما هو القصد من هذا الاخبار ؟

الجواب : ليس القصد الاخبار عن ان المتأخر فرع عن المتقدم ، وانما القصد – كما هو ظاهر السياق – مدحهم والثناء عليهم ، وانهم كانوا أشباهاً ونظائر في القداسة والفضيلة .. وبعد هذا التمهيد ينتقل الى قصة امرأة عمران أم مريم وجدة عيسى (ع) .

وخلاصتها ان قوفاذ بن قبيل الاسرائيلي كان له بنتان : اسم احداهما حنة ، وتزوجها عمران ، وهو اسرائيلي أيضاً ، وأولدها مريم ، واسم الثانية ايشاع ، وتزوجها زكريا ؛ وولدت منه يحيي ، فيحيي بن زكريا ، ومريم ام عيسى هما ابنا خالة ، وليس عيسى ويحيي ابني خالة ، كما هو معروف .. هكذا في مجمع البيان .

ومات عمران ، وحنة حامل ، فنذرت حملها لخدمة بيت المقدس ، وتضرعت خالصة لله أن يتقبل نذرها ، وكان هذا جائزاً في دينهم ، ولا يجوز في دين الإسلام ، وكانت تنتظر ذكراً ، لأن النذر للمعابد لم يكن معروفاً الا للصبيان ، ولما وضعت أنثى توجهت لله ، وقالت : اني وضعتها أنثى .. واني سميتها مريم ، ومريم في اللغة العبرية بمعنى خادم الرب .

وتقبّل الله نذرها ، وان كان أنثى ، واختلف بنو اسرائيل كلٌّ يريد أن يكفل مريم ، ويدبر شؤونها ، ولما اشتدت الخصومة فيما بينهم اتفقوا على الاقتراع ، فكانت من نصيب زكريا زوج خالتها ، وكان آنذاك رئيس الهيكل اليهودي ، فاهتم بها وتفقّد شؤونها ، وكان كلما دخل عليها وجد عندها طعاماً ، وعهده بها أن لا يدخل عليها أحد ، فسألها متعجباً : أنّى لك هذا !.. قالت هو من

عند الله – أي لا بواسطة أحد من الناس – ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وليس من شك ان هذه كرامة لمريم (ع) ، أما من نفى هـــذه الكرامة ، وقال : ان الطعام الذي رآه عندها زكريا كان من حسنات المؤمنين فهو خلاف ظاهر الآية .. وليست هذه الكرامة بأعظم من ولادة عيسى بلا أب،فإن كانت تلك محلاً للشك والريب فهذه أولى .

ومعنى قوله تعالى : (وأنبتها نباتاً حسناً) انها نشأت على الخلق الكريم ، وطاعة الله وعبادته ، فعن ابن عباس انها لمـــا بلغت التاسعة من عمرها صامت النهار،وقامت الليل ، حتى أربت على الاحبار .. وقيل : لم تجر عليها خطيئة .

فاطمة ومريم :

وحدث مثل هذه الكرامة لسيدة النساء فاطمة بنت رسول الله (ص) ، فقد جاء في تفسير روح البيان للشيخ اسماعيل حقي عند تفسير قوله تعالى حكاية عن مريم : (هو من عند الله) ، جاء في هذا التفسير ما نصه بالحرف :

« جاع النبي (ص) في زمن قحط،فأهدت له فاطمة رغيفين ولحماً .. فأتاها، وإذا بطبق عندها مملوء خبزاً ولحماً ، فقال لها : انّى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فقال : الحمد لله الـــذي جعلك شبيهة بسيدة بني اسرائيل ، ثم جمع رسول الله علياً والحسنين ، وجمع أهـــل بيته عليه ، فأكلوا وشبعوا ، وبقي الطعام كما هو،فأوسعت فاطمة على جيرانها» .

وفي كتاب ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري ان علياً (ع) استقرض ديناراً ليشتري به طعاماً لأهله ، فالتقى بالمقداد بن الأسود في حال ازعاج ، ولما سأله الإمام قال : تركت أهلي يبكون جوعاً ؛ فآثره بالدينار على نفسه وأهله،وانطلق الى النبي (ص) ، وصلى خلفه ، وبعد الصلاة قال النبي لعلي : هل عندك شيء تعشينا به ؟ وكأن الله قد أوحى اليه أن يتعشّى عند علي ، فأطرق علي لا يحير جواباً ، فأخذ النبي بيده ، وانطلقا الى بيت فاطمة ، وإذا بجفنة من الطعام ،

فقال لها علي : أنّى لك هذا ؟. قال له النبي : هذا ثواب الدينار ، هذا من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب ، الحمد لله الذي اجراكَ يا علي مجرى زكريا ، واجراكِ يا فاطمة مجرى مريم ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً .. ثم قال محب الدين الطبري : خرّج هذا الحديث الحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال .

وجاء في صحيح مسلم،باب فضائل بنت النبي ، ان رسول الله قال لابنته فاطمة : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ، أو سيدة نساء هذه الأمة . ونقل السيد محسن الأمين في الجزء الثاني من أعيان الشيعة ، سيرة الزهراء ، نقل عن صحيح البخاري ان النبي (ص) قال : فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، وأيضاً نقل عن الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ان الإمام أحمد روى في مسنده عن النبي انه قال : فاطمة سيدة نساء العالمين .

وجاء في كتاب ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري بعنوان: ما جاء في سيادتها وأفضليتها ، قال الطبري ما نصه بالحرف : « عاد النبي فاطمة،وهي مريضة ، فقال لها : كيف تجدينك يا بنية ؟ قالت : اني وجعة ، ويزيدني ما لي طعام آكله . فقال : يا بنية أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ؟. فقالت : يا أبت، فأين مريم بنت عمران ؟. قال : تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، أما والله لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة » . ثم قال الطبري خرّج هذا الحديث أبو عمر ، وخرجه الحافظ أبو القاسم الدمشقي، وبقية البحث عند تفسير الآية ٤٢ من هذه السورة فقرة « من هي سيدة النساء » .

زكريا الآية ٣٨ – ٤١ :

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ★ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ

ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ★ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُـلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ★ قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَٱذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ ★

اللغة :

هنا اشارة الى القريب ، وهنالك الى البعيد ، وهناك لما بينهما ، والأصل ان يشار بها إلى المكان ، وقد يشار بها إلى الزمان ، ولدن ظرف مكان ، وتستعمل في الزمان ، وهي مبنية ، ولا يدخل عليها من حروف الجر إلا من ، والذرية تطلق على الواحد ، ومـا فوق ، وسيد القوم رئيسهم ، ويطلق على الشريف والعالم ، علي شريطة أن لا يكونا منافقين ، لحديث : «لا تقولوا للمنافق سيداً»[1] . والحصر الحبس ، والمراد بالحصور هنـا الذي يمنع نفسـه عن النساء ، أو عن المعاصي والشهوات ، مع القدرة عليها ، والرمز الاشارة ، والعشي ظرف زمان من الزوال الى الغروب ، والإبكار من الفجر إلى الضحى .

الاعراب :

جملة هو قائم حال من الهاء في نادته ، وجملة يصلي صفة لقائم ، أو حال من الضمير في قائم ، ومصدقاً حال من يحيى ، وجملة بلغني الكبر حال ،ومثلها جملة امرأتي عاقر ، وكذلك خبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر كذلك ، أو صنع

---

١ رأيت هذا في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي .

الله كذلك ، والله يفعل ما يشاء مبتدأ وخبر . ورمزاً قائم مقام المفعول المطلق، أي إلا كلاماً رمزاً ومثله كثيراً ، أي ذكراً كثيراً .

المعنى :

(هنالك دعا زكريا ربه قال ربِّ هب لي من لدنك ذرية طيبة) . سبق القول : ان زكريا كان زوجاً لخالة مريم ام عيسى ، وانه هو الذي كفلها ، ولم يكن لزكريا ولد ، وحين رأى صلاح مريم ، وما أجرى الله على يدها من الكرامات تحركت في نفسه عاطفة الأبوة ، وحب الذرية ، فاتجه الى الله يدعو ويتضرع اليه أن يحقق رغبته ؛ واستجاب الله سبحانه لدعوته :

(فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدّقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) . يحيى اسم سماه الله به قبل أن يولد ، ولم يجعل له من قبل سمياً – كما في الآية ٧ من سورة مريم – وعلى هذا فلا وجه للبحث ان هذا الاسم هل هو عبري أو عربي ، كما في بعض التفاسير .. أجل ، له مصدر في اللغة ، وهو الحياة ، ويتناسب اسمه مع احياء الله سبحانه لعقر أمه . (ومصدقاً بكلمة الله) . قيل : ان كلمة الله اشارة الى عيسى الذي خلقه الله بكلمة (كُن) من غير أب .. ولكن عموم كلمة الله يُرَجح الحمل على جميع آياته وأحكامه .

وقال صاحب مجمع البيان : كان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ، وهو أول من صدقه ، وشهد بأن مولده معجزة من الله ، وكان ذلك أقوى الأسباب لاظهار أمر عيسى ، لأن الناس كانوا يثقون بيحيى ، ويقبلون منه ما يقول .

(وسيداً) في العلم والدين ومكارم الأخلاق (وحصوراً) يملك زمام نفسه ويمنعها عن الذنوب ، وقيل عن اتيان النساء (ونبياً من الصالحين) وكل الأنبياء صالحون ، بل معصومون ، والعصمة فوق العدل والصلاح ، وعليه يتعين أن يكون قوله : (من الصالحين) اشارة إلى أن زكريا تحدّر من أصلاب طاهرة، وأرحام مطهرة .. ويتفق هذا مع قول الشيعة الإمامية : ان جميع آباء الأنبياء يجب أن يكونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر .

ومن الطريف قول بعضهم – كما في تفسير الرازي – ان من الصالحين اشارة الى « ان ما من نبي إلا وقد عصى ، أو همّ بمعصية غير يحيى فلم يعص ، ولم يهم » . وبالاضافة الى أن في هذا القول مساً بمقام محمد (ص) فانه يتنافى وحكم العقل،لأن النبي انما أرسل لدفع المعاصي ، فإن عصى احتاج الى نبي .. بداهة ان القذارة لا تزال بمثلها .. تعالى الله وانبياؤه عما يقول الجاهلون .

(قال رب انى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء) . قالوا كان زكريا ، حين قال هذا ، قد أتم ١٢٠ سنة من عمره ، وامرأته ٩٨ ..

وهنا سؤال يفرض نفسه ؛ وهو ان زكريا سأل ربه أن يهبه ذرية طيبة ، ومعنى هذا انه سأل شيئاً ممكناً في اعتقاده ، فكيف عاد واستبعد ذلك عندما بشرته الملائكة ؟

الجواب : لم يكن قوله هذا شكاً واستبعاداً ؛ وانما هو استعظام لقدرة الله التي تخطت السنن والعادات ، تماماً كما تقول لمن يهب الكثير الثمين من ماله : كيف فعلت ما لم يفعله أحد سواك ؟ وأيضاً يتضمن هذا الاستعظام والتعجب الشكر لله على هذه النعمة الجليلة التي لم تكن في الحسبان .. وأيضاً نستفيد من أصل المعجزة ان على الانسان أن لا يقيس مشيئة الله بما يراه هو ممكناً أو مستحيلاً .

(قال ربِّ اجعل لي آية) . لما كان علوق الرحم بالنطفة أمراً خفياً أحب زكريا أن يعلم به حين حدوثه ، ليتلقاه بالشكر منذ اللحظة الأولى ، ولهذا سأل ربه أن يجعل له علامة يعرف بها وقت العلوق ، فقال له تعالى : (آيتك ان لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبّح بالعشي والابكار) . أي ان علامة حدوث العلوق أن يحتبس لسانك ، ويعجز عن النطق مع الناس ثلاثة أيام ، فإذا أردت الكلام لم يتحرك ، وانما تتفاهم معهم بالاشارة ، شأنك في ذلك شأن الأخرس ، ولكن لسانك ينطلق كما تريد حين تتجه الى الله في عبادتك ومناجاتك ، ولذا قال تعالى : (واذكر ربك كثيراً) . وهذه معجزة ثانية تضاف الى حمل العاقر .

ونقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده ان الله أمر زكريا أن ينقطع للذكر والتسبيح ثلاثة أيام،وان اضطر الى خطاب الناس أومأ اليهم ايماء، وبعد مضي الثلاثة يبشّر أهله بالحمل . والتفسير الأول أظهر وأشهر .

يا مريم ان الله اصطفاك الآية ٤٢ — ٤٤ :

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ ★ يَا مَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ ★ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ★

المعنى :

(وإذا قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) . ذكر أولاً أم مريم وحملها ونذرها ، وزكريا الذي كفل مريم ، ثم ذكر مريم ، ورزق الله لها بغير حساب ، ثم ذكر زكريا ودعاءه واستجابته ، والآن يعود الى مريم .. على عادة القرآن ، حيث يستطرد من قضية الى غيرها لمناسبة بين القضيتين ، ثم يعود الى الأولى لغرض في العودة .

والمراد بالاصطفاء الأول قبولها محرَّرة لخدمة بيت الله ، وكان ذلك خاصاً بالرجال . أما الاصطفاء الثاني فلولادتها نبياً دون أن يمسها بشر ، وقيل : هو تأكيد للأول . أما التطهير فقال صاحب تفسير المنار ما نصه : « قد فُسر الطهر بعدم الحيض . وروي ان السيدة فاطمة الزهراء ما كانت تحيض ، وانها لذلك لقبت بالزهراء » .

والذي نرجحه ان التطهير شهادة بنزاهة مريم ، وبراءتها من كل شبهة حول ولادتها .

وتجمل الإشارة إلى أن مريم ليست نبية للاجماع على انه لم تُنبَّأ امرأة ، قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم – ١٠٩ يوسف » .

أما كلام الملائكة معها فلا يستدعي أن تكون نبية ، فلقد أوحى الله الى أم موسى ، كما في الآية ٧ من سورة القصص ،ولم يدّع أحد لها النبوة ، وإذا انقطع الوحي بعد محمد (ص) عن الأنبياء ، وغير الأنبياء فقد كان من قبله ينزل على الأنبياء وغير الأنبياء ، والدليل هذه الآية ، وآية : أوحينا الى أم موسى. أما قوله تعالى : (واصطفاك على نساء العالمين) فنتعرض له قريباً بفقرة مستقلة بعنوان : « من هي سيدة نساء العالمين » .

فضل القرآن على النصارى :

سبق القول : ان وفداً من نصارى نجران جاءوا الى المدينة يحاجون رسول الله في نبوته ، ويدعون ألوهية عيسى ، فتلا عليهم الرسول (ص) من أنباء الغيب طرفاً من قصة امرأة عمران وزكريا ومريم ، ليثبت لهم انه لا ينطق إلا بوحي من الله ، ثم تلا هذه الآية : « يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك » .

وتلاوة النبي هذه الآية لوفد نجران المسيحي الذي جاء يحاجه ويجادله دليل قاطع على عظمة الاسلام،وصدق نبيّه الكريم .. ان اليهود لم يتورعوا أن يلصقوا الأكاذيب والافتراءات بمريم ، ويثيروا الشبهات والتهم حول ولادتها .. فكذبهم الله ، وسجل في كتابه الذي يتلوه الملأ أبد الدهر ؛ سجل فيه نزاهتها وبراءتها، وقطع الطريق على كل متقول ومزوّر . ولو لم يكن محمد صادقاً في رسالته ، واثقاً بدعوته لأخفى ذلك عن النصارى الذين لاقى منهم العنت والتكذيب .

لقد أسدى الاسلام بهذه الآية أعظم الأيادي الى النصارى ، ولولاها لسمعوا الكثير من بعض المسلمين عند التخاصم ، كما سمعوا من اليهود في حق مريم الطاهرة .. ولكن المسلم يعلم ان نزاهة السيدة مريم من صلب عقيدته،وان التهجم

عليها كفر وخروج عن دين الإسلام .. ويأتـي المزيد في البحث عنـد تفسير الآية ٨٢ من سورة المائدة : « ولتجدنّ أقربهـم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون » .

(يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) . أمرها بالعبادة للإعداد والتهيئة للأمر الخطير ، وهو ولادة عيسى (ع) ، وما من أمر خطير الا سبقته مقدماته التي تمهد لحدوثه ، وكذلك أوصى الله سبحانه عيسى بالصلاة والزكاة ما دام حياً .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك) . الخطاب موجـه من الله لرسوله ، والمعنى ان ما تتلوه على الناس بعامة ، والنصارى بخاصة ، ووفد نجران بصورة أخص ، كقصة مريم وامها امرأة عمران ، وقصة زكريا ويحيى ، كل ذلك ، وما اليه لم تقرأه في كتاب ، ولم تسمعه من الحفّاظ ، لأنك امي في أمة أمية ، وانما هو علم بالغيب ، ووحي من الله .. وهذه حجة لك على خصمك.وبرهان على صدقك .. وما نقل الرواة ان وفد نجران رد هذه الحجة أو اعترض عليها، ولو كانت موضع جدال لما سكتوا .

(وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون) . القلم معروف ، وهو الذي يكتب به ، وجمعه أقلام ، والمـراد بالأقلام هنا السهام التي يضربون بها القرعة ، والمعنى: ان إخبارك اياهم بهـذه الحقائق والدقائق عن مريم وزكريا لم تقرأها في كتاب ، ولم تسمعها من الحفاظ، فلم يبق – اذن – الا أن تكون قد شاهدتها بنفسك ، مع العلم ان بينك وبينها مئات السنين ، فتعين أن يكون علمك بها وحياً من الله اليك .

أما قصة الاقتراع والقاء الأقلام فخلاصتها ان حنة امرأة عمران حين ولدت مريم كانت قد نذرتها لبيت المقدس ، وولدتها بعـد أن مات أبوها عمران ، فتنافس عليها الكهنة والأحبار من بني اسرائيل ، وأخيراً اقترعوا فيما بينهم ، فخرج قلم زكريا زوج خالتها ، وعندها تركوها له ، فتكفلها ، وصار وليها والقائم بأمرها .

من هي سيدة نساء العالمين ؟

سبق ان الله سبحانه خاطب السيدة مريم (ع) بقوله : « واصطفاك على نساء العالمين » . وقد أحدثت هذه الآية اختلافاً بين علماء المسلمين : هل مريم بنت عمران أفضل ، أم فاطمة بنت محمد أفضل ؟.

ذهب جماعة الى أن خير النساء أربع ، وأحجموا عن المفاضلة بينهن،لحديث : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » . وهذا الحديث مذكور في صحاح السنة ، ورأيته في تفسير الطبري والرازي والبحر المحيط ، وروح البيان والمراغي وصاحب المنار .

وقال آخرون : مريم أفضل للظاهر (نساء العالمين) .

وقال الشيعة وشيوخ من السنة : ان فاطمة أفضل ، وننقل هذا القول عن جماعة من شيوخ السنة ، استناداً الى تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي عند تفسيره لآية : « واصطفاك على نساء العالمين » . قال ما نصه بالحرف : « قال بعض شيوخنا : والذي اجتمعت عليه من العلماء انهم ينقلون عن أشياخهم ان فاطمة أفضل نساء المتقدمات والمتأخرات ، لأنها بضعة من رسول الله » .

ومما استدل به القائلون بأفضلية فاطمة (ع) ما تواتر عن أبيها من طريق السنة والشيعة : « فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبها اغضبني » . أما قوله تعالى لمريم: (واصطفاك على نساء العالمين) فالمراد به عالم زمانها ، لا كل زمان ، وهذا التعبير معروف ومألوف ، يقال : فلان أشعر الناس ، أو أعلمهم،ويراد بذلك انه أشعر أو أعلم أهل زمانه ، أو أبناء أمته ، ونظيره كثير في القرآن ، ومنه قوله تعالى عن بني اسرائيل : « وفضلناهم على العالمين – ١٥ الجاثية » . ولا يختلف اثنان بأن المراد عالم زمانهم ، فكذلك تفضيل مريم التي هي من بني اسرائيل .. ومنه قوله تعالى : « واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين – ٨٦ الانعام » . ولا قائل بأن لوطا أفضل من عيسى، أو مساوياً له في الفضل،ولا اسماعيل أفضل من أبيه . ومنه : « اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء – ٢٣ النمل . أي كل شيء في زمانها .

ونعود الى النسوة الأربع ، وهن آسية ومريم وخديجة وفاطمة اللائـي ورد الحديث بأنهن خير النساء ، ونقول : لو نظرنا اليهن صارفين النظر عن نصوص الكتاب والسنة لألفينا ان كل واحدة منهن تختص بفضيلة دون غيرها من الصالحات الباقيات

فآسية امرأة فرعون آمنت بالله مخلصة له لائذة به وحـده ، وهي في بيت شر العباد ، ورأس الكفر والالحاد ، وقد جاهرت بايمانها منكـرة على فرعون كفره وفساده ، متحدية ظلمه وطغيانه ، فأوتد لها الأوتاد ، حتى قضت شهيدة الحق والايمان ، ولم تكن هذه الكرامة لواحدة من الثلاث .

أما السيدة مريم فقد كرّمها بولادة السيد المسيح من غير أب ، وما عرفت هذه الكرامة لامرأة على وجه الأرض .

أما السيدة خديجة فإنها أول من آمن وصدّق رسول الله ، وصلّت هي وعلي ابن أبي طالب مع الرسول الأعظم (ص) أول صلاة أقيمت في الإسلام ، وهي أول من بذل الأموال لنصرة هذا الدين .. ولولا أموالها ، وحماية أبي طالب لمحمد (ص) لقضي على الإسلام في مهده ، ولم يكن له عـين ولا أثر .. ولم تكن هذه الكرامة لغيرها من نساء العالمين .

أما فاطمة فإنها بضعة من رسول الله ، بل هي نفسه خَلقاً وخُلقاً ومنطقـاً وصلاحاً وتقى ، يرضيه ما يرضيها ، ويؤذيها ما يؤذيه ، وهي أم الحسنين سيدي شباب أهل الجنة ، وعقيلة سيد الكونين بعد رسول الله ، ولم تكن هذه الكرامة لأمها خديجة ، ولا لآسية ولا مريم .

أما التفاضل بين هذه الكرامات فإنه تماماً كالتفاضل بين الورد واليـاسمين ، وثنتين من الحور العين .. لكن يكفي أن تكون لفاطمة الزهراء واحدة من خصال أبيها ، حتى ترجح على نساء العالمين قاطبة من الأولين والآخرين ، فكيف إذا كانت بضعة منه ؟ انه أفضل الأنبياء ، وهي بضعة منه فتثبت لهـا الأفضلية . وفي الجزء الخامس من صحيح البخاري ، باب مناقب قرابة رسول الله عن أبيها انه قال : فاطمة سيدة نساء أهل الجنة . وإذا كانت فاطمة بضعـة من الرسول

فان بعلها علياً هو نفس رسول الله ، والدليل قوله تعالى : أنفسنا ، في آية المباهلة ٦١ آل عمران .

ملحوظة : هذا البحث معطوف على البحث السابق عند تفسير الآية ٣٧ من هذه السورة ، فقرة « فاطمة ومريم » .. فإن كلاً منها متمم للآخر .

يا مريم ان الله يبشرك الآية ٤٥ ـ ٥١ :

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ★ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ★ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ★ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ★ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ★ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ★ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ★

اللغة :

المسيح ، نقل صاحب تفسير البحر المحيط سبعة أقوال في سبب تسميته بالمسيح ، وهي المسح بالبركة ، والمسح بالدّهن عند ولادته ، وبالتطهير من الذنوب ، ومسح جبريل له بجناحه ، ومسح باطن قدمه حيث كان يصيب الأرض به أجمع ، ومسح الجمال ، ومسح الأقذار ، لأن أمه كانت لا تحيض، ولم تدنس بدم النفاس . والمهد مقر الصبي حين رضاعه ، والأكمه الذي يولد أعمى ، والأبرص الذي في جلده بياض .

الإعراب :

اسمه مبتدأ ، والمسيح خبر ، والضمير في اسمه عائد على المعنى المراد بالكلمة، وهو عيسى ، وعيسى اسم أعجمي ممنوع من الصرف ، وهو بدل من المسيح ، وابن مريم عطف بيان ، ووجيهاً حال ، وكذلك خبر لمبتدأ محذوف ، أي الأمر كذلك ، وفيكون لا يجوز فيه غير الرفع : لأن الجزم على الجواب يشترط فيه أن يصح دخول ان الشرطية ، مثل قم فأقم ، حيث يصح أن تقول : ان تقم أقم ، وهنا لا يصح أن تقول : ان كن فيكن ، ورسولاً عطف على «وجيهاً» واني جئتكم المصدر من أن وما بعدها مجرور بباء محذوفة . والمجرور متعلق « برسولاً » واني أخلق المصدر المنسبك بدلٌ من آية ، ومصدقاً مفعول لفعل محذوف ، أي وجئتكم مصدقاً ، والجملة عطف على جملة جئتكم .

الممتنع عقلاً ، والممتنع عادة :

ممتنع الوجود هو الذي ليس موجوداً بالفعل ، ولا يمكن وجوده في المستقبل، وهو على نوعين :

الأول أن يمتنع وجوده ذاتاً وعقلاً ، لأنه يستحيل بحكم العقل أن يوجد بحال من الأحوال ، وبصورة من الصور ، كاجتماع النقيضين أو الضدين ، مثل أن

يكون الانسان مؤمناً وكافراً بشيء واحد في آن واحد ، وان يكون الأعمى بما هو أعمى مبصراً ؛ والأخرس بما هو أخرس متكلماً .. ويتفق على امتناع هذا النوع العقل والعادة ، لأنه اذا امتنع ذاتاً وعقلاً فبالأولى أن يمتنع عادة .

النوع الثاني : أن لا يمتنع وجوده ذاتاً وفي نظر العقل ، بل يمكن وجوده بصورة من الصور ، وطريق من الطرق ، ولكن العادة لم تجر بوقوعه ، والأمثلة على ذلك لا تحصيها كثرة . وقد ذكر القرآن الكريم العديد من الحوادث التي تدخل في هذا النوع ، منها جلوس ابراهيم الخليل في النار ، دون أن تناله بأذى ، وتحوّل عصا موسى الى ثعبان ، ووقوف مياه البحر كالجبال ، وإلانة الحديد كالشمع لداود ، ومعرفة منطق الطير والنمل لسليمان ، واحياء عزير بعد موته بمئة عام .

ومنها ولادة عيسى من غير أب ، وكلامه ساعة ولادته ، واحياؤه الموتى ، وابراؤه الأعمى والأبرص من غير علاج ، وإخباره الناس بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم ، دون أن يشاهد ذلك ، أو يخبره به انسان ، كل هذه الحوادث ، وما اليها جائزة الوقوع ، ولكن لم تجر العادة بوقوعها ، ولو كانت محالاً في ذاتها لامتنع وقوعها على يد الأنبياء وغير الأنبياء. وإذا كانت هذه الحوادث ممكنة في ذاتها ، وأخبر الوحي بوقوعها صراحة فوجب على كل مؤمن الجزم بها ، دون تردد .

وذكر جماعة من الفلاسفة والمفسرين وجوهاً لخلق عيسى من غير نطفة الأب ، ولكن ما قالوه لا طائل تحته .. والحق ان الله تعالى قادر على كل شيء ، يوجده بكلمة (كن) من لا شيء ، وقد اقتضت حكمته وقوع ما أراد فتم الذي أراد .

ولسنا مكلفين بالبحث والعلم عن ماهية الحوادث التي أوجدها الله خرقاً للعادة ، ولا كيف وقعت .. وربما كانت عقولنا عاجزة عن ادراكها ، تماماً كما عجزت عن ادراك حقيقة الروح التي هي من أمر ربي .. أجل ، نحن ندركها بآثارها ونتائجها ، لا بكنهها وحقيقتها ، وكفى بها معرفة من هذه الجهة .. وعلى هذا الأساس سنفسر الآيات الواردة في حق المسيح (ع) وما شابهها من الآيات الواردة في غيره .

المعنى :

(اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح بن مريم). والمراد بالملائكة هنا جبريل ، لقوله تعالى في سورة مريم : « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » . حيث المراد بالروح هو جبريل، وذكره بلفظ الجمع، لأنه رئيس الملائكة ، وكلمة منه اشارة الى قوله تعالى : « كن فيكون » .

(وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين). أما وجاهته في الدنيا فهي تقديس الناس وتعظيمهم له الى يوم يبعثون ، أما في الآخرة فلعلو درجاته غداً عند الله .

(ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين) . تكلم في المهد للدلالة على براءة أمه من قذف اليهود لها بيوسف النجار ، وهم قومها ، عليهم لعائن الله، وزعم النصارى أنه لم يتكلم في المهد .. وقال ابن عباس : كان كلام عيسى لحظة قصيرة ، ولم يزد عما جاء في القرآن ، ثم لم يتكلم ، حتى بلغ أوان الكلام كغيره من الأولاد .. وهذا القول يساعد عليه الاعتبار ، لأن الغرض من كلامه أن يبرىء أمه من التهم والشبهات ، وقد حصل الغرض بما قاله أولاً ..(وكهلاً) أي يكلم الناس بالوحي ، وهو كهل ، وهذه معجزة أخرى تدل على نبوته ، لأنه إخبار بالغيب انه سيعيش الى سن الكهولة ، وقيل : عاش في الأرض ثلاثين سنة . وقيل : أتاه الوحي ابن ثلاثين ، وعاش بعده ثلاث سنين .

(قالت ربّ انّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر » . هذا استعظام منها لقدرة الله تعالى ، لأنه خارج عن المعتاد ، ولا وجه لما جاء في بعض التفاسير من أنها سألت: هل يأتيها الولد بسبب الزواج ؟ لا وجه لهذا السؤال لأن الجواب عنه بقوله تعالى : (قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ان هذا الجواب يدل على انها كانت على علم بأنها ستلد من غير زواج .

(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) . الكتاب مصدر بمعنى الخط، كالقتال بمعنى الضرب ، ثم كثر استعماله في اسم المفعول ، أي المكتوب ، وبصورة أخص في هذا المعلوم الذي له طرفان ، وما بينهما أبواب ومسائل ،

والمراد بالكتاب هنا المعنى المصدري ، أي الخط ، لأن ذكر التوراة والانجيل بعد ذكر الكتاب يرجح حمله على الخط والكتابة .. وقيل : بل المراد به المعنى الظاهر ، وانما ذكر التوراة والانجيل بعد الكتاب الشامل لهما للاهتمام بهما ، تماماً كقوله تعالى : حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى .

والحكمة هي وضع الشيء في موضعه، وهذه الآية دليل قاطع على ان التوراة هي الركيزة الأولى لدين المسيح ، وان الانجيل امتداد لها، مع بعض التعديلات، كتحليل بعض ما جاء فيها من المحرمات المشار اليـه بقوله : « ولأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم » .

(ورسولاً الى بني اسرائيل) . أرسل الله محمداً (ص) للناس كافة ، كما نصت الآية ٢٨ من سورة سبأ : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . أما عيسى (ع) ، وهو اسرائيلي ، فإنه أرسل الى قومه بمقتضى ظاهر هذه الآية .. وتعميم رسالته للناس كافة يحتاج الى دليل .

(اني قد جئتكم بآية من ربكم) . هذا خطاب من عيسى لقومه الاسرائيليين، محتجاً على صدق نبوته بأن لديه معجزة تدل على انه مرسل اليهم من الله،وهذه المعجزة هي قوله :

(اني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وابرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) . هذه أربع معجزات : الأولى انشاء الحياة في الطين ، وجعله طيراً . الثانية : ابراء الأكمه ، وهو الذي يخلق أعمى ، والأبرص ، وهو الذي في جلده بياض منفر .. وقيل : ان الطب كان متقدماً في عهد عيسى ، ولكن برغم تقدمه فقد عجز أمهر الأطباء عن هذين الداءين : العمى والبرص ، فجعل الله الشفاء منهما على يد عيسى من غير علاج معجزة تدل على نبوته .

المعجزة الثالثة : رد الحياة إلى الميت . الرابعة الإخبار بالغيب عما يأكلون وما يدخرون.. وليس من شأننا البحث عن السر لهذه المعجزات وكيفية انشاء الحياة، أو ردها إلى الأموات ، ولا عن ازالة الأمراض المستعصية من غير علاج ، وإذا

تصدينا للبحث عن شيء من ذلك فلا ننتهي إلا إلى الشبهات والظلمات ، فلم يبق لدينا إلا التسليم لحكمة الله وأمره الذي صرح به السيد المسيح (ع) مكرراً أنه قد فعله بإذن الله ، ليسد الباب على كل متقول ومتوهم الربوبية لعيسى أو الشعوذة، أو غيرها .. وسبقت الإشارة عند تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة إلى أن نظام الكائنات يجريه الله سبحانه على السنن الطبيعية إلا اذا اقتضت حكمته أن يتدخل على عكسها بإرادته التكوينية التي هي عبارة عن كلمة « كن » .. وعندها فلا يبقى مجال لأية واسطة وسنة .

أما إخبار عيسى بالغيب فقد كان بواسطة الوحي من الله تعالى ، ولا يختص وحده بذلك فقد أخبر جميع الأنبياء بالغيب ، فنوح صنع السفينة قبل أن يقع الطوفان ، وشعيب أخبر عن مصير قومه في هذه الحياة ، وكذلك غيره من الأنبياء ، ومحمد (ص) أخبر عن انتصار الروم على الفرس ، وانتصار قومه عليهما معاً .. والإمام علي أخبر عن ثورة الزنج وغيرها ، حتى قال له قائل : لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب . فقال له الإمام: ليس هو بعلم غيب ، وانما هو تعلّم من ذي علم . يشير إلى أن النبي (ص) أخبره به ، والنبي أخذه من الوحي .

من أنصاري الى الله الآية ٥٢ ــ ٥٤ :

فَلَمَّا أَحسَّ عِيسَىٰ مِنهُمُ ٱلكُفرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ★ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ★ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ★

الحق وأرباب المنافع :

ما من عاقل تام الإدراك ينكر الحق ، ويؤثر الباطل عليه إلا لهوى في نفسه، أو شبهة في ذهنه ، أو لجهله بالدليل ، أو لخلل في عرض الدليل .. وبديهة ان أدلة الأنبياء كافية وافية على نبوتهم من جميع الجهات ، حتى دفع الأوهام والشبهات ، بحيث لا تُبقي أدلتهم أية وسيلة لإنكار الحق إلا بالعناد والمكابرة .. والا لم يكن لله ولا لأنبيائه على الناس الحجة .

ومن بحث عن السبب الموجب لكيد من كاد للأنبياء ، وانكار من أنكر رسالتهم بعد أن رأوا ما رأوا من الآيات والمعجزات فلا يجد أي سبب لهذا الكيد والانكار الا المنافع الشخصية ، والحرص على الجاه والمال .. والشواهد على هذه الحقيقة من الكتب السماوية والأحاديث النبوية لا تحصيها كثرة ، منها ان الطغاة المترفين من قوم هود النبي قاوموه لا لشيء الا لأنه قال لهم : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون – ١٢٧ الشعراء » .

وهدد شعيباً الأغنياء من قومه ، وقالوا له : « يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وان نفعل في أموالنا ما نشاء .. ولولا رهطك لرجمناك ٨٧ – ٩١ هود » . أما ذنبه الأول والأخير فهو قوله : « اني أراكم بخير واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ،ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين – ٨٥ هود » . وكان قارون من أغنى قوم موسى ، وأقرب الناس اليه رحماً ، ومع ذلك نصب العداء له ، حيث وعظه بقوله : « وأحسنْ كما أحسن الله اليك .. ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين – ٧٩ القصص » .

وكان عبدالله بن أُبيّ من زعماء المدينة وأثريائها ، ولما هاجر الرسول اليها من مكة ثارت الغيرة في نفس ابن أُبي ، وأسمع الرسول كلاماً نابياً ، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله لا يعرض في قلبك من قول هذا شيء ، فقد كنّا أجمعنا على أن نملّكه علينا ، وهو يرى الآن انك قد سلبته أمراً كان قد

أشرف عليه[1] .

وكفى دليلاً على هذه الحقيقة قوله تعالى : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون – المائدة ٧٠ » . وقد كذّبوا السيد المسيح، وحاولوا قتله ؛ لأنه دعاهم الى المحبة والعدالة والمساواة ، وان لا يكنزوا الذهب وحولهم الجياع والمعوزون ، ومن تعاليمه : « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض .. غني يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل سم الخياط » .

المعنى :

(فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من انصاري الى الله) . كان اليهود قبل ميلاد عيسى يؤمنون بالمسيح المنتظر ، فلما جاءهم بالبينات والمعجزات اختلفوا فيه ، فآمن به المساكين والمستضعفون الذين لا يخافون على مال ولا جاه ، وكفر به أكثر أهل الجاه والمال خوفاً على مناصبهم ومكاسبهم ، كما هو شأنهم مع كل مصلح،نبياً كان أو غير نبي ، مع علمهم بأنه الصادق المحق .

وقال بعض المفسرين : ان اليهود رفضوا الايمان بمحمد ، لأنه عربي من نسل اسماعيل ، ولو كان يهودياً من نسل اسحق لآمنوا به ، وهذا خطأ ، لأن عيسى (ع) من اليهود ، ومع هذا حاربوه ، وحاولوا قتله وصلبه .. وكذلك محمد (ص) حاربه صناديد قريش ، والسر هنا وهناك واحد، وهو الحرص على الدنيا والمنافع ، لا العصبية القومية .

ومهما يكن ، فقد أحس عيسى من قومه الاصرار على الكفر والعناد ، ولاقى منهم الشدائد ، تماماً كما لاقى محمد (ص) من قومه ، وعندها قال عيسى : (من أنصاري الى الله) . أي من هم ؟ وأين هم ؟ المؤمنون الذين يناصرون دين الله ، ويحامون عنه ، ويبلّغونه بعدي الى الناس .. اذ لا بد لكل صاحب رسالة من أنصار ينهضون بها ، ويذبون عنها ، وينشرونها بين الناس .

---

١ يأتي في تفسير الآية ٦١ من هذه السورة أن وفد نجران اعتقد نبوة محمد ، ومع ذلك رفض الاعتراف بها للأموال التي يقبضها من الملوك .

(قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) . المراد بالحواريين خاصة الرجل، مأخوذ من الحور ، وهو شدة النقاء والبياض . وقولهم : (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) دليل على ان دين الله واحد منذ وجد الى ما لا نهاية،وهو الإسلام، وقد جاء به جميع الأنبياء ، دون استثناء،والاختلاف انما هو في بعض الأحكام وصور العبادة ، وعلى هذا ، فكل من آمن بالله وكتبه ورسله فهو مسلم ، وان أسمى نفسه نصرانياً أو يهودياً .. وسبق الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير قوله تعالى : « ان الدين عند الله الإسلام – الآية ١٩ من هذه السورة » .

وقول الحواريين : (فاكتبنا مع الشاهدين) دعاء منهم لله سبحانه أن يجعلهم في زمرة المؤمنين الذين شهدوا لله بالوحدانية ، ولأنبيائه بالصدق والأمانة،ليفوزوا بما فاز به المخلصون المرضيون ، وينالوا ما نالوه من الكرامة عند الله سبحانه .

وجاء في الكثير من التفاسير ان عدد الحواريين كان اثني عشر ، وبعض المفسرين ذكر أسماءهم ومهنهم ، ونحن نسكت عن ذلك لحديث : اسكتوا عما سكت الله عنه .

الله خير الماكرين :

(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) . لهذه الآية نظائر كثيرة ، منها الآية ٣٠ من سورة الأنفال : « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » . والآية ٥٠ من سورة النمل : « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون». والآية ٢١ يونس : « قل الله أسرع مكراً انّ رسلنا يكتبون ما تمكرون » . والآية ٩٩ الاعراف: « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون».

والمراد بمكر الكافرين والمنافقين الحيلة والخداع والغدر وتبييت الشر ، أما مكر الله تعالى فالمراد به إبطال مكر الماكرين وتدبيرهم ، كما نطقت الآية ٤٣ من سورة فاطر : « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .. وفي القرآن صفات كثيرة أطلقت عليه سبحانه ، وظاهرها يوهم عدم جواز نسبتها اليه تعالى ، مثل الشاكر والمؤمن والتواب والمتكبر ، ومع التأمل والامعان نجدها في محلها ، فان

معنى الشاكر انه سبحانه يجزي الشاكرين والمطيعين بالثواب ، والمؤمن انه مصدر الأمان والسلام ، والتواب انه يتقبل التوبة من التائبين ، والمتكبر ان كل ما في الكون حقير بالنسبة اليه تعالى .. وبهذا يتبين معنا ان المكر حرام إذا قصدت به الأضرار بالغير ، وحلال إذا قصدت به دفع الضرر عن نفسك أو غيرك .

ونذكر فيما يلي مثالين على إبطال الله لمكر الكافرين وكيدهم :

١ — ان اليهود مكروا بتواطئهم على قتل عيسى ، ولكن الله سبحانه أبطل مكرهم ،حيث ألقى شبه عيسى على يهوذا الذي حرض على قتله ، ورفع عيسى إلى السماء .

٢ — ان قريشاً أجمعوا أمرهم أن يتخلصوا من محمد ، وذلك أن يختاروا شاباً من كل بطن ، ويضربوه بسيوفهم ، وهو نائم في فراشه ، فيتفرق دمه بين الجميع .. فأبطل الله مكرهم ، حيث أمر نبيه بالخروج من مكة ، وأن ينام علي في فراشه ، يوهم القوم ان محمداً لم يسافر ، خوفاً من اللحاق به ، واستلقى عليّ في فراش ابن عمه ، وجر عليه بردته .. ولما اقتحم المتآمرون الدار وجدوا علياً هو الذي يرقد في الفراش .. وذهب الله بكيدهم،وما كيد الكافرين إلا في ضلال .

متوفيك ورافعك الآية ٥٥ — ٥٨ :

إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ★ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ★

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ★ ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ★

الإعراب :

عيسى محله الضم ، لأنه منادى مفرد ، والذين اتبعوك مفعول أول لجاعل ، وفوق ظرف متعلق بمحذوف مفعول ثانٍ ،وإلى يوم القيامة متعلق بهذا المحذوف، والتقدير كائنين فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

الاختلاف في عيسى :

اختلف الناس في أمر عيسى اختلافاً شديداً .. اختلفوا في أصل وجوده ، واختلفوا في طبيعته ، واختلفوا في موته .. فمن قائل : لا وجود له اطلاقاً ، وانما هو بطل اسطوري ، ظهر هذا القول في المانيا وفرنسا وانكلترا في القرن التاسع عشر ، وهو أسخف من السخف ، لأنه تماماً كقول من ينفي الطوائف المسيحية والاسلامية التي تؤمن بالمسيح .. ومن قائل : انه إله ، وقائل : بل هو انسان ، وقائل : هو إله وانسان في وقت واحد ، وقالت اليهود فيه وفي أمه ما يهتز له العرش .

واختلف المسلمون فيما بينهم ، فقال أكثرهم : ان المسيح لم يمت، وانه حي في السماء ، أو في مكان ما بجسمه وروحه ، وانه يخرج في آخر الزمان الى الأرض ، ثم يتوفاه الله بعد ذلك الوفاة الحقيقية .. وقال كثير من المسلمين : انه مات حقيقة ، وان الذي ارتفع الى السماء روحه ، لا جسمه .

وسبب هذا الاختلاف بين المسلمين هو اختلاف ظاهر النص ، فالآية ١٥٨ من سورة النساء تقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل

رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً » . وهذه الآية ظاهرة في انه حي ، بالاضافة الى أحاديث نبوية في معناها . ولكن الآية ١١٧ من سورة المائدة تقول: « فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » .. وقريب منها الآية التي نحن بصددها، وهي : « اني متوفيك ورافعك إليّ » . فإن المتبادر من الوفاة هو الموت ، وان المعنى الظاهر أني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع ، كما قال في ادريس : « ورفعناه مكاناً علياً – ٥٦ مريم » . وكما قال في الشهداء : أحياء عند ربهم يرزقون – ١٦٨ آل عمران .

والذين قالوا : ان عيسى حي بجسمه وروحه أولوا (توفيتني ،ومتوفيك) بوجوه أرجحها – نسبياً – ان القصد هو التشبيه بالوفاة ، لا الوفاة الحقيقية ، لأنه اذا رفع إلى السماء فقد انقطعت علاقته بالأرض ، وصار كالميت .

أما الذين قالوا : انه مات حقيقة فقد أولوا (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم) بأن اليهود لم يقتلوا مبادىء عيسى وتعاليمه بقتله وصلبه .. ولكن خُيل اليهم انهم قد قضوا على تعاليمه بذلك ، مع انها ما زالت قائمة ، وستبقى الى يوم يُبعثون .

ونحن نميل الى القول الأول ، وان عيسى حي رفعه الله اليه بعد أن توفاه بنحو من الأنحاء – غير الموت – نميل الى هذا بالنظر الى ظاهر الآية ، والى ما روي عن الرسول الأعظم (ص) من طريق السنة والشيعة انه ما زال حياً .. ومع هذا فلا نرى أية فائدة من التحقيق والتدقيق في هذا الموضوع ، لأن الايمان بكيفية وفاته ؛ ورفعه ليس من أصول الدين ، ولا المذهب ، ولا من فروعه في شيء وانما هو موضوع من الموضوعات الخارجية لا تتصل بحياتنا من قريب أو بعيد .. والله سبحانه لا يسأل الناس غداً ، ويقول لهم : بيّنوا كيف توفيتُ عيسى ؟ وكيف رفعته ؟.. ان ما يجب علينا الايمان به هو ان عيسى نبي مرسل من الله ، وانه خلق بكلمة من الله ، وان أمه قديسة .. هذا ، الى ان البحث في هذا الموضوع لا ينتهي بالباحث الى الجزم واليقين بكيفية وفاته ، ولا بكيفية رفعه .. فالأولى إيكال ذلك إلى الله سبحانه[1] .

---

١ انظر ما قلنا في تفسير الآية ١٥٨ من سورة النساء .

(اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك اليّ) . بعد أن صمم اليهود على قتل عيسى ، ودبروا الأمر لذلك بشّره الله بنجاته منهم ، وإبطال مكرهم وكيدهم ، وانه لن يُقتل ، ولن يُصلب ، بل يتوفاه الله حين انتهاء أجله وفاة طبيعية ، وانه تعالى سينقله الى عالم لا يناله أحد فيه بأذى ، ولا سلطان فيه لأحد عليه سوى الله . وهذا هو معنى قوله تعالى : (ومطهرك من الذين كفروا) . أي أبعدك عن ارجاسهم ، ودنس معاشرتهم ، وعما يريدونه بك من الشر .

(وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) . المراد بالتفوق هنا التفوق نفساً وكمالاً ، لا التفوق سلطاناً ومالاً .. وليس من شك ان الذين آمنوا بعيسى أفضل وأكمل من الذين كذبوه .

(ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) . لا يحتاج هذا الى تفسير ، لأن المعنى الظاهر هو المراد .. أجل ، ان ضمير الخطاب هنا يشمل الغائبين في كل زمان ومكان من الذين اختلفوا في السيد المسيح ، أو في صفة من صفاته .

(فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) . أما عذاب الكافر في الآخرة فمعلوم ، واما عذابه في الدنيا فلأنه دون المسلم في المرتبة في كثير من أحكام الشريعة الاسلامية ، منها ان الكافر تجوز غيبته دون المسلم ، ومنها ان الكافر يقتل بالمسلم ، والمسلم لا يقتل بالكافر ، بل لا دية له عند كثير من الفقهاء إلا إذا كان ذمياً .. على ان دية الذمي دون دية المسلم بكثير .

(وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين). في الحديث ان الظالم والراضي بالظلم سواء ، وقال الإمام الباقر (ع) : الظلم ثلاثة : ظلم يغفره الله ، وظلم لا يغفره الله ، وظلم لا يدعه الله ، أما الظلم الذي لا يغفره الله فهو الشرك بالله ، وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم الرجل نفسه بينه وبين ربه ، وأما الظلم الذي لا يدعه الله فالاعتداء على العباد .. وقال الإمام علي (ع) : ظلم الضعيف أفحش الظلم .

(ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) . ذلك إشارة الى ما أخبر الله به نبيّه من انباء أم مريم ، ومريم ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، والحواريين ،

واليهود الجاحدين ، والمعنى :تلونا عليك يا محمد هذه الأنباء لتكون حجة ودليلاً لك على من يجادلك في عيسى من وفد نجران وغيرهم .. أما كون هذه الأنباء حجة في يد محمد فلأنه أميّ لا يقرأ ، ولا يصحب من يخبره بذلك ، فلم يبق من مصدر لعلمه بهذه الأنباء إلا الوحي من الله تعالى .. والمراد بالذكر الحكيم القرآن .

مثل عيسى كمثل آدم الآية ٥٩ – ٦٣ :

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ★ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ★ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ ★ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ★ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ ★

اللغة :

الامتراء الشك ، والبهلة بالضم والفتح ، ومعناها اللعنة ، يقال : بهله الله ، أي لعنه ، ثم شاع استعماله في مطلق الدعاء ، والقصص تتبّع الأثر ، ومنه قوله تعالى : وقالت لأخته قصّيه ، أي تتبعي أثره .

الاعراب :

قد يتوهم ان جملة خلقه من تراب صفة لآدم ، وهذا لا يستقيم لأنها جملة مستأنفة ، وجواب على سؤال مقدر ، كأنّ سائلاً يسأل : بأي شيء أشبه عيسى آدم ؟ فأجيب بأن كلاً منهما خلق من غير أب ، بل وجود آدم أغرب، لأنه بلا أم أيضاً .. فجملة خلقه من تراب ترتبط بآدم معنى لا لفظاً ، وقوله : لهو يجوز أن يكون ضمير فصل لا محل له من الإعراب ، ويجوز أن يكون مبتدأ والقصص خبر ، والجملة خبر ان .

المعنى :

(ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون). قال المفسرون: ان وفد نجران اليمن قالوا لرسول الله (ص) : مالك تشتم صاحبنا؟ – أي عيسى – قال : وكيف ؟ قالوا : تقول : انه عبد . قال : أجل ، هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء . قالوا : وهل رأيت انساناً من غير أب ؟ فنزل قوله تعالى : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم).

وسواء أصحت هذه الرواية ؛ أم لم تصح فإن هذا هو موضوعها بالذات .. فلقد كان النصارى ، وما زالوا يحتجون لعقيدتهم بربوبية عيسى انه نشأ من غير أب .. وقد قطع الله حجتهم هذه ، وأبطلها بآدم ، فإن كان عيسى إلهاً أو ابن إله لأنه من غير أب فبالأولى أن يكون آدم كذلك ؛ لأنه من غير أب وام .. وما أجابوا عن هذا النقض ، ولن يجيبوا عنه الى آخر يوم .

ونسأل : ان الظاهر من قوله تعالى : (خلقه من تراب) ان الله قد أنشأ آدم وأوجده ، وانتهى كل شيء ، وعليه يكون الخلق متقدماً على قول : (كن فيكون) ولم يبق أي وجه لهذا القول ، لأنه ايجاد للموجود ، وخلق للمخلوق.. وبديهة ان كلام الله يجب أن يحمل على أحسن المحامل .

الجواب : ان الله خلق آدم على مراحل ، منها انه خلقه من طين بلا روح،

ثم جعل فيه الروح ، وعليه يكون المعنى : أيها الطين كن انساناً من لحم ودم ، وعاطفة وادراك .

الأنبياء والمعصية :

(الحق من ربك) . أي ان هذا الذي أنزلناه عليك ، وأخبرناك بـه عن عيسى هو الحق من ربك (فلا تكن من الممترين) .

وتسأل : ان النبي محال أن يشك فيما أخبر الله به .. لأن الشك يتنافى مع الايمان فضلاً عن العصمة . فما هو المبرر لهذا النهي ؟.

وأجاب المفسرون بجوابين : الأول ان ظاهـــر الخطـاب موجه الى النبي ، والمقصود في الواقع غيره . الجواب الثاني : ان المراد استمرار النبي على اليقين .

وفي كلا الوجهين نظر ، لأنهما مبنيان عــلى ان الله تعالى ليس له أن ينهى أنبياءه عن المعصية .. والصحيح ان لله أن ينهى الأنبياء عن المعصية .. أولاً لأنه أمر من الأعلى الى من هو دونه في الرتبة والعلو . ثانيـــاً : ان العصمة ليست طبيعة وغريزة في الأنبياء بحيث تستحيل المعصية عليهم بحسب الذات والامكان ، والا لم يكن لهم من فضل ، وانما يستحيل صدور المعصية منهم بحسب الواقع ، لا بحسب الامكان ، فيصح،والحال هذه ، أن يوجه النهي اليهم بهذا الاعتبار ، ولكن من الله لا من غيره ، اذ لا أحد فوق الأنبياء الا الله جلّت عظمته .

وعلى هذا الوجه تحمل النواهي الكثيرة الواردة في القرآن الكريم في هذا الباب ، مثل قوله تعالى لحبيبه محمد (ص) : (ولا تطع الكافرين) .. ثم ما يدرينا ان الأنبياء كانوا يحبون هذه النواهي من الله سبحانه ، بـل ويطلبونها ، كما يطلب المؤمن الصالح من الأعلم الأكمل ان يعظه ، ويذكّره بالله .

المباهلة :

(فمن حاجك من بعد ما جاءك من العــلم فقل تعالوا نــدع أبناءنا وأبناءكم

ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) . هذه هي الآية المعروفة بآية المباهلة ، وهي من امهات الكتاب .

والقصد الأول من هذه الآية الكريمة العظيمة هو تدعيم الدين الحنيف،واثبات الرسالة المحمدية الانسانية بطريق لا عهد به للعلم والعلماء ، ولا يقدر عليه أحد على الاطلاق سوى خالق الأرض والسماء ، ومع ذلك يفهمه بسهولة ويسر الجاهل والعالم .. وفيما يلي حكاية هذه الآية من أولها ، ولكن بإيجاز :

ترتبط هذه الآية بالسنة التاسعة لهجرة الرسول الأعظم (ص) الى المدينة ، وهي السنة المعروفة بعام الوفود ، لأن الناس توافدت فيه على رسول الله (ص) من شتى بقاع الجزيرة العربية ، يخطبون وده بعد ان أعلى الله كلمة الإسلام ، ونصر المسلمين على أعداء الدين ، وقد وفد على الرسول فيمن وفد ستون رجلاً من نصارى نجران اليمن ، وقيل : أربعة عشر من أشرافهم .. منهم كبيرهم وأميرهم ، واسمه عبد المسيح ، والثاني مشيرهم وصاحب رأيهم ، واسمه الأيهب، ويلقب بالسيد ، والثالث حبرهم واسقفهم ، وكان في شرف كبير ، وخطر عظيم ، وقد بنى له ملك الروم الكنائس والمدارس ، وخصه بالأموال والمراتب.

ورحب رسول الله (ص) بهم ، وأكرم وفادتهم ، وحين حانت صلاتهم ضربوا بالناقوس،وصلوا في مسجد الرسول إلى المشرق ، فأراد الأصحاب منعهم، فقال النبي : دعوهم .. وسبقت الإشارة الى ذلك في تفسير الآية ٨ من هذه السورة .

وبعد أن استقر المقام بوفد نجران أخذوا يجادلون رسول الله في عيسى زاعمين تارة انه الله ، ومرة انه ابن الله ، وأخرى انه ثالث ثلاثة ، وأوردوا أدلة سبق ذكرها وتفسيرها وإبطالها .

والذي أبطل أدلة النصارى هو الله بالذات ، ولكن على لسان محمد (ص) ، وكان في الوفد علماء لا تخفى الحقيقة على أمثالهم، منهم أبو حارثة الرئيس الديني للوفد ، وكان معه أخ له ، اسمه كرز .. وبعد أن سمع أبو حارثة ما سمع من آيات الله البينات أسرّ إلى أخيه كرز ان محمداً هو النبي الذي كنا ننتظره .. فقال له أخوه هذا: ما يمنعك منه ما دمت على يقين من صدقه ؟ قال أبو حارثة: ان الملوك أعطونا أموالاً كثيرة ، وأكرمونا ، فلو آمنا بمحمد لأخذوا منا كل

شيء .. فوقع ذلك في قلب كرز ، وأضمره في نفسه أمداً ، ثم أعلن اسلامه، وحدّث عما جرى من أخيه .

وصدق هذه الرواية لا يحتاج إلى دليل ، لأنها بنفسها تدل على صدقها ، وتحمل قياسها معها ، كما يقول أهل المنطق .. ان أكثر الذين أنكروا الحق وعاندوه كان الدافع إلى موقفهم المصالح الخاصة ، والمنافع الشخصية، كما شرحنا ذلك مفصلاً عند الآية ٥٤ من هذه السورة ، فقرة « الحق وأرباب المنافع » .

ناظر الرسول وفد نجران في صفات عيسى ، وجادلهم بالحجة الدامغة، والمنطق السليم بما لا يقبل المزيد ، ولما أصروا على العناد قطع الكلام معهم ، وأنهى المناظرة ، ودعاهم إلى ما لا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شيء من الحجاج والنقاش، ولكنه يحسم الموقف بسرعة ، ويستأصل النزاع من الجذور ، دعاهم إلى التفوه بكلمة واحدة فقط لا يقدم عليها في تلك اللحظة إلا من كان على يقين من صدقه ، ولا يحجم عنها إلا من كان عالماً بكذبه .. وهذه الكلمة هي لعنة الله على الكاذبين ، ولكنها تقترن بمعجزة خارقة ، دونها معجزات المسيح مجتمعة ، حيث تنهال على رأس الكاذب صاعقة من السماء تملأ الأرض عليه ناراً .

وقد تواترت الروايات في كتب الحديث والتفسير ،ومنها صحيح مسلم والترمذي، وتفسير الطبري والرازي والبحر المحيط وغرائب القرآن وروح البيان والمنار والمراغي ، وغيرها كثير ، تواترت الروايات ان محمداً (ص) خرج ، وعليه مرط – أي كساء غير مخيط – أسود ، وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة وعلي يمشيان خلفه ، وهو يقول : إذا دعوت فأمنوا ، فقال الرئيس الديني للوفد : يا معشر النصارى اني لأرى وجوهاً لو دعت الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا ، ثم قال : يا أبا القاسم رأينا ان لانباهلك . فقال لهم : أسلموا . فأبوا ، ثم صالحهم على أن يؤدوا الجزية .

وعاد الوفد مخذولاً مرذولاً ، يجر وراءه ثوب الفشل ، والخزي .. وآمن بعد هذه المباهلة كثير من الذين لم يكونوا قد آمنوا بعد ، كما ازداد المؤمنون إيماناً وتسليماً .

لقد أقدم محمد (ص) ، ومعه أهل بيته وأعز الناس على قلبه ، أقدم على المباهلة ، وهو يضمن النصر سلفاً ، حتى كأنه بيده .. ولا شيء أوضح وأصدق في الدلالة على نبوته من هذا الاقدام .. انه أوضح من دلالة نور الشمس على وجود الشمس .. وما عرفت هذه المعجزة لواحد من الأنبياء ، وانما كانوا يدعون على الكافرين ، فيستجيب الله دعوتهم .

وتسأل : ان النبي دعا بعض الكفار الى الإيمان،فقالوا : « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء – ٣٢ الأنفال » . ومع هذا لم يقع العذاب بهم ؟

الجواب : ان الكلام فيما نحن فيه يدور حول المباهلة ، وهي لا تتحقق إلا في معرض الاحتجاج والادعاء ، وأيضاً لا تجوز إلا بإذن من الله ، أو رسوله خشية ان لا يظهر صدق الصادق .. وقول الكافرين : « فامطر علينا حجارة من السماء » ليس من المباهلة في شيء .. ولذا أخر الله عقابهم الى يوم يبعثون .

أهل البيت :

ومما قاله الرازي في تفسير آية المباهلة : « روي أن محمداً (ص) لما خرج في المرط الأسود ، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله ، ثم جاء الحسين رضي الله عنه فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم علي رضي الله عنهما ، ثم قال النبي (ص): (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) واعلم ان هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث – ثم قال الرازي – : ان هذه الآية دالة على ان الحسن والحسين عليهما السلام كانا ابني رسول الله (ص) ، وعد أن يدعو أبناءه فدعا الحسن والحسين ، فوجب أن يكونا ابنيه ، ومما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة الانعام : (ومن ذريته داود وسليمان) إلى قوله : (وزكريا ويحيى وعيسى) ومعلوم ان عيسى (ع) انما انتسب الى ابراهيم (ع) بالأم لا بالأب » .

وقد بحثت هذا الموضوع بحثاً مطولاً في كتاب « فضائل الإمام علي» وعقدت له فصلاً مستقلاً بعنوان « أبناء رسول الله » .

(ان هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وان الله لهو العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) . هذا اشارة إلى ما تقدم من شأن عيسى ، وانه نبي مرسل ، لا ابن زنا كما يزعم اليهود ، ولا هو إله أو ابن إلـه كما تدعي النصارى ، ومن يصدق ويؤمن بهذه الحقيقة فدعه يا محمد وشأنه ، فان الله سبحانه أعلم بفساده وضلاله ، وقادر على عقابه بما يستحق .

تعالوا الى كلمة سواء الآية ٦٤ ـ ٦٨ :

قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ ٱللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ★ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ★ هَا أَنْتُمْ هٰؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ★ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ★ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱللهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ★

اللغة :

سواء العدل والانصاف ، والحنيف المائل عن العقائد الزائفة .

الإعراب :

المصدر من ان لا نعبد محل جر بدل من كلمة ، وشيئاً مفعول بـه ، لأن المراد به كل شيء من انسان وغيره ، وها أنتم الهاء للتنبيه ، كالهاء في هذا ، وأنتم مبتدأ ، وهؤلاء عطف بيان أو بدل ، وجملة حاججتم خبر لأنتم ، واللام في للذين للتوكيد ، والذين خبر إن ، وهذا النبي عطف على الخبر .

المعنى :

(قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله). يؤمن اليهود بالتوراة، ويؤمن النصارى بالتوراة والانجيل ، ويؤمن المسلمون بالتوراة والانجيل والقرآن ، وقد أجمعت هذه الكتب الثلاثة على ان وراء الكون مدبراً حكيمـاً .. ولكن النصارى بالغوا في الغلو ، فجعلوا لله شركاء ، ونسبوا له ولداً، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابـاً من دون الله ، يحللون لهم ، ويحرّمون ، ويغفرون الخطايا والذنوب،ويبيعون أذرعاً في السماء .. روي ان عدي بن حاتم قال لرسول الله : ان الله يقول في كتابه العزيز : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ». مع ان النصارى لا يعبدون الأحبار والرهبان .. فقـال له الرسول (ص) : أما كانوا يحللون لكم ويحرّمون،فتأخذون بأقوالهم ؟. قال عدي : نعم . قال (ص): هو ذاك .

وما زلنا ، ونحن في القـرن العشرين ، نقرأ في الصحف ، ونسمـع من الاذاعات ان ٠٠٠ تشرّف بمقابلة البابا ، ومنحه البابا البركة ، وكذا يمنح البركة الكردينال والبطريرك .. أما المسلمون فإنهم يعتقدون ان البركة لا تكون ولن تكون الا من الله : « رحمة الله وبركاته عليكم – ٧٣ هود » .

أما اليهود فقد أنكروا عيسى (ع) ، وحاولوا صلبه ، وكفروا بمحمد(ص)، وهم على علم من صدقه ، قال تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

وجادل النبي أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، وأورد عليهم أنواع الدلائل ، ولم يدع لهم منفذاً ، ولكنهم أصروا على الكفر ، ثم دعاهم الى المباهلة ، ولكنهم فضلوا أداء الجزية بصغار على الاعتراف بالحق .. ورغم هذا كله فقد ظل حريصاً على أن يؤمنوا ، وهذا شأنه مع كل جاحد ، حتى خاطبه الله تعالى في الآية ١٠٣ من سورة يوسف : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » وفي الآية ٣٧ من سورة النحل : « ان تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل » .

وتأكيداً للحجة على المعاندين ، واظهاراً لحقيقتهم لدى النبي ، والناس أجمعين قال تعالى : يا محمد دع جدالهم ومباهلتهم ، واسلك معهم هذا المنهج الذي يشهد كل ذي لب انه العدل والحق .. بل انه البديهة والضمير والوجدان، وذلك أن تدعوهم الى ما أقره العقل والكتب السماوية بكاملها ، وهو أن تستووا جميعاً في عبادة الله وحده لا شريك له .. لا يعبد بعضكم بعضاً ، ولا يعلو بعضكم على بعض ، وهذه هي كلمة سواء .

(فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) . أي فإن لم يقبلوا ، حتى هذه البديهة ، وأبوا الا الشرك والعناد فأعرض عنهم ، وقل لهم أنت ومن آمن بك: (اشهدوا بأنا مسلمون) . وفي اشهاد الكافرين على اسلام المسلمين فائدتان :

الأولى : اشعار الكافرين بعدم المبالاة بهم وبكفرهم ، وان محمداً ومن معه يؤمنون بالحق ، وبه يعملون ، حتى ولو كفر أهل الشرق والغرب .

الفائدة الثانية : الاشارة إلى أن المسلمين يتميزون عن غيرهم بعبادة الله الواحد الأحد ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً ارباباً من دون الله ، ولا لأحد منهم كائناً من كان سلطة التحليل والتحريم ، وغفران الذنوب ، كما هي الحال عند غيرهم .

(يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون) . جادل القرآن أهل الكتاب بالعقل والمنطق ، ثم دعاهم إلى المباهلة ، ثم إلى كلمة سواء ، وهي الإيمان بالله وحده ، ثم استأنف القرآن جدال أهل الكتاب من جديد ، وعاد الى ما كان عليه أولاً ، كعادته من التعرض للشيء، ثم الانتقال إلى غيره ، ثم الرجوع اليه .. عاد الى أهل الكتاب، وذكر بعض أقوالهم وأبطلها ، ذكر قول اليهود : ان ابراهيم كان يهودياً ،

وقول النصارى انه كان نصرانياً ؛ ورد هذا الزعم بالبديهة ، لأن اليهودية حدثت بعد موسى ، وبينه وبين ابراهيم ألف سنة ، والنصرانية حدثت بعد عيسى ، وبينه وبين ابراهيم ألفا سنة ، كما جاء في تفسير روح البيان ، فكيف يكون السابق على دين اللاحق (أفلا تعقلون) .

ويذكرنا قول النصارى واليهود بنادرة يتناقلها اللبنانيون ، ويتندرون بها، وهي أن رجلين تصاحبا صدفة في سفر ، ولما أخذا بالحديث سأل أحدهما صاحبه : هل حججت في مكة المكرمة ؟ فقال له : أجل أديت ما عليّ ، والحمد لله . فقال له صاحبه : هل رأيت زمزم هناك ؟ قال : نعم ، انها بنت كويّسة .. قال له : ويلك . انها بئر ماء ، وليست بنتاً .. قال : اذن حفروها بعد ما أديت الفريضة .

وحكاية المذاهب والفرق التي حدثت بعد الرسول الأعظم (ص) تشبه حجة هذا الرجل الى حد بعيد .. وكل من أخذ دينه عن انسان فهو من هذا النوع إلا إذا ثبت النص عليه من الرسول الأعظم (ص) كثبوت حديث الثقلين الذي أوجب الأخذ والتعبد بكتاب الله وأهل بيت رسول الله ، وساوى بينهما، وذكرنا ذلك عند تفسير الآية ٣٩ من سورة البقرة .

(ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) . قد يتخصص الانسان بعلم من العلوم، أو بموضوع من الموضوعات ، وعليه فله أن يجادل فيه ويناقش ، وليس من الضروري أن يكون مصيباً في جميع أقواله وجداله ، وانما المهم أن يكون من أهل المعرفة به، ولو في الجملة .. اما أن يجادل ويناقش في أمر لا يعرف عنه شيئاً ، ويبعد عنه كل البعد ، أما مثل هذا الجدال والنقاش فهو جهل وحماقة .

وأهل الكتاب لهم علم بدينهم الذي اعتقدوا بصحته ، فيكون لجدالهم فيه وجه ، ولو بحسب الظاهر ، أما جدالهم في دين ابراهيم فلا وجه له واقعاً ، ولا ظاهراً ، لأنهم لا يعرفون عنه شيئاً .

(ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين). لم يكن يهودياً ، لأن بينه وبين موسى ألف سنة ، ولم يلتق في عقيدته وواقعه بالديانة اليهودية، لأنها محرفة عما جاء به موسى (ع) ، ولم يكن ابراهيم نصرانياً،

لأن بينه وبين عيسى ألفي سنة ، ولم يلتق بالديانة المسيحية ، لأنها محرفة عما جاء به عيسى (ع) .. وإذا لم يكن ابراهيم مسلماً بالمعنى المعروف فإنه في واقعه وايمانه يلتقي مع الاسلام ، لأنه يؤمن بالله المنزه عن الشريك والشبيه ، وهذا الايمان هو الأصل الأساسي لدين الاسلام ، وبهذا يتبين لنا الجواب عن سؤال من يسأل : ان القرآن أنزل بعد ابراهيم فكيف يكون مسلماً ؟ وسبق البحث مفصلاً في أن جميع الأنبياء كانوا مسلمين عند تفسير الآية ١٩ من هذه السورة .

والحنيف هو المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق ، أما قوله تعالى: (وما كان من المشركين) فان فيه تعريضاً بالنصارى القائلين : المسيح ابن الله، وباليهود القائلين : عزير ابن الله، وبالعرب الذين كانوا يعبدون الأصنام .. وكان ابراهيم موضع اجلال هذه الفرق الثلاث .

(ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) . أي ان احق الناس بالانتساب الى دين ابراهيم الذي يجله الجميع هم الذين استجابوا لدعوته من أمته ، أو يلتقون معه ويلتقي معهم في العقيدة والإيمان ، كمحمد ومن معه . قال الإمام علي (ع) : ان أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به ، ثم تلا الآية ، وقال : ان ولي محمد من أطاع الله ، وان بعدت لحمته ، وان عدو محمد من عصى الله وان قربت قرابته . (والله ولي المؤمنين) به، وحده لا شريك له ، ولا يلجأون الى غيره في كشف الضر، وطلب النفع .

ولا شيء أدل على عظمة الإمام واخلاصه لله وللحق وتجرده عن الغايات والأهداف الدنيوية من قوله هذا ، وعدم تشبثه بالقرابة ، مع العلم بأنه أقرب الناس لحمة للرسول (ص) ، وما ذاك الا لأنه يستمد عظمته من نفسه وأعماله لا من الأرومات والقرابات ، ولا من التمويه والتغطيات .

وما يضلون الا أنفسهم الآية ٦٩ – ٧١ :

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ

وَمَا يَشْعُرونَ★ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِــآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُم تَشْهَدُونَ★ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تعْلَمُونَ★

الإعراب :

لم اللام حرف جر ، وما للاستفهام ، حذفت ألفها للتخفيف ، وفتحت الميم للدلالة على الألف المحذوفة ، ومثلها عمّ يتساءلون ، وفيمَ تبشرون ؟.

الاسلام قوة للاديان السماوية :

(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وهم لا يشعرون) . المراد بطائفة من أهل الكتاب جماعة من رؤساء أديانهم .. وتنطبق هذه الآية كل الانطباق على المبشرين المسيحيين .. انهم يحاولون جهد المستطيع أن ينصّروا المسلم ، فإن استعصى عليهم حاولوا تضليله وتشكيكه في الإسلام ، مكتفين أن يكون لادينياً .. ولكنهم بهذا يسيئون الى أنفسهـــم ، من حيث لا يشعرون ، لأن ضعف الإسلام كدين يوجه الناس الى الايمان بوجود مدبر حكيم وراء هذا الكون – يعني انهزام جميع الأديان ورؤوسها الذين يسيرون في هذا الاتجاه ، ومنهم القائمون على الديانة المسيحية .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون » .

ولا أدري لماذا لم يتنبه المفسرون الى هذا المعنى مع وضوحه ، حيث قالوا : ان المراد بإضلال أهل الكتاب لأنفسهم هو عقابهم غداً عــلى محاولتهم اضلال المسلمين . أما الشيخ محمد عبده والرازي فقد فسرا ضلالهم لأنفسهم بأن محاولة اضلال المؤمنين لم تجدهم نفعاً ، بل تعود عليهم بالخيبة والفشل ، إذ ما من مسلم

يستجيب لهم،وينخدع بأضاليلهم .. والصحيح ما ذكرناه من ان ضعف الإسلام هو ضعف للاديان السماوية وأهلها .

وعلى أية حال ، فإن الإسلام بأصوله ومبادئه أقوى من أن تهزمه الديانة المسيحية وغيرها من الديانات ، فلقد دخل في دين الإسلام أفواج من الوثنيين وأهل الكتاب عن رضى واقتناع ، وفيهم العلماء والمتنورون ، وما عرفنا واعياً واحداً ترك الإسلام بعد أن اعتنقه وعرف حقيقته .

قال الكونت الفرنسي هنري دي كاستري في كتاب «الإسلام سوانح وخواطر» فصل « الإسلام في الجزائر » ، قال ما نصه بالحرف : « لقد شاهدنا الإسلام يبرهن على قوته وحياته باكتساب الوثنيين في افريقيا ، وتجنيدهم تحت راية القرآن .. وليس من أهل الإسلام من يمرق عنه الى غيره .. ومن الصعب على أحد المسيحيين أن يُنصّر مسلماً ، والسبب هو اعجاب المسلم كل الاعجاب بكونه من الموحدين » .

وبالمناسبة اشير الى هذه النادرة الطريفة : في العشرة الثالثة من هذا القرن ، أعني القرن العشرين ذهب جماعة من المبشرين المسيحيين الى مدينة العمارة بالعراق؛ وجميع أهلها شيعة مسلمون، ذهبوا الى هذه المدينة بقصد تحويل أهلها أو البعض منهم الى النصرانية ، وأنشأوا لهذه الغاية مدرسة ومستوصفاً في المدينة ، وبثوا الدعايات ، وأقاموا الحفلات ، وبذلوا الأموال الطائلة .. وكان خطيبهم يعتلي المنبر ، ويعدد ، ويردد معجزات السيد المسيح (ع) .. ولكن كلما ذكر معجزة صاح المسلمون بأعلى أصواتهم: صلوات الله على محمد وآل بيت محمد .. ولما تكرر ذلك مرات ومرات ، ولم تجدهم الأموال والمدرسة والمستوصف نفعاً يئسوا وعادوا من حيث أتوا خائبين خاسرين .

(يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) . المراد بآيات الله هنا الدلائل على نبوة محمد (ص) وصدق القرآن،وسمو تعاليم الإسلام : (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) . المراد بالحق هنا ما استبان لأهل الكتاب من صدق الإسلام ونبيه .. وقد كان بعض أهل الكتاب، وما زالوا يدسون ويكيدون للمسلمين ودينهم ، وينسبون الى نبيهم واليهم والى قرآنهم الأكاذيب والافتراء .. من ذلك على سبيل المثال : « ان محمداً كان

يدعو الناس الى عبادته في صورة وثن من ذهب ، وانه كان يضرب بالطبل والزمر ، وانه مختل الأعصاب مضطرب العقل ، الى غير هذه الألفاظ التي تدل على الحقد والضعة والخساسة[1] .

وقال الدكتور زكي نجيب محمود في كتاب « أيام في أمريكا » : انه حضر في الولايات المتحدة تمثيلية كلها سخرية من القرآن ، وازدراء للاسلام، واستخفاف وتحقير لمحمد (ص) .. هذه هي بلاد النور والحضارة ، والتي تزعم انها تحمل شعار الدين ، وتلقي قنابلها على المستضعفين باسم محاربة الإلحاد .

آمنوا وجه النهار واكفروا آخره الآية ٧٢ - ٧٤ :

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ★ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ★ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ★

الاعراب :

وجه النهار منصوب على الظرفية متعلق بآمنوا، وآخره ظرف متعلق باكفروا .

---

١ هذه البذاءات وما اليها جاءت في مقدمة كتاب الإسلام سوانح وخواطر للفرنسي دي كاستري ، نقلها المؤلف من كتب كثيرة ، وضعها الغربيون للشتم والطعن بالإسلام ونبي الإسلام ، ثم فندها ، ورد عليها بالحجة ومنطق الحق .. وصدق الله حيث يقول : ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك ٧٥ آل عمران.

المعنى :

(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) . أي يرجع المسلمون عن الإسلام ، وتشير الآية الى خدعة تواطأ عليها جماعة من رؤساء أهل الكتاب ، وخلاصتها أن يظهروا الاسلام أول النهار ، ويرتدوا عنه في آخره عسى أن يقع بعض ضعاف النفوس والعقول من المسلمين في الشك والبلبلة ، ويقول لولا ما ظهر لهم من عدم صدق محمد (ص) لم يكفروا بعد أن آمنوا به ..

وتسأل : هل نفذوا هذه الحيلة التي تواطأوا عليها ، أو ان الله سبحانه أخبر نبيه وفضحهم قبل أن يقدموا على التنفيذ ؟

الجواب : ان كل ما دلت عليه الآية انهم قالوا ، أما وقوفهم عند حد القول ، أو تجاوزهم عنه إلى الفعل فقد سكتت عنه ، ونحن أيضاً نسكت عما سكت الله عنه .. وعليه فلا وجه لما جاء في كثير من التفاسير انهم صلوا مع النبي صلاة الصبح، ثم رجعوا آخر النهار ، وصلوا صلاتهم ، ليرى الناس انه قد بدت لهم ضلالة الدين . اللهم الا أن يصح النقل بذلك .

(ولا تؤمنوا إلا لمن اتبع دينكم) . كثيراً ما يساء فهم هذه الآية،ويُستشهد بها على انها من كلام الله سبحانه ، لا من كلام اليهود ، بل سمعت أكثر من واحد يلفظ بها (ولا تأمنوا) معتقداً ان الله سبحانه أراد بهذه الآية أن لا نأتمن إلا من كان على ديننا .

والصحيح ان الآية بقية من كلام المعاندين الماكرين من أهل الكتاب .. وقد نقلها الله تعالى حكاية لكلامهم، أي ان بعض أهل الكتاب قالوا لبعضهم الآخر: آمنوا أول النهار ، واكفروا في آخره ، وقالوا أيضاً : (لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) . والمراد من لا تؤمنوا،الاطمئنان ، لا الأمانة ولا الاعتقاد ، وإلا تعدت بالباء لا باللام ، والمعنى ان بعض أهل الكتاب قال لبعض : لا تطمئنوا لأحد إلا لمن اتبع دينكم ، تماماً كقوله تعالى : ويؤمن للمؤمنين،أي يطمئن لهم .

(قل ان الهدى هدى الله) . هذه جملة معترضة خاطب الله بها نبيه قبل أن ينتهي من حكاية أقوال أهل الكتاب ، والقصد من قوله : (الهدى هدى الله)

الرد على محاولة أهل الكتاب المجرمة ، وخديعتهم بإظهار الإسلام ، ثم اظهار الارتداد عنه ، ليشككوا بذلك ضعاف العقول من أتباع الرسول الأعظم (ص)، القصد الرد عليهم بأن هذه الخديعة لا تجديهم شيئاً ، لأن الإسلام هداية من الله لا تزيله ولا تزعزعه المكائد والمصائد .. قال تعالى : « ومن يهد الله فما له من مُضِلّ – ٣٧ الزمر » .

(أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجّوكم عند ربكم) : هذا آخر ما حكاه هنا من كلام أهل الكتاب . وخلاصة المعنى ان رؤوس أهل الكتاب كانوا يعتقدون بينهم وبين أنفسهم بأنه يجوز أن يرسل الله نبياً من غير بني اسرائيل ، وان النبوة ليست وقفاً عليهم .. ولكنهم بعد ان جاء محمد (ص) أظهروا أمام الناس، حسداً وبغياً، ان كتبهم ودياناتهم تحتّم أن يكون النبي من بني اسرائيل وحدهم ، دون غيرهم ، أظهروا هذا ، وهم يعلمون بأنهم كاذبون ومعاقبون، ومحجوجون غداً عند الله ، وخافوا أن يصل علمهم بأنهم كاذبون محجوجون عند الله ، أن يصل الى المسلمين ، فيزدادوا تمسكاً بالإسلام ، لذلك قال بعضهم لبعض : اياكم أن تقولوا أمام المسلمين : انّا نحن أهل الكتاب نعتقد بأنه يجوز أن يؤتي الله النبوة لغير اسرائيلي، أو تقولوا أمام المسلمين : انّا محجوجون غداً ومغلوبون ، لكتماننا الحق ومعاندته .

وبتعبير ثانٍ ان أهل الكتاب ، وبخاصة اليهود، قد علموا علماً أكيداً انهم على ضلال بتكذيبهم محمّداً (ص) ، وخافوا أن يخبر المسلمين مخبر منهم بهذه الحقيقة ، فتواصوا بالتستّر على ضلالهم ، واظهار ان النبي لا يكون ولن يكون عربياً .

هذا هو خلق اليهود منذ وُجدوا ، حتى اليوم ، والى آخر يوم .. يكذبون ويعلمون انهم يكذبون ، ويتخذون ستاراً واهياً من التلبيس والتمويه ، ولكن سرعان ما يفتضحون .. وليس القرآن الكتاب الوحيد الذي سجل رذائلهم وجرائمهم فإن كتب الأديان ، وبخاصة الإنجيل ، وكتب التاريخ والصحف والاذاعات كلها تردد وتكرر تاريخهم المجرم الآثم .. وهذا هو السر في اضطهاد الأمم لهم ، والتنكيل بهم من عهد فرعون الى عهد هتلر .. وما استطاعت أمة على وجه

الأرض قديماً وحديثاً ان تحتملهم الا الولايات المتحدة .. لأن شبه الشيء منجذب اليه .

(قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) . قال المفسرون: المراد بالفضل هنا خصوص النبوة والرسالة ، وانها بيد الله تعالى يختار لها من هو جدير بها ، وكفؤ لها ، سواء أكان اسرائيلياً ، أو عربياً ، وانه سبحانه قد رد بذلك على اليهود الذين أعلنوا بأن الله لا يبعث نبياً الا منهم .

هذا ما قاله أهل التفسير ، واستدلوا بأن السياق يدل عليه ، لأنه بصدد الحديث عن أهل الكتاب ومزاعمهم الكاذبة ، وخدعهم الباطلة .

والذي نراه ان الفضل في الآية باقٍ على عمومه ، وانه يشمل النبوة والحكمة والهداية والإسلام ، وغيره من الفضائل ، وكما يتحقق الرد على اليهود مع ارادة خصوص النبوة من الفضل كذلك يتحقق مع ارادة العموم ، لأن النبوة من جملة أفراد الفضل والفضيلة .

في أهل الكتاب أمين وخائن الآية ٧٥ – ٧٦ :

وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ★ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ★

اللغة :

المراد بالقنطار هنا العدد الكثير ، وبالدينار العدد القليل ، والمراد بالأمين

العرب نسبة الى الأم ، أي من لا يقرأ ولا يكتب، كما خلقته أمه ، والعهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك .

الإعراب :

يجوز أن تقول : أمنتك بهذا بمعنى وثقت بك فيه ، وان تقول : أمنتك عليه بمعنى جعلتك أميناً عليه ، ويجوز أن تقول : مررت به ، أي ملاصقاً ، ومررت عليه ، أي على المكان القريب منه ، وبلى تستعمل كثيراً جواباً عن نفي سابق لتثبته ، وقد تستعمل في ابتداء الكلام ، كما لو قال قائل : أنا من المخلصين ، فتقول له : بلى من جاهد في سبيل الله فهو مخلص ، والمراد بها هنا المعنى الأول .

المعنى :

(ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك) . المراد ان في أهل الكتاب من هو في غاية الأمانة ، حتى لو ائتمنته على الأموال الكثيرة أدى الأمانة ، وفيهم من هو في غاية الخيانة لا يؤتمن على الدينار الواحد .. وذكر الأمانة على المال دون غيره، لأنه هو المحك الصحيح الذي يميز بين السليم والسقيم .

لا حياة الا للمستميت :

(الا ما دمت عليه قائماً) . الخائن يطلب أكثر من حقه ، ولا يؤدي ما عليه ، أو بعض ما عليه بدافع من نفسه ، لأنه ميت الضمير، ولا وسيلة لانتزاع الحق منه الا القيام عليه ، كما قال جلت حكمته ، ومعنى القيام على الخائن المغتصب أن تثور عليه ، وتجاهده وتناضله بكل ما لديك من قوة .. وقديماً قيل: « الاستقلال يؤخذ ، ولا يعطى » .

والثورة على الخائن المبطل فرض وحتم ، والا عم الفساد في الأرض .. ان جريمة المظلوم القادر على دفع الظلم عن نفسه ، تماماً كجريمة الظالم من حيث ان كلاً منهما يمهد لاشاعة الظلم والفساد .. ولو علم الظالم ان بين جوانح المظلوم عاطفة تدفعه الى الاستماتة دون حقه لتحاماه .. وقد دلتنا التجارب انه لا حق في الأمم المتحدة ، ولا في مجلس الأمن الا للقوة ، وانه لا حياة للانسان في القرن العشرين ، بخاصة الشرقي ، وبوجه أخص العربي الا للمستميت .

(ذلك بأنهم قالوا ليس في الأميين سبيل) . والمعنى ان أهل الكتاب انما استحلوا أموال العرب لأنهم زعموا بأن الله سبحانه لا يعاقبهم على اغتصابها [1] .. فرد الله افتراءهم هذا بقوله : (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) . وليس من شك ان من كذب على الله عامداً متعمداً كانت خيانته أعظم، وجريمته أفحش .

وتسأل : ان كل الطوائف ، وأهل الأديان، بل والملحدين أيضاً فيهم الأمين والخائن والصادق والكاذب .. وكم من ملحد هو أصدق لهجة ، وأوفى ذمة من كثير من الصائمين المصلين .. اذن ما هو الوجه لتخصيص أهل الكتاب بهذا التقسيم ؟.

الجواب : أولاً سبق ان الله سبحانه قال : ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم . ثم قال أيضاً : وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا أول النهار ، واكفروا آخره ، وبيّن في هذه الآية ان منهم الخائن والأمين ، ولم ينف هذا التقسيم عن غيرهم ، حتى يرد الاعتراض .

ثانياً : انه من الجائز ان يتوهم متوهم بأن جميع أهل الكتاب خونة ، فدفع الله هذا الوهم بأنهم كسائر الطوائف ، وأهل الأديان فيهم ، وفيهم ...

(بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) . بلى اثبات لما نفاه أهل الكتاب بقولهم : (ليس علينا في الأميين سبيل) . وانهم كاذبون في هذا الزعم .. وبعد ان أثبت سبحانه السبيل على من يستحل أموال الناس أخبر بأن

---

[1] لا أدري : هل الدول الغربية التي تنهب مقدرات الشعوب العربية من نسل الذين قالوا : ليس علينا في الاميين سبيل .

من يفي بالعهد ، ويتقي المحرمات فهو محبوب عند الله .. وجاء في الحديث عن النبي انه قال : ما من شيء في الجاهلية الا هو تحت قدمي الا الأمانــة فإنها مؤداة الى البر والفاجر .

وقال الإمام زين العابدين (ع) : لو ان قاتل أبي الحسين ائتمنني على السيف الذي قتل به أبي لأديته اليه .. وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : ثلاثة لا عذر فيها لأحد : أداء الأمانة الى البر والفاجر ، وبر الوالدين برين كانا،أو فاجرين، والوفاء بالعهد الى البر والفاجر .. ومن هنا اتفق فقهاء الشيعة الإماميــة على ان الكافر اذا أعلن الحرب على المسلمين يحل دمه ، ولا تجوز خيانته ، فلو افترض انه كان قد أودع مالاً عند مسلم وجب على المسلم أن يرد له أمانته ، مع العلم بأنه يجوز له قتله ، ونهب أمواله غير الأمانة .

لا دين لمن لا عهد له الآية ٧٧ :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ★

المعنى :

قال الرازي في تفسير هذه الآية : « يدخل فيها جميع ما أمر الله بــه ، ويدخل ما نصب عليه الأدلة ، ويدخل المواثيق المأخوذة من جهــة الرسول ، ويدخل ما يُلزم الرجل به نفسه ، لأن كــل ذلك من عهد الله الذي يلزم الوفاء به » .

وفي الحديث ان رسول الله (ص) ما خطب خطبة الا وقال فيها : «ولا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له» .

وتدلنا هذه الآية وهذا الحديث ، وغيرهما كثير من الآيات والأحاديث ، تدلنا ان الإسلام يرتبط بالأخلاق ارتباطاً وثيقاً ، ومن ثم أوجب الوفاء بكل التزام وتعامل يقع مع الغير ، واعتبره تعاملاً مع الله والتزاماً له بالذات ، حتى ولو كان الطرف الثاني ملحداً، على شريطة ان لا يتنافى الالتزام مع المبادىء الأخلاقية، والا وقع باطلاً .

وكذلك الحال بالنسبة الى القضاء وفصل الخصومات ، حيث أوجب الإسلام على القاضي أن يصغي الى صوت الضمير وحجة الأخلاق قبل أن يستمع الى أقوال المتخاصمين .. ان النظرية الأخلاقية هي الركيزة الأولى للشريعة الإسلامية بجميع قواعدها وأحكامها ، دون استثناء ، ومن أجل هذا هدد الله الذين ينكثون بالعهد ، ويغدرون بالأمانة بما لم يهدد به أحداً من مرتكبي الكبائر والجرائم ، وذلك حيث يقول عز من قائل : (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) . أما السر لهذا الحرص الشديد على الوفاء ، والتهديد على مخالفته فهو الحفاظ على المصالح ، وتبادل الثقة بين الناس ، وصيانة الحقوق التي هي أساس الأمن والنظام .

يلوون ألسنتهم بالكتاب الآية ٧٨ :

وَإِنَّ مِنْهُم لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ★

المعنى :

(وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) . هذه الآية عطف على الآية التي قبلها ، وهي (من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار) . واللّيّ معناه عطف الشيء ورده عن الاستقامة الى الاعوجاج ، والمراد به هنا التحريف ، وقد سجل الله على أهل الكتاب انهم حرّفوا كلام الله وسجل ذلك عليهم في العديد من الآيات ، منها : « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً – ٩١ الانعام » ، ومنها : « .. يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون – ٧٥ البقرة . ومن اطلع على التوراة جزم بأنها افتراء على الله ، حيث نسبت اليه تعالى الأكل والمصارعة، كما نسبت الى الأنبياء السُكْر والخمر والزنا ببناتهم .

ثم ان التحريف يتحقق بالتطعيم والتقليم ، كأنْ يزاد في الكتاب ، أو يحذف منه ،وأيضاً يتحقق بتحريف الحركات تحريفاً بغير المعنى ، فيجعل الفاعل مفعولاً ، والمفعول فاعلاً ، وأيضاً يتحقق التحريف بالتفسير ، فيفسر – مثلاً – يد الله باليد الحقيقية ، لا باليد المجازية ، وهي القدرة .

واختلف المفسرون في نوع التحريف المراد بهذه الآية على أقوال ، وذهب الشيخ محمد عبده الى أن المراد بالتحريف هنا تحريف التفسير ، واعطاء اللفظ معنى غير المعنى المراد منه ، وضرب مثلاً على ذلك بلفظ (أبانا الذي في السماء) الذي جاء على لسان السيد المسيح فإن المراد منه رأفة الله ورحمته بعباده، ولكن بعض الرؤوس فسّره بأن الله أب حقيقي لعيسى (ع) .

والذي نميل اليه في تفسير هذه الآية ان ذاك الفريق من أهل الكتاب كان يلوك ألفاظاً من عندياته ، ويخترعها من مخيلته ، ويوهم الناس انها من كتاب الله ، كي يعتقدوا بالباطل .. وعلى هذا يكون لفظ الكتاب الأول الوارد في الآية موصوفاً بصفة محذوفة،وهي المزعوم ، ولفظ الكتاب الثاني والثالث موصوفاً بصفة محذوفة أيضاً ، وهي الحقيقي ، والتقدير يلوون ألسنتهم بالكتاب المزعوم المحرّف لتحسبوا أيها الناس هذا المحرّف المزعوم من الكتاب الحقيقي الأصيل ، وما هو من الكتاب الأصيل في شيء .

أما قوله تعالى : (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) فتأكيد لقوله : (وما هو من الكتاب) . وقيل : بل هو من باب عطف العام على الخاص ، لأن الكتاب مختص بالوحي المُنزل على النبي ، أما الذي من عند الله فيكون وحياً مُنزلاً على النبي ، ويكون سنة نبوية ، ويكون حكماً عقلياً .

كونوا ربانيين الآية ٧٩ – ٨٠ :

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ★ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَائِكَةَ وَٱلنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ★

اللغة :

ربانيين جمعٌ واحده رباني ، ومعناه المتأله الذي يعلم كتاب الله ، ويعمل به ، ويعلّمه للغير ، قال الإمام علي (ع) : الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، أي يسير على طريق النجاة ، ولا ينجو الا اذا أتقن العلم ، وهمج رعاع .

الإعراب :

يقول بالنصب عطفاً على أن يؤتيه ، وبما كنتم ما مصدرية ، أي بكونكم ، ولا يأمركم بالنصب عطفاً على يقول .

المعنى :

(ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) . ليس من شك ان الذي يختاره الله للكتاب والحكم والنبوة يمتنع عليه أن يدعو الناس لعبادته ، لأن هذا كفر ، والله لا يختار الكافرين ، قال تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » .

والآية الكريمة رد على من يلصق بالأنبياء والأولياء صفة من صفات الربوبية، كما انها – أي الآية – شهادة منه تعالى بتنزيه الأنبياء ، وتبرئتهم من الرضا بالغلو فيهم .. ان النبي يوقن بأنه عبد من عباد الله،وان الله وحده هو المعبود، فكيف يعقل أن يدعو الناس لعبادته،أو عبادة الملائكة .. وانما يأمرهم أن يكونوا ربانيين ، أي عالمين عاملين معلمين .

وفي الحديث ان رجلاً قال لرسول الله (ص) : أنسجد لك ؟. فقال : لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله . وقال له آخر : أتريد أن نعبدك،ونتخذك إلهاً ؟. فقال : معاذ الله !. ما بذلك أمرت ، ولا اليه دعوت .. أما حكاية احراق الإمام علي في النار من نسب اليه الربوبية فأشهر من أن تذكر .. وكل من دعا الناس الى عبادته فهو كافر ، وكل من دعاهم الى تعظيمه بقصد التعاظم والاستعلاء فهو فاسق .

وتسأل : لقد تضمنت الآية ثلاثة ألفاظ : الكتاب والحكم والنبوة، وكل لفظ منها واضح المعنى لا يحتاج الى تفسير لو كان بمفرده ، لكنها اذا اجتمعت في كلام واحد ، وعُطف بعضها على بعض فإنها تحتاج الى تفسير ، لأن معانيها متداخلة ، بخاصة ايتاء الكتاب والنبوة ، مع العلم بأن العطف يقتضي التغاير .. فما وجه الفرق بين هذه الكلمات الثلاث الذي سوغ عطف بعضها على بعض ؟.

الجواب : المراد بالكتاب الكتاب المُنزل من الله، كالتوراة والزبور والانجيل والقرآن ، والمراد بالحكم العلم والسنة النبوية ، قال تعالى عن يحيى : « وآتيناه الحكم صبياً – ١١ مريم » ، أما النبوة فمعناها معروف ، وهي وان كانت تستلزم معرفة الكتاب والسنة ، ولكن معرفتها لا تستلزم النبوة ، فكل نبي عالم بالكتاب

والسنة ، وليس كل عالم بالكتاب والسنة نبياً . ونظير هذه الآية قوله تعالى مشيراً الى الأنبياء « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة – ٨٩ الانعام . »

(ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) . أي ان النبي يقول للناس : « كونوا عالمين بكتاب الله ، عاملين به ، معلّمين اياه لغيركم » . قال الشيخ محمد عبده : « أفادت هذه الآية ان الانسان يكون ربانياً بعلم الكتاب وتعليمه للناس ونشره ، ومن المقرر ان التقــرب الى الله لا يكون بالعلم وحده ، بل لا بد معه من العمل » .

(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) . أي ان النبي لا يأمر ، ولن يأمر أحداً بأن يتخذ معبوداً غير الله .. كيف ؟. (أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) . هم مسلمون ، لأنهم آمنوا بالنبي ، وأخذوا بأقواله .. وكل من آمن بنبي من أنبياء الله في أي عصر من العصور فهو مسلم باصطلاح القرآن. وسبق التفصيل عند تفسير الآية ١٩ من هذه السورة .

ومن تتبع آيات القرآن ، والسنة النبوية يجد ان من أبرز المظاهر الأصيلة التي تميز بها الإسلام عن غيره من الأديان هي التأكيد على انه لا يجوز بحال أن تنسب صفة الألوهية الى مخلوق نبياً كان أو ملكاً أو ولياً .. والسر في التكرار والتأكيد ان الانسان ميّال بفطرته الى الغلو ، كما نشاهد ذلك في بعض أهل الأديان .. وعلى الرغم من هذا التأكيد فقد وجد غلاة بين المسلمين .. وان كثيراً من مسلمي اليوم – ونحن في القرن العشرين – ينسبون الى بعض الموتى ما لا تجوز نسبته الا الى الله وحده لا شريك له .

تضامن الأنبياء الآية ٨١ – ٨٣ :

وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ

وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ★ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ★ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ★

اللغة :

الميثاق العهد المؤكد ، ومثله الإصر .

الإعراب :

لما آتيتكم يجوز كسر اللام على أنها حرف جر ، وما مصدرية ، والمعنى أخذ الله ميثاقهم لأجل ايتائه اياهم الكتاب والحكمة ، ويجوز أن تكون اللام مفتوحة على انها للابتداء ، ويعبر عنها بلام التوطئة أيضاً ، ومـا شرط في محل نصب على انها مفعول لآتيتكم ، ثم جاءكم معطوف على آتيتكم ، ولتؤمنن اللام جواب لقسم محذوف ، وتؤمنن سادّ مسد جواب القسم ، وجواب الشرط ،وهو لفظة ما كما قال الزمخشري ، وطوعاً وكرهاً قائمتان مقام المفعول المطلق ، أي أسلم اسلاماً طوعاً ، ويجوز أن يكونا بمعنى الحال ، أي طائعين ومكرهين .

بين النبي والمصلح :

لا فرق بين النبي والمصلح من حيث الصدق في النية ، والاخلاص في العمل، ويفترق النبي عن المصلح بأن النبي لا يخطىء ، لأنه يقول ويفعل بوحي من الله، أما المصلح فيعتمد على نظره واجتهاده ، والمجتهـد يخطىء ويصيب ، ومن ثم

أمكن الاختلاف بين المصلحين في الاجتهاد ووجهة النظر ، وصح نفي المسؤولية عن المخطىء ، أما الاختلاف بين الأنبياء فمحال ، لأنهم جميعاً يعتمدون على مصدر واحد ، وهو الوحي الذي يوجه الجميع ، فالأنبياء أشبه بموظفي الدولة لتبليغ أوامرها الى الرعايا والمواطنين .

ويترتب على هذا ان الله إذا بعث نبيين الى أمة واحدة ، وفي عصر واحد فإنهما يكونان متفقين في كل شيء ،كما حدث لموسى وهارون (ع) ،وإذا اختلف زمن الأنبياء وتعدد فإنهم متفقون جميعاً ، من حيث الفكرة والمبدأ ، بخاصة في الأصول الأساسية ، كالإيمان بالله واليوم الآخر ، وان كان هناك من اختلاف فإنما هو في الشكل،وفي الأحكام العملية التي تستدعيها بعض الظروف والملابسات .. حتى هذه يعترف جميع الأنبياء بأنها صدق وحق ، وضرورية في حينها ، وعليه فلا اختلاف بين الانبياء اطلاقاً .. ومن أجل هذا صدّق كل نبي ما جاء به الآخر متقدماً عليه كان أو متأخراً عنه .

وتسأل : من الممكن أن يصدّق اللاحق السابق ، بل ان ذلك واقع بالفعل ، فها نحن نؤمن بنبوة عيسى ومحمد (ص) .. وآمن ابراهيم بما جاء به نوح ، وموسى بما جاء به الاثنان،وعيسى بما جاء به الثلاثة ، وآمن محمد (ص) بالجميع.. ان هذا معقول جداً ، ولكن كيف يعقل ان يؤمن السابق بمن لم يوجد بعد ؟.

الجواب : ان الله سبحانه يوحي إلى النبي السابق بأنه سيرسل بعده نبياً اسمه وصفاته كذا ، وان على السابق أن ينوّه باللاحق ، ويبلّغ الجيل الذي هو فيه من أمته ، حتى يبلغ الجيل الذي يليه ، وهكذا فإذا أتى اللاحق وجد السبيل ممهداً لتصديقه والايمان برسالته .. ذكرنا هذه الفقرة تمهيداً وتيسيراً لفهم الآيات التالية .

المعنى :

(واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه). المفهوم من دلالة السياق ان المراد بالنبيين هنا الأنبياء والأمم التابعة لهم ، لا الأنبياء وحدهم ، والمراد بالرسول خصوص

محمد (ص) كما في الآية ١٠١ من سورة البقرة : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب ».

والمعنى ان الله سبحانه بعد أن بيّن للأنبياء ، والأمم التابعة لهم الدين أصولاً وفروعاً أخذ عليهم جميعاً عهداً بأن يؤمنوا بمحمد (ص) وبناصروه ، كما انه هو بدوره يصدّق من سبقه من الأنبياء ، وما تركوه من الكتب ، كالتوراة والانجيل .

ثم ان أخذ الله سبحانه الميثاق من الأنبياء انما يكون بطريق الوحي اليهم ، أما أخذه تعالى الميثاق من الأمم التابعة للأنبياء فيكون بواسطة الأنبياء ، أي ان كل نبي يأخذ الميثاق من علماء أمته أن يؤمنوا بمحمد ويناصروه ، وبتعبير أدق ان أخذ الميثاق على المتبوع يلزمه حتماً أخذه على التابع ، وإذا وجب على النبي أن يؤمن بمحمد وجب ذلك على اتباعه بطريق أولى ، ومعنى ايمان الانبياء بمحمد ومناصرته ،أن يعتقدوا بأنه آت من بعدهم ، وأن يبشروا بذلك ، قال تعالى : « واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً بنبي يأتي من بعدي اسمه أحمد — ٦ الصف » . وقال الإمام علي (ع) : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد في محمد (ص) وأمره أن يأخذ العهد على قومه فيه ، بأن يؤمنوا به ، وينا صروه إذا أدركوا زمانه .

ومعنى ايمان أمم الأنبياء بمحمد (ص) ومناصرتهم له ان يصدقه علماؤهم ورؤساء أديانهم ، ويعلنوا لمن يثق بهم ان محمد بن عبدالله هو النبي الذي بشر به الأنبياء، وجاء اسمه في الكتب السماوية ، بحيث ينطبق عليهم قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل — ١٥٧ الاعراف». ولا يحرفون كلام الله كفراً وعناداً له ولمحمد (ص) ، كما أخبر عنهم سبحانه في الآية ٧٥ من سورة البقرة : « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » .

(قل أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا) . الاستفهام هنا للتقرير والتوكيد ، والإصر الميثاق ، والمعنى ان الله قال للامم بلسان أنبيائهم : أأقررتم بمحمد وقبلتم العهد ؟ قالت الامم : نعم ،أقررنا بوجوب الإيمان به ومناصرته، وقبلنا ذلك والتزمناه ، والمراد بالأمم رؤساء الأديان وعلماؤهم العارفون بالكتب

السماوية . (قال فاشهدوا) . أي قال الله بلسان أنبيائه للأمم : ليشهد بعضكم على بعض بأنه أقر بنبوة محمد (ص) ووجوب مناصرته.(وأنا معكم من الشاهدين). ان الله وملائكته وأنبياءه يشهدون على أخذ هذا الميثاق من علماء الأديان واقرارهم به .. ولكن برغم ذلك فقد أنكر أحبار اليهود والنصارى هذا الميثاق ، وكذبوا محمداً ، ونصبوا له المكائد والمصائد ، كما سبق ذلك مفصلاً فيما تقدم من الآيات .

(فمن تولى بعد ذلك) . أي من أعرض عن الايمان بمحمد بعد أخذ الميثاق عليه ، والاقرار بمحمد ووجوب مناصرته (فأولئك هم الفاسقون) . المراد بالفسق هنا الكفر ، لأن كل من حرّف آية من كتاب الله ، أو أنكر نبياً من أنبياء الله على علم منه بنبوته فهو كافر .

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً). الاستفهام هنا للانكار والتوبيخ، والمراد بالإسلام الانقياد والخضوع . وكل الناس تؤمن بالله من غير فرق بين الصالح والطالح ، سوى ان الصالح يؤمن بالله طوعاً في هذه الحياة ، والطالح يؤمن به كرهاً يوم القيامة ، حيث ينكشف الغطاء ، ويرى كل جاحد البأس والعذاب وجهاً لوجه ، قال تعالى : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين – ٨٤ غافر » .

وهذا المعنى الذي فسّرنا به طوعاً وكرهاً لا يصعب على أحد فهمه وهضمه مهما كان مستواه .. ولكن الرازي فسّر (طوعاً وكرهاً) تفسيراً فلسفياً على طريقته ، وما قاله قريب الا انه للخاصة ، لا للعامة،وننقله لأولئك لا لهؤلاء ، قال :

« ان كل ما سوى الله سبحانه ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد الا بإيجاده ، ولا يعدم الا بعدمه ، فإذن، كل ما سوى الله منقاد خاضع لجلال الله في طرفي وجوده وعدمه ، وهذا نهاية الانقياد والخضوع » .

آمنا بجميع الأنبياء الآية ٨٤ - ٨٥ :

قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ★ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ★

المعنى :

مرّت الآية الأولى مع تفسيرها في الآية ١٣٦ من سورة البقرة ، والخلاصة ان كلاً من اليهود والنصارى يؤمنون ببعض الأنبياء ، ويكفرون ببعض ، أما المسلمون فإنهم يؤمنون بالجميع لأن دعوة الأنبياء واحدة ، وهدفهم واحد ، فالتفرقة بينهم من حيث الايمان بنبوتهم حكم على الشيء الواحد بالسلب والايجاب في آن واحد .

أما الآية الثانية ، وهي قوله تعالى : (ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) فيعرف المراد منها من مراجعة تفسير قوله تعالى : (ان الدين عند الله الإسلام) الآية ١٩ من هذه السورة .

ونجمل الاشارة الى اني رأيت البعض يستدل بالآية ٦٢ من سوره البقرة : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يستدل البعض بهذه الآية على انه لا فرق بين المسلم واليهودي والنصراني ما دام كل منهم يؤمن بالله واليوم الآخر .. وهذا خطأ من وجهين : الأول ان المراد بالمذكورين في الآية كل من مات على الايمان والعمل الصالح من أهل الأديان السابقة على محمد (ص) . وقد بيّنا ذلك مفصلاً عند تفسير الآية . الثاني ان

لفظ الآية وان كان عاماً بظاهره لكل زمان الا ان قوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) يخصص آية اليهود والنصارى بالمؤمنين منهم قبل عصر محمد (ص) ، أما من آمن بالله واليوم الآخر ، ولم يؤمن بمحمد بعد بعثته مع بلوغه دعوته فإن ايمانه ليس بشيء (وهو في الآخرة من الخاسرين).

كيف يهدي الله الكافرين الآية ٨٦ ـ ٨٩ :

كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ★ أُولٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ★ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ★ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ★

الإعراب :

كيف أصلها الاستفهام عن الأحوال ، والمراد بها هنا الانكار، ومحلها النصب بيهدي على انها مفعول مطلق ، أي أية هداية يهدي الله ، وشهدوا ان الرسول حق عطف على بعد ايمانهم ، حيث يجوز عطف الفعل على الاسم اذا كان الاسم بمعنى الفعل ، وبعد ايمانهم هنا بمعنى بعد أن آمنوا .

المعنى :

(كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم

البيّنات) . المراد بالرسول محمد (ص) ، وبالقوم أحبار اليهود والنصارى، لأن الله سبحانه وصف هؤلاء القوم بأنهم آمنوا به ، وشهدوا له بالرسالة ، ولكنهم بعد ان بُعث ، وجاءهم بالبيّنات والدلائل على نبوته أنكروه،ورفضوا متابعته ، وهذه الأوصاف تنطبق كل الانطباق على أحبار اليهود والنصارى ، لأنهم وجدوا اسم محمد مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ، وانهم لذلك آمنوا به قبل مبعثه .. غير انهم لما بُعث ، وجاءهم بالبينات كفروا به بغياً وحسداً ، وحرّفوا كل آية تدل عليه تصريحاً أو تلويحاً .

وتسأل : ان الظاهر من قوله تعالى : (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد ايمانهم) ان الله سبحانه لا يريد رجوعهم الى الإسلام لو حاولوا التوبة والإنابة . وينبغي على هذا أن لا يستحقوا ذماً ولا عقاباً ؟.

الجواب : ان الله سبحانه يقيم للعبد الدلائل على الحق فإن آمن به كان من المهتدين ، وكانت هدايته من الله ، لأنه أقام له الدلائل على الحق ، وأيضاً تكون الهداية من العبد ، لأنه اهتدى باختياره ، فإن ارتد بعد الهداية مكابرة وعناداً فإن الله يدعه وشأنه في هذه الحياة ، ولا ينصب له دلائل جديدة، حيث لا مزيد ، وأيضاً لا يجبره على الهداية ، لأنه لا تكليف مع الجبر والقهر .

(أولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) . أي انهم مستحقون لذلك ، ولعنة الله عبارة عن غضبه وسخطه ، ولعنة الملائكة والناس عبارة عن الدعاء عليهم بأن يعذبهم الله ، ويبعدهم عن رحمته . وجاء في نهج البلاغة ان علياً أمير المؤمنين (ع) كان يخطب على منبر الكوفة : فاعترضه الأشعث قائلاً : يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك . فقال له أمير المؤمنين : ما يدريك ما عليّ مما لي ، عليك لعنة الله ، ولعنة اللاعنين . قال الشيخ محمد عبده معلقاً على ذلك : « كان الأشعث في أصحاب علي كعبدالله بن أبيّ في أصحاب رسول الله (ص) ، كل منهما رأس النفاق في زمنه » .

(خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) . ضمير فيها يعود الى جهنم بقرينة قوله : (لا يخفف عنهم العذاب) . ولا ينظرون معناه لا يمهلون ، بل يعجل لهم ما يستحقون من العذاب . (إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) . جاء في الحديث : « التائب من الذنب كمن لا ذنب

له » . وقال الإمام علي (ع) : ما كان الله ليفتح لعبد باب التوبـة ، ويغلق عليه باب المغفرة .

وتسأل : إذا أسلم ، ثم ارتد، ثم عاد إلى الاسلام ، ولكنه تهاون في الأحكام لا في الأصول، كما لو ترك الصوم والصلاة عن كسل وتهاون فهل تقبل توبته ؟

الجواب : أجل ، انها مقبولة ، لأن التوبة كانت عن الكفر بالذات ، لا عن الصوم والصلاة ، أما قوله تعالى : (واصلحوا) فان المراد منه اصلحوا ضمائرهم، وثبتوا على الاسلام ، ولم يرتدوا عنه ثانية .

ثم ازدادوا كفراً الآية ٩٠ ـ ٩١ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْـدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ★ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ★

الإعراب :

كفراً تمييز ، ومثله ذهباً .

المعنى :

(ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهـم) . معنى الكفر بعد الايمان واضح ، أما ازدياد الكفر فيكون بكـثرة الذنوب التي يصيبها

المذنب ، وأعظمها العمل على بث الكفر وانتشاره ، ومحاربة المؤمنين ، لا لشيء إلا لأنهم مؤمنون .

وتسأل : ان الله حكم في الآية السابقة بقبول توبة من كفر بعد الإيمان ، ثم حكم في هذه الآية بعدم قبولها ، فما هو وجه الجمع ؟.

وأجاب المفسرون بأجوبة أرجحها ان الكافر بعد الايمان على ثلاثة أقسام : أحدها من تاب توبة نصوحة ، وهو الذي ذكره الله في قوله : (إلا الذين تابوا) . ثانيها : من تاب توبة زائفة ، وهو الذي ذكره تعالى بقوله : (لن تقبل توبتهم) . ثالثها : من مات على الكفر ، وهو المذكور بقوله : (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) .

والذي نراه في الجواب ان الانسان قد يشعر بصحة شيء ، أو فساده ، ثم تعرض بعض الملابسات تخيل اليه ان شعوره قد تغير من الصحة الى الفساد ، أو من الفساد الى الصحة ، مع ان شعوره في واقعه هو هو لم يتغير فيه شيء، أما اعتقاد التغيير فمجرد وهم وخيال ، وكذلك الحب والبغض ، فقد يسيء ولدك اليك ، فيلوح لك انه أبغض الناس إلى قلبك،وانك تود هلاكه ، ولكن عاطفة الأبوة تكمن في قرارة نفسك دون أن تشعر .. وكم شاهدنا من يفعل ويترك بوحي من المحاكاة والتقليد ، أو العاطفة والعادة ، وهو يعتقد ان ذلك بوحي من الدين والعقل .

وكذلك يلوح لكثير من التائبين من ذنوبهم انهم تابوا توبة نصوحة ، وهم في الواقع باقون على ما كانوا ، وهؤلاء التائبون هم المعنيون بقوله تعالى : (لن تقبل توبتهم) . أما المعنيون بالآية السابقة ، وهي قوله سبحانه : (الا الذين تابوا) فهم التائبون حقاً وصدقاً .

(ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) . ليس من شك ان من ختم حياته بالكفر ، ومات عليه حوسب حساب الكافرين .

ولك أن تسأل : انه لا ذهب يوم القيامة ، ولا وسيلة لامتلاكه، ولا إنفاقه، فما هي الفائدة من ذكره ؟

الجواب : القصد انه لا طريق للافتداء بحال من الأحوال ، وبديهة ان فرض المحال ليس بمحال .. ومما قاله الإمام علي (ع) في وصف جهنم : « لا يظعن مقيمها ، ولا يفادى أسيرها » .

المال هو المحك الآية ٩٢ :

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ★

المراد بالبر هنا إكرام الله ، وتفضله على عبده .. وقد سبق تفسير العديد من الآيات التي حثت على الانفاق ، ولكن لهذه الآية ميزة على كل آية وردت في هذا الباب . لأنها لم تأمر بالانفاق وكفى ، كغيرها من الآيات ، بل ربطت بين نيل الانسان الدرجات العلى عند الله سبحانه ، وبين إقدامه على التضحية بما يحب ، فالعبادة المجردة عن التضحية لا تقرّب من الله بموجب دلالة هذه الآية، وكذا سائر الأعمال إلا ان ينطبق عليها نوع من الفداء والتضحية في سبيل الله .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) بياناً وتفسيراً لكل آية ورواية حثت على العمل من أجل مرضاة الله ، والقرب منه ، بياناً وتفسيراً بأن القرب منه تعالى لا يحصل ، ولن يحصل لأحد الا اذا بذل من نفسه وماله ما يحب .. وكأنّ الإمام علي (ع) أخذ من هذه الآية قوله : لا حاجة لله فيمن ليس لله في ماله ونفسه نصيب .

ان البذل مما تشح به النفس ، وتحرص عليه ، بخاصة المال هو المحك المميز بين الايمان الدخيل والأصيل .. فلقد كان المال ، ولا زال معبود الملايين، وان كثيراً من الناس يُخيل الشيطان اليهم انهم يعبدون الله سبحانه ، وهم في حقيقتهم وواقعهم يعبدون الدرهم والدينار ، ولكنهم لا يشعرون .

جاء في بعض الروايات ان ابليس كان قبل ضرب الدرهم والدينار في شغل شاغل ، لاغواء الناس ، وصرفهم عن عبادة الرحمن الى عبادة الأوثان، ولا يجد فترة من راحة في ليل ولا نهار .. وبعـد ان دارت الأيام ، وضُرب الدرهم والدينار تنفس ابليس الصعداء ، وفرح فرحاً لم يفرح مثله من قبـل ، وأقام حفلات الأنس والطرب ، وكان يرقص ، وهو يضع الدرهم على احدى عينيه، والدينار على الثانية ، ويقول : لقد أرحتماني .. ولست أبالي بعد اليوم أعبدكما الناس ، أم عبدوا الأوثان ..

وسواء أكانت هذه الرواية قضية في واقعة ، أم كانت أسطورة من الأساطير فإنها تصوير صادق ورائع لعدم الفرق بين عبادة المال ، وعبادة الأوثان ، فكل منها يصرف عن الله والحق ، بل ان عبادة المال أسوأ أثراً ، وأكثر ضرراً ، لأن المال مادة الشهوات ، ومصدر الفساد في كثير من الأحيان .. فالذين خانوا أوطانهم انما خانوها من أجل المال ، والذين حاربوا الأنبياء والمصلحين، وحرّفوا الدين ، وشريعة سيد المرسلين انما فعلوا ذلك بعد أن قبضوا الثمن .. ومهما شككت فإني لا أشك ان الملحدين وعبدة الأوثان الذين لم يخونوا بلادهم ، ولم يتآمروا على الأبرار والمخلصين هم خير ألف مرة من الصائم المصلي، والحاج المزكي الذي تآمر مع أعداء الله على بيع البلاد ، وأقوات العباد .

اذن ، فلا عجب اذا أناط سبحانه نيل الدرجات عنده بالبذل والتضحيـة بالمال ، وبالعزيز الغالي ، حيث يكشف هذا البذل عن ايثار الحق على الباطل ، والآجل على العاجل .

ولك أن تسأل : ان قوله تعالى : (لن تنالوا البر حتّى تنفقوا مما تحبون) يدل بظاهره ان الجنة محرمة الا على من بذل الطيّب من ماله ، مع العـلم ان كثيراً من الناس ، أو أكثر الناس لا يملكون شيئاً .

الجواب : ان الخطاب في الآية الكريمة يختص بالمالك القادر ، أما العاجـز الذى لا يملك شيئاً فيجب أن يأخذ ، لا أن يعطي ، بل هو أحد موارد البذل والعطاء .. هذا ، الى ان الذين يجاهدون بأنفسهم أعظم درجة عند الله من الذين يجاهدون بأموالهم ، لأن الجود بالنفس أقصى غاية الجود ، كما قال الشاعر .

وكما دلت الآية على ان القرب من الله سبحانه منوط بالبذل والتضحية فقـد

دلت أيضاً على ان المال يكون مصدراً للخيرات ، ووسيلة لطاعة الرحمن ، كما يكون مادة للشهوات ، ومرضاة الشيطان ، قال رسول الله (ص) : « من طلب الدنيا مكاثراً مفاخراً لقي الله ، وهو عليه غضبان ، ومن طلبها استعفافاً ، وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ، ووجهه كالقمر ليلة البدر » . وقال الإمام(ع) : ما أعطي أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص حظه من الآخرة . فقال له بعض من حضر : والله انّا لنطلب الدنيا . فقال له الإمام : تصنع بها ماذا ؟ قال : أعود بها على نفسي وعلى عيالي ، وأتصدق منها ، وأحج . قال الإمام : ليس هذا من طلب الدنيا ، هذا من طلب الآخرة .

الجزء الرابع

بنو اسرائيل والطعام الآية ٩٣ ـ ٩٥ :

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ★ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ★ قُلْ صَدَقَ ٱللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ★

الاعراب :

حنيفاً حال من ابراهيم .

المعنى :

(كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل) . لهذه الآية قصة تتلخص بأن أكثر من آية صرحت ان محمداً (ص) ومن معه هم على ملة ابراهيم ، يؤمنون بالله، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء.. ومعنى هذا في ظاهره ان كل ما كان حراماً في دين هؤلاء الأنبياء فهو حرام في دين الإسلام ، وكان اليهود يعتقدون ان لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة في دين الأنبياء المذكورين ، وقد رأوا محمداً (ص) يحللها ، مع ان هذا التحليل يتنافى مع قوله : انه على ملة ابراهيم،وانه يؤمن بما أنزل على ابراهيم، والأنبياء من بعده .

واعتماداً على هذا الزعم أشاع اليهود وأذاعوا بقصد الطعن والتشكيك في الاسلام ان محمداً يناقض نفسه بنفسه .. يحلل من الطعام ما كان محرماً في ملة ابراهيم ،

وفي نفس الوقت يدعي انه على ملة ابراهيم .. فرد الله عليهم بقولـه : (كل الطعام كان حِلاً لبني اسرائيل) . أي ان ابراهيم ومن جاء بعـده لم يحرموا لحوم الإبل وألبانها، بل كل الطعام كان حلاً لهم .. واليهـود كاذبون مفترون في نسبة التحريم إلى أنبيائهم .

(الا مـا حرم اسرائيل على نفسه) . اسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، وكان قد امتنع من تلقائـه عن بعض الأطعمة ، لسبب يعود اليـه خاصة ، ولم يمتنع عنه ، لأن الله قد حرمه .. بل كما يمتنع أحدنا عن التدخين، أو غيره لأسباب صحية ، وما اليها .. ولكن جرت سنة بني اسرائيل على اتباع أبيهم في تحريم ما كان قـد حرمه هو على نفسه .. وكان ذلك (من قبل أن تنزل التوراة) ذكر الله سبحانه هذا القيد ، لأنه قد حرّم عليهم أنواعاً كثيرة بعد التوراة بسبب الذنوب التي اقترفوها ، كما أشارت الآية ١٦٠ من النساء : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » أما الأنواع التي حرمت عليهم بعد نزول التوراة فقد جاء ذكرها في الآية ١٤٦ من الانعام : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون » . والتفصيل في محله .

وتجمل الاشارة هنا الى ان المسلمين متفقون كلمة واحدة على ان الأصل هو الحل في جميع المأكولات والمشروبات ، حتى يثبت العكس .

(قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) . هذا تحدٍ لليهود ان يحضروا التوراة ، وهي المعتمد عندهم ، أن يحضروها ويقرأوا نصوصها على الملأ إن كانوا صادقين في دعواهم تحريم لحم الإبل أو غيره .. ولكنهم بعد هذا التحدي تواروا ، ولم يجسروا على اتيان التوراة ، لأنهم على علم اليقين بصدق النبي ، وكذبهم .

(فمن افترى .. بعد ذلك) . أي بعد ظهور الحجة ، وقيام الدليل على الحق . (فأولئك هم الظالمون) ، لأنهم ضلوا وأضلوا بالإصرار على الباطل ، ومعاندة الحق . (قل صدق الله) . في ان كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل ، وان

محمداً رسول الله حقاً . (فاتبعوا ملة ابراهيم) في استباحة لحوم الإبل وألبانها (حنيفاً) مستقيماً على دين الحق .

ولا بد من الاشارة الى ان محمداً (ص) كان على ملة ابراهيم ، وملة جميع الأنبياء في العقيدة وأصولها ، أما شريعته فإنها مستقلة عن كل الشرائع ، مع العلم بأنها جميعاً قائمة على المصالح .. ولكن المصالح تختلف باختلاف الظروف والمناسبات.. واتفاق الشرائع في تحليل الأطعمة لا يستلزم وحدتها من جميع الجهات .. وعلى أية حال ، فإن القصد من الآيات التي شرحناها هو تكذيب اليهود فيما نسبوه الى الأنبياء من تحريم بعض الأطعمة .

أول بيت الآية ٩٦ - ٩٧ :

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ★ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ★

اللغة :

لفظ أول اسم للشيء الذي يوجد ابتداء ، سواء أحصل بعده ثانٍ ، أم لم يحصل ، يقال أول قدومي الى هذا البلد ، وهذا أول ما أصبته من المال ، وبكة من أسماء مكة ، وكثيراً ما تأتي الباء مكان الميم ، مثل ضربة لازم ، وضربة لازب ، ودائم ودائب ، ومعنى البك الدفع ، والناس في مكة لكثرتهم يدفع بعضهم بعضاً ، ونقل الرازي في تفسيره ان الإمام محمد الباقر (ع) كان

يصلي في الكعبــة ، فمرت امرأة بين يديه ، فأراد رجل أن يدفعها ، فقال له الإمام : دعها ، فإن مكة سميت بكة ، لأن الناس يبك بعضهم بعضاً ، تمـر المرأة بين يدي الرجل ، وهو يصلي ، والرجل بين يدي المرأة ، وهي تصلي ، ولا بأس بذلك في هذا المكان .

الاعراب :

للذي اللام للتأكيد ، والذي خبر ان ، وبكة ظرف مكان متعلق بمحذوف صلــة الذي ، تقديره استقر ، ومباركاً حال من الضمير في استقر ، أو من الضمير في وضع ، ومقام ابراهيم بدل من بينات ، أو خــبر مبتدأ محذوف ، تقديره هي مقام ابراهيم ، وحج بفتح الحاء ، وكسرها مبتدأ ، وخبره لله ، ومن استطاع بدل من الناس ، وهو بعض من كل .

المعنى :

(ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين) . سبق الكلام مفصلاً في تفسير الآية ١٤٢ وما بعدها من سورة البقرة عما قــال اليهود حول تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، ولهذه الآية صلة بآيات سورة البقرة، بخاصة قول السفهاء هناك : « ما ولاهم عن قبلتهم » .

وقوله تعالى : (ان أول بيت وضع للناس) لا دلالة فيه انه أول بيت وجد على وجه الأرض ، بل هو ظاهر في انه أول بيت وضع للطاعات والعبادات ، لأن الناس ، كل الناس، شركاء فيه ، وبديهة ان الناس جميعاً لا يشتركون في بيت واحد الا اذا كان موضوعاً لجهة عامة ، كالعبادة والطاعة،أما سائر البيوت فكل بيت منها يختص ببعض الناس دون بعض .

ثم ان بعض أهل التفسير سودوا الصفحات في التحقيق ونقل الأقوال في الكعبة: هل هي أول بيت بني على وجــه الأرض ، أو غيرها أسبق في البنـاء .. ولا جدوى وراء هذا البحث ، لأنه لا يمت الى أصول الدين ، أو فروعه بسبب ، ولا يطلب الاعتقاد به ايجاباً ولا سلباً .

(مباركاً وهدى للعالمين) . والمراد بالبركة هنا زيادة الثواب ، قال رسول الله (ص) : « فضل المسجد الحرام على مسجدي كفضل مسجدي على سائر المساجد ... صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه .. من حجّ ولم يرفث ، ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .. الحج المبرور ليس له أجر الا الجنة » . الى غير ذلك كثير .. اما ان المسجد الحرام هدى للعالمين فلأنه يذكر بالله سبحانه ، ويوحي بالخشوع والخضوع .

(فيه آيات بيّنات مقام ابراهيم) . كأنّ سائلاً يسأل : ما الدليل على ان الكعبه قديمة ، وانها أول بيت وضع للعبادة ، وليس بيت المقدس ؟.

وهذه الآية تصلح جواباً عن هذا السؤال ، لأن ابراهيم قديم ، وهو الذي بنى الكعبة ، فتكون قديمة بقدم بانيها ، أما بيت المقدس فقد بناه سليمان ، وهو يسمى معبد سليمان حتى الآن ، وبين ابراهيم وسليمان عدة قرون .. ونقل صاحب تفسير المنار عن كتب اليهود ان سليمان بنى بيت المقدس سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد.. والدليل على ان ابراهيم هو الذي بنى الكعبة الآثار الواضحة والموجودة حتى الآن، منها مقام ابراهيم ، فإن العرب ما زالوا يتناقلون بالتواتر أباً عن جد ان هذا الجزء الخاص من المسجد الحرام كان موضع قيام ابراهيم للصلاة والعبادة . فكما دل اسم معبد سليمان على انه هو باني بيت المقدس ، فإن اسم مقام ابراهيم يدل على انه هو باني الكعبة ، وانها قديمة بقدمه .

(ومن دخله كان آمناً) . تقدم تفسيره في الآية ١٢٥ من سورة البقرة ، وهي قوله تعالى : (واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) . والفضل في ذلك لدعوة ابراهيم (ع) : (ربّ اجعل هذا البلد آمناً) . أيضاً مر تفسيره في الآية ١٢٦ البقرة .

(ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً) الاستطاعة نوعان : عقلية ، وهي مجرد امكان الوصول الى مكة ، وهذه ليست بشرط . وشرعية ، وهي القدرة الصحية والمالية ، والأمن على النفس والمال ، والرجوع الى كفاءة، فإذا تم ذلك كان الحج حتماً وفرضاً .. والتفصيل في كتب الفقه .

(ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) . المراد بالكفر هنا الجحود اذا

أرجعناه الى كون الكعبة هي أول بيت وضع للناس،أو الى عدم الاعتقاد بوجوب الحج ، ويكون المراد بالكفر الفسق اذا أرجعناه الى ترك الحج تهاوناً .

الكفر بآيات الله الآية ٩٨ ـ ٩٩ :

قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَٱللهُ شَهِيدٌ عَلى مَا تَعْمَلُونَ★ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ★

اللغة :

السبيل الطريق ، يذكر ويؤنث ، والعوج الزيغ .

الاعراب :

جملة والله شهيد حال من الضمير في تكفرون ، وهاء في تبغونها تعود إلى السبيل ، وعوجاً حال من الواو في تبغونها ، أي حالة كونكم ضالين .

المعنى :

اهتم القرآن اهتماماً بالغاً بأهل الكتاب ، فأنزل فيهم العديد من الآيات ، تذكّرهم بالتوراة والانجيل ، وتنعى عليهم تحريفها ، وتجادلهم بالتي هي أحسن، وتحصي عليهم الكثير من أخطائهم وآثامهم ، ومنها هاتان الآيتان :

الأولى : (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) التي دلت على نبوة محمد (ص) وعلى ان الكعبة هي أول بيت وضع للعبادة ، مع ان تلك الآيات والبينات واضحة كالشمس ، ولا ينكرها إلا مكابر .

الثانية : (قل يا أهـــل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً) . لم يكتفوا بفساد أنفسهم ، حتى سعوا في افساد غـــيرهم واضلاله ، فجمعوا بذلك بين الضلال والاضلال ، والفساد والإفساد ، وكل فاسد يود ويعمل ان استطاع على تكثير الفاسدين عملاً بمبدأ ابليس : (بما أغويتني لازينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين – ٣٩ الحجر) .

ولا تفوتنا الاشارة إلى هـــذا الرفق واللين في مخاطبة أهل الكتاب ، وحسن تذكيرهم بأنهم أهل دين وكتاب .. عسى أن يتعظوا ويثوبوا إلى رشدهم .

طاعة الكافر كفر الآية ١٠٠ – ١٠٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ★ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ★ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ★

اللغة :

اعتصم بالشيء إذا تمسك به حذراً من الوقوع فيما يكره ، وشفا الشيء حرفه، يقال أشفى على الشيء ، أي أشرف عليه .

الإعراب :

جميعاً حال من الضمير في اعتصموا ، أي كونوا مجتمعين في الاعتصام ، ولا تفرقوا أصلها لا تتفرقوا ، فحذفت احدى التاءين للتخفيف .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين) . حذر الله سبحانه في الآيتين السابقتين أهل الكتاب من معاندة الحق ، وصد المؤمنين عن سبيله ، وحذر في هذه الآية المؤمنين من الاصغاء الى فريق من أهل الكتاب يحاول اضلال المؤمنين وفتنتهم عن دينهم .

وروي في سبب نزول هذه الآية ان بعض اليهود قصد ايقاظ الفتنة بين الاوس والخزرج ، وتفريق كلمتهم بعد أن جمعها الله على الاسلام ، فأخذ يذكّرهم بما كان بينهم في الجاهلية من العداء والقتال ، بخاصة يوم بغاث ، وهو يوم اقتتل فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس ، فثارت الحمية في رؤوسهم ، وكادت الفتنة أن تقع بينهم لولا أن تداركها رسول الله (ص) .

والآية تنطبق على هذه الواقعة ، كما تنطبق على محاولة المبشرين المسيحيين في هذا العصر ، وعلى جميع المحاولات التي يهدف من ورائها بعض أهل الكتاب وغيرهم الى تفتيت كلمة المسلمين ، وصرفهم عن دينهم ، والشعور بوطنيتهم وحريتهم ، ليقعوا فريسة سائغة لكل ناهب وغاصب .. وهذا ما يفعله اليوم المستعمر الغربي مع العرب والمسلمين .. ولا تقع المسؤولية عليه وحده ، بل يشاركه فيها العملاء الأدنياء الذين أطاعوه وساروا في ركابه ، وكفروا بعد ايمانهم

بدينهم وأوطانهم ، وعلى هذا فإن الآية تنطبق على هؤلاء العملاء ، كما تنطبق على دعاة الفتنة والفساد ، ورواد الكفر والضلال ، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم ، شرقيين وغربيين .

وأيضاً ينطبق قوله تعالى : (ان تطيعوا فريقاً من أهل الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين) ينطبق على تقليد نسائنا للغرب في التهتك والتبرج، واستخفاف شبابنا بالدين والأخلاق ، وعلى كل عادة مضرة ومحرمة اقتبسناها من الأجانب.. ان الآية ظاهرة في النهي عن اطاعة اهل الكفر في الكفر والارتداد عن الإسلام، ولكن السبب الموجب عام يشمل كل تقليد ومتابعة تغضب الله والرسول .

(وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) . أي لا ينبغي لمسلم ان يتأثر ، ويلتفت الى اضلال المضللين ، ويتبع الكافرين في أخلاقهم وعاداتهم ، وهو يتلو القرآن الكريم ، ويستمع الى النبي العظيم ، يبين الحق ويزيح عنه كل شبهة ، قال نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري في تفسير غرائب القرآن : « أما الكتاب فإنه باقٍ على وجه الدهر ، وأما النبي (ص) فإن كان قد مضى الى رحمة الله فإن نوره باقٍ ، لأن عترته وورثته يقومون مقامه ، ولهذا قال : « اني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله وعترتي » .

(ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم) . الاعتصام بالله هو التمسك بدينه ، والدين عند الله الإسلام ، وهو بالذات الصراط المستقيم ، والمقصود ان من اعتصم بالله حقاً فلا يحيد ، ولن يحيد عن الإسلام ، مهما تكن المحاولات والاغراءات .

ولك أن تسأل : لقد جاء في الآية ٥٦ من سورة هود : « ان ربي على صراط مستقيم » وقد فسرت الصراط المستقيم بالإسلام ، فيلزم على هذا أن يكون الله على دين الإسلام ؟.

الجواب : ان الصراط المستقيم يراد به الإسلام اذا نسب الى العبد ، أما اذا نسب الى الله تعالى فإن المراد به العدل والحكمة ، أي انه عز وجل يدبر الأمور بعدله وحكمته ، ولا يحيد تدبيره عن هذا المنهج .

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) . كل من فعل الواجبات ، وتجنب المحرمات فقد اتقى الله حق تقاته .. وعليه يكون معنى الآية مرادفاً لقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم – ١٦ التغابن » ، لأن ما لا يستطاع لا يتناوله التكليف ، وكل ما لا يمكن التكليف به فهو أجنبي عن التقوى .. أما قوله تعالى : (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) فهو نهي عن ترك الإسلام ، وأمر بالثبات عليه ، حتى الموت .

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) . الحبل معروف ، ويستعمل في الواسطة التي يتوصل بها الى المطلوب ، والمراد بالحبل هنا الإسلام ، ومعنى الآية بمجموعها ان المسلمين ما داموا أتباع دين واحد ، ورسول واحد ، وكتاب واحد ، فعليهم جميعاً أن يراعوا هذه الرابطة الدينية التي هي أقوى من الرابطة النسبية ، وان يحرصوا عليها ، ويعملوا بموجبها ، ولا يتفرقوا شيعاً وأحزاباً .

وتسأل : أليس في هذه الدعوة الى التكتل الديني نوع من العصبية الدينية ؟

الجواب : كلا ، ان تدعيم الرابط بين اتباع الدين الواحد ، تماماً كتدعيمها بين أفراد الحزب الواحد ، أو الأسرة الواحدة .. ولا تلازم بين هذا التدعيم ، وبين التعصب ضد الآخرين .. بل على العكس بالنسبة الى الاسلام ، حيث يدعو الى التعاطف والتآلف بين جميع أعضاء الاسرة الانسانية بصرف النظر عن أديانهم وأفكارهم وقومياتهم..وعليه تكون الاخوة الاسلامية قوة ودعامة للاخوة الانسانية .

وتجمل الاشارة إلى أن الجماعة الذين يجب التعاون معهم ، ويحرم الخروج عليهم هم الذين اجتمعوا وتعاونوا على ما فيه لله رضى ، وللناس صلاح ، أما مجرد التجمع دون أن تترتب عليه أية فائدة مرضية فليس بمطلوب إلا من حيث عدم الشقاق والنزاع . قال الإمام علي (ع) : « الفرقة أهل الباطل وان كثروا ، والجماعة أهل الحق وان قلوا .. وبهذا نجد تفسير الحديث الشائع : « يد الله مع الجماعة » أي خصوص المجتمعين المتعاونين على الحق ، أما إذا اجتمعوا على الباطل فلا أحد معهم إلا الشيطان .

(واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً) . يذكّر الله المسلمين الأول بما كانوا عليه من الاحن والبغضاء والحروب

المتطاولة ، ومنها الحرب بين الاوس والخزرج التي امتدت ١٢٠ سنة – كما في تفسير الطبري – فألف الله بين قلوبهم ببركة الاسلام ، حتى صاروا اخواناً في الله متراحمين متناصحين . قال جعفر بن أبي طالب في حديثه إلى النجاشي :

« كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، واداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ، ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » .

(وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) . شفا الشيء حرفه وحافته ، وشفى على الشيء إذا أشرف عليه ، والمعنى كنتم مشرفين على نار جهنم لكفركم فأنقذكم الله منها ببركة محمد (ص) .. وأحسن تفسير نفسر به هذه الآية ما جاء في خطبة سيدة النساء فاطمة بنت محمد (ص) التي خطبتها بعد وفاة أبيها (ص) مخاطبة أبا بكر ، ومن معه :

« كنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة العجلان ، وموطىء الأقدام ، تشربون الطرق ، وتقتاتون القد ، اذلة خاسئين ، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم ، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد (ص) » .

الآمر بالمعروف الآية ١٠٤ :

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ★

المراد بالخير هنا الإسلام ، وبالمعروف طاعة الله ، وبالمنكر معصيته، ومحصل المعنى انه لا بد من وجود جماعة تدعو غير المسلمين الى الإسلام ، وتدعو المسلمين الى ما يرضي الله ، ويثيب عليه ، وترك ما يغضبه ، ويعاقب عليه .

ولفظ (منكم) في الآية قرينة على ان وجوب الأمر بالمعروف على سبيل الكفاية ، دون العين ، اذا قام به البعض سقط عن الكل .

وليس من الضروري أن يكون القائم بهذه المهمة عادلاً ، بحيث لا يجوز للفاسق أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر .. كلا ، لأمرين : الأول ان شرط الحكم تماماً كالحكم لا يثبت الا بدليل ، ولا دليل على شرط العدالة هنا لا من الكتاب ، ولا من السنة ، ولا من العقل . الثاني ان حكم الآمر بالمعروف لا يناط بطاعة أو معصية غيره من الأحكام .

وكثير من الفقهاء اشترطوا لوجوب الأمر بالمعروف أن يكون الآمر آمناً على نفسه ، بحيث لا يصيبه أي ضرر اذا أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر .

ولكن هذا الشرط لا يطرد في جميع الموارد ، فإن قتال من يحاربنا من أجل ديننا وبلادنا واجب ، مع العلم بأن القتال يستدعي الضرر بطبعه : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن - ١١١ التوبة .. ويجوز لكل انسان أن يضحي بحياته اذا تيقن ان في هذه التضحية مصلحة عامة ، وفائدة للعباد والبلاد أهم وأعظم من حياته ، بل هو مشكور عند الله والناس ، وفي الحديث : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

وخلاصة القول ان الضرر يجب دفعه اذا لم تترتب عليه فائدة ، والا جاز تحمله ، كما يجوز للانسان أن يقدم على قطع عضو سقيم من أعضائه ، حرصاً على حياته ، وخوفاً على نفسه من الهلاك .

هذا ، الى ان للأسلوب أثره البالغ ، فبعض الأساليب تُنفّر من الحق ، وتجر على صاحبها المتاعب والويلات ، وبعضها تفرض الفكرة على سامعها فرضاً من حيث لا يشعر .. والعاقل الحكيم يعطي لكل مقام ما يناسبه من القسوة واللين ، وقد كان فرعون في أوج سلطانه وطغيانه ، ولم يكن لموسى وهارون ناصر ولا معين ، ومع ذلك أمرهما ان يدعواه الى الحق ، ولكن بأسلوب هين لين .. حتى

خالق الكون جلت كلمته يخاطب عباده تارة بأسلوب التهديد والوعيد ، ويقول لهم : « انكم منّا لا تنصرون – ٦٥ المؤمنون » . وتارة يقول لهم برفق : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم – ٢٢ النور » .

وبالجملة ان اعلان الدعوة الإسلامية على الملأ ، وتآمر المسلمين فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ، ان هذا ركيزة من ركائز الإسلام ، ومن ثم يحتّم وجود فئة معينة تقوم بهذه المهمة ، تماماً كما يحتّم وجود سلطة تحافظ على الأمن والنظام ، وفئة تختص بالصناعة ، وأخرى بالزراعة ، وما إلى ذاك مما لا تتم الحياة إلا به .

وهذا الأصل من الأصول الأساسية لكل دين ، ولكل مذهب ، وكل مبدأ ، ولو كان زمنياً ، لأنه الوسيلة المجدية لبث الدعوة وانتصارها ، وردع أعدائها .. ولا شيء أدل على ذلك من اهتمام أصحاب المذاهب السياسية والاقتصادية بوسائل الاعلام ، وتطورها ، وبذل الملايين في سبيلها ، ومن وقوف الدعاية بشتى أساليبها مع المدفع جنباً الى جنب ، وما ذاك إلا لأنهم أدركوا بتجاربهم ان الرأي العام أمضى سلاحاً ، وأقوى أثراً من الصواريخ والقنابل ، وقد اشتهر عن أحد أقطاب الحلفاء بعد انتصارهم في الحرب العالمية انه قال : « لقد انتصرنا في المعركة بقنابل من ورق » . يعني الصحف والنشرات[1] .

وتسأل : كيف تجمع بين قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وبين قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم – ١٠٥ المائدة » ، حيث أفادت الأولى وجوب الامر بالمعروف ، ودلت الثانية على عدم وجوبه بقرينة (عليكم أنفسكم) .

---

١ جاء في تفسير المنار ان الشيخ محمد عبده كان في الدرس يفسر هذه الآية : « ولتكن منكم أمة » الخ ... ومما قال : ان على كل إنسان أن يأمر بالمعروف حسب استطاعته ، وضرب مثلا بالطائفة الشيعية ، فانهم ملتزمون بهذا المبدأ ، ولا يدعونه بحال ، متى سنحت الفرصة ، واستشهد على ذلك بأنه حين كان ببيروت احتاج إلى مرضعة ترضع بنتاً له ، فجيء بامرأة شيعية ، فأخذت تدعو نساء الشيخ إلى ملعبها .

الجواب : المقصود بالآية الثانية ان من قام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه المطلوب فلا يضره ضلال من ضل ، واعراض من أعرض، ما دام قد أدى ما عليه : « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب – ٤٠ الرعد ».

سؤال ثانٍ : لقد اشتهر عن رسول الله (ص) انه قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيـده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وهذا الترتيب يتنافى مع ما هو معروف شرعاً وعقلاً وعرفاً من أن تغيير المنكر انما يبتدىء أولاً باللسان،فإن لم يجد فبالحرب ، فما هو الوجه لقول الرسول الأعظم ؟.

الجواب : فرق بعيد بين تغيير المنكر ، وبين النهي عن المنكر ، فان النهي عن المنكر يكون قبل وقوعه – في الغالب – فهو أشبه بالوقاية ، كما لو احتملت ان شخصاً يفكر بالسرقة ، فتنهاه عنها .

أما تغيير المنكر فيكون بعد وقوعه ، كما لو علمت ان شخصاً سرق محفظة الغير ، فان كنت قادراً على انتزاعها من السارق ، وردها إلى صاحبها وجب عليك أن تباشر ذلك بنفسك إذا انحصر الرد بفعلك خاصـة ، ولم يلحقك أي ضرر ، فإن لم تستطع وجب عليك أن تأمر السارق برد المحفظة الى صاحبها ، وتنهاه عن امساكها ، فإن لم تستطع مقت السارق ، ولم ترض بفعله بينك وبين ربك .. وموضوع الحديث النبوي تغيير المنكر ، لا النهي عن المنكر .

الاختلاف بعد النبي الآية ١٠٥ – ١٠٩ :

وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ★ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ★ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ★ تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ ★ وَلِلهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ★

الإعراب :

يوم ظرف منصوب متعلق بعظيم ، والتقدير عظيم عذابهم في ذلك اليوم ، وجملة كفرتم مفعول لقول محذوف ، والتقدير يقال لهم أكفرتم ، وهذا الحذف كثير في القرآن ، ومنه قوله تعالى : والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ، أي يقولون لهم : سلام عليكم .

المعنى :

(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) . هذه الآية متممة لقوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) وما بعدها ، والمراد بالذين تفرقوا أهل الكتاب ، حيث افترق اليهود بعد نبيهم موسى الى احدى وسبعين فرقة ، والنصارى الى اثنتين وسبعين بعد نبيهم عيسى ، وقوله تعالى : (من بعد ما جاءهم البينات) يشعر بأن الانسان لا يؤاخذ على ترك الحق ، واتباع الباطل الا بعد البيان وقيام الحجة .

أما السر لهذا التأكيد والاهتمام باجتماع الأمة واتحادها فلأن الشقاق مادة الفساد، ولأن الأمة المتفرقة لا تصلح للحياة فضلاً عن ان تدعو الأمم الأخرى الى الخير والحياة .. وعلى الرغم من الآيات والروايات الكثيرة التي حثت على اجتماع المسلمين واتحادهم فقد تفرقوا شيعاً وأحزاباً ، وزادت فرقهم فرقتين على فرق اليهود ، وفرقة على فرق النصارى ، كما في الحديث المشهور . وفي حديث آخر : لتركبن

سنة من كان قبلكم حذو النعل بالنعل ، والقذة بالقذة . قالوا : تعني اليهود والنصارى يا رسول الله ؟ قال : فمن أعني ؟ لتنقضن عروة الإسلام عروة عروة .

وعن كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي في حديث رقم ١٣١ : من المتفق عليه من مسند انس بن مالك قال رسول الله (ص) : ليردن على الحوض رجال ممن صحبني ، حتى اذا رأيتهم ، ورفعوا إليّ رؤوسهم اختلجوا ، فأقول : رب أصحابي . فيقال لي : انك لا تدري ما أحدثوا بعدك .. وفي الكتاب المذكور أيضاً حديث رقم ٢٦٧ من المتفق عليه من مسند أبي هريرة من عدة طرق قال النبي (ص) : بينا أنا واقف – يوم القيامة – اذا زمرة ، حتى اذا عرفتهم خرج رجل بيني وبينهم ، فقال : هلموا . فقلت : الى أين ؟ قال : الى النار . قلت : ما شأنهم ؟ قال : انهم ارتدوا بعدك على ادبارهم القهقرى.

(يوم تبيضُ وجوه وتسودُ وجوه) . المراد باليوم يوم القيامة ، وبياض الوجه كناية عن استبشار المؤمن برضوان الله وفضله ، وسواد الوجه كناية عن حزن الكافر والفاسق لغضبه تعالى عليهما ، وعذابه لهما . (فأما الذين اسودت وجوههم) يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً : (أكفرتم بعد ايمانكم) . نقل الرازي والطبري وغيرهما كثير من المفسرين ، نقلوا عن بعض السلف ان المقصود بهؤلاء خصوص الخوارج ، لأن النبي قال فيهم : « انهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » . ولكن ظاهر الآية يشمل كل من كفر بعد الايمان ، ومنهم الخوارج ، وأهل البدع والأهواء والآراء الباطلة ، على ان العذاب لا يختص بمن كفر بعد الايمان ، بل يشمل مطلق الكافر بدليل قوله تعالى : (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

(وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) . رحمة الله هي الجنة ، والخلود فيها واضح .. والخلاصة ان الذين يعتصمون بحبل الله ، ويعملون لوجه الله ، ويتعاونون على الخير والصالح العام يحشرون غداً أعزاء فرحين مستبشرين ، وراضين مرضيين ، أما الذين اختلفوا تكالباً على الدنيا غير آبهين بدين ولا أمة ولا وطن ، ولا يهتمون الا بمصالحهم ومصالح أبنائهم فإنهم يحشرون أذلاء خاسرين خاسئين ، مقرهم جهنم وبئس المصير .

وغريبة الغرائب ان البعض من أصحاب الوجوه السود يزعمون لأنفسهم التحدث عن الله ، والكلام باسمه ، وعن طريق هذا الزعم الكاذب بلغوا أعلى المناصب، بلغوها باسم الله ، ولكن إذا قال لهم قائل : اتقوا الله . قالوا له : أنت كافر بالله .. وقد سبقهم الى هذا عبد الملك بن مروان ، حيث قال يوم تولى الخلافة: من قال لي بعد اليوم : اتق الله ضربت عنقه .

(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) . تلك اشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار ، وتعذيب الكفار ، والخطاب موجـه لمحمد (ص) . وقد يسأل سائل : وأية فائدة من هذا الإخبار،ما دام محمد يعلم علم اليقين ان هده الآيات حق وصدق ؟

الجواب : لقد دأب القرآن على تكرار ذلك في العديد من الآيـات ، وليس المقصود منها محمداً بالذات ، بل من يرتاب ويظن بأن هذه الآيات وما اليها هي من محمد ، لا من الله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون ـ ٤٨ العنكبوت » .

(وما الله يريد ظلماً للعالمين) . لأن الظلم قبيح ، والله سبحانه منزه عنه، وفي الآية دلالة قاطعة على انه تعالى لا يكلف العبد بما لا يطيق .

أمة محمد الآية ١١٠ ـ ١١١ :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ★ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ★

الإعراب :

خير أمة منصوب على الحال من الضمير في كنتم ، لأن كان هنا تامة ، وجملة تأمرون بالمعروف لا محل لها من الإعراب،لأنها جواب عن سؤال مقدر، فهي أشبه بالجملة الواقعة في ابتداء الكلام . ولكان خبراً اسم كان ضمير مستتر يعود على الإيمان المتصيد من لفظ آمن ، تماماً كما تقول : من صدق كان خيراً له ، أي كان الصدق خيراً له ، وأذى وقع موقع المصدر ، أي لا يضروكم إلا ضرراً يسيراً ، ولا ينظرون بالرفع ، لأنه كلام مستأنف ، ولا يجوز عطفه على يولوكم الأدبار ، لأن عدم النصر غير مسبب عن القتال ، بل عن الكفر ، وعليه فهم لا ينصرون اطلاقاً ، سواء أقاتلوا ، أو لم يقاتلوا .

المعنى :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . يقع الكلام في هذه الآية من وجوه :

١ – في المقصود بالأمة .. وليس من شك ان المراد بها هنا أمة محمد (ص) بدليل السياق وتوالي مخاطبات المؤمنين من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله .. واعتصموا بحبل الله .. واذكروا نعمة الله .. ولتكن منكم أمة .. ولا تكونوا كالذين تفرقوا .. » الى قوله سبحانه : كنتم خير أمة .

٢ – هل المراد بالأمة جميع المسلمين في كل عصر ، أو خصوص من كان منهم في الصدر الأول كالأصحاب والتابعين ؟

الجواب : ان تعيين المراد بالأمة هنا يتوقف على معرفة المراد من (كان) .. وهي بحسب وضعها ناقصة تحتاج الى اسم وخبر ، وتدل على حدوث الفعل في آن مضى ، مع سكوتها وعدم دلالتها على الآن السابق الذي حدث فيه الفعل ، ولا على الزمان اللاحق له الا بقرينة مقالية أو مقامية ، مثل كان زيد قائماً فإنه محمول على حدوث القيام وانقطاعه ، أي لم يكن زيد قائماً فقام فترة من الزمن الماضي ، دون أن يستمر قيامه مدى حياته ، والذي أفاد هذا المعنى لفظ قائم

بالذات ، وقد تفيد القرينة المقامية القدم والدوام ، مثل كان الله غفوراً رحيماً ، فان نسبة الرحمة والمغفرة اليه سبحانه لا تنفك عن ذاته أبداً وأزلاً .

وحيث ان الله سبحانه قد أناط خيرية الأمة وفضلها بالإيمان بـه وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون معنى الآية أيها المسلمون لا تقولوا : نحن خير الأمم وأفضلها إلا إذا أمرتم بالمعروف ، ونهيتم عن المنكر ، وهذا الوصف يزول عنكم بمجرد اهمالكم لذلك ، وعليه فإن (كان) هنا تامة غير ناقصة .. وخير أمة حال من الضمير في كنتم ، أي أنتم خير أمة في حال أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر .

٣ ـ ان قوله تعالى : (أخرجت للناس) يشعر بأن الله سبحانه أوجد محمداً وأمة محمد (ص) لتقود الأمم بكاملها حاملة كتاب الله في يد، وسنّة نبيّه في يد،تدعو الأجيال الى التمسك بهما ، والرجوع اليهما في العقيدة والشريعة والأخلاق ، لأنهما المصدران الوحيدان اللذان يحققان السعادة للجميع ، ويضمنان العيش لكل فرد ، ويفسحان المجال لأرباب الاجتهاد والكفاءات على أساس العدل والأمن والحرية للناس ، كل الناس[1] .

وتتفق هـذه الآية في مضمونها ، أي كنتم خير أمة ، مع الآية ١٤٣ من سورة البقرة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وإذا لم ينهض المسلمون بعبء الدعوة الى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر زال عنهم وصف القيادة ، وأصبحوا في حاجة الى قائد يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر .

وقد أتى على المسلمين حين من الدهر نهضوا فيه بهذا العبء ، وكانوا بحق قادة الأمم ، ثم أهملوه ، وبمرور الزمن أصبحوا ينهون عن المعروف ، ويأمرون بالمنكر كما نشاهد ذلك ونراه في هذا العصر الذي تحلل فيه أكثر أبناء الجيل من

---

١ ألف العارفون في هذا الموضوع عشرات الكتب ، وبعض مؤلفيها من الأجانب ، وأكثرها أو الكثير منها يفي بالغرض ، ومن أكثرها فائدة – على ما أرى – كتيب للدكتور عبد الواحد وافي ، اسمه « المساواة في الإسلام » ، فانه على صغره غزير المادة ، متخم بالادلة والارقام .

الـــدين ، وكل خلق كريم ، فإذا رأوا مصلياً أو صائماً قالوا له ساخرين : أصلاة وصيام في القرن العشرين ؟

وقال صاحب تفسير المنار عند تفسير الآية التي نحن بصددها : « الحق أقول: ان هذه الأمة ما فتئت خير أمة أخرجت للناس ، حتى تركت الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ، وما تركتها رغبة عنها أو تهاوناً بأمر الله تعالى باقامتها ، بل مكرهة باستبداد الملوك والأمراء من بني أمية ، ومن سار على طريقهم من بعدهم » .

وعلى أساس ان الأشياء تذكر بأضدادها كما تذكر بنظائرها نسجل هذا الحديث الشريف الذي ذكره الحافظ محب الدين الطبري، قال : « قال رسول الله (ص): مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تعلق بهـا فاز ، ومن تخلف عنها غرق » .. أما حديث « اني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي » فقد رواه خمسة وثلاثون راوياً من الأصحاب .

(ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم) . أي لو ان أهل التوراة والانجيل آمنوا بمحمد (ص) لكان الايمان خيراً لهم في الآجل والعاجل . (منهم المؤمنون وأكثرهـم الفاسقون) . أي ان أهل الكتـاب منهم من آمن بمحمد (ص) كعبدالله بن سلام ورهطه من اليهود ، وغيرهم من النصارى ، وأكثرهم بقي على الكفر .. ولفظ الكفر والفسق يتناوبان ، فيستعمل الكفر في الفسق ، والفسق في الكفر ، والمراد بالفسق هنا الكفر .

(لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار) . الضرر على نوعين : الأول عبارة عن مجرد الحزن والألم الذي يذهب مع الأيام ، كالذي يحدث في النفس من سماع كلمة نابية ، والضرر الثاني يمس الحياة ، ويهز الكيان، كالضرر الناشيء عن دولة اسرائيل في قلب البلاد العربية .

وقد بشّر الله سبحانه أصحاب محمد (ص) ان أهـل الكتـاب لا يستطيعون اضرارهم الا بالكلام كالهجو والافتراءات ، أما في ميدان القتال، فأنتم المنتصرون عليهم ، وصدق الله وعده ، ونصر المسلمين الأُول على المسيحيين وغيرهم .

ضربت عليهم الذلة الآية ١١٢ :

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ ٱللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ★

اللغة :

الذل الهوان ، والمسكنة الخضوع ، أي ان اليهود أذلاء في أعين النـاس ، ضعفاء يخضعون لما يفرض عليهم ، وثقفوا وجدوا .

الاعراب :

أينما اسم شرط عام للأمكنة ، ويجزم فعلين ، وجواب الشرط هنا محذوف دل عليه الموجود ، أي أينما ثقفوا ضربت عليهم الذلة .

المعنى :

(ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضُربت عليهم المسكنة) . اتفق المفسرون على ان هذه الآيـة نزلت في اليهود ، كما اتفقوا على ان المراد منها ان الله سبحانه قد سلبهم العزة والكرامة ، وكتب عليهم الذل والهوان من يوم الإسلام الى آخـر يوم ، لأنهم قد بلغوا من الفساد والطغيان حداً لم يبلغه أحد من قبلهم ، ولن يبلغه أحد من

بعدهم ، وبعد ان اتفق أهل التفسير على هذا اختلفوا فيا بينهم على نوع الذلة والمسكنة التي لازمت اليهود ، والتصقت بهم في كل جيل .

وهذا الاختلاف بين المفسرين ناشىء عن اختـــلاف أوضاع اليهود في عصر التفسير ، حيث كانوا يدفعون الجزيـــة للمسلمين .. أقصد ان قول المفسر جاء انعكاساً لما كان عليه اليهود في عصر المفسر .. وليس هذا بغريب ما دام الانسان يتأثر – حتماً – بما يسمع ويرى ، وتفسيري التالي لهذه الآية يخضع لهذه القاعدة .

ومهما يكن ، فإن الذي أفهمه من ذل اليهود وهوانهم الذي عنته الآية انهم مشتتون في شرق الأرض وغربها ، وموزعون بين الدول مع الأقليات، فهم دائماً تابعون غير متبوعين ، ومحكومون غير حاكمين في دولة منهم ولهم ، مستقلة لها كيانها وشأنها بين الدول .

أما اسرائيل التي قامت أخيراً في تل أبيب فانها دولة في الاسم فقط ، أما في الواقع فهي قاعدة من قواعد الاستعمار ، تماماً كمطاراته وثكناته العدوانية . وقد ظهرت هذه الحقيقة بأوضح معانيها بعد عدوان اسرائيل على الأراضي العربية في ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ . لقد أوجد الاستعمار اسرائيل ليتخذها أداة لتحقيق مآربه، ولو تخلى عنهـــا يوماً واحداً لتخطفها العرب من كل جانب .. وهذا هو الذل والهوان بعينه . ان العزيز يستمد قوته من نفسه ، ويذود عن كيانـه بساعده ، لا بسواعد الناس .

وبهذا يتبين معنا ان المراد بحبل من الناس المساعدات المادية والمعنوية التي تمد الدول الاستعمارية بها قاعدتهـــا الاستعمارية اسرائيل ، ومن أجل هذا نؤمن إيماناً لا يشوبه ريب بأن دولة اسرائيل ستزول بزوال الاستعمار لا محالة ، والاستعمار في طريقه الى الزوال آجلاً أو عاجلاً ، وليس هذا القول مجرد أمنية ، وانمـا هو نتيجة حتمية لمنطق الحوادث .. كما جاء في الحديث النبوي : « لا تقوم الساعة، حتى تقاتلوا اليهـــود .. وان الحجر ليقول – أي بلسان الحال – يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله »[1] .

---

١ رواه البخاري في الجزء الرابع ، باب قتال اليهود ، ومسلم في القسم الثاني من الجزء الثاني ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيتمنى أن يكون مكان الميت .

أما حبل الله فهو كناية عن مشيئته تعالى،أي ان اليهود يلازمهم الذل والهوان إلا أن يشاء الله ، فهو تماماً كقوله سبحانه : « النار مثواهم خالدين فيها إلا أن يشاء الله » .

ثم بيّن سبحانه السبب الموجب لذلهم ومسكنتهم ، وغضب الله عليهم ، بينه بقوله : (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) . تقدم مثله في الآية ٦١ من سورة البقرة .

ولك أن تسأل : ان غير اليهود من الأمم والطوائف قد كفروا بآيات الله ، وقتلوا الأبرياء ، وعصوا ، واعتدوا ، ومع ذلك لم يضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، فما هو السر لتخصيص اليهود ؟

الجواب : ان الانسان قد يطغى ، بل ويتمادى في الطغيان بدافع من مصلحته ومنافعه ، اما أن يطغى لا لشيء إلا حباً بالغي والطغيان ، كغاية ، أما هذا فلم يعهد من أحد إلا من اليهود فقط .. وهذا الشغف بالظلم والبغي من صميم دين اليهود وعقيدتهم ، فهم يعتقدون ان الله معهم دون غيرهم ، بل ضد كل من عداهم ، وانه ما خلق الناس إلا من أجلهم ، وإلا لكي يفعلوا بهم ما يشتهون ، تماماً كما يفعل الانسان بالحيوان ، ولا شيء أدل على ذلك من سيرتهم قديماً وحديثاً،بخاصة فظائعهم في فلسطين، وبصورة أخص ما فعلوه في دير ياسين من ذبح النساء والأطفال .

لقد كانوا من قبل يقتلون الأنبياء يوم كان في الدنيا أنبياء ، أما اليوم فيقتلون المصلحين كبرنادوت[1] ، والنساء والأطفال ، لأن المهم في عقيدتهم ، وحسب فطرتهم هو قتل الأبرياء أنبياء كانوا ، أو مصلحين أو أطفالاً لا فرق .. وقد نصت توراتهم على استباحة دم النساء والأطفال ، وحثت على هتكه واراقته .

وبالجملة ، فان الكفر بآيات الله،وقتل المصلحين والأبرياء ، والبغي والاعتداء، كل ذلك وما اليه دين وعقيدة لليهود ، فإذا ارتكب اليهودي جريمة بحق غير اليهودي فإنما يرتكبها تلذذاً واشباعاً لرغبته ، لا سداً لحاجته ، وإذا كف فإنما

١ رجل سويدي أرسلته الامم المتحدة سنة ١٩٤٨ ليقوم بدور رسول السلام في تنفيذ قرارات الأمم المتحدة حول قضيةفلسطين ، فاغتاله اليهود في القدس المحتلة بعد ثلاثة أشهر من بدء مهمته .

يكف خوفاً ، لا تعففاً ، وهذا هو وجه الفرق بين اليهود وغيرهم ، فلا غرابة إذا جازاهم الله بالذل والهوان أينما ثقفوا .. اما دولة اسرائيل الحديثة الخبيثة فانها الى زوال لا محال ، وأقوى الشواهد هو ارتباطها بالاستعمار حدوثاً وبقاء ، توجد بوجوده ، وتزول بزواله .. وزواله حتم ، وان امتد الزمن ، ما دامت البشرية تأباه بفطرتها وتقاومه بدمائها .. وما ذكرناه هنا عن اليهود متمم لكلام سابق في فقرة « لا قياس على اسرائيل » عند تفسير الآية ٦٣ و ٦٦ من سورة البقرة .

ليسوا سواء الآية ١١٣ - ١١٥ :

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ★ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ★ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ★

اللغة :

المراد بقائمة المستقيمة ، والآناء الساعات ، واحدها أنى كمعصا ، قال صاحب مجمع البيان : الفرق بين السرعة والعجلة ان السرعة ان تتقدم فيما يجوز التقدم فيه ، وهي محمودة ، والعجلة أن تتقدم فيما لا ينبغي التقدم فيه ، وهي مذمومة.

الإعراب :

الواو في ليسوا يعود على أهل الكتاب ، وهو اسم ليس ، وسواء خبر ، وأمة مبتدأ ، وأهل الكتاب خبر .

المعنى :

هذه الآيات الثلاث واضحة المعنى لا تحتاج الى تفسير ، والمحصل منها ان أهل الكتاب ليسوا متساوين في الانحراف والضلال، بل منهم جماعة طيبة صالحة ، وأكثر المفسرين حملوا هذا المدح على من أسلم من أهل الكتاب ، وحسُن اسلامه عقيدة وعملاً .

حكم تارك الإسلام :

ان الدعوة الى الايمان بمحمد (ص) كنبي مرسل من السماء الى أهل الأرض ما زالت قائمة ، حتى اليوم ، والى آخر يوم ، وهي موجهة الى جميع الناس في الشرق والغرب دون استثناء : « قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً – ١٥٦ الاعراف » . أما الدليل على صدقها فنطق العقل وثبوت المعجزة وصلاح الدين للحياة ، قال رسول الله (ص) : « أصل ديني العقل » . وقال تعالى في كتابه المُنزل على نبيه المرسل : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم – ٢٤ الأنفال» . وليس من غرضنا أن نستدل هنا على نبوة محمد (ص)[1] .. وانما الغرض أن نبين : هل من لم يؤمن بنبوة محمد مستحق للعقاب ، أو لا بد من التفصيل ؟.

وقبل أن نفرّق بين العالم والجاهل، والقاصر والمقصر نشير الى الأصول الرئيسية، والمقاييس الأولى لاستحقاق العقاب وعدمه ، ومنها تتضح الحقيقة ، والتمييز بين الأفراد .

وقد تسالم الجميع على ان الانسان كائناً من كان ، وعلى أي دين كان لا يستحق العقاب الا بعد قيام الحجة عليه .. ولا تقوم الحجة عليه الا بعد استطاعته الوصول الى دليل الحق ، وقدرته على العمل به ، ومع ذلك تركه

١ عرضنا الأدلة عند تفسير الآية ٢٣ – ٢٥ من سورة البقرة ، وذكرنا طرفاً من اخلاق الرسول (ص) في هذا المجلد عند تفسير الآية ١٦٠ من السورة التي نحن بصددها .

من غير مبرر ، فإذا لم يوجد على الحق دليل من الأساس ، أو وجد ، ولكن عجز الانسان عن الوصول اليه ، أو وصل اليه ، وأدى حق النظر فيه ، حتّى بلغ النهاية ، ومع ذلك خفي عليه الحق ، اذا كان كذلك فهو معذور ، لعدم اتمام الحجــة عليه ، لأن من لم يثبت الحق لديه لا يعاقب على تركه الا اذا قصّر في البحث .

وأيضاً من القواعد الرئيسية التي تتصل بهذا البحث قاعدة : « الحدود تدرأ بالشبهات » . فلا يجوز لنا أن نحكم على تارك الحق بأنه مجرم يستحق العقاب ، ما دمنا نحتمل ان له عذراً في تركه ، وهذه القاعدة تنطبق على جميع الناس ، لا على المسلمين فحسب ، كما انها تشمل جميع الحدود بشتى أنواعها .. ومثلها قاعدة : « من أخطأ في اجتهاده فخطؤه مغفور له » .. وهــذه القاعدة عقلية لا يمكــن تخصيصها بدين دون دين ، أو بمذهب دون مذهب ، أو بأصل أو بفرع .. اذا تمهد هذا نشرع بالتطبيق .

١ ـ أن يعيش الانسان في بلد ناءٍ عن الإسلام والمسلمين،ولم تبلغه الدعوة، وما سمع باسم محمد (ص) مدة حياته ، ولا مرّ بخاطره من قريب أو بعيد أن في الدنيا ديناً اسمه الإسلام ، ونبياً اسمه محمد (ص) .. وليس من شك ان هذا معذور من حيث عدم استحقاقه للعقاب ، لحكم العقل بقبح العقاب بلا بيان ، ولقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ـ ١٥ الاسراء » . والعقل رسول باطني ما في ذلك ريب الا انه برهان مستقل على وجود الله ، أما الدليل على ثبوت نبوة النبي فلا بد من توسط المعجزة ، وظهورها على يده ، مع حكم العقل باستحالة ظهورها على أيدي غير الأنبياء .

٢ ـ ان يسمع بالاسلام وبمحمد ، ولكنه يفقد القدرة على التمييز بين الحق والباطل ، لقصوره وعدم استعداده لتفهم دليــل الحق ومعرفته ، وهذا معذور لأنه تماماً كالطفل والمجنون .. ومثله إذا لم يؤمن بمحمد (ص) صغيراً تقليــداً لآبائه ، وذهل عن عقيدته كبيراً ، واستمر مطمئناً اليها غير شاك ولا متردد .. ان هذا معذور ، لأن تكليف الذاهل غير المقصر كتكليف النائم . قال المحقق القمي : ان التحرر من تقليد الآباء والأمهات لا يخطر على بال أكثر الناس، بل يصعب غالباً على العلماء المرتاضين الذين يحسبون انهم خلعوا التقليد عن أعناقهم..

وقال أيضاً : ان من لا يتفطن لوجوب معرفة الأصول يلحق بالبهائم والمجانين الذين لا يتعلق بهم تكليف[1] . وقال الشيخ الأنصاري في الرسائل فصل الظن في الأصول ، الذي يقتضيه الانصاف بشهادة الوجدان قصور بعض المكلفين ، وبهذا قال الكليني ، وقال الشيخ الطوسي : العاجز عن التحصيل بمنزلة البهائم .

أجل ، إذا تنبه هذا الغافل من نفسه الى وجوب المعرفة ، أو قال له قائل : انك مبطل في عقيدتك ، ومع ذلك أصر ، ولم يبحث ويسأل فهو آثم ، لأنه مقصر ، وجهل المقصر ليس بعذر .

٣ ــ أن لا يؤمن بمحمد (ص) ، مع ان فيه الاستعداد الكافي الوافي لتفهم الحق ، ولكنه أهمل ولم يكترث اطلاقاً ، أو بحث بحثاً ناقصاً ، وترك قبل أن يبلغ النظر نهايته ، كما هو شأن الأعم الأغلب ، بخاصة شباب هـذا الجيل .. وهذا غير معذور ، لأنـه اخطأ من غير اجتهاد ، وتمكن من معرفة الحق ، وأهمل .. وبالأولى أن يؤاخذ ويعاقب من بحث واقتنع ، ومع ذلك رفض الإيمان بمحمد (ص) تعصباً وعناداً .

٤ ــ أن ينظر الى الدليل ، وهو متجه الى الحق باخلاص ، ولكن لم يهتدِ الى الوجه الذي يوجب الإيمان بنبوة محمد (ص) ، اما لتمسكه بشبهة باطلة دون أن يلتفت الى بطلانها،واما لسليقة عرجاء، وما إلى ذلك مما يصد عن رؤية الحق .

وهذا ينظر الى حاله : فان جحد ونفى النبوة عن محمد (ص) بقـول قاطع فهو مؤاخـذ ومستحق للعقاب ، لأن من خفي عليه وجه الحق لا يجوز له أن يجزم ويقطع بنفيه اطلاقاً ، فقد يكون الحق موجوداً ، ومنـع من الوصول إلى معرفته مانع ، وهذا هو الغالب ، فإن الأشياء الكونية موجودة في ذاتها ، ومع ذلك لا نعلم منهـا إلا قليلاً ، وكذلك الشأن بالنسبة الى الأنبياء والمصلحين .. وأي انسان يحيط بكل شيء علماً .

وقد عبّر أهل المنطق والفلسفة عن ذلك بعبارات شتى : منها عدم العلم لا يدل على العدم .. عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود .. كلٌ من الجزم بالاثبات والنفي يحتاج الى دليل .. وقد رأينا الكثير من العلماء الأكفاء ينسجمون مع هذه

---

١ كتاب القوانين ج ٢ ، ص ١٦٠ و ١٦٤ ، طبعة عبد الرحيم ، سنة ١٣١٩ هـ .

الحقيقة ، فيتهمون آراءهم ويتحفظون في أقوالهم ، ولا يتخذون من أنفسهم مقياساً للصواب ، ولا يقولون : هذا الرأي مقدس لا ريب فيه ، وما عداه ليس بشيء ، بل ينظرون الى كل الآراء على انها عرضة للتساؤل .. ولا شيء أدل على نقص العالم من غروره بنفسه ، وتزكيته لعلمه ، وازدرائه لرأي الغير وعقيدته .

وعلى هذا ، فإن مجرد عدم اقتناع زيد من الناس بنبوة محمد (ص) لا يسوّغ له نفي النبوة عن النبي الأعظم (ص) بقول قاطع .. وان فعل فهو مسؤول ، بخاصة بعد أن رأى العديد من الغرباء الأكفاء الذين لم يتأثروا بالوراثة والبيئة ، رآهم يؤمنون بمحمد ورسالته لا لشيء الا احتراماً للحق ، واعترافاً بالواقع[1] .

هذا اذا جحد ، أما اذا نظر الى الدليل ولم يقتنع ، ولكنه لم يجحد ، بل وقف موقف المحايد من نبوة محمد (ص) لم يثبت ، ولم ينف ، وفي الوقت نفسه نوى مخلصاً أن يؤمن بالحق متى ظهر له ، تماماً كالفقيه العادل ، يفتي بالشيء على نية العدول عنه متى استبان له الخطأ ، أما هذا فهو غير مسؤول ، لأن من أخطأ في اجتهاده من غير تقصير فلا يؤاخذ على خطأه بحكم العقل، والنقل أيضاً ، فعن الإمام جعفر الصادق (ع) : لو ان الناس اذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا .. وفي رواية ثانية : انما يكفر اذا جحد .. وقال الشيخ الأنصاري في كتابه المعروف بـ « الرسائل » ، فصل « الظن في الأصول » : « لقد دلت الأخبار المستفيضة على ثبوت الواسطة بين الكفر والايمان » . أي ان الجاحد كافر ، والمعتقد مؤمن ، والشاك لا كافر ولا مؤمن .

ومن الأحاديث التي يمكن الاستدلال بها على عدم مؤاخذة المجتهد غير المقصر اذا أخطأ فيما يعود الى العقيدة ، من هذه الأحاديث الحديث المشهور عند السنة والشيعة : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، واذا اجتهد فأخطأ فله أجر » .

---

[1] منهم (ليوبولد فايس) النمساوي الذي أسمى نفسه محمد أسد، وألف كتاب الإسلام على مفترق الطرق ، ومنهم (فاغليري) الايطالية صاحبة كتاب دفاع عن الإسلام ، وغيرهما كثير لم تحضرني أسماؤهم .. وسمعت أن أحد الايرانيين وضع كتاباً خاصاً في أسماء من أسلم من الغربيين ، وانهم جمع غفير .

واذا قال قائل : ان هذا الحديث خاص بخطأ المجتهد في الأحكام الفرعية ، لا في المسائل العقائدية ، كما ادعى جماعة من العلماء .

قلنا في جوابه وجوابهم : ان المبرر لعدم مؤاخذة المجتهد في الأحكام هو احتراسه وعدم تقصيره في البحث ، وهذا المبرر موجود بالذات في المسائل العقائدية .. هذا ، الى ان جميع الفقهاء اتفقوا ، ومنهم الذين خصوا هذا الحديث بالمجتهد في الفروع ، اتفقوا بكلمة واحدة على ان القاصر الذي يعجز عن ادراك العقيدة الحقة معذور ، ونحن لا نرى أي فرق بينه وبين المجتهد الذي عجز بعد ان استنفد الجهد ، لأن كلاً منهما عاجز عن معرفة ما لم يصل اليه .

والخلاصة ان من جحد الحق ، أي حق كان فهو مؤاخذ ، سواء اجتهد أم لم يجتهد إلا إذا كان قاصراً كالبهائم ، وان وقف من الحق موقفاً محايداً لم يثبت ولم ينف ينُظر : فإن وقف هذا الموقف دون أن يجتهد وينظر الى الدليل ، أو اجتهد اجتهاداً ناقصاً فهو مؤاخذ ، وان كان قد نظر الى الدليل ، حتّى بلغ الاجتهاد نهايته فهو معذور ، على شريطة أن يبقى متجهاً الى الحق عازماً على العدول عن موقفه متى ظهر العكس .

وتسأل : قلتَ ان القاصر الذي يعجز عن معرفة العقيدة الحقة – ومنها نبوة محمد – معذور : وكذلك المجتهد غير الجاحد ، مع عدم تقصيره في الاجتهاد، فهل معنى هذا انه يجوز لنا أن نعاملها معاملة المسلمين في الزواج والارث ، وما اليهما ؟

الجواب : نريد بالعذر هنا عدم استحقاق العقاب في الآخرة .. وهذا شيء، والزواج والارث في هذه الحياة شيء آخر .. وكل من لا يؤمن بنبوة محمد(ص) مهما كان السبب فلا يجوز أن نعامله معاملة المسلمين من حيث الارث والزواج ، سواء أكان من الناجين غداً ، أم من الهالكين ، كما ان من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، حتّى ولو كان أفسق الفاسقين ، بل ومن المنافقين أيضاً .

لا يجدي مع الكفر شيء الآية ١١٦ – ١١٧ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ★ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ★

اللغة :

الصر البرد الشديد ، والمراد بالحرث هنا الزرع .

الإعراب :

شيئاً مفعول مطلق ، لأنها بمعنى الاغناء ، فكأنه قال : لا تغني عنهم اغناءً ما . وكمثل الكاف زائدة .

المعنى :

(ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) . قال الرازي وصاحب تفسير المنار : اختلف المفسرون في المراد بالذين كفروا ، فقال جماعة : المراد بعض الكفار ، وقال آخرون : بل المراد جميع الكفار .

أما نحن فنرى ان المراد بهم كل من خالف الحق وعانده حرصاً على مصلحته ومصلحة أولاده ، وخوفاً على ماله وثروته كافراً كان ، أو مسلماً .. أجل ، ان لفظ الآية خاص بالكافرين ، ولكن السبب الموجب لعدم الاغناء عام يشمل جميع المخالفين للحق بدافع من أهوائهم ، وهم الذين وصفهم الله سبحانه بقوله

في أكثر من آية بأنهم يبيعون الحق بأبخس الأثمان .

(مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) . الريح التي فيها صر هي الريح المهلكة لشدة بردها وسمومها ، والمعنى ان الذين يجمعون الثروات من الحلال والحرام، ويخالفون من أجلها الحق ، وينفقونها على جاههم وملذاتهم غير مكترثين بخلق ولا دين ، ان هذا الانفاق من هؤلاء قد أهلك عقولهم ، وأفسد أخلاقهم ، تماماً كما تهلك الريح الباردة العاتية الزرع الذي قد تهيأ للاخصاب والانتاج .

واذا ربحوا أياماً من اللذة واشباع الشهوات فقد خسروا أنفسهم ، وباعوها للشيطان ، ولهم في الآخرة عذاب الخلود .. وما ظلمهم الله (ولكن أنفسهم يظلمون) . لأنهم اندفعوا وراء شهواتهم وأهوائهم مختارين .. قال الإمام علي (ع) : الناس في الدنيا رجلان : رجل باع نفسه فأوبقها – أي باع نفسه لهواه وشهوته فأهلكها – ورجل ابتاع نفسه فأعتقها . أي اشتراها وخلصها من أسر الشهوات .

بطانة السوء الآية ١١٨ – ١٢٠ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ★ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ★ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ★

اللغة :

بطانة الرجل خاصته مأخوذ من بطانة الثوب ، وتستعمل للواحد والجمع مذكراً ومؤنثاً ، ويألونكم مصدرها ألواً والماضي ألاَ والمضارع يألو ، ومعنى الألو التقصير ، يقال : لا آلوك نصحاً أي لا أقصر في نصحك ، ولا آلوك جهداً ، أي لا أنقصك جهداً ، والخبال النقصان والفساد ، ومنه رجل مخبل ومخبول ومختبل ، أي ناقص العقل وفاسده ، والعنت المشقة .

الإعراب :

يألون فعل قاصر ، ولكنها هنا تتضمن معنى المنع فعديت إلى مفعولين ، وخبالاً مفعول ثان ، وجملة لا يألونكم لا محل لها من الإعراب ، لأنها جواب عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : لماذا لا نتخذ بطانة من غيرنا فأجيب : لانهم لا يألونكم خبالاً ، وها أنتم « ها » للتنبيه ، وأنتم مبتدأ ، وأولاء اسم اشارة خبر ، وتحبونهم الجملة في محل نصب على الحال من اسم الاشارة ، ولا يضركم جواب إن الشرطية ، ويجوز كسر الضاد وسكون الراء على ان يكون المصدر الضير ، وإذا كان الضرر فالأصل لا يضرركم ، ثم ادغمت الراء بالراء،وضمت تبعاً لحركة الضاد ، وشيئاً مفعول مطلق ، أي شيئاً من الضرر .

المعنى :

تكلم سبحانه في الآيات السابقة عن أهل الكتاب والمشركين والمرتدين الذين كفروا بعد ايمانهم ، وتوعد الجميع ، وألزمهم الحجة ، ثم أمر المسلمين بتقوى

الله ، والاعتصام بحبله ، والأمر بالمعروف ، بعد هذا كله حذر سبحانه المسلمين من الكافرين الـذين يضمرون السوء للاسلام والمسلمين ، ويتمنون لهم الويلات والعثرات ، حذرهم بقوله :

(يا أيهـا الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم) . وهذا بظاهره نهي للمسلمين عن كل من ليس على دينهم ، دون استثناء ، وعليه يتجه الاعتراض التالي :

المعروف عن رؤساء الأديان في جميع الطوائف انهم يبثون بين أتباعهم روح العداء والتعصب ضد أهل الطوائف الأخرى ، وهذا هو القرآن يسير على نفس الطريق ، حيث أمر المؤمنين به بالتباعد عن غيرهم ، وحذرهم أن يتخذوا أولياء وخواصاً إلا منهم وفيهم .. اذن، أين التساهل والتسامح في الاسلام ؟ وأي فرق بين المسلمين ، وبين اليهود الذين قـال بعضهم لبعض : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » ؟

الجواب : ان الآية لم تحذر المسلمين مـن غيرهم من حيث انهم لا يدينون بدين الاسلام .. كلا ، وانما حذرتهم من الذين ينصبون لهم المكائد والمصائد ، وهذا المعنى صريح في قوله تعالى : (لا يألونكم خبالاً) أي يجتهـدون ، ولا يقصرون في مضرتكم ، وافساد الأمر عليكم ، وفي قوله : (ودوا مـا عنتم) أي يتمنون لكم العنت والمشقة ، وفي قوله : (قد بدت البغضاء من أفواههم) أي الطعن في دينكم ونبيكم وقرآنكم . (وما تخفي صدورهم أكبر) مما يفيض على ألسنتهم .. وأيضاً من أوصاف الـذين حذر الله منهم (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) .. (وان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) . كل هذه الأوصاف هي السبب الموجب للنهي عن اتخاذ البطانة .. وعلى هذا فكل من يتصف بهذه الأوصاف يجب الابتعاد عنه ، ولا يجوز اتخاذه بطانة، سواء أحمل اسم مسلم ، أو أي اسم آخر .

نحن الآن في سنة ١٩٦٧ ،وفي ٥ حزيران من هذه السنة دفع الاستعمار باسرائيل الى الاعتداء على الأراضي العربية ، بعد أن مهد لها السبيل حثالـة من صراصير الاستعمار ، تنتمي بدينها الى المسلمين وبقوميتها الى العرب .. وهذه الحثالة أعظم جرماً عند الله من الملحدين والمشركين الذين كفوا الأذى عن غيرهم .. إذن ،

المسألة مسألة شر وخيانة وآثام ، لا مسألة كفر ، وعدم اسلام .

وتسأل : إذا كان الأمر كما ذكرت فلماذا قال تعالى (من دونكم) ولم يقل من الخائنين المفسدين ؟

الجواب : ان الآيــة نزلت في بعض المسلمين الذين كانوا يواصلون اليهود – كما قال المفسرون – وبديهة ان العبرة بالسبب الموجب لتشريع الحكم،لا بسبب نزوله ، وتطبيقه على مورد من الموارد ، وبكلمة ان الحكم يتبع ظـاهر اللفظ اذا لم نعلم بسببه ، أما اذا كنا على يقين من سببه التام فيكون مدار الحكم على السبب ، لا على ظاهر اللفظ .

(قد بينا لـكم الآيات ان كنتم تعقلون) . المراد بالآيات هنا العلامات الفارقة بين الذي يصح أن يتخذ بطانة ، والخبيث الذي يجب الابتعاد عنه . (ها أنتم تحبونهم ولا يحبونـكم) . ظاهر الخطاب انه موجه الى جماعة تنتمي الى الإسلام ، ولا يصح ان يتوجه الى جميع المسلمين لا في العصر الأول ، ولا في غيره ، اذ لم يعهد ان كلمة المسلمين اتفقت على حب الكافرين في يوم من الأيام .

وقال الطبري شيخ المفسرين ، وتبعه كثير ، قالوا ما معناه ان حب المسلمين لمن يكرههم من الكافرين دليل على ان الإسلام دين الحب والتساهل .

هذا سهو من الطبري ومقلديه ، لأن الإسلام لا يتساهـل أبداً مع المفسدين والخائنين ، ولا شيء أدل على ذلك من هذه الآيـة نفسها التي فسّرها الطبري بالتساهل .

والذي نراه ان المسألة ليست مسألة تساهل ، وانمـا هي مسألة خيانة ونفاق من بعض من انتسب الى الإسلام ، وفي الوقت نفسه يتجسس على المسلمين لحساب عدو الوطن والدين، كما هو شأن عملاء الاستعمار اليوم المعروفين بالطابور الخامس، وبالمرتزقة والانتهازيين ، لأنهم يبيعون دينهم ووطنهم لكل من يدفع الثمن .

(وتؤمنون بالكتاب كله) . الألف واللام في الكتاب للجنس ، والمعنى انكم تؤمنون بكل كتاب مُنزل من الله سواء أنزل عليـكم أم عليهم ، ولستم مثلهم يؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض .

(واذا لقوكم قالوا آمنا). رياء ونفاقاً .. ولا ينبغي للمؤمن أن يوالي المنافقين والمرائين .

(واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) . عضوا عليكم الأنامل كناية عن حقدهم ولؤمهم ، ولا شيء يغيظ العدو مثل الفضيلة والخلق الكريم ، ومثل الائتلاف واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، وما تمكن العدو من المسلمين قديماً وحديثاً الا لشتاتهم وتفتيت وحدتهم . (قل موتوا بغيظكم) . هذا مثل قول العرب لمن يدعون عليه : « مت بدائك » أي أبقى الله داءك، حتى تموت به .. وبديهة ان هذا يقال للعدو اذا كان القائل قوياً عزيزاً، ولا قوة كالاجتماع والائتلاف . (ان الله عليم بذات الصدور) . ذات الصدور كل ما يجول في خاطر الانسان ، وكل ما ينطوي عليه قلبه من دوافع الخير والشر ، والقصد ان الله يعلم بحقدهم ولؤمهم ، ويعاملهم بحسبه .

(ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) . شأن كل عدو، وقال المفسرون : ذكر المس في الحسنة للاشعار بأن أقل خير يناله المسلمون يسيء عدوهم ، وذكر الاصابة في السيئة للاشعار بأنه كلما تمكنت السيئة من المسلمين ازداد عدوهم فرحاً ، وهذا أبلغ تعبير عن شدة العداوة . (وان تصبروا) على طاعة الله ، وأذى أعدائه (وتتقوا) المحرمات والمعاصي (لا يضركم كيدهم شيئاً) . من كان مع الله كان الله معه ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً .

وقعة أحد الآية ١٢١ :

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ★

هذه الآية ، وعشرات الآيات بعدها نزلت في وقعة أحد التي نلخصها بما يلي:
أحد اسم جبل يبعد عن المدينة ثلاثة أيام على التقريب ، وكانت معركة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة .

بعد ان قتل المسلمون صناديد قريش في بدر خلا الجو لأبـي سفيان، وأصبح السيد الرئيس لقريش ، فأخذ يؤلب المشركين على رسول الله ، واستطاع أن يؤلف جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل ، فزحف به ، ونزل قريباً من جبل أحد ، وكان معه زوجته هند ابنة عتبة ام معاوية .

وخرج النبي (ص) في ألف مقاتل ، ولكن عبدالله بن أبـيّ رأس النفـاق خذل الناس ، واستجاب له ثلاثمئة ، وبقي مع النبي سبعمئة ، وحاول عبدالله ابن عمرو والد جابر الأنصاري أن يثني ابن أبـيّ عن عزمه فلم يفلح ، وهمّ حيان من الأنصار ان يتبعا ابن أبـيّ ، ثم عصمهم الله وثبتوا مع النبي (ص) ، وهما بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس .

ورسم النبي (ص) خطة القتال،فجعل الرماة على جبل خلف جيش المسلمين، وكانوا خمسين رامياً ، وجعل عليهم عبدالله بن جبير ، وقال لهم : احموا ظهورنا، ولا تفارقوا مكانكم غالبين كنا أو مغلوبين .. ولما اشتبك القتـال قامت هند أم معاوية في النسوة التي معها،وضربن بالدفوف خلف الرجال يحرضنهم ومما كانت تغني به هند :

ان تقبلوا نعانق . ونفرش النمارق . أو تدبروا نفارق . فراق غير وامق .

وكان يقول النبي عند سماعها : اللهم بك أحول ، وبك أصول ، وفيك أقاتل، حسبي الله ، ونعم الوكيل .

وكانت راية المشركين مع طلحـة بن أبـي طلحة العبدي من بني عبد الدار فقتله الإمام علي ، فأخذ الراية سعيـد بن أبـي طلحة فقتله الإمام ، وسقطت الراية فأخذها مسافع بن أبـي طلحة فقتله الإمام ، حتى قتل تسعة أنفار من بني عبد الدار ، ثم أخـذ الراية عبد أسود لبني عبد الدار فقتله الإمام ، وانكسر المشركون وانهزموا شر هزيمة ، وشرع المسلمون ينتهبون الغنائم .

ولما رأى الرماة هزيمـة المشركين ، واخوانهم المسلمين يجمعون الغنائم أخلوا مكانهم الذي رتبهم فيه رسول الله (ص) .. وقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير مكانكم ، أطيعـوا الله ورسوله ، فأبوا ، وانطلقوا للسلب والنهب ، ولم يبق مع ابن جبير إلا عشرة رجال ؛ فقصدهم خالد بن الوليد بكتيبة من المشركين، فأبادهم بعد أن قاتلوا قتال المستميت .

ولما نظرت قريش ما صنع خالد تجمعوا على المسلمين ، وأصابوا منهم ما أرادوا ، ووصل العدو الى رسول الله (ص) ، وأصابته حجارة المشركين ، فكُسرت رباعيته وشُخ في وجهه ، وكُلمت شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجهه،وفر المسلمون عن النبي (ص) بعد أن صاح صائح بأعلى صوته: ان محمداً قد قتل .. ولم يبق معه إلا نفر على رأسهم علي بن أبي طالب ، وأبو دجانة ، وسهل بن حنيف ، وقد استماتوا في الدفاع .

وأغرت هند وحشياً باغتيال محمد أو علي أو حمزة ، فاغتال حمزة بحربة ، فشقت هند بطنه،واستخرجت كبده ، فلاكتها . ومن ذاك اليوم التصق بها اسم آكلة الأكباد .. وكان عدد القتلى من المشركين ٢٢،وعدد الشهداء من المسلمين ٧٠.

المعنى :

(وإذ غدوت من أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال).الغدوة والغداة ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وتبوىء تهيء وتدبر ، والمقاعد واحدها مقعد، أي مكان القعود . والمعنى اذكر أيها الرسول وقت خروجك غدوة من بيتك تدبر أمكنة للرماة ، وللفرسان ، ولسائر المؤمنين الذين كانوا معك .

الآية ١٢٢ :

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ★

المعنى :

الطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الاوس . كادت تؤثر

فيها حركة المنافق عبدالله بن أبيّ ، لولا ان ادركتها ولاية الله وتثبيته . وقوله تعالى : « والله وليهما » دليل قاطع على انه سبحانه يمنح التوفيق والعناية لناس من عباده ، دون ناس ، لأن معناه انـــه لا يدع الطائفتين تفران وتفشلان . والله سبحانه أعلم ، حيث يجعل عطاءه وعنايته ، كما انه أعلم ، حيث يجعل رسالته .

وقعة بدر الآية ١٢٣ – ١٢٧ :

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ★ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ ٱلْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ★ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ ٱلْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ★ وَمَا جَعَلَهُ ٱللهُ إِلاَّ بُشْرٰى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ★ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَـــرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ★

في هذه الآيات يذكّر الله المسلمين بوقعة بدر التي انتهت بالنصر ، وبدر بئر بين مكة والمدينة ، كانت لرجل يسمى بدراً ، فسميت البئر باسمه ، وكانت قوافل قريش التجارية الى الشام تمر ببدر ، وجدّ المسلمون في مهاجمة هذه القوافل التي كانت برئاسة أبي سفيان ، وخرج المشركون حوالى ألف مقاتل بالعدة والعدد لحماية احدى هذه القوافل ، والتحموا مع المسلمين ، وكانوا ٣١٣ رجـــلاً ، وكانت هذه الوقعة نصراً مؤزراً للمسلمين ، وكارثة كبرى على المشركين ، وكان

لها دوي عظيم في أرجاء البلاد العربية .. وسنعود الى وقعة بدر ان شاء الله حين نصل بالتفسير الى قوله تعالى : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين – الآية ٧ من سورة الانفال .

المعنى :

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون). هذا تذكير بنصر الله للمسلمين يوم بدر لتقوى قلوبهم ، وكانوا آنذاك في قلة من العدد ، وفي غير منعة من العدة ، اذ كان عدد المسلمين ٣١٣ رجلاً ، ولم يكن معهم الا فرس واحد ، وكان المشركون حوالى ألف ، ومعهم مئة فرس ، ومع ذلك قُتل من المشركين ٧٠ ، وأسر ٧٠ ، وانهزم الباقون .

والقصد من تذكيرهم هذا أن يبين لهم ان الانتصار في معركة من المعارك لا يعد نصراً حاسماً ، ولا الانكسار في معركة من المعارك يكون انكساراً نهائياً، وانما النصر النهائي للصابرين الثابتين ، والمتقين المخلصين ، وقد دلت الأحداث والحروب قديماً وحديثاً على هذه الحقيقة وصحتها بخاصة الحرب العامة الأخيرة التي ابتدأت سنة ١٩٣٩ ، وانتهت سنة ١٩٤٥ .

(اذ تقول للمؤمنين) . كان هذا القول من النبي (ص) يوم بدر : (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) . أي نازلين من السماء. (بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) . بلى ايجاب للنفي ، أي يكفيكم هذا الامداد ، وضمير الغائب في يأتوكم للمشركين ، وضمير المخاطب للمؤمنين ، ومن فورهم أي من ساعتهم . (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) . مسومين من السماء ، أي لهم علامة تدل عليهم .

وقد دل قول الله هذا دلالة لا تقبل التأويل انه جلت قدرته قد امد المسلمين بالملائكة في بعض حروبهم ، وقد دلت الروايات الكثيرة ، واتفق المسلمون على ان الله أنزل الملائكة يوم بدر لنصرة المؤمنين ، واختلفوا في انزالهم يوم أحد ، وليس من شك ان الله سبحانه أنزل الملائكة يوم بدر لنصرة المؤمنين ، ولكن لا نعلم نوع هذا النصر : هل كان نصراً مادياً كالقتال ، أو نصراً معنوياً

كتخويف المشركين ، وحصول الطمأنينة للمؤمنين ؟ الله أعلم .. ولا يجب علينا البحث والتنقيب عن ذلك : على انه اذا بحثنا فلن نصل الى يقين .

أجل ، هناك أدلة تفيد ان الملائكة تتصور بصورة البشر ، منها ما أخبر الله به عن ضيف ابراهيم (ع) في الآية ٥١ وما بعدها من سورة الحجر : « ونبئهم عن ضيف ابراهيم – الى قوله – انا أرسلنا الى قوم مجرمين » . ومنها عن ضيوف لوط الآية ٧٧ سورة هود ، ومنها قوله تعالى : « فتمثل لها بشراً سوياً – ١٧ مريم » . ومنها ان جبريل كان يأتي رسول الله (ص) في صورة دحية الكلبي .. ولكن تصور الملائكة بصورة البشر لا يحتم انهم قاتلوا من أجل المسلمين ، بل من الجائز أن يناصروهم بطريق آخر غير القتال .

وتسأل : ان الله سبحانه قال في الآية ٩ من سورة الأنفال : « اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . وقال في الآية ١٢٤ من آل عمران : « يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين » . وقال في الآية التي بعدها بلا فاصل: « ان تصبروا وتتقوا – الى قوله – يمددكم ربكم بخمسة من الملائكة مسومين ». تسأل : هل أمدهم الله أولاً بألف ، ثم بثلاثة ، ثم بخمسة،حتى صار المجموع تسعة ، أو ماذا ؟

ومما أجيب به عن ذلك ان الله أمدهم أولاً بألف مردفين ، أي لهم تبع ، ثم ضم الى الألف ألفين ، فصاروا ثلاثة ، ثم ضم الى الثلاثة ألفين آخرين ، فصار المجموع خمسة .

وقال قائل : ان الله أمد المسلمين يوم بدر بألف . ثم بلغهم ان بعض المشركين يريد أن يمد قريشاً بعدد كبير من المقاتلين ، فخاف المسلمون ، وشق ذلك عليهم ، لقلة عددهم ، فوعدهم بخمسة آلاف من الملائكة ان جاء المدد الى قريش ، ولكن بثلاثة شروط ، وهي الصبر والتقوى ومجيء الكفار على الفور، كما نطقت الآية : « ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا » .. ولكن هذا المدد لم يأت قريشاً ، فاستغنى المسلمون عن الامداد بالزيادة على الألف .

(وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم بـه) . الهاء في (جعله) يعود على غير مذكور بلفظه وهو الامداد والوعد به ، وانما استخرجناه من يمدد،

وهو المعبر عنه بالمصدر المتصيد،والمعنى ان الله سبحانه أمدكم بالملائكة ، أو وعدكم بالامداد ، لتسكن قلوبكم ، فلا تخافوا من كثرة العدد في عدوكم ولا تيأسوا لقلة عددكم .

(ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) . اي ان الله سبحانه أمدكم بالملائكة ليهلك طائفة من الكافرين بالقتل والأسر ، أو يخزيهم بالهزيمة ، فيرجعوا خائبين لا أمل لهم بالنصر .

ليس لك من الأمر شيء الآية ١٢٨ – ١٢٩ :

لَيسَ لَكَ مِنَ الأَمرِ شَيءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ★ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ★

المعنى :

(ليس لك من الأمر شيء) . قد يظن المسلمون – بالنظر الى تعظيمهم رسول الله – ان له يداً فيما حدث للمشركين ببدر ، أو يحدث لهم من الهزيمة، فدفع سبحانه هذا الوهم بأن الأمر كله لله وحده .. وقد أكد القرآن في العديد من آياته بأن محمداً (ص) هو بشير ونذير ، يبلغ أحكام الله لعباده ، وكفى.. وغير بعيد أن تكون الحكمة من هذا التكرار والتأكيد ان لا يغالي المسلمون في نبيهم ، كما غالى المسيحيون بالسيد المسيح (ع) .

(أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) . يتوب منصوب،لأنه معطوف على يكبتهم المنصوبة في الآية السابقة ، والمعنى ان الأمر كله لله ، فاما أن

يهلكهم ، أو يتوب عليهم ان أسلموا ، أو يعذبهم ان أصروا على الكفر ، لأنهم يستحقون العذاب بظلمهم ، أي بكفرهم .

(ولله ما في السموات وما في الأرض) ومن كان له ملك السموات والأرض كان حقيقاً بأن يكون له الأمر كله ، ولا شيء لأحد معه . (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) . ذكرنا أكثر من مرة ان العقل يحكم بـأن الكافر يستحق العقاب ، ولكن لا يحتمـه على كل حال ، بل ان لله سبحانـه ان يغفر عنه لحكمة ، مع استحقاقه للعقاب ، تماماً كما تغفر عمن أساء اليك ، وتسقط ديونك عمن هو مدين لك .. وجانب الرحمة والمغفرة عند الله هو الغالب تفضلاً منه وكرماً .

لا تأكلوا الربا الآية ١٣٠ – ١٣٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ★ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ★ وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ★ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَـــا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ★

اللغة :

ضعف بكسر الضاد معناة الزيادة على الشيء بمثله .

الإعراب :

اضعافاً حال ، ومضاعفة مفعول لاضعاف .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) . ذكر المفسرون وجوهاً عديدة لربط هذه الآية بما قبلها . وسبق ان أشرنا أكثر من مرة الى ان من سُنة القرآن ان يمزج بعض الأحكام ببعض ، بالاضافة الى ان آياته نزلت بالتدريج ، ولمناسبات شتى .

واستدل البعض بهذه الآية على ان الربا المحرم هو الربا الفاحش ، أما غير الفاحش فليس بحرام ، لمكان لفظ أضعافاً مضاعفة .

والصحيح ان الربا محرم بجميع أقسامه ومراتبه .. وأضعافاً ليس قيداً للنهي ، وانما هو اشارة الى ما كان عليه المرابون في الجاهلية .. هذا،الى وجود الأخبار، وقيام الاجماع على ان قليل الربا محرم كالكثير منه،بل كل ما كان كثيره حراماً فقليله كذلك ربا كان أو غير ربا .

وأطال صاحب تفسير المنار الشرح والتفصيل عند تفسير هذه الآية ، وانتهى أخيراً الى ان الربا على قسمين :

القسم الأول ربا النسيئة ، وهو ان يكون للرجل دين على آخر الى أجل ، فإذا حل الأجل ، وعجز المدبون قال للدائن : زدني في الأجل ثانية ، وازيدك في المال ، وهكذا كلما زاد الاجل ، زاد المال . ثم قال صاحب المنار : ان هذا النوع من الربا محرم لذاته .

القسم الثاني : أن يعطيه مئة درهم بمئة وعشرة الى أجل ابتداءً ، وادخل صاحب المنار هذا القسم بربا الفضل ، وقال : ان هذا النوع ليس محرماً لذاته، وانما يحرم لسد الذريعة ، أي خوفاً أن يجر الى ربا النسيئة الذي هو محرم ذاتاً ، وبكلمة ان ربا النسيئة عند صاحب المنار محرم كغاية،وربا الفضل محرم كوسيلة، ثم قال : « ان ربا الفضل يباح للضرورة ، بل وللحاجة كما قال ابن القيم » .

ويلاحظ : ان النص الثابت كتابة وسنة يُحرم جميع أنواع الربا من غير فرق بين أن يكون التأجيل للمرة الأولى ، أو للمرة الثانية .

ثانياً : ان قوله « بل وللحاجة » من سهو القلم ، لأن الضرورات تبيح المحظورات ، أما الحاجات فليس ، والفرق بين الحاجة والضرورة ان الحاجة

يمكن الاستغناء عنها ولو بالصبر ، أما الضرورة فلا يجدي معها شيء الا سدها بالذات .

ثالثاً : ان الضرورة هنا غير متحققة اطلاقاً ، لا بالنسبة الى القابض ، ولا بالنسبة الى الدافع ، أما القابض أي صاحب المال فلأن المفروض ان لديه ما يقيم به الأود ، ولو يوماً واحداً ، وأما الدافع فإن الضرورة اذا سوغت له أخذ المال فإنها لا تسوغ له دفع الربا ، وان اشترط عليه ، لأن الشرط فاسد، واذا أخذ منه قهراً عنه فلا يحل للآخذ ، لأنه أكل للمال بالباطل .

رابعاً : لو سلمنا جدلاً بأن الضرورة ممكنة بالنسبة الى القابض فإنها تسقط الحكم التكليفي دون الوضعي ، فإذا سرق الجائع المضطر رغيفاً يسقط عنه العقاب ما في ذلك ريب ، ولكنه مسؤول عن ثمن الرغيف، وعليه أن يدفعه الى صاحبه عند الميسرة .. ومن أباح أخذ الربا للضرورة لا يوجب رده عند الميسرة الى من أخذ منه .

وتكلمنا عن الربا مفصلاً في سورة البقرة الآية ٢٧٥ .

(واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) . في هذا دلالة على أمرين : الأول ان أكل الربا معصية لله والرسول . الثاني : ان من يعصي الله والرسول لا تناله رحمة الله بحال .

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) . بعد أن نهى سبحانه عن أكل الربا ، وحذر من النار ، ودعا الى التقوى وطاعة الله والرسول ، بعد هذا كله أمر بالمسارعة الى فعل الخير الذي يستوجب رضوان الله وجنته .. ومن أظهر الخيرات والمبرات التراحم والتعاون وانفاق المال لوجه الله تعالى، كما نصت الآية الآتية .. وقوله « عرضها السموات والأرض » كناية عن السعة .

صفات المتقين الآية ١٣٤ - ١٣٦ :

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ

النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ★ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ★ أُولٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ★

اللغة :

السراء الحال التي تسر ، ومنها اليسر والسعة ، والضراء الحال التي تضر ، ومنها العسر والضيق،وكظم الغيظ عدم إظهاره بقول أو فعل ، والمراد بالفاحشة هنا الذنب الكبير ، ومنه الزنا ، قال تعالى: « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة».

الاعراب :

الذين صفة للمتقين في آخر الآية السابقة والكاظمين والعافين عطف على الذين، وفاحشة صفة لمحذوف ، أي فعلوا فعلة فاحشة ، ونعم أجر العاملين المخصوص بالمدح محذوف ، أي نعم أجر العاملين أجرهم .

المعنى :

وصف الله المتقين بأوصاف هي مناقب وفضائل حتى عند من لا يؤمن بالله واليوم الآخر :

« منها » : (ينفقون في السراء والضراء) . لا يبطرهم الغنى ، ويزيد في

طمعهم وحرصهم ، فيشحون بالمال ، ولا يضجرهم الفقر ، ويبعثهم على اليأس ويرون انهم أجدر بالأخذ لا بالعطاء،وهم في الحالين سواء ينفقون حسبما يستطيعون.. وفي الحديث : تصدقوا ولو بشق تمرة .

و « منها » : (والكاظمين الغيظ) . ولا شيء أدل على قوة الإيمان ، ورجاحة العقل من تمالك النفس وكظم الغيظ ، وإذا كان في تجرع الغيظ مرارة ومشقة على النفس ، فانه وقاية من كثير من المصائب والكوارث ، قال الإمام علي (ع) يوصي ولده الإمام الحسن (ع) : تجرع الغيظ فاني لم أرَ جرعة أحلى منها عاقبة ، ولا ألذ مغبة .

و (منها) : (والعافين عن الناس) . والعفو عمن أساء أفضل بكثير من كظم الغيظ ، لأن الانسان كثيراً ما يضبط نفسه ، ويكظم غيظه بدافع من صالحه الخاص ، وتجنباً للوقوع في المشاكل ، أما العفو عن ذنوب الناس فهو احسان محض . قال الإمام علي (ع) : اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه .

و (منها) : (والله يحب المحسنين) . ويتحقق الاحسان بكل ما فيه نفع مادي أو معنوي ، كثر ، أو قلّ ، ولو بكلمة (من هنا الطريق) . قال الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية : «أخرج البيهقي ان جارية لعلي بن الحسين(ع) جعلت تسكب الماء عليه ليتهيأ للصلاة ، فسقط الابريق من يدها فشجته ، فرفع رأسه ، فقالت : ان الله يقول : والكاظمين الغيظ . فقال لها : قد كتمت غيظي . قالت : والعافين عن الناس . قال : قد عفا الله عنك . قالت : والله يحب المحسنين . قال : اذهبي أنت حرة لوجه الله تعالى .

و (منها): (والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) . الفاحشة أفحش الذنوب وأكبرها،ومنها الاعتداء على حقوق الناس ، وليس في ظلم النفس اعتداء على الغير ، ولكن قد يكون فاحشاً كالكفر ، فيكون ذكره بعد ذكر الفاحشة من باب ذكر العام بعد الخاص .. ومهما يكن، فإن الله يعفو عن الجميع ، ويغفر كل ذنب كبيراً كان أو صغيراً بشرط الاستغفار ، أي التوبة النصوحة . (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) . أي ان الله سبحانه يغفر لمن تاب وأقلع عن الذنب ، أما من أصر واستمر في

فعل الذنب ، وهو يعلم بأنه ذنب فلا يغفر الله له . ومعنى هذا ان من ارتكب قبيحاً عن جهل بقبحه فهو معذور .
(أولئك جزاؤهم الخ) مر نظير هذه الآية في سورة البقرة ٢٥ و ٢٦٦ .

قد خلت من قبلكم سنن الآية ١٣٧ – ١٣٨ :

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ★ هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ★

اللغة :

خلت ، أي مضت . والسنن واحدها سنة ، وهي الطريقة المستقيمة، والسيرة المتبعة .

المعنى :

(قد خلت من قبلكم سنن) . سبقت الاشارة الى وقعة أحد، وان الانتصار فيها كان للمشركين ، لأن المرابطين في الثغر من المسلمين تركوه، والعدو مشرف عليهم ، فأخلوا بين عدوهم وبين ظهورهم .. وقد خاطب الله سبحانه بقوله : « قد خلت من قبلكم سنن » أصحاب محمد(ص) ان يتعرفوا على أخبار الماضين، وما حل بالمنحرفين منهم، ليتعظ الأصحاب بذلك ، ولا يعودوا الى مثل ما فعلوا في أحد من معصية الرسول بإخلاء الثغر الذي أمرهم بالبقاء فيه ، مهما كانت النتائج ، فلما خالفوه أصابهم ما أصاب الأمم السالفة التي خالفت أنبياءها .
(فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . ليس المراد من السير في الأرض هنا خصوص السفر ، بل مطلق التعرف على أحوال الماضين

بأي سبيل . وليس من شك ان من المفيد للعاقل أن يبحث عن أحوال الناس ، ويطلع على الأسباب الموجبة لضعفهم ، أو قوتهم ، فيتعظ ويعتبر ، ويسترشد إلى ما فيه خيره وصلاحه ، ومن أجل هذا قال عز من قائل :

(هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) . هـذا اشارة الى ذكر السنن الحكيمة التي من سار عليها ظفر ، ومن تنكبها خسر .. ولا بد من البيان للناس كافة ، ليكون حجة على من عصى ، وهدى وموعظة لمن اتقى ، فانه السبيل الوحيد الذي يميز بين العاصي والمطيع .. ولولا البيان لا طاعة ولا عصيان .

نكسة ٥ حزيران :

في سنة ١٣٨٧ هـ دعاني أهل البحرين لالقاء محاضرات دينية بمناسبة شهر رمضان المبارك ، ومكثت عندهم حوالي ٢٥ يوماً ألقيت خلالها عشرين محاضرة ، وكان الشباب يوجهون إليّ العديد من الأسئلة المتنوعة ، وفي ذات يوم جاءني وفد منهم، وقالوا : حدثنا عن أسباب نكسة ٥ حزيران من غير الوجهة الدينية .

قلت: لا فرق بين العلم والدين من حيث النظر الى القوانين والسنن التي تحكم الحياة، فإن مشيئة الله سبحانه في خلقـه وعباده تسير على سنن علمية مستقيمة وأسباب مطردة ، لا تختلف باختـلاف المؤمنين أو الكافرين .. فالعارف بفن السباحـة - مثلاً - يعوم ويصل إلى شاطىء الأمان ، ولو كان كافراً ، والجاهل بالسباحة يرسب ، ويكون عرضة للهلاك ، ولو كان مؤمناً .. وكذلك من أعد العـدة لعدوه واحتاط له ظفر به ، وان كان ملحداً ، إذا لم يكن الطرف الآخر على حذر واستعداد ، ومن تقاعس وأهمل خسر ، وان كان من الاولياء والصديقين. قال تعالى مخاطباً أصحاب الرسول (ص) بالآية ٤٦ من الأنفال : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » . وقال الإمام علي (ع): « ان هؤلاء - يشير إلى أصحاب معاوية - قد انتصروا باجاعهم على باطلهم، وخذلتم - الخطاب لأصحابه - بتفرقكم عن حقكم » . اذن ، الحـق لا ينتصر لمجرد انه حق ، والباطل لا يخذل لمجرد أنـه باطل ، بل هناك سنن في هذه

الحياة تُسيّر المجتمع وتتحكم به ، والله سبحانه لا يسقطها ويعطل سيرها ، تماماً كما هو شأنه في سنن الطبيعة .

وعليه ، فلا عجب أن تغتال الصهيونية جزءاً من أرضنا بمعونـــة الاستعمار ، ما دمنا في غفلة عنها وعن مقاصد أعوانها منقسمين الى دويلات لا جامع بينها الا لفظ العرب والعربية .. أجل ، قد تكون الجولة الأولى للباطل، ولكن العاقبة لمن صبر واتقى ، لأن الباطل مهما استعد وتحصن فإنه يفقد القوى والصفات التي تؤهله للبقاء والاستمرار ، فهو دائماً عرضة للزوال .. ففي أية لحظة يجد الحق أنصاراً يؤمنون به ، ويضحون من أجله لا يلبث الباطل أن يدمغ ويضمحل .

والذي يبعث على التفاؤل ان العرب لم يستسلموا للأمر الواقع ، بل اتخذوا من المحنة والهزيمة دافعاً الى مزيد من الصلابة والتصميم .. لقد ظن الاستعمار ان طول الطريق يضعف العرب ، وان احتلال أرضهم يلجئهم الى الخضوع ، ثم ظهر له انه خاطىء في ظنه ، وانه لا شيء في حساب العرب الا الصبر والكفاح طويلاً كان الطريق أو قصيراً ، يسيراً كان أو عسيراً .

وتسأل : قلت : ان مشيئة الله تجري على القوانين والسنن المعروفة ، مع انه سبحانه ، قد أهلك قوم نوح بالطوفان ، وقوم هود بريح عاتية، وأمطر أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وجعل عالي مدائن لوط سافلها ، لا لشيء الا لمجرد العصيان ومخالفة الحق ، كما جاء في كتابه العزيز .

الجواب : ان الحكمة الإلهية اقتضت استثناء تلك الموارد الجزئية الخاصة على يد من سبق من الأنبياء ، ولم تتكرر وتطرد في جميع الكفار والعصاة ، فالقياس عليها قياس على الفرد النادر .

سؤال ثانٍ : لماذا لا ينتصر الحق على كل حال ، ما دام الله مريداً له ولاهله ، كارهاً الباطلَ وأتباعه ؟.

الجواب : أولاً لو انتصر الحق على كل حال لاتبعه الناس، كل الناس رغبة في النصر لأحبابه ، وكرهاً بالباطل ، ولتعذر التمييز بين الخبيث الذي يتبع الحق بقصد المنفعة والانجار ، وبين الطيّب الذي يتبع الحق لوجه الحق ، ويتحمل في سبيله المحن والشدائد . هذا ، الى ان الأسباب لا تعرف الا بعد الهزيمة .

ثانياً : لو سلّط الله المحنة على المبطلين أبداً ودائماً ، وأبعدها عن المحقين

كذلك لبطل التكليف ، والثواب والعقاب ، لأن اتباع الحق ، والحال هذه ، يكون بالقهر والغلبة ، لا بالارادة والاختيار .

والخلاصة ، ان على المسلم ان يتدبر معاني القرآن ، ويتخذ منها ميزاناً لعقيدته وتصوره عن النصر والهزيمة ، والقوة والضعف ، وان لكلٍ منها طريقه الخاص.

ولا تهنوا الآية ١٣٩ – ١٤١ :

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ★ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ واللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ★ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ★

اللغة :

الوهن الضعف . والاعلون جمع ، واحده الأعلى ، ومؤنثه العلياء ، وجمعها العليات . والفرق بين اللمس والمس ان اللمس لصوق باحساس ، والمس مجرد اللصوق ، سواء أكان معه إحساس ، أو لم يكن . والقرح بالضم والفتح لغة في معنى واحد ، وهو عض السلاح ونحوه مما يجرح الجسم ، وقيل : هو بالفتح نفس الجرح ، وبالضم ألمه . والمداولة نقل الشيء من واحد الى آخر ، يقال : تداولته الأيدي اذا تناقلته ، ويقال: الدنيا دول ، أي تنتقل من قوم الى غيرهم. والتمحيص التخليص من العيوب . والمحق النقصان ، ومنه أيام المحاق ، للأيام الأخيرة من الشهر الهلالي ، لذهاب ضوء الهلال حالاً بعد حال .

الإعراب :

وأنتم الأعلون مبتدأ وخبر ، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب ، وقيل : في موضع نصب على الحال ، وتلك مبتدأ ، والأيام عطف بيان ، وجملة نداولها خبر . وليعلم الله عطف على محذوف ، والتقدير لأن الحكمة اقتضت المداولة ، وليعلم الله ، اللام في ليعلم لام كي .

المعنى :

(ولا تهنوا ولا تحزنوا) . من أهم ما يحرص عليه القائد الحكيم أن تكون الروح المعنوية في جنده قوية عالية ، وان يدرأ عن أنفسهم الوهن والخوف ، لأن الغلب لا يرجع الى القوة فحسب ، وانما يرجع قبل كل شيء الى الثبات وقوة العزيمة .. ان عدوك يخشى من عزمك وتصميمك على مقاومته أكثر من تسليحك بأفتك الأسلحة ، لأن هذه لا تجدي نفعاً ، مع عدم العزم والتصميم على المقاومة ، وقد رأينا صحف الاستعمار واذاعاته وعملاءه يبثون الدعاية له وللصهيونية عن طريق الحرب النفسية،وتفتيت عزيمة العرب ، والتشكيك في مقدرتهم على المقاومة .. ان احتلال النفوس هو الركيزة الأولى للاستعباد،واحتلال البلاد .. وقد أرشدنا القرآن الكريم الى هذه الحقيقة بقوله : « ولا تهنوا ولا تحزنوا » .

أما قوله : (وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين) . فهو اشارة الى أن الاسلام يعلو ولا يعلى عليه ، فمن تمكن الاسلام من قلبه لا يلين ولا يفزع ، حتى ولو مات في سبيل دينه ، واعلاء كلمة الحق ، وانما يحسن اللين والتساهل من المسلم في حقه الخاص ، لا فيما يعود الى دينه وعقيدته .

(ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) . اي ان نال منكم العدو يوم أحد فقد نلتم منه يوم بدر ، ومع ذلك لم يضعف ، بل أعد العدة لكم، وأعاد الكرة عليكم ، فليكن هذا شأنكم معه .

(وتلك الأيام نداولها بين الناس) . المراد بالأيام هنا القوة ، وانها تارة تكون لهؤلاء ، وتارة لأولئك .. وكانت القوة في العصور المتخلفة تتمثل في المال

والرجال فقط ، أما اليوم فتتمثل بالعلم ، ونمو الصناعة وتطورها ، فالبلد الجاهل ضعيف وان كان أغنى الأغنياء في الذهب الأسود والأصفر ، والبلد العالم قوي ، وان خلت أرضه من جميع المعادن ، والضعيف خاضع وتابع للقوي أراد ذلك ، أو لم يرد .. وقد كان العلم في الشرق عند المسلمين ، ثم انتقل الى الغرب ، ومن الجائز القريب أن يتفوق المسلمون علماً وصناعة في السنوات المقبلة .. من يدري ؟ الله أعلم .

(وليعلم الله الذين آمنوا) . هذه الجملة معطوفة على محذوف ، والتقدير وتلك الايام نداولها بين الناس لحكمة اقتضت هذه المداولة ، وليس المراد ان الله لم يكن عالماً بالمؤمنين ، فداول الأيام لكي يعلمهم ، كلا ، فان الله يعلم السر وأخفى ، وانما المراد اظهار علمه بالمؤمنين ، ليُعرفوا بين الناس ، ويتميزوا عن غيرهم ، قال صاحب مجمع البيان : ان أحدنا يعلم بأتيان الغد قبل مجيئه ، فإذا أتى علم به حاضراً ، وإذا انقضى علم به ماضياً ، فالتغيير والحدوث يحصل في المعلوم ، وهو الغد لا في العالم ، وكذلك الحال بالنسبة الى الله سبحانه ، فإنه يعلم المؤمن والكافر قبل أن يظهرا للناس على حقيقتها ، فإذا ظهرا وتميزا علم بهما متميزين معروفين للناس .

(ويتخذ منكم شهداء) . الشهيد هو الذي يجود بنفسه للذود عن عقيدته ، لأنه يرى الموت في سبيلها سعادة ، والحياة مع الظالمين برماً ، كما قال سيد الشهداء الحسين بن علي (ع) . وقد ملىء القرآن بتعظيم الشهداء ، من ذلك قوله تعالى : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء – ٦٨ النساء» .

(والله لا يحب الظالمين) . فلا يصطفي منهم أحداً للشهادة . (وليمحص الله الذين آمنوا) . ان الغرض من مداولة الأيام ان يستفيد الانسان من التجارب ، ويطهر نفسه من الشوائب ، وقيل : المراد بالتمحيص الابتلاء والاختبار الذي يُظهر الانسان على حقيقته .

(ويمحق الكافرين) . قال الرازي : « الأقرب ان المراد بالكافرين هنا طائفة مخصوصة منهم ، وهم الذين حاربوا رسول الله (ص) يوم أحد ، وانما

قلنا ذلك لعلمنا بأنه تعالى لم يمحق كل الكفار، بل كثير منهم بقي على كفره. وهذا صحيح ان كان المراد بالمحق العذاب الدنيوي ، لا الاخروي .

ثمن الجنة الآية ١٤٢ - ١٤٣ :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ★ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ★

الإعراب :

أم منقطعة ، بمعنى بل والهمزة ، أي بل أحسبتم ، وقيل : ان أم هنا بمعنى لا الناهية ، أي لا تحسبوا . ولما يعلم الله الواو للحال ، ولما بمعنى لم، تجزم الفعل المضارع الا انها تُشعر بتوقع الفعل - كما قيل - ويعلم الصابرين بالجزم عطفاً على (ولما يعلم الله) ويجوز النصب على أن تكون الواو بمعنى مع وان مضمرة بعدها ، أي وان يعلم ، مثل لا تأكل السمك وتشرب اللبن، أي لا تجمع بينهما ، ويجوز الرفع على تقدير أن الواو للحال . وتمنون ، أي تتمنون، وحذفت احدى التاءين للتخفيف .

المعنى :

(أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين). لقد دلت هذه الآية دلالة صريحة واضحة على ان الإسلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل الصالح في هذه الحياة ، وان الشرط الأول للقرب من الله، والفوز بمرضاته

وثوابه هو الجهاد والكفاح ، والصدق والاخلاص والصبر والثبات ، أما بناء المساجد والمعابد ، والصوم والصلاة ، والتلاوة والأوراد ، كل ذلك ، وما اليه ليس بشيء الا اذا كان وسيلة لعمل يجلب للناس نفعاً ، أو يدفع عنهم ضراً .

وفي معنى هذه الآية (أم حسبتم أن تدخلوا) التي ربطت دخول الجنة بالجهاد والصبر على تحمّل متاعبه ، في معناها آيات كثيرة ، منها الآية ١١٢ من التوبة : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن » . والآية ٧٢ من الاسراء : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » . وكفى دليلاً قاطعاً على ذلك قوله تعالى : « وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى – ٤٠ النجم» .

ومن أقوال الإمام علي (ع) : حفت الجنة بالمكاره،وحفت النار بالشهوات .. ليس لأنفسكم ثمن الا الجنة ، فلا تبيعوها الا بها . وسبق الكلام عن ذلك في تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة ، فقرة « ثمن الجنة » .

الشعارات الدينية :

الشعارات الدينية كالمعابد والصلوات مقدسة ، ما في ذلك ريب .. بل هي ضرورة دينية لا بد منها ، فما من دولة أو فئة يجمعها مبدأ واحد الا ولها شعار يبرز شخصيتها ، ويجمع أشياعها وأتباعها .. ولكن ليست العبرة بالشعار وحده، بل بما وراء الشعار من فاعلية وأثر ، فليس الغرض من الصلاة مجرد الركوع والسجود ، بل بما تنهى به نفس المصلي من النهي عن الفحشاء والمنكر ، ولا من الجامع أن نجتمع للتهليل والتكبير ، بل لنتآزر ونتعاون مخلصين على ما فيه خير الجميع .

وقد اتخذ كثيرون في عصرنا الشعار الديني أداة للتضليل ، وستاراً يخفون وراءه مطامع استعمارية ، وأهدافاً صهيونية .. فإن الكثير من الأحزاب والتكتلات التي تحمل اسم الدين أو الثقافة أو الوطنية خرجت من مكاتب الاستخبارات

الأجنبية ، أما ميزانيتها فن غنائم شركات النفط .. والـذي يهون الخطب انهـا تكشفت للجميع فلا يثق بها مخلص ، ولا يتعاون معها الا خائن باع دينه وبلاده للشيطان .

(ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) . الخطاب لبعض أصحاب الرسول (ص) الذين كانوا يتمنون الفوز بالشهادة قبل وقعـة أحد ، ولما جد الجـد جبنوا وانهزموا ، وأسلموا النبي (ص) لأعدائه وأعدائهم .. وفي بعض الروايات ان رجالاً من الأصحاب كانوا يقولون : لئن شهدنا حرباً مع النبي (ص) لنفعلن ونفعلن ، فلما ابتلوا بذلك لم يفوا بالعهد ، فأنزل الله فيهم : (ولقد كنـتم تمنون الموت) الخ . والمـراد برؤية الموت رؤية أسبابه من مبارزة الأبطال .. وقـد وبخهم الله بهذه الآية لمخالفة أقوالهم لأفعالهم .

تغير الأخلاق والأفكار :

لكل انسان ظروفه وبيئته الخاصة ، وهذه الظروف هي التي تهيمن على أخلاقه وأفكاره — في الغالب — فالضعيف مثلاً يستقبح الظلم أكثر من القـوي ، ومن تربى في بيئة تعبد الأوثان لا يرى بأساً في تقديسها .. اللهم إلا إذا كان انساناً فوق المعتـاد كمحمد بن عبدالله ، فإنه كان بفطرته يرفض كل قبيح من عادات قومه .

وقد تتغير ظروف الانسان ، فيصبح غنياً بعد أن كان فقيراً ، أو بالعكس فتتغير تبعاً لها أخلاقه وأفكاره . فالذات تبقى على صفاتها ، ما لم تتغير ظروفها الاجتماعية ، فإذا تغيرت تغيرت صفات الـذات — في الأعم الأغلب — وقـد شاهدنا رجالاً كانوا ينتقدون الأغنياء والرؤساء ، وهم فقراء مرؤوسون ، حتى إذا نالوا نصيباً من المال والجاه نقضوا العهد ، وأصبحوا أسوأ حـالاً ممن نقموا عليه بالأمس .

وقد أكد القرآن الكريم هذه النظرية بقوله : ولقد كنتم تمنون الموت الآية . وبالآية ٧٤ من التوبـة : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن

ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ».

والعاقل المجرب يتهم نفسه ، ولا يؤكد كل ما يعرض لها من خطرات ونصورات خشية أن تكون سراباً يذهب مع الريح ، كما ان المؤمن حقاً وواقعاً يبقى ثابت الايمان في السراء والضراء تنطبق أقواله على أفعاله في جميع الحالات، ويتجه بها جميعاً الى الله وحده ، مهما تكن الظروف والنتائج . وقد جاء في تفسير الآية ٩٨ الانعام: «وهو الذي انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع». جاء في تفسيرها روايات تقول : ان المستقر هو الايمان الثابت ، والمستودع هو الايمان المعار .. ولا شيء أدل على الايمان المستقر الثابت من انسجام الأقوال مع الأفعال ، وعلى الإيمان الزائف من تناقض الأقوال للأفعال .. ومن ثم كانت أقوال الأنبياء والأئمة الأطهار عين أفعالهم بالذات ، وأفعال المنافقين أبعد ما تكون عن أقوالهم .

وما محمد الا رسول الآية ١٤٤ – ١٤٨ :

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ★ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ★ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ★ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا

اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ★ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ★

اللغة :

يقال لكل من عاد الى ما كان عليه : انقلب على عقبيه ، وعليه يكون المراد بقوله : (انقلبتم على أعقابكم) رجعتم كفاراً بعد ايمانكم . والمؤجل ذو الأجل المضروب . وربيّون قال صاحب مجمع البحرين : هم الكاملون في العلم والعمل ، وقال غيره : بل هم الجماعات الكثيرة واحدهم ربي وهو الجماعة. والوهن الضعف . والاستكانة اظهار الضعف بالاستسلام للخصم . والإسراف مجاوزة الحد .

الإعراب :

شيئاً مفعول مطلق ، أي شيئاً من الضرر . وكتاباً مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير كتب كتاباً مؤجلاً ، لأن كل ما كان بإذن الله فهو مكتوب ، وكأين أصلها (أي) فدخلت عليها الكاف ، كما دخلت على كذا، وصارت كلمة واحدة ، وهي بمعنى كم الخبرية، ومحلها الرفع على انها مبتدأ ، وكتبت بالنون في المصحف – كما في تفسير المحيط – وجملة قاتل معه ربيون خبر .

المعنى :

(وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) . تشير هذه الآية الى واقعة معينة ، وهي وقعة أحد، وسبقت الاشارة

اليها ، وتلخيصها ان النبي (ص) أمر الرماة ان يلزموا الجبل ، ولا ينتقلوا عنه بحال ، سواء أكان الأمر للمسلمين ، أم عليهم .. ولكن جماعة من الرماة لما رأوا انهزام المشركين في الجولة الأولى أخلوا ظهر المسلمين،وبادروا الى الغنيمة ، فأعاد المشركون الكرة على المسلمين ، وأكثروا فيهم القتل ، وكسرت رباعية الرسول (ص) وشج وجهه ونزفت جراحه ، ونادى مناد ان محمداً قد قتل ، فانكفأ الناس عن النبي (ص) ، وما بقي معه الا قليل،منهم علي بن أبي طالب وأبو دجانة الأنصاري ، وقال البعض من الأصحاب : ليتنا نجد من يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان ، وقال آخرون : لو كان محمد نبياً لم يقتل ، ألحقوا بدينكم الأول .

وقد وبّخ القرآن المنهزمين والمشككين ، وقال لهم : ان محمداً ليس الا بشراً يبلغ رسالة ربه الى عباده ، ومتى بلغها تنتهي مهمته ، ورسالته العامة لا ترتبط بشخصه ، ولا تموت بموته ، بل تبقى ببقاء الله الذي لا يموت ، تماماً كما هو الشأن بالنسبة الى غيره من الأنبياء الذين ماتوا أو قتلوا،وبقيت رسالاتهم وتعاليمهم .. وبكلمة ان الدعوة لا تموت بموت الداعي ، والمبادىء لا تزول بزوال الأفراد .

وخير ما يمثل هذه الحقيقة ما جاء في تفسير الطبري ان رجلاً من المهاجرين مر برجل من الأنصار يتشحط في دمه ، فقال للأنصاري : أعلمت ان محمداً قد قتل ؟. فقال الأنصاري : ان كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم .. وفي الطبري أيضاً وغيره ان انس بن النضر مر بعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد ألقوا بأيديهم ، فقال انس : ما يجلسكم ؟. قالوا : قتل محمد . قال : ان كان قد قتل محمد فإن رب محمد لم يُقتل،وما تصنعون بالحياة بعده ؟. فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه ، ثم قال : اللهم اني أعتذر اليك مما قال هؤلاء ، وأبرأ اليك مما جاؤوا به ، ثم شد بسيفه ، فقاتل ، حتى قُتل ، رضوان الله عليه .

وقال ابن القيم الجوزية في الجزء الثاني من زاد المعاد ص ٢٥٣ : « ان وقعة أحد كانت مقدمة وارهاصاً – أي لوماً – بين يدي موت محمد (ص) ، فنبأهم

الله وويخهم على انقلابهم على أعقابهم ان مات رسول الله أو قتل » . ونقل صاحب تفسير المنار عن أستاذه الشيخ محمد عبده ان كلمة (انقلبتم على أعقابكم) عامة تشمل الارتداد عن الدين ، والارتداد عن تأييد الحق ، ثم علق صاحب المنار على ذلك بقوله : (هذا هو الصواب) . اذن ، فالانقلاب المقصود بالآية لا ينحصر بترك كلمة التوحيد ، بل يشمل ترك العمل بالحق الذي أوصى به النبي (ص) .. ويعزز ذلك ما جاء في الجزء التاسع من صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ان رسول الله (ص) يقول يوم القيامة : أي ربي أصحابي .. فيقول له : لا تدري ما أحدثوا بعدك .. وفي حديث ثان من أحاديث البخاري : انك لا تدري ما بدلوا بعدك ؟. فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي .. وليس من شك ان المراد بهذا التبديل الاعراض عن سنته ووصيته ، ومخالفة أقواله وشريعته .

(ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً) بل يضر نفسه بتعريضها لسخط الله وعذابه . (وسيجزي الله الشاكرين) . قال ابن القيم الجوزية في الجزء الثاني من زاد المعاد ص ٢٥٤ : « والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها ، حتى ماتوا أو قتلوا . فظهر أثر هذا العتاب وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله (ص) وارتد من ارتد على عقبيه » .

(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً) . وفي معنى هذه الآية قوله تعالى :

الأجل محتوم :

« فأذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون – ٣٣ الاعراف » . والمعنى ان الحياة والموت بيده تعالى ، وان الأجل محدود بعلمه لا تقديم فيه ولا تأخير ، سواء أكان سببه السيف أو المرض أو الهرم أو غيره ، قال الإمام علي (ع) : كفى بالأجل حارساً . وقال الأجل جنة حصينة .. وفي الآية تحريض على الجهاد ، لأن الأجل محتوم ، ولا أحد يموت قبل بلوغ أجله ، وان اقتحم المهالك .

وتسأل : الذي نشاهده ان للموت أسباباً خاصة ، كالقتل والغرق والوباء وما اليه ، وهذا ينافي أن يكون الأجل محدوداً بعلم الله ؟

وقد أجاب عن ذلك الشيخ محمد عبده – كما في تفسير المنار – بأنه ليس هناك أسباب للموت غير الأجل المقدر عند الله ، فان الوباء قد يعم ، ومع ذلك يفتك بالشاب القوي ، ويترك الشيخ المزيل ، وكم من ضربة قتلت هذا دون ذاك ، ولو كانت هذه اسباباً مطردة لظهر أثرها في الجميع دون استثناء .

سؤال ثانٍ : على هذا ينبغي ان يكون القاتل غير مسؤول أمام الله ، مع انه قال عز من قائل : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً – ٩٢ النساء » ؟

الجواب : ان المقتول مات بأجله المعين ، والقاتل استحق العقاب : لأنه أقدم على ما نهى الله عنه ، مع قدرته على أن يجتنبه ، ويدع المعتدى عليه يموت بسبب آخر .. وبتعبير ثانٍ هنا قضيتان : الأولى كل من باشر الحرام متعمداً فهو مسؤول . الثانية للمعتدى عليه اجل معين ، وقد تواردت القضيتان على مورد واحد ، فكان لكل منها حكمه وأثره .

(ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين) . لفظ الآية عام ، وسياق الكلام وارد في خصوص الجهاد،والمعنى ان من قاتل طلباً للربح والغنيمة لا رغبة في ثواب الله،وقتل فقد خسر الدنيا والآخرة، وان سلم وغنم الجيش أخذ حظه من غنيمة الحرب ، وليس له من ثواب الله شيء .. وان قاتل انتصاراً للحق واعلاء كلمة الدين أخذ نصيبه من الغنيمة ، واستحق من الله الأجر والثواب ، وكذا لو قصد الاثنين معاً لقوله تعالى: « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب – ٢٠٠ البقرة » . فطبيعة الجهاد تتحمل القصدين معاً ، قصد الدنيا وقصد الآخرة ، على العكس من الصوم والصلاة والحج والزكاة فانها لله وحده يفسدها أدنى الشوائب .

لكل امرىء ما نوى :

من تتبع آيات الله سبحانه وأحاديث رسوله (ص) يرى ان للنية تأثيراً عظيماً في الحكم على الأقوال والأفعال والرجال ، قال تعالى : ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها الخ .. وقال: من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء .. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ـ ١٩ الأسراء». وقال: « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ـ ٨٧ الشعراء». وفي الحديث الشريف : لكل امرىء ما نوى .. يحشر الناس على نياتهم .. انما الأعمال بالنيات .. نية المرء خير من عمله .

ولا عجب فان القلب هو الأساس ، فبحركته تبتدىء حياة الانسان ، وتنتهي بسكونه .. وهو محل الإيمان والجحود ، والخوف والرجاء ، والحب والبغض ، والشجاعة والجبن ، والاخلاص والنفاق،والقناعة والطمع،وما الى ذلك من الفضائل والرذائل .. وفي الحديث القدسي : ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن ، أي أدرك عظمة الله .

فالأعمال كلها تتكيف بحال القلب ، وتنصبغ بصبغته ، لأنه أصلها ومصدرها، وجاء في تفسير الآية ٨٧ الاسراء : « قل كل يعمل على شاكلته » . أي على نيته .. وعلى هذا يستطيع الانسان ان يختار طريقه بنفسه باختيار مقاصده وأهدافه ـ خيراً أو شراً ـ يختاره من البداية الى النهاية ، كما نستطيع نحن ان نحكم عليه بما يختار هو لنفسه من الأهداف والأغراض .

وقال الوجوديون : لا يمكن الحكم على الانسان الا بعد أن يعبر آخر مرحلة من مراحل حياته .. ومعنى هذا ان الوجودية يلزمها ان لا تجيز الحكم الا على الأموات .. أما الأحياء فلا يحكم عليهم بخير ولا بشر،ولا بادانة أو براءة ، مع العلم بأن الوجوديين ، وفي طليعتهم زعيمهم سارتر يحكمون على الأحياء .. ونحن لا ننكر ان الانسان ما دام في قيد الحياة يمكنه أن يُعدّل في أفعاله ، ويصحح من أخطائه ، ولكن هذا لا يمنع أبداً من الحكم عليه بما فيه ، وحسبما يصدر عنه قبل الموت .

وتسأل : لقد سبق منك أكثر من مرة وبمناسبات شتى ان العبرة بالأفعال ،

وانه لا ايمان بلا تقوى وعمل صالح ، وهذا ينافي قولك هنا : ان العبرة بالنوايا والأغراض ؟.

الجواب : نريد من النية هنا الباعث القوي والعزم الأكيد الذي لا ينفك عن العمل ، مع تهيؤ الجو ، وتوافر الأسباب الأخر .. وقد أشارت الى ذلك الآية ١٩ الاسراء : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها » . وهذه النية بحكم العمل ، بل هي العمل ، كما قال الإمام جعفر الصادق (ع) ، لأنه أصله ومصدره .. ومن لا يقصد لا يعمل، وعليه يكون ثواب هذه النية ثواب العمل . أما نية الشر أي التصميم على فعله فهي محرمة ما في ذلك ريب، وصاحبها يستوجب العقاب ، ولكن الله سبحانه أسقطه عنه تفضلاً منه اذا لم يتلبس الناوي بالمعصية، حتى ولو صرفه عنه صارف قهري . وعلى هذا تكون نية فعل الخير خيراً في نظر الإسلام ، أما نية فعل الشر المجردة فليست شراً .

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) . بعد ان نصر الله المسلمين في بدر، وهم قلة ضعاف اعتقدوا أنهم منصورون في كل حرب ، ما دام محمد (ص) بينهم .. فلما كانت الهزيمة يوم أحد فوجئوا بما لا ينتظرون ، فكان منهم ما سبق ذكره ، وفي هذه الآية ضرب الله مثلاً للذين وهنوا وضعفوا واستكانوا وما صبروا يوم أحد، ضرب الله مثلاً لهؤلاء باتباع الأنبياء السابقين الذين صبروا على الجهاد والقتل والأسر والجراح ، وتركوا الفرار ولم يولوا مدبرين ، كما فعلتم أنتم يا أصحاب محمد (ص) ، وكان الأليق بكم أن تقتدوا بهم ، وتعتبروا بحالهم ، وتصبروا كما صبروا، كما هو شأن المؤمنين المدافعين عن دينهم وعقيدتهم بالأرواح .

(وما كان قولهم — اي اتباع الأنبياء السابقين — الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) . فلم يشكوا أبداً في دينهم ونبيهم ، كما فعل من فعل من أصحاب محمد (ص) يوم أحد .. وهكذا المؤمن الحق يتهم نفسه ، ويُرجع ما أصابه من النوائب الى تقصيره واسرافه في أمره ، ويسأل الله العفو والصفح ، والهداية والرشاد ؛ أما المؤمن الزائف فيُحمل المسؤولية لله ، ويقول : ربي أهانني .

(فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين). وكفى بثواب الله وحبه وشهادته بالاحسان فخراً وذخراً .. وتشعر هذه الآية ان التواضع واتهام النفس يُقرب من الله ، ويرفع المتواضع الى أعلى عليين .

ان تطيعوا الذين كفروا الآية ١٤٩ - ١٥١ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ★ بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ★ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ★

اللغة :

المولى الناصر والمعين . والمراد بالسلطان هنا الحجة والبرهان ، وسمي البرهان سلطاناً لقوته على دفع الباطل ، والمثوى المكان الذي يكون مقراً للانسان ، من ثوى يثوي ثوياً إذا أقام .

الاعراب :

خاسرين حال . وما من (بما) مصدرية ، أي بسبب اشراكهم بالله . و (ما لم) ما مفعول اشركوا .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم) . قال

الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية ، فقرة تفسير المفردات مـا نصه بالحرف : « المراد بالذين كفروا أبو سفيان لأنه شجرة الفتن » .

وكل انسان محقاً كان أو مبطلاً يود أن تكون الناس ، كل الناس على دينه ومبدئه .. والفرق ان طاعة المبطل خسارة ومضرة ، وطاعة المحق ربح ومنفعة، ومن أجل هذا حذر الله المؤمنين من الكافرين .

(بل الله مولاكم وهو خير الناصرين). المؤمن لا يفكر بطاعة الكافر وموالاته، ولا يأبه بأغوائه وخدعه .. ولا يتخذ له مولى إلا الله وحده ، وهو الذي ينصره على أعدائه ، ومن كان الله ناصره فلا يحتاج معه الى ولي ولا ناصر .

(سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، بما أشركوا بالله ما لم ينزل بـه سلطاناً) . أي لا تخافوا أيها المسلمون من المشركين ، لأنهم هزموكم في أحـد فان الله سيلقي الرعب منكم في قلوبهم بسبب انهم جعلوا لله شركاء لا دليل على أنها شيء يؤبه له ، وانما عبدوها تقليداً . وقيل: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون من أحد متوجهين الى مكة قالوا بئس ما صنعنا ، قتلنـاهم ، حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم .. ارجعوا فنستأصلهم ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب ، حـتى رجعوا عما هموا به .. وسواء أكان هذا هو سبب النزول ، أو لم يكن فإن لفظ الآية لا يأباه .

صدقكم الله وعده الآية ١٥٢ :

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَـا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ★

اللغة :

تحسونهم ، أي تستأصلونهم بالقتل ، فكأن القاتل يبطل حس المقتول بالقتل، يقال : بطنه إذا أصاب بطنه ، ورأسه إذا أصاب رأسه .

الاعراب :

صدقكم يتعدى الى مفعولين . ووعده مفعول ثانٍ . وحتى اذا فشلتم جواب اذا محذوف ، والتقدير منعكم الله نصره ، وقيل : ان اذا هنا ليست بشرط ، وان المعنى قد نصركم الله الى ان كان منكم الفشل والتنازع ، وقيل : الجواب هو عصيتم والواو زائدة ، كما في قوله تعالى : « فلما أسلما وتله للجبين وناديناه» والمعنى ناديناه .

المعنى :

(ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه) . ما زال الكلام والخطاب مع الأصحاب الذين كانوا في أحد .. وكان (ص) قد وعدهم النصر يومئذ ان امتثلوا أمره ، وقد وفى الله لهم بما قاله على لسان نبيه ، ذلك ان الرسول(ص) أقام الرماة عند الجبل صيانة لمؤخرة المسلمين ، وأوصاهم ان لا يبرحوا مكانهم، حتى ولو رأوا العدو تتخطفه الطير ، ووعدهم النصر بهذا الشرط . وكان الرماة خمسين رجلاً .

ولما ابتدأت المعركة شرع الرماة يرشقون المشركين،وبقية الأصحاب يضربونهم بالسيوف ، وقتلوهم قتلاً ذريعاً ، حتى انهزموا ، وهذا معنى (اذ تحسونهم باذنه) . أي تقتلونهم بأمر الله . وفي تفسير ابن جرير الطبري والمراغي وغيرهما ان طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين المعروف بكبش الكتيبة قام فقال : يا معشر أصحاب محمد انكم تزعمون ان الله يعجلنا بسيوفكم الى النار ، ويعجلكم بسيوفنا الى الجنة ، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي الى الجنة ، أو يعجلني بسيفه

الى النار ؟. فقام اليه علي بن أبي طالب (ع) وضربه فقطع رجله وسقط ، فانكشفت عورته ، فقال طلحة لعلي : أنشدك الله والرحم يا ابن عم .. فتركه علي (ع) وكبر رسول الله (ص) وقال لعلي أصحابه : ما منعك أن تجهز عليه؟. قال : ناشدني الله والرحم .. هذا هو علي في خلقه يفيض قلبه بالحنان والرحمة، حتى على أعدى أعدائه الذي برز له شاهراً السيف في وجهه مصمماً على قتاله وقتله .

(حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) . بعد أن ولى المشركون الدبر – وكانوا ثلاثة آلاف مشرك – امتلأ الوادي بما خلفوه من الغنائم ، وحين رآها الرماة ، واخوانهم المسلمون ينتهبونها دونهم عصف بهم ريح الطمع ، واختلفوا فيما بينهم ، وقال بعضهم : ما بقاؤنا هنا؟ وتجاهلوا وصية النبي وتشديده عليهم بالبقاء . فقال لهم أميرهم عبدالله بن جبير : امكثوا ولا تخالفوا أمر الرسول (ص) .. ولكن أكثرهم غادروا مواقعهم هابطين الى انتهاب الأسلاب والأموال ، وتركوا أميرهم عبدالله في نفر دون العشرة ، والى هذا التنازع والعصيان يشير قوله تعالى : (حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم) . أما قوله : (من بعد ما أراكم ما تحبون) فيشير الى انهزام المشركين وغنائمهم .

وكان خالد بن الوليد يحارب النبي (ص) مع أبي سفيان ، وحين رأى مؤخرة المسلمين مكشوفة بعد أن أخلاها الرماة اغتنم الفرصة ، وانقض مع جماعة من المشركين على البقية الباقية من الرماة ، وقاتل هؤلاء بشجاعة وحرارة ، حتى استشهدوا جميعاً ، وخلا ظهر المسلمين ، ورجع المشركون الى الميدان،وأحاطوا بالمسلمين من الخلف والأمام ، وأكثروا فيهم القتل والجراح ، ودارت الدائرة عليهم بعد ان كانت لهم .. وهذه هي النتيجة الحتمية للتنازع والتخاصم .

(منكم من يريد الدنيا) . وهم الرماة الذين تركوا مقاعدهم طمعاً بالغنيمة . (ومنكم من يريد الآخرة). وهم الذين ثبتوا مكانهم مع أميرهم عبدالله بن جبير ، حتى نالوا الشهادة . (ثم صرفكم عنهم) . أي ردكم عن الكفار بعد أن نصركم عليهم بسبب تنازعكم وعصيانكم . (ليبتليكم) . أي عاملكم معاملة من يمتحنكم ليظهر ثباتكم على الايمان ، وصبركم على الشدائد،ويميز بين المخلصين والمنافقين .

(ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) . وكثيراً ما يخطىء الانسان عن طيش ، ثم يؤوب الى رشده ، فيعفو الله عما سلف منه ، ولكن من عاد فينتقم الله منه .

فأثابكم غماً بغم الآية ١٥٣ – ١٥٥ :

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ★ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ★ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ★

اللغة :

المراد بالصعود هنا الذهاب في الأرض ، يقال : اصعد من مكة الى المدينة، أي ذهب . ولا تلوون ، أي لا تلتفون ، يقال : فلان لا يلوي على شيء ، أي لا يعطف عليه ، ولا يبالي به . وأخراكم وأخراياتكم بمعنى آخركم . والثواب الجزاء ، ويستعمل غالباً في الخير ، ويجوز استعماله في الشر . والغم ضيق الصدر . ويغشى يغطي ويستر . والمراد بالمضاجع هنا المصارع . وذات الصدور السرائر . واستزلهم أوقعهم في الزلل والخطيئة .

الاعراب :

وإذ تصعدون إذ ظرف زمان . متعلق بعفا في الآية المتقدمة . ولكيلا المصدر المنسبك مجرور باللام متعلق أيضاً بعفا ، وأمنة مفعول أنزل ، وهي مصدر مثل العظمة والغلبة . ونعاساً بدل من أمنة . وطائفة الأولى مفعول يغشى . وطائفة الثانية مبتدأ ، والخبر جملة قد أهمتهم . وجملة يظنون حال من الضمير في أهمتهم . وغير الحق مفعول مطلق ليظنون ، لأنه بمعنى يظنون غير الظن الحق . وظن الجاهلية بدل من غير الحق . وجملة يقولون بدل من جملة يظنون .

المعنى :

(إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم) . الخطاب للذين انهزموا يوم أحد ، وهو يذكرهم بخوفهم من المشركين ، وفرارهم غير ملتفتين الى أحد ، ولا مستجيبين الى دعوة الرسول (ص) حين كان يناديهم ، وهو واقف في آخرهم ، ويقول : هلم إليّ عباد الله .. انا رسول الله .. من يكر فله الجنة .. وقد فعل هذا ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح : ان محمداً قد قتل ، وتزلزلت قلوب المسلمين .

(فأثابكم غماً بغم) . أمر الرسول الرماة أن لا يبرحوا الجبل بحال ، فعصوه

وخالفوا أمره ، فاغتم الرسول (ص) لذلك ، فجزاهم الله بدل غم الرسول غماً بالهزيمة ، فالغم الأول ما حصل للصحابة المنهزمين . والغم الثاني ما حصل للرسول (ص) .. وقيل : ان الغمين حصلا للصحابة ، وانه قد كثرت عليهم الغموم غماً بعد غم ، منها قتل اخوانهم ، ومنها انتصار المشركين عليهم، ومنها ندمهم على المعصية .

(لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) من المنفعة والغنيمة . (ولا ما أصابكم) من القرح والهزيمة ، والمعنى ان الله أذاقكم مرارة القتل والهزيمة كي تتمرنوا بعدها على تحمل المشاق والشدائد ، وتصبروا على طاعة الله ورسوله مهما تكن النتائج ، ولا تحزنوا على ما يفوتكم من الغنائم ، ولا ما يصيبكم من المضار .. وسبقت الاشارة الى ان الرماة تركوا أماكنهم طمعاً بانتهاب الغنائم ، وانه قد ترتب على ذلك انهزام المسلمين .. فنبههم الله سبحانه بأن عليهم أن يستفيدوا من هذه الهزيمة ، ويأخذوا منها درساً نافعاً ، ولا يخالفوا الرسول بعدها أبداً . (والله خبير بما تعملون) . المعنى واضح ، والقصد الحث على الطاعة ، والزجر عن المعصية .

(ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً) . الذين كانوا مع رسول الله (ص) يوم أحد ينقسمون الى طائفتين : الأولى كانوا مؤمنين حقاً جازمين بأن الإسلام سينتصر ، ويظهره الله على جميع الأديان ، لأن الرسول قد أخبرهم بذلك ، أما الانهزام في واقعة أو أكثر فلا يؤدي الى استئصال الاسلام ، واتباعه ، والذين كانوا يعتقدون هذا هم المخاطبون بقوله تعالى : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً) . والنوم عند المحنة نعمة كبرى ، تخفف الكثير من وقع المصاب . (يغشى طائفة منكم) . هي نفس الطائفة التي تكلمنا عنها ، والتي كان أفرادها على بصيرة في ايمانهم .

الطائفة الثانية من الذين فروا يوم أحد هم المنافقون، وقد وصفهم الله بقوله :

١ - (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) . هذه الطائفة لم يغشها النعاس لسيطرة الهلع والجزع على نفوس أفرادها ، وقال المفسرون : هم عبد الله بن أبيّ ، ومتعب بن قشير وأتباعها ، وتشعر هذه الآية ان الإيمان الكامل يستدعي الاهتمام

بأمور الناس ، وان من لا يهتم إلا بنفسه وذويه فهو ناقص الإيمان . وقد جاء في الحديث : من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم .

٢ - (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) . كل من قنط من رحمة الله، أو ظن انه تعالى قد فعل ما لا ينبغي فعله فقد ظن به ظن الجاهلية .. ومن هؤلاء الذين قالوا يوم أحد : لو كان محمد نبياً لما سلط عليه المشركون جاهلين أو متجاهلين ان الحرب سجال ، وان الأمور بخواتيمها .

٣ - (يقولون هل لنا من الأمر شيء) . أي ليس لنا من الأمر شيء .. وقد أمر الله نبيه الأكرم أن يجيبهم بأنه لا أمر لكم ولا لغيركم ، وانما هو لله وحده : (قل ان الأمر كله لله) . وما علينا نحن الا السمع والطاعة ، فهو نظير قوله تعالى : (ليس لك من الأمر شيء) . وقد مر تفسيره في الآية ١٢٨ من هذه السورة : (يخفون في أنفسهم) من التكذيب والنفاق (ما لا يبدون لك) . من ذلك انهم (يقولون - أي في أنفسهم - لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) . أي لو كان الأمر لنا ما خرجنا الى القتال ، ولو خرجنا لأدرنا المعركة ادارة حكيمة ، ولم يقتل أحد هاهنا ، أي في أحد .. فقول المنافقين أولاً : (هل لنا من الأمر شيء) . ثم قولهم : (لو كان لنا من الأمر شيء) أشبه بقول القائل : ليس معي دراهم ، ولو كان معي دراهم لفعلت وفعلت .

(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) . هذا رد على من قال : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا . ووجه الرد ان الحذر لا يدفع القدر ، وان التدبير لا يقاوم التقدير ، سواء أكان أمر القتال لكم أو لم يكن .. وتقدم التفصيل في تفسير الآية ١٤٥ من هذه السورة ، فقرة « الأجل محتوم » .

(ليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور). فالحكمة من المحنة يوم أحد انها المحك الذي يميز المؤمن من المنافق ، ويظهر كلاً على حقيقته للناس ، لا لله ، لأن الله عليم بذات الصدور .. فالمؤمن يزداد بالابتلاء ايماناً وتسليماً ، وأجراً وثواباً ، ويظهر المنافق على ما هو جلياً واضحاً.

سر الفشل :

هذا ، ولو عاش الانسان طول حياته معافى من النكبات والصدمات لكان حقيقة غريبة عن أذهان الناس .. ان المصاعب تطهر النفوس، وتهذبها من المضار، وان الصبر على تحمل الشدائد يبلغ بالانسان الى غاياته وأهدافه ، فلقد دلتنا التجارب ان ما من محارب أو سياسي أو تاجر أو عالم أو أديب أو عامل أو فلاح نال شيئاً مما يبتغيه الا بالثبات والصبر على المصاعب .

ولو بحثنا عن سر الفشل في هذه الحياة لألفيناه الضعف والخوف من طول الطريق ، وعدم الصبر على تحمل أتعابه وأوصابه .. أقول هذا ، وقد جربته من نفسي ، وبلغت بالصبر ما لم أكن لأحلم ببعضه .. الحمد لله .. جربت فأيقنت ان الصبر يصنع المعجزات ، وان الذكاء لا يجدي شيئاً الا مع الصبر .

(ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم) . قال أكثر من واحد : ان المراد من هذه الآية خصوص الرماة الذين أمرهم رسول الله (ص) أن يثبتوا في أماكنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين، ثم تركوا مواقعهم بعد أن ظنوا ان المشركين انهزموا الى غير رجعة .

ولكن الآية لم تخص الرماة بالذكر ، وعليه فهي عامة تشمل الرماة وغيرهم من المنهزمين يوم أحد ..

أجل ، ان عمومها خاص بالمنهزمين المؤمنين بالله والرسول، ولا تشمل المنافقين بدليل قوله تعالى : (ولقد عفا عنهم) . لأن الله لا يعفو عن المنافق المصر على النفاق الذي هو أعظم من الشرك العلني .. والخلاصة ان من انهزم يوم أحد غير شاك بالله ورسوله ، وانما فر لعارض من الطمع أو عدم الصبر والتماسك ، وما الى ذلك مما لا ينزه عنه الا المعصوم ، ولا يمت الى النفاق والشك بصلة ، ان هذا قد عفا الله عنه وان كان من أثر زلته الذي كان .

وقيل في تفسير قوله تعالى (فاستزلهم الشيطان بما كسبوا) : ان الشيطان انما قدر عليهم لذنوب كانوا قد اقترفوها قبل أحد .

وهذا مجرد تخمين، والأقرب ان الكسب هنا اشارة الى جزعهم وعدم صبرهم، ولما رأى الشيطان منهم هذا الجزع استغله، وأغراهم بالهزيمة مموهاً عليهم بأن فيها أمانهم وسلامتهم .

واتفق جميع المفسرين وأهل السير والتاريخ على ان الإمام علي بن أبي طالب (ع) كان مع الثابتين ..

لا تكونوا كالذين كفروا الآية ١٥٦ – ١٥٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ★ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ★ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ★

اللغة :

الضرب في الأرض السير فيها . وغزى جمع ، واحده غازٍ .

الاعراب :

الذي ينبغي بيانه في هذه الفقرة هو ما احتوت عليه الآيات الثلاث من اللامات،

وهي ست : ١ – اللام في لاخوانهم من قوله تعالى : (وقالوا لاخوانهم) وهذه اللام للتعليل لا للتبليغ ، أي ليست مثل ما قلت لك، بل هي تعليل للقول مثل اني قلت ما قلت لأجلك ، والمعنى ان الذين قالوا لأجل موت اخوانهم – وهم مسافرون أو في الحرب – لو كانوا معنا ما ماتوا وما قتلوا ، فاللام للتعليل تماماً كاللام في قوله : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه – ١١ الأحقاف » ، أي قالوا لأجل ايمان من آمن : لو كان الإيمان خيراً .. بحيث لو لم يحصل الإيمان ممن آمن فلا يقول الكافرون هذا القول ٢ – اللام في قوله : (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) وهي لام كي ، والفعل منصوب بأن مضمرة بعدها ، والمصدر مجرور باللام متعلق (بلا تكونوا) والمعنى يا معشر المسلمين لا تكونوا مثل الكافرين في قول أو فعل ، لأن عدم مشابهتكم لهم في شيء تحدث حسرة في نفوسهم . ٣ – اللام في (ولئن قتلتم) وهي لام القسم ، وان شرطية . ٤ – اللام في لمغفرة ، وهي في جواب القسم، أما جواب ان الشرطية فحذوف ، وقد سد مسده جواب القسم لكونه دالاً عليه. ٥ – اللام في (ولئن متم) وهي مثل سابقتها . ٦ – اللام في (لإلى الله تحشرون) وهي مثل اللام في (لمغفرة) .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) . لفظ الذين كفروا عام يشمل كل كافر ، سواء أكان منافقاً يبطن الكفر ، ويظهر الإيمان ، أو كان كافراً ظاهراً وباطناً .. ولكن كثيراً من المفسرين قالوا: المراد خصوص المنافقين، لأن هذه الآيات من أولها الى آخرها مختصة بشرح أحوالهم ، ولأنهم اتخذوا من مقاتل الشهداء في أحد مادة للدس والفتنة .. وليس هذا القول ببعيد .

(وقالوا لاخوانهم) . أي قالوا ما قالوه لأجل موت اخوانهم ، فاللام للتعليل ، لا لتبليغ المخاطب ، لأن الميت لا يخاطب ، ولأن المنافقين قالوا : لو كانوا – الواو يعود لاخوانهم – عندنا ما ماتوا وما قتلوا .. ولم يقولوا : لو كنتم عندنا ما متم وما قتلتم .

(إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا). كان المنافقون يسندون موت المسافر في السفر ، وقتل الغازي الى نفس الحرب والسفر ، لا إلى الأجل المرسوم عند الله .. وقد نهى سبحانه المؤمنين عن مثل هذا القول،لأن فيه استجابة لدسائس المنافقين وتلبية لأهوائهم ، أما إذا لم يقولوا ذلك ، وأسندوا موت من مات ، وقتْل من قُتل في الحل والترحال ، والسلم والحرب ، أسندوا ذلك إلى الله وحده فانهم يردون كيد المنافقين الكائدين في نحورهم ، ويثيرون الحسرة واللوعة في قلوبهم .

والمراد بالاخوة هنا مطلق العلاقة نسباً كانت أو صداقة أو مشابهة في العقيدة والأخلاق .

(ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) أي ان الله نهى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين قولاً وفعلاً ، لأن هذا التشبه يسرهم ، ويحقق مقاصدهم ، وعدمه يزعجهم ويغيظهم . (والله يحيي ويميت) . فالآجال كلها بيده ، ولا تأثير للحرب ، ولا للسفر .. فقد يسلم المسافر والمحارب ، ويميت المقيم والقاعد ، وهذا رد على قول المنافقين : ان كلاً من السفر والحرب سبب للموت . (والله بما تعملون بصير) . هذا ترغيب في طاعة الله ، وتهديد لمن يقتدي بأهل الكفر والنفاق في قول أو فعل .

(ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) كل من دافع عن الحق أو عن نفسه بسيفه أو قلمه أو لسانه وقُتل فقد قُتل في سبيل الله،وكل من كافح وناضل من أجل العيش أو العلم أو ما ينفع الناس بجهة من الجهات ومات فقد مات في سبيل الله ، وكل من قتل أو مات في سبيل الله فقد استوجب الصفح عن الذنوب وعلو الدرجات في الدنيا والآخرة . وقوله: (خير مما يجمعون) معناه ان الأجدر بالمؤمن أن يؤثر الآجلة الدائمة ، وهي مغفرة الله ورحمته على العاجلة الفانية ، وهي ما يجمعه الذين يحرصون على التمتع بالشهوات والملذات .

(ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) . هذا هو مصير الانسان ، سواء أفارق الحياة بالقتل أو بأي سبب من الأسباب .. وهو مجزي بما أسلف،ان خيراً

فخير ، وان شراً فشر .. والعاقل يستعد لهذا اليوم ، ولا يلهو بالباطل، وقول: لو كان .. ولولا يكون .

ولو كنت فظاً الآية ١٥٩ - ١٦٠ :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ★ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ★

اللغة :

اللين في المعاملة الرفق . والفظ الخشن الشرس ، وأصله فظظ . والقلب الغليظ القاسي الذي لا يتأثر بشيء . وانفض القوم تفرقوا .

الإعراب :

قال صاحب مجمع البيان : أجمع المفسرون على ان (ما) زائدة في قوله (فبما رحمة) أي فبرحمة ، ومثله قوله (عما قليل) أي عن قليل . ومن بعده ، أي من بعد خذلانه ، فحذف المضاف لدلالة (وان يخذلكم) عليه .

المعنى :

(فبما رحمة من الله لنت لهم) . خاطب الله سبحانه صحابة النبي (ص) فيما سبق من الآيات ، ثم اتجه بهذه الآية الى نبيه الكريم (ص) . وسبق البيان ان المسلمين خالفوا أمر الرسول (ص) يوم أحد،وكان من نتيجة مخالفتهم وعصيانهم لنبيهم ان انقلبوا على أعقابهم منهزمين ، وتركوا النبي (ص) عند الشدة، حيث كانت الحرب قائمة على قدم وساق ، حتى أثخنه الأعداء بالجراح ، فكسرت رباعيته ، وشج وجهه ، ونزفت جراحه ؛ وهو صامد مع نفر قليل ، يدعو الفارين ، ولا يستجيبون له .

وبعد ان انتهت المعركة رجع المسلمون الى النبي (ص) فلم يعنفهم ، ويخاطبهم بالملامة ، وهم مستحقون لأكثر منها .. بل تجاهل كل شيء ، ورحب بهم ، وكلمهم برفق ولين ، وما هذا الرفق واللين الا رحمة من الله بنبيه وعون له على رباطة الجأش وضبط الأعصاب .

وإذا مدح الله نبيه بكظم الغيظ والرفق بأصحابه على اساءتهم له فبالأولى أن يعفو الله ويصفح عن عباده المسيئين .. قال الإمام علي (ع) في وصف الباري جل وعز : « لا يشغله غضب عن رحمته » . وفي الدعاء المأثور : يا من سبقت رحمته غضبه .

ثم بيّن سبحانه الحكمة من لين جانب نبيه الكريم (ص) ، بخطابه له : (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) . وشمت العدو بك ، وطمع فيك ، ولم يتم أمرك وتنتشر رسالتك .. ان المقصود من بعثة الرسول هداية الخلق الى الحق ، وهم لا يستمعون إلا لمن تميل قلوبهم اليه ، وتسكن نفوسهم لديه،والنفوس لا تسكن ولا تركن إلا الى قلب رحيم كبير ، كقلب محمد (ص) الذي وسع الناس ، كل الناس ، وما ضاق بجهل جاهل ، أو ضعف ضعيف، بل كان يأمر بالرحمة بالحيوان ويقول : إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، ليحد أحدكم شفرته ، ليريح ذبيحته . وقال : لكل كبد أجر . ان الله غفر لمومس لأنها أنقذت كلباً من الموت عطشاً .

(فاعف عنهم) . فيما يتعلق بحقك الخاص ، حيث تركوه في ساعة الشدة،

حتى اثخن بالجراح . (واستغفر لهم) . فيما يختص بحقوق الله تعالى ، حيث عصوه بالهزيمة وترك القتال .. وقوله تعالى لنبيه : (فاعف عنهم واستغفر لهم) يدل بالفحوى على ان الله سبحانه قد عفا عنهم ، وغفر لهم ، وإلا لم يأمر نبيه بذلك .

(وشاورهم في الأمر) . قال الرازي: ذهب كثير من العلماء الى ان الألف واللام في لفظ الأمر ليسا للاستغراق، بل للعهد ، والمعهود في هذه الآية الحرب ولقاء العدو ، فيكون قوله تعالى : (وشاورهم في الأمر) مختصاً بالحرب فقط.. وقال آخرون : انه يشمل جميع الأمور الدنيوية دون غيرها .. ثم نقل الرازي عن الشافعي ان شاورهم هنا للندب لا للوجوب .. والحكمة في المشورة أن تطيب قلوبهم ، وترتاح نفوسهم .. وهذا القول أقرب الى الاعتبار ، لأن المعصوم لا يسترشد برأي غير المعصوم .

ومهما يكن ، فان الدين بعقيدته وشريعته هو من وحي السماء ، وليس لأحد فيه رأي ، حتى الرسول (ص) فانه مبلغ لا مشرّع ، وقد خاطبه الله بقوله : ليس لك من الأمر شيء .. انما أنت منذر .

(فاذا عزمت فتوكل على الله) . أي اذا عقدت الرأي على فعل شيء بسبب المشورة أو غيرها فامض في التنفيذ ، على أن تأخذ الاهبة ، وتستكمل العدة معتمداً على إعانة الله وحده في النجاح والظفر .

(ان ينصركم الله فلا غالب لكم) . ونصره تعالى انما يكون مع مراعاة الأسباب التي جعلها الله مُوصلة الى النصر ، وهي بالاضافة الى التوكل على الله استكمال العدة التي أشار اليها بقوله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة – ٦٠ الأنفال » .

(وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) . ان الله يخذل المتخاذلين الذين لا تجتمع كلمتهم على خير ، قال تعالى ، « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم – ٤٦ الأنفال » .

والخلاصة ان استكمال العدة من غير الاخلاص لا يجدي شيئاً ، كما جرى للمسلمين يوم حنين : « ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين – ٢٦ التوبة » . كما ان

الاخلاص من غير عدة ليس بشيء .. « اعقلها وتوكل » . ومن استوفى الأمرين معاً فلا غالب له ، لأن الله معه .

محمد وسر عظمته :

خرج أبوه عبد الله في تجارة الى الشام ، وأمه حامل به ، وفي عودة أبيه من الشام مر بأخواله بني النجار في المدينة ، فمرض هناك ، ومات فقيراً لم يترك لولده شيئاً سوى خمسة من الأبل ، وقطيع من الغنم ، وجارية هي بركة الحبشية ، تكنى أم أيمن ، كانت دايته ، ومن جملة حواضنه .

ولد الرسول (ص) بمكة عام الفيل في شهر ربيع الأول الموافق شهر آب سنة ٥٧٠ ميلادية كما قيل .

مرضعته وكافله :

أرضعته اياماً ثوبية مولاة عمه أبي لهب ، ثم أرضعته حليمة السعدية .. وعاش ٦٣ عاماً ، منها ٥٣ قضاها بمكة ، و ١٠ بالمدينة ، ماتت امه وهو ابن ٦ ، ومات جده وهو ابن ٨ ، فكفله عمه أبو طالب ، ودافع عنه ، حتى النفس الأخير ، وعاش معه ٤٢ سنة .

اوصافه :

ليس بالطويل ولا بالقصير ، كبير الرأس ، بوجهه استدارة ، عريض الجبين ، يوشك حاجباه أن يلتقيا ، بينهما عرق اذا غضب انتفخ واحمر ، أسود العينين ، طويل رموش العين : في أنفه تقوس ، حسن الثغر ، كبير الفم ، عظيم اللحية ، متموج شعر الرأس ، طويل العنق ، عريض الصدر ، طويل الذراعين ، دقيق الساقين ، أبيض اللون ، مشرب بحمرة ، مشدود العضلات ، ليس في جسده استرخاء ولا ترهل .

كان اذا غضب احمر وجهه ، واذا حزن أكثر من لمس لحيته ، واذا تكلم أشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها ، واذا استغرق في الحديث ضرب راحة يده اليمنى ببطن ابهامه اليسرى ، واذا رأى ما يكره أشاح بوجهه ، واذا عطس غطى وجهه ، وكان يضحك ، حتّى تبدو نواجذه ، وكان أكثر الناس تبسماً.

وكان في طعامه لا يرد موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً ، واذا لم يجد الطعام صبر ،حتّى انه ليربط الحجر على بطنه من الجوع ،وكان يمر عليه الشهر لا يجد ما يخبزه ، وبعث يشتري من يهودي على ان يؤجل الدفع ، فرفض ، وقال : ما لمحمد زرع ولا ضرع ، فمن يسدد ؟.

ولم يملك قميصين معاً ، ولا رداءين ، ولا ازارين ، ولا نعلين .. وكانت له حصير ينام عليها في الليل ، ويبسطها في النهار ، فيجلس عليها ،ونام عليها ، حتّى أثرت في جنبه ، وله مخدة من جلد ، حشوها ليف ، وكان اذا نام يضع يده تحت خده ، وينام على جنبه الأيمن ، وكان يخصف النعل ،ويرقع القميص ، ويركب الحمار ، هذا وثروة الجزيرة العربية طوع أوامره .. ولكنه كان يعطي كل ما يصل منها اليه عطاء من لا يخشى الفقر ، كما وصفه اعرابي .

النبي والفقر :

وليس معنى هذا انه كان يحب الفقر ، ويرضى به .. كلا ،بل كان يستعيذ منه ، ويقول : اللهم اني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة .. وأعوذ بك من العجز والكسل .. وأعوذ بك من أن أظلم أو أُظلم .. لم يكن النبي يحب الفقر ، ويرضى به .. ولكن ما دام يعيش في مجتمع فيه فقراء فخير الأنظمة ، والحال هذه ، هو النظام الذي يجعل الحاكم في جانب الفقراء ، ويساوي بينه وبينهم في المأكل والملبس والمسكن .. ولا شيء أعظم ظلماً وجريمة من أن يشبع الحاكم ، وفي رعيته جائع واحد .. قال أمير المؤمنين علي : ان الله فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس ، كيلا يتبيّغ بالفقر فقره ، أي لا يهيج به

ألم الفقر فيهلكه . وقال : أأقنع من نفسي بأن يقال : أمير المؤمنين،ولا أشاركهم في مكاره الدهر .

مراتب دعوته :

أنذر النبي أول من أنذر عشيرته الأقربين ، وذلك حين نزلت الآية ٢١٥ من سورة الشعراء : « وانذر عشيرتك الأقربين » فـأولم لهم ودعاهم ، وقال لهم فيما قال: « فأيكم يوازرني على هذا الأمر ، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم » . فأحجموا جميعاً إلا علي بن أبي طالب قال : أنا يا نبي الله . فأخذ برقبته ، وقال : هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا . فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[١] .

ثم دعا النبي (ص) قومه العرب،ثم كل من بلغه الدعوة من الأولين والآخرين: « وما أرسلناك إلا كافة للناس – ٢٨ سبأ » . أما غيره من الأنبياء فقد أرسل الى قومه ، أو أهل زمانه .. ومن ثم كان نوح وابراهيم وهود وصالح وموسى وغيرهم يخاطبون الذين يدعونهم الى الايمان بـ (يا قوم) . أما محمـد (ص) فقد خاطب جميع الناس على اختلاف أنواعهم ولغاتهم في كل مصر وعصر : « قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً – ١٥٨ الاعراف » . ولقد كتب الرسول الأعظم (ص) الى ملوك الأرض ، وفي طليعتهم كسرى وقيصر،وأرسل اليهم رسله يدعوهم الى الإيمان برسالته .

سر عظمته :

كان محمد (ص) بشراً ، ومن وصفه بشيء من صفات الخالق الرازق فقد كفر بالله وبه،ولكن البشر ، كل البشر من آدم الى آخر أبنائه ليسوا كمحمد..

---

١ رواه الطبري في تاريخه وتفسيره ، كما في الطبعة القديمة ، وأيضاً رواه الثعلبي في تفسيره ، والنسائي في الخصائص ، وذكره محمد حسين هيكل في الطبعة الأولى لكتاب حياة محمد ، ثم حذفه في الطبعة الثانية .. (أعيان الشيعة ، ص ٩٨ ، طبعة ١٩٥٠) .

والعظيم منهم من اعترف له محمد بالعظمة والفضيلة .. اعترف له بالنص وتعيين الاسم بالذات ، أو بالوصف العام الشامل ، كقوله : « خير الناس أنفع الناس للناس » .

أما السر لعظمة محمد (ص) فيكمن في أنه كان يحمل هموم الناس جميعاً ، ولا يكلف قريباً أو بعيداً بشيء من همومه .. كان يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضي حاجتها ، ولا يحول دون مقابلته حاجب ، وما من أحد صديقاً كان أو عدواً إلا ويجد عنده الاهتمام به ، والعطف عليه ، والرعاية له .

وليس قولي هذا من وحي العاطفة ، ولا من وحي البيئة والتربية .. كلا ، انه من وحي الله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين – ١٠٧ الأنبياء » . ومعنى هذا ان عطفه واهتمامه ليس وقفاً على عشيرته الأقربين ، ولا أتباعه الموالين .. بل هي مشاع للناس أجمعين أعداء وأولياء .. انها تماماً كالماء والهواء .. كسر قومه رباعيته ، وشجوا وجهه ، فقال : اللهم اهدِ قومي انهم لا يعلمون .. فلم يكتف ان سأل الله لهم الهداية ، حتى اعتذر عنهم بالجهل وعدم العلم .

ولا غرابة إذا لم يغضب محمد (ص) لنفسه ، ولم يحتجز لها شيئاً من أعراض الدنيا ، وانما الغريب أن يغضب لها ويحتجز .. ان هذا الخلق هو حتم وفرض لمن بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، ودعا الناس ، كل الناس،لتصديقه والإيمان برسالته ، ولا معنى لتصديقه إلا تصديق العدل والاحسان ، ولا للإيمان به إلا الإيمان بالحق والانسانية ، لا بشخصه وذاته .

ناداه رجل : يا سيدنا وابن سيدنا،وخيرنا وابن خيرنا .. فقال : لا يستهوينكم الشيطان .. أنا محمد عبدالله ورسوله .. والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي .. وكان أصحابه إذا رأوه قادماً لم يقوموا له ، وهو أحب الناس اليهم ، لأنهم يعرفون كراهيته لقيامهم .. وكان يكره أن يمشي أصحابه وراءه ، ويأخذ بيد من يفعل ذلك ، فيدفعه إلى السير بجانبه .

هذه هي أخلاق محمد (ص) .. وليس كل الناس كمحمد .. ما في ذلك ريب..ولكن أخلاقه تعبير وانعكاس عن حقيقة الاسلام .. فأي داعٍ الى الاسلام لم يقتدِ بسيرة نبيه ، ويتجاوب مع سنته فهو مخادع محتال ، سواء أشعر ذلك من نفسه ، أم ظن هو وظن الناس معه انه قدس الأقداس .

وما كان لنبي أن يغل الآية ١٦١ - ١٦٤ :

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ★ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ★ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ★ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ★

اللغة :

غَلَّ الرجل بفتح الغين خان ، ويسمى الغلول ، والمقصود في الآية السرقة من غنيمة الحرب قبل القسمة . والغل بالضم الطوق ، والعطش ، والغل بالكسر الغش والحقد . وباء رجع ، وبوّأ له مكاناً هيأه له ، لأنه يرجع اليه. ويزكيهم يطهرهم .

الاعراب :

ما كان لنبي أن يغل قيل : أصله ما كان نبي لأن يغل ، ثم نقلت اللام من ان يغل الى النبي .. ونحن لا نرى ضرورة لهذا النقل،ونعرب المصدر من أن يغل اسماً لكان ، ولنبي متعلق بمحذوف خبرها ، والتقدير ما كان الغل حاصلاً أو صفة لنبيٍ ، تماماً مثل ما كان لنا أن نكذب ، أي ما كان الكذب حاصلاً

لنا أو صفة لنا . وان كانوا (ان) مخففة من الثقيلة ، وهـي مهملة ، لأن الأكثر عدم عملها ، ولام (لفي) فارقة بين ان المخففة ، وان النافية .

المعنى :

(وما كان لنبي أن يغـل) . قرىء يغل مبنيـاً للفاعل ، أي ان النبي لا يخون في الغنيمة ولا في غيرها ، كما يظن الجاهلون ، وقرىء مبنياً للمفعول، أي لا يجوز لأحد أن يخون النبي في الغنيمة .

وفي كثير من التفاسير ان الدافع الذي حمل الرماة ان يتركوا مكانهم ، ويخلوا ظهر المسلمين هو خوفهم ان لا يقسم لهم رسول الله ، ويقول : من أخذ شيئاً فهو له . فقال لهم النبي (ص) : أظننتم أنا نغل ، أي نخونكم ، فنزلت الآية. واللفظ لا يأبى هذا المعنى ، كما ان السياق أيضاً لا يرفضه ، لأنه ما زال في وقعة أحد .

ومهما يكن ، فان الذي نستفيده من الآية بوجه عام ، وبصرف النظر عن سبب النزول ان الأنبياء معصومون لا يمكن أن تقع منهم الخيانة ، لأن الصادق بما هو صادق لا يمكن أن يقع منه الكذب ، والا لم يكن صادقاً ، والحلو بما هو حلو لا يمكن أن يكون مراً .. اللهم اذا سميت الأشياء بأضدادها .. وعندها تبطل المقاييس .

(ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامـة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) . أي من خان وسرق شيئاً يأتي غداً بإثم الشيء الذي سرقه،وينال ما كسب مستوفياً لا ينقص منه شيء ، ويفتضح أمام الخلائق أجمعين .. وقيل: بل يأتي ، ومعه المسروق بالذات ـ مثلاً ـ من سرق بعيراً يجيء يوم القيامة حاملاً البعير على رقبته .. قيل هذا استناداً الى حديث طويل عن رسول الله(ص).. وان صح الحديث فهو كناية عن حمل آثام المعصية ، لا حمل أسبابها بالذات ، فهذه الآية نظير الآية ١٢٣ من سورة النساء : « من يعمـل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

الإسلام يفعل الأعاجيب :

من تتبع تاريخ المسلمين يرى ان تعاليم الكتاب والسنة قد عملت عملها، وأثرت أثرها في نفوس الكثير من المسلمين ، حتى أنشأت مجموعة تتمثل فيها مكارم الأخلاق التي بعث الرسول الأعظم لاتمامها .. فلقد كان الجندي البسيط في جيش المسلمين يقع في يده من أسلاب العدو الثمين الغالي ، فيأتي به لأميره يضيفه الى بيت المال ، ولا تحدثه نفسه بشي منه .

قال ابن الأثير في تاريخه : لما فتح المسلمون المدائن كان قائد الجيش سعد بن أبي وقاص ، فعيّن سعد عمر بن مقرن ليقبض من الجنود الأسلاب والغنائم ، وكان يسمى هذا الموظف صاحب الأقباض ، وقد اتاه فيمن أتاه من الجنود رجل ، وسلمه تمثالين ليضمها الى الغنائم ، وكان أحد التمثالين فرساً من ذهب مرصعاً بالزمرد والياقوت ، وعليه فارس مكلل بالجوهر .. والتمثال الثاني ناقة من فضة مرصعة بالياقوت ، ولها لجام من ذهب مكلل بالجوهر .. وكان كسرى يضع التمثالين على تاجه .

ولما رأى صاحب الأقباض التمثالين أخذته الدهشة ، وقال : ما رأينا مثلها.. ان كل ما عندنا لا يعادلها ، بل لا يقاربها .. ثم قال للرجل : من أنت ؟. فقال له : لا أخبرك ، ولا أخبر أحداً ، ليحمدني ، ولكني أحمد الله وحده ، وأرضى بثوابه ، ولا أبتغي شيئاً سواه .. ثم مضى لسبيله .. فأتبعه صاحب الأقباض رجلاً ، حتى انتهى الى أصحابه ، فسأل عنه ، فإذا هو عامر بن عبد قيس .

ان هذه الحكاية أشبه بالأساطير .. ولكن الإسلام اذا وجد قلباً طيباً أتى بالعجب العجاب ، تماماً كالبذر الصالح الطيب في الأرض الصالحة الطيبة .. أما الأرض الخبيثة فلا تأتي بخير ، وان طاب البذر ، وكثر السقي : « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكداً ــ ٥٧ الاعراف » .

(أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير).
هذه الآية نظير الآية ٢٨ من سورة ص: « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » .. قال الإمام أمير المؤمنين

علي : شتان بين عملين : عمل تذهب لذته ، وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مؤونته، ويبقى أجره .. وقال : ان الحق ثقيل مريء ، وان الباطل خفيف وبيء . من الوباء . أي ان الحق مر المذاق ، ولكنه حميد العاقبة ، والباطل حلو المذاق ، ولكنه وخيم العاقبة .. وأي عاقبة ومصير أسوأ من غضب الجبار وعذاب النار .

(هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) . ضمير (هم) يعود على من اتبع رضوان الله ومن باء بسخطه معاً . والمعنى ان المطيعين يتفاوتون في الطاعات من المجاهدين في سبيل الله بأنفسهم الى القاعدين غير أولي الضرر .. وكذا العاصون يتفاوتون في المعاصي من الجناية الى الجنحة .. فوجب ، والحال هذه ، أن يتفاوت هؤلاء في العقاب ، وأولئك في الثواب .

(ولقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين). مر نظيرها في سورة البقرة الآية ١٢٩ . وعلى أية حال ، فقد تضمنت هذه الآية الأمور التالية :

١ ــ ان الرسول احسان من الله الى الخلق ، لأن الرسول ينقلهم من الجهل الى العلم ، ومن المذلة الى الكرامة ، ومن معصية الله وعقابه الى طاعته وثوابه .

٢ ــ ان هذا الاحسان قد تضاعف على العرب بالخصوص لأن محمداً (ص) منهم ، يباهون به جميع الأمم .

٣ ــ انه يتلو عليهم آيات الله الدالة على وحدانيته ، وقدرته وعلمه وحكمته .

٤ ــ انه يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية ، ومن الاساطير والخرافات ، والتقاليد الضارة ، والعادات القبيحة .

٥ ــ يعلمهم الكتاب أي القرآن الذي جمع كلمتهم ، وحفظ لغتهم، وحثهم على العلم ومكارم الأخلاق، ويعلمهم الرسول أيضاً الحكمة ، وهي وضع الأشياء في مواضعها ، وقيل : ان المراد بها هنا الفقه .. وخير تفسير لهذه الآية ما قاله جعفر بن أبي طالب لنجاشي الحبشة :

« أيها الملك . كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ..

فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولاً منا ، لعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا الى الله وحده لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجـارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، واداء الأمانــة ، وصلة الرحم ،وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا ان نعبد الله ، ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » .

وبالاختصار ان محمداً (ص) هو الذي منح العرب وجودهم الانساني والدولي والحضاري ، ولولاه لم يكن لهم تاريخ يذكر ، ولا أثر يشكر .

اصابتكم مصيبة الآية ١٦٥ ـ ١٦٨ :

أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ★ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ★ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْايمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ★ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ★

الإعراب :

أو لما الهمزة للاستفهام على سبيل الانكار . والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، والتقدير أفعلتم ما فعلتم ولما أصابتكم الخ . ولما قيل : هي هنا ظرف بمعنى حين أو بمعنى اذ ، ومحلها النصب بقلتم . وجملة اصابتكم مجرورة باضافة لما . وأنّى هنا بمعنى كيف ، ومحلها الرفع خبر مقدم ، وهذا مبتدأ مؤخر ، والجملة مفعول قلتم . وما أصابكم (ما) مبتدأ أول . وفبإذن الله متعلق بمحذوف لمبتدأ ثان ، تقديره هو كائن باذن الله ، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول . وليعلم منصوب بأن مضمرة،والمصدر مجرور باللام متعلق بالمحذوف الذي تعلق به باذن الله . وجملة تعالوا نائب فاعل لقيل . وجملة قاتلوا بدل اشتمال من جملة تعالوا . والذين قالوا لاخوانهم (الذين) محل رفع بدل من واو يكتمون . وقعدوا الجملة حال من واو قالوا .

المعنى :

(أو لما أصابتكم مصيبة – يوم أحد – قد أصبتم مثليها – يوم بدر – قلتم انّى هذا) . أي كيف أصابنا هذا،ونحن نقاتل في سبيل الله .. وتوضيح الآية ان وقعة بدر كانت في السنة الثانية من الهجرة . ووقعة احد في السنة الثالثة منها ، وكان النصر في بدر للمسلمين ، فلقد قتلوا من المشركين سبعين،وأسروا سبعين ، وأيضاً انتصر المسلمون يوم أحد في الجولة الأولى ، وخسروا في الثانية، لأن الرماة خالفوا أمر الرسول (ص) ، وسبقت الاشارة الى ذلك أكثر من مرة، وكان المشركون قد قتلوا يوم أحد من المسلمين سبعين رجلاً .

وإذا قارنّا بين انتصار المسلمين في بدر ، وانتصار المشركين في أحد يكون الرجحان في جانب المسلمين ،لأن سبعين قتيلاً بسبعين قتيلاً ، يبقى مع المسلمين سبعون أسيراً من المشركين .. اذن ، علامَ هذه الدهشة من المنافقين وبعض المسلمين ، وتساؤلهم : كيف انتصر المشركون يوم أحد ، مع انهم أعداء الله؟ ولماذا تجاهل المنافقون انتصار المسلمين يوم بدر ، مع انه كان ضعف انتصار المشركين يوم أحد ؟

(قل هو من عند أنفسكم) . هذا جواب قولهم : (انى هذا) ومعناه أنتم السبب فيما أصابكم ، فلقد رأى رسول الله (ص) البقاء في المدينة وعدم الخروج الى أحد ، فأبيتم إلا الخروج ، ولما خرج معكم إلى أحد أمركم أن تلتزموا المراكز التي عينها للرماة ، فتركتموها طمعاً في الغنيمة .. والخلاصة ان قوله تعالى : هو من عند أنفسكم تماماً كقوله : ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد .

(وما أصابكم يــوم التقى الجمعان فبأذن الله) . المراد باليوم يوم أحد ، وبالجمعين المسلمون والمشركون ، والمراد بإذن الله علمه تعالى ، تماماً كقوله : (فاذنوا بحرب من الله) أي فاعلموا ، ولا يجوز ان يراد بالاذن هنا الاباحة، لأنه تعالى لا يبيح للكافر قتل المسلم .

(وليعلم الله المؤمنين وليعلم الــذين نافقوا) . أي ان لما أصاب المسلمين يوم أحد فوائد ، منها ان يُظهر الله علمه للناس بإيمان المؤمنين،ونفاق المنافقين، فالمنافقون قبل وقعة أحد لم يكونوا مكشوفين عند الناس، ومتميزين عـن المؤمنين وفي هذه الوقعة تكشفوا عن واقعهم ، وعليه يكون المراد بعلم الله هنـــا اظهار علمه بالمعلوم وتميزه عن غيره ، لا انه تعالى قد تجدد له العلم بعد وقعة أحد ، لأنه سبحانه يعلم الأشياء قبل وقوعها .. وسبقت الاشارة الى ذلك في الآية ١٤١ من هذه السورة .

(وقيل لهم — أي للمنافقين — تعـــالوا قاتلوا في سبيل الله أو دافعوا) . لم يبين الله من هو الذي قال ذلك للمنافقين ، لأنه أورد القول بصيغة المجهول، كما انه تعالى أشار للمنافقين بضمير الغيب لا بأسمائهم ، ولكن كثيراً من المفسرين قالوا : ان عبدالله بن أبي خرج مع النبي (ص) يوم أحد في ثلاثمئة مقاتل ، وفي أثناء الطريق رجع هو ومن معه ، ورفضوا أن يقاتلوا ، فعلوا ذلك بقصد التخذيل وتثبيط الهمم عن الحرب مع الرسول (ص).. فقال لهم عبدالله أبو جابر الانصاري : لماذا ترجعون ؟ فان كان لـكم دين ، فقاتلوا عن دينكم ، وهــذا هو معنى فقاتلوا في سبيل الله . وان لم يكن لـكم دين فدافعوا عن أنفسكم وأهلكم وأموالـكم ، وهذا هو معنى أو دافعوا .. وذكر أصحاب التواريخ هــذه المثلبة لابن أبي وأصحابه ، وقول عبدالله أبـي جابر الأنصاري لهم .. ولفظ الآيــة

ينطبق على مثل فعلهم ، وعلى قول الأنصاري لهم ، ولكن الآيـة لم تذكر اسم الفاعلين ، ولا اسم القائل .

ومهما يكن ، فان المنافقين قد أجابوا هذا القائل المؤمن و (قالوا لو نعـلم قتالاً لاتبعناكم) . أي ان الأمر بـين المسلمين والمشركين لا يتعدى المناورات وعرض العضلات ، ولن يصل الى الحرب والقتال ، ولو تأكدنا – ما زال القول للمنافقين – من ان الحرب واقعة لا محالة لحاربنا معكم .. وقيل : ان المنـافقين أرادوا بجوابهم هذا ان مجابهة المسلمين للمشركين ليس من نوع القتال والحرب في شيء ، وانما هي عملية انتحار ، لتفوق عدو المسلمين عدة وعدداً . ولفظ الآية يتحمل المعنيين ، ولكن المعنى الأول أقرب الى دلالة لفظها .

(هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) . أي ان المنافقين أرادوا من قولهم: لا نعلم ان هناك قتالاً ، أرادوا أن يخفوا نفاقهم ، ويبتعدوا عن التهم .. ولكن قولهم هذا أدل على نفاقهم ، وأقرب لنصرة المشركين ، لأنه يتفق مع مصلحتهم لما فيه من تثبيط العزائم عن الحرب مع الرسول (ص) .

(يقولون بأفواههم) : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم . (ما ليس في قلوبهم) . بل فيها الكذب والنفاق . (والله أعلم بما يكتمون) من الكفر بـه وبرسوله . قال الإمام (علي) : ان لسان المؤمن من وراء قلبه ، وان قلـب المنافق من وراء لسانه ، أي ان قول المؤمن انعكاس لما في قلبه ، لأنه لا يقول إلا ما يعتقد ، أما المنافق فان لسانه في معزل عن قلبه ، وانما يتبع لسانه مصالحـه الشخصية ، ويتلون كلامه بحسبها .

(الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا) . أي قال المنافقون : لو أطاعنا الذين قتلوا يوم أحد مع النبي (ص) ولم يخرجوا معه ما قتل أحد منهم ، كما انّا نحن لم نُقتل لأنّا لم نخرج .. وسبق الكلام في ذلك عند تفسير الآيـة ١٥٦ من هذه السورة .

(قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) . كلا ، لا ينجـو من من الموت من فر منه ، ولم يعط البقاء من طلبه . قال الإمام علي (ع) : ان الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب . ان أكرم الموت القتل.

والذي نفس ابن أبي طالب بيــده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراش .

أحياء عند ربهم يرزقون الآية ١٦٩ – ١٧١ :

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَــلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ★ فَرِحِينَ بِمَــا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ★ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ★

الإعراب :

احياء خبر مبتدأ محذوف ، أي هم أحياء ، وجملة يرزقون صفة لأحياء . وفرحين حال من واو يرزقون . ويستبشرون معطوف على فرحين ، وجاز عطف الفعل على الاسم ، لأنه بمعنى الاسم المعطوف عليه ، أي فرحين ومستبشرين . وان لا خوف عليهم (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف ضمير الشأن ، وخبرها جملة لا خوف عليهم . والمصدر المنسبك منها ومن مدخولها في محــل جر على انه بدل اشتمال من الذين لم يلحقوا بهـم ، ويجوز نصبه مفعولاً لأجله ليستبشرون .

المعنى :

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون). المخاطب في لا تحسبن كل عاقل ، والمقصود بالذين قتلوا في سبيل الله كل قتيل

من أجل الله ، سواء استشهد بين يدي الرسول (ص) أم من قبل ومن بعد . وظاهر الآية ان الشهداء أحياء في الحال ، لا أن الله سوف يحييهم مع غيرهم يوم البعث والنشر ، وانهم أحياء حقيقة ، لا مجازاً كالذكر الطيب وما اليه .. هذا هو ظاهر الآية ، ويجب الاعتماد عليه ، اذ لا موجب للعدول عنه من نقل أو عقل ، ما دامت الحياة بيده تعالى يهبها لمن يشاء متى يشاء .

والآية رد صريح على المنافقين الذين قالوا : ان أصحاب محمد (ص) يقتلون أنفسهم ، ولا يصلون الى خير .

ولسنا نعرف ديناً أو أمة رفعت من شأن الشهداء في سبيل الحق والعدل كما رفعه الإسلام . قال رسول الله (ص) : « الروحة والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها » . وقال : « الجنة تحت ظلال الأسنة » التي تقضي على الظلم والجور ، والشر والباطل ، أما المستشهدون في سبيل الحق فهم والحق سواء في نظر الإسلام ، لأن من يستهين بحياته من أجل الحق يكون تقديسه تقديساً للحق بالذات .

(فرحين بما آتاهم الله من فضله) . وفرحهم بهذا الفضل من وجهين : الأول انهم يتمتعون به . الوجه الثاني انه يدل على رضى الله الذي ضحوا بحياتهم من أجله ، تماماً كهدية الحبيب التي تدل على حبه .

(ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . كل مؤمن يحب لأخيه في الايمان ما يحبه لنفسه ، ولكن قد تخون الظروف ولا تتهيأ الأسباب لبلوغ المراد .. والذين استشهدوا في سبيل الله لهم اخوان في الله يعرفونهم بأسمائهم وأشخاصهم ،ولا ينقصون عنهم ايماناً واخلاصاً ، وقد تركوهم أحياء بعدهم .. وحين رأى الشهداء فضل الله عليهم فرحوا بما نالوه ،وأيضاً استبشروا لاخوانهم الذين تركوهم على نهجهم في الايمان والاخلاص والجهاد .. استبشر الشهداء لأن اخوانهم الأحياء سيلحقون بهم ، وينالون ما نالوه من الفضل والكرامة .

وفي هذه الآية دلالة صريحة على ان الشهداء أحياء قبل يوم القيامة ، لأن استبشارهم بمصير اخوانهم الأحياء انما حصل في الحال ، لا أنه سوف يحصل في غد .

(يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين). وتسأل: لماذا أعاد لفظ يستبشرون ، ولفظ فضل ؟.

الجواب : ان للشهداء ثلاث فرحات : الفرحة الأولى بما نالوه لأنفسهم ، واليها الاشارة بقوله : فرحين بما آتاهم الله من فضله . الفرحة الثانية كانت لأجل اخوانهم الذين يعرفونهم ولم يلحقوا بهم بعد ، واليها الاشارة بقوله : يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم . الفرحة الثالثة كانت لكل مؤمن عرفوه أو لم يعرفوه ، شهيداً كان أو غير شهيد ، واليها الاشارة بقوله : يستبشرون بنعمة من الله وفضل .. والذي يؤيد ان هذه الفرحة كانت من أجل المؤمنين جميعاً قوله تعالى: وان الله لا يضيع أجر المؤمنين .

سؤال ثانٍ : ان الله سبحانه عطف الفضل على النعمة ، والعطف يستدعي وجود الفرق بين المعطوف والمعطوف عليه ، فما هو هذا الفرق ؟.

وقد أجاب الرازي بأن النعمة هي الثواب والأجر الذي يستحقه العامل جزاء عمله ، والفضل هو التفضل الزائد الذي يمنحه الله كرماً لا استحقاقاً .

ولا يبتني جواب الرازي هذا على شيء سوى الرغبة في الجواب على أساس التسليم بوجود الفرق .. ونحن لا نرى أي فرق بين قول القائل : أنعم عليّ فلان ، وبين قوله : تفضل عليّ .. والصحيح ان المترادفات يعطف بعضها على بعض ، ومجرد الاختلاف في اللفظ كافٍ في الصحة، ويسمى هذا عطف التفسير.

الذين استجابوا لله والرسول الآية ١٧٢ – ١٧٥ :

ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ★ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ★ فَٱنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا

رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ★ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ★

اللغة :

القرح بفتح القاف الجرح ، وبالضم ألمه على ما قيل .

الاعراب :

الذين استجابوا،الذين في محل رفع علي الابتداء . وللذين من قوله : (للذين أحسنوا) متعلق بمحذوف خبر مقدم . وأجر مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر الذين استجابوا . ومن في (منهم) للتبيين ، وليس للتبعبض ، لأن الذين استجابوا لله ولرسوله كلهم محسنون . والذين قـال لهم الناس (الذين) بـدل من (للذين أحسنوا) . وذلكم مبتدأ . والشيطان عطف بيان . وجملة يخوف أولياءه خبر . وتخافون أي تخافوني ، وحذفت الياء تخفيفاً .

المعنى :

(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) . جاء في كتب السير والتفاسير ان المشركين بعد أن انتهت معركة أحد اتجهوا الى مكة ، وفي أثناء الطريق عادوا الى التفكير فيما حدث ، فندموا وتلاوموا ، وقـال بعضهم لبعض : لم نستأصل من بقي من المسلمين ، وسيجمعون لنا ، ويعيدون الكرة علينا ، وهموا بالرجوع الى حرب محمد (ص) وأصحابه .. ولمـا بلغ ذلك رسول الله (ص) أعاد تنظيم رجاله على عجل ، ونادى مناديه لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس ، فاجتمع اليـه

جماعة من المسلمين ، على ما بهم من القراح والجراح ، وساروا حتى عسكرو بحمراء الأسد في انتظار رجوع أبي سفيان ومن معه من المشركين .. وتبعد حمراء الأسد عن المدينة ثمانية أميال .. ونجحت هذه المظاهرة ، لأن المشركين لما علموا بتجمع المسلمين من جديد خافوا وأسرعوا الى مكة .. وعاد المسلمون الى المدينة أعز جانباً .

(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) . المراد بلفظ الناس الأول المثبطون عن الحرب مع النبي (ص) ، وهؤلاء هم الذين قالوا للمؤمنين حين أهاب بهم الرسول (ص) أن يقفوا للمشركين ثانية ، قالوا لهم : (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم). والمراد بلفظ الناس الثاني المشركون الذين حاولوا اعادة الكرة على المسلمين .

والمعنى ان المؤمنين على جراحهم الثقيلة الدامية قد لبوا نداء الرسول (ص) لمجابهة أبي سفيان وجيشه ، ولم يلتفتوا الى من خوفهم،وقال لهم ، لا تخرجوا مع محمد ، لأن الأعداء أقوى منكم ، بل زادهم هذا القول ايماناً بالله وثقة بوعده ، ومضوا على طاعة الرسول (ص) ، والتصميم على محاربة المشركين ، مهما تكن النتائج ، معبرين عن هذه الطاعة ، وهذا التصميم بقولهم : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وهكذا ينسجم المؤمن ، ويلتحم مع ايمانه ، ولا يخشى فيه القتل والأسر ، والتنكيل والتعذيب .. قال رجل من بني عبد الأشهل : شهدت وأخي أحداً مع رسول الله (ص) ، وجرحنا ، ولما اذن مؤذن الرسول (ص) بالخروج في طلب العدو خرجنا مع الرسول، وكنت أيسر جرحاً من أخي ، فكان إذا تأخر حملته .

(فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) . خرج المؤمنون مع النبي الى حمراء الأسد ، كما أمرهم ، ولم يلقوا من العدو كيدا ولا همّاً . وهذا معنى (لم يمسسهم سوء) . لأن العدو بعد أن علم بتجمعهم خاف وعاد الى أهله .. وبعد انصراف العدو عاد المسلمون إلى أهلهم بنعم كثيرة من الله ، منها السلامة ، ومنها طاعة الله ورسوله، ومنها ارهاب العدو ، ومنها الذكر الطيب .. وأية نعمة تعدل تنويه الله بهم ، وتسجيل

هذه المنقبة لهم في اللوح المحفوظ ، وفي كتابه الذي يتلو آياته أهل الأرض إلى يوم يبعثون .

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين). كل من أطاع الله فهو من أوليائه ، وكل من استجاب الى الشيطان فهو من أوليائه ، والله يأمر أولياءه بالخير ، ويرغبهم فيه ، وينهاهم عن الشر، ويحذرهم منه ، أما الشيطان فانه على العكس ، يأمر أولياءه بالشر ويغريهم به ، وينهاهم عن الخير ، ويخوفهم منه . وقال الحافظ المفسر محمد بن أحمد الكلبي، في تفسير التسهيل : المراد بالشيطان هنا أبو سفيان أو الذي أرسله أبو سفيان أو ابليس .

وقول من قال للمؤمنين : (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) هو من وحي الشيطان وتخويفه فلا يصغي اليه الا أولياؤه الذين يطيعونه ، أما أولياء الرحمن فلا يزيدهم هذا القول الا ايماناً بالجهاد والفداء من أجل الإسلام ونبي الإسلام . وعلى ما قدمنا يكون معنى : (الشيطان يخوف أولياءه) انهم يطيعونه اذا خوفهم ، أما أولياء الله فلا يخافون الشيطان اذا خوّفهم ، ومعنى (فلا تخافوهم) لا تخافوا المشركين فإنهم أولياء الشيطان، وهو يحاول أن يجعلهم مصدر الخوف والرعب ، ويضفي عليهم سمة القوة والرهبة ليخلو لهم الجو، ويعثوا فساداً في الأرض .. والمؤمن لا يخاف الا الله وحده .

الشيطان شحاذ ومهندس :

للشيطان أسماء كثيرة ، منها اللعين والرجيم ، والغاوي والغَرور ، ويمكن تسميته بالشحاذ المتسول ، لأنه يقف على باب القلب يستعطف ، ويقرعه برفق ولين طالباً الاذن بالدخول .. فإذا أبطأت عليه تضرع وتملق بكلمات معسولة .. ويكتفي منك ان توارب الباب ، ولو قليلاً .. فإذا فعلت دخل ، وأخرج من محفظته الغواية والخداع ، والوهم والاغراء ، وشرع بتمويه الحقائق وتشويهها ، وتزيين القبائح وتحسينها ، وصوّر عمل الخير شراً ، وجهاد المبطلين كفراً ، وسلم المحقين حرباً ، والمنكر معروفاً ، والمعروف منكراً ، وألبس الخائن ثوب المصلح ، والمخلص ثوب المفسد ، الى غير ذلك من حيله وأضاليله .

وأجدى وسيلة يتوصل بها الى مآربه تجسيم الخوف من قوة أوليائه الذين يقضون لباناته ، ويحققون غاياته .. ان الشيطان مهندس ومشرّع ، أما قوته المنفذة فهم شيعته الذين ينشرون في الأرض الفساد والضلال .

ومن أجل هذا يضخم من شأنهم ، ويمهد لهم سبيل السيطرة والنفوذ، ويلبسهم لباس العزة والقدرة ، كي لا يرتفع في وجوههم صوت، أو يفكر في الانتقاض عليهم أحد .. فيضعف سلطانه بضعفهم، وينقطع رجاؤه من الشر والفساد بانقطاع آثارهم .

والخلاصة ان من خاف أهل الفساد والضلال ، وهادن واحداً منهم فقد هادن الفساد والضلال بالذات ، ووقّع معاهدة الحب والاخاء بينه وبين الشيطان .. وهذا مقياس لا يخطىء أبداً في الفصل والتمييز بين من يدعي الايمان بالله والخوف منه، وبين من يوالي الشيطان ، ويؤثر طاعته على طاعة الله . ولا شيء أدل على هذه الحقيقة من قوله سبحانه : (ولا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين). فإن معناه من ترك جهاد أهل الفساد والضلال خوفاً منهم فهو من أولياء الشيطان ، وليس من الله في شيء .. وقريب من هذه الآية قول الرسول الأعظم (ص) : الساكت عن الحق شيطان أخرس .

الذين يسارعون في الكفر الآية ١٧٦ – ١٧٨ :

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ★ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ★ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ★

اللغة :

المراد بالاملاء هنا الامهال واطالة المدة .

الإعراب :

شيئاً مفعول مطلق ، أي شيئاً من الضرر ، ولا يحسبن الذين كفروا (الذين) فاعل يحسبن . انما الأولى بفتح الهمزة (ان) تنصب الاسم وترفع الخبر . وما موصولة اسم ان . وخبر خبرها . والمصدر المنسبك ساد مسد المفعولين ليحسبن، تماماً كما تقول: علمت ان زيداً قائم. وانما الثانية بكسر الهمزة مكفوفة عن العمل، ومعناها الحصر . واللام في ليزدادوا لام الصيرورة والعاقبة ، أي فكانت عاقبة الاملاء ان ازدادوا اثماً ، مثل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً .

المعنى :

(ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر انهم لن يضروا الله شيئاً) . سبق ان المشركين جمعوا الجموع ، وجهزوا الجيوش لمحاربة الرسول (ص) ، وان المنافقين كانوا يؤازرونهم ، ويدسون الدسائس على المسلمين . وفي هذه الآية وصف الله سبحانه كلاً من المنافقين والمشركين بالعتو والحرص على معاندة الحق وحربه ، وكان النبي (ص) يحزن ويتألم من صنيعهم هذا ، فقال له الجليل : لا تحزن .. انهم لن ينالوا منك ولا من المسلمين ولا من دين الله كثيراً ولا قليلاً ، وان أمرهم سيضمحل ، وتزول شوكتهم ، أما دينك فسيعظم شأنه ، وتعلو كلمته .. وهكذا كان ، فلم تمض الأيام ، حتى مكن الله للاسلام في شرق الأرض وغربها ، ومحق الذين كانوا بالأمس يسارعون في عدائه وحربه .

(يريد الله الا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم) . هذا مصير كل من تمادى في الغي ، ولم يرتدع عنه ، حتى مات عليه .

وتسأل : ان ظاهر الآية يشعر بأن الشر من الله ، لأن عذاب جهنم شر ، وقد أراده الله لهم ؟

الجواب : أجل ، ان الله أراد لهم العذاب ، ولكن بعد ان استحقوه ، لأنه تعالى أمرهم بالإيمان ، ونهاهم عن الكفر ، وترك لهم الخيار ، فاختاروا الكفر على الإيمان ، ومعنى هذا ان المشركين والمنافقين هم الذين أوجدوا سبب العذاب ، وبعد أن أوجدوه مختارين أراد الله لهم العذاب ، تماماً كالقاضي يريد السجن للمجرم بعد أن يرتكب الجريمة .

(ان الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم) . ولفظ اشتروا يشعر بالاختيار ، لأن المشتري يختار السلعة ، ويرضى بها بديلاً عن الثمن ، والكافر رضي بالكفر بديلاً عن الايمان ، فاستحق العذاب الأليم .

وتسأل : لقد كرر سبحانه (لن يضروا الله شيئاً) في آيتين لا فاصل بينهما ، فما هو السر ؟.

الجواب : المراد بالآية الأولى كفار قريش الذين جهزوا الجيوش لحرب الرسول (ص) ومن كان يؤازرهم من المنافقين ، والمراد بالآية الثانية كل من كفر من الأولين والآخرين محارباً كان أو غير محارب ، وعليه يكون ذكر الآية الثانية من باب ذكر العام بعد ذكر الخاص ،وهو كثير في كلام العرب،يقولون : فلان قامر بأمواله ، فأهلك نفسه . وكل من يفعل فعله فهو من الهالكين .

(ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثماً ولهم عذاب مهين) . ان عمر الانسان كثروته ، ان أحسن التصرف بها ، وأنفقها على نفسه وأهله والمعوزين من عباد الله وعياله عادت عليه بالخيرات والحسنات ، وكلما زادت ثروته تضاعف انفاقه في الطاعة ، وتضاعفت بذلك حسناته ، وان أساء التصرف بها ، وأنفقها في المعصية عادت عليه بالسيئات ، وكلما نمت وربت ثروته ازداد عتواً وفساداً .

وهكذا العمر ، يبلغ الانسان به السعادة ان أحسن العمل .. ويكون سبباً لشقائه ان أساء .. وهذه سنة إلهية واجتماعية في آن واحد .. وكل السنن المألوفة المعروفة طبيعية كانت أو اجتماعية فهي سنة الله في خلقه .

والله سبحانه قد جرى مع الكافرين على سنته في الناس أجمعين ، أمهل من أمهل باطالة العمر ، ليصيب من هذه الحياة ما يختاره لنفسه من خير أو شر ، ولكن الكافر اغتر بالامهال ، واسترسل في البغي ، فكانت النتيجة من امهاله شقاءه وعذابه ، على العكس من المؤمن اذا انسأ الله في أجله ، حيث تزداد خيراته ، وتكثر حسناته ، بل من أحسن فيما بقي من عمره لم يؤاخذ بما مضى من ذنبه ، كما جاء في الحديث الشريف .. ومن هذا يتبين ان اللام في قوله تعالى : ليزدادوا هي للعاقبة لا للتعليل .

الكافر وعمل الخير :

وتسأل : ان بعض الكفار يعملون الخير لوجه الخير ، وكلما طالت أعمارهم ازدادوا نفعاً للانسانية بعلومهم وجهودهم الخالصة من كل شائبة .. وهذا يتنافى مع ظاهر قوله تعالى : انما نملي لهم ليزدادوا اثماً ؟

الجواب : ان سياق الآية يحدد المراد من الإثم فيها ، وانه خصوص الكفر، وانهم من هذه الحيثية يزدادون كفراً ، لا من جميع الجهات ، اذ قد يكونون محسنين في بعض أعمالهم .

سؤال ثان : هل يثاب الكافر اذا أحسن ونفع الناس ، أم ان عمله هذا وعدمه سواء ؟.

الجواب : ان الانسان بالنظر الى الايمان والعمل الصالح لا يخلو أن يكون واحداً من أربعة :

١ – ان يؤمن ويعمل صالحاً ، وينطبق على هذا قوله تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون – ٣٠ فصلت » .

٢ – ان لا يؤمن ولا يعمل صالحاً .. وهذا من الذين : « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون – ١٩ المجادلة » .

٣ – ان يؤمن ، ولكنه لم يعمل صالحاً مدة حياته .. وهذا من حزب الشيطان ، تماماً كالثاني .. ولو كان مؤمناً حقاً لظهرت عليه علامة من علامات الايمان ، قال رسول الله (ص) : لا ينجي الا العمل ، ولو عصيتُ لوهيتُ . أما اذا خلط عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً ، واعترف بذنبه فتشمله الآية ١٠٣ من التوبة : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم » .

٤ – ان يعمل صالحاً ، ولا يؤمن ، كالكافر يطعم جائعاً أو يكسو عارياً أو يشق طريقاً أو يبني ميتماً أو مصحاً لوجه الخير والانسانية .. وقيل ان عمله هذا وعدمه سواء ، لقوله تعالى : « انما يتقبل الله من المتقين – ٣٠ المائدة » . والكافر ليس من المتقين ، اذ ليس بعد الكفر ذنب .

ونجيب أولاً : ليس المراد من قوله تعالى : « انما يتقبل الله من المتقين » ان الانسان اذا عصى الله في شيء لا يقبل منه اذا أطاعه في شيء آخر .. والا لزم ان لا يتقبل الا من المعصوم .. وهذا يتنافى مع عدله وحكمته، وانما المراد من الآية ان الله سبحانه لا يقبل الا العمل الخالص من كل شائبة دنيوية ، وان من عمل لغير الله والخير يكله الى من عمل له .. وليس من شك ان من عمل الخير لوجه الخير والانسانية فقد عمل لله ، سواء أراد ذلك ، أم لم يرد ، ومن عمل لله فأجره على الله .

أما المراد من (ليس بعد الكفر ذنب) فهو ان الكفر أكبر الكبائر على الاطلاق ، وان الذنب مهما عظم فانه دون الكفر بمراتب .. وهذا شيء، وجزاء من أحسن شيء آخر .

ثانياً : ان الله سبحانه عادل ، ومن عدله أن لا يكون المحسن والمسيء لديه سواء ، بل للمسيء جزاؤه ، وللمحسن جزاؤه ، وليس من الضروري ان يكون جزاء المحسن غير المؤمن في الآخرة .. فقد يكون في الدنيا بكشف الضر والبلوى ، قال رسول الله (ص) : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء » .. وأيضاً لا ينحصر جزاء الآخرة بالجنة،فقد يكون بتخفيف العذاب ، أو لا عذاب ولا ثواب ، كما هي حال أهل الاعراف .

واختصاراً ان الانسان مجزي بأعماله ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر ،

والكافر يستحق العقاب على كفره ، وقد فعل الخير لوجه الخير ، فيستحق عليه الثواب ، ولكل عمل حساب .. أجل ، نحن لا ندرك كنه الثواب الذي يثاب به المحسن غير المؤمن ، ولا متى وأين ؟ أفي الدنيا أو في الآخرة ؟ ان هذا موكول الى علم الله وحكمته ، وتحديده بشيء معين مشاركة لله في علمه ، فليتق الله من يؤمن به .

وبهذه المناسبة نذكر كلمة للسيد كاظم صاحب العروة الوثقى،قالها في ملحقات العروة ، باب الوقف ، مسألة اشتراط نية القربة ، وهذه هي بالحرف : «يمكن أن يقال بترتب الثواب على الأفعال الحسنة ، وان لم يُقصد بها وجه الله ، فان الفاعل لها يستحق المدح عند العقلاء ، وان لم يقصد بفعله التقرب الى الله ، فلا يبعد ان يستحق من الله تعالى التفضل عليه » .

فهذا العالم الجليل يقول بكل وضوح : انه من الجائز أن يثيب الله على الأفعال الحسنة وان لم يقصد بها وجه الله .. اذن ، فبالأولى أن يثيب الله فاعلها إذا قصد وجه الخير والانسانية ، وسبقت الاشارة أكثر من مرة الى أن العقل لا يأبى ان يمن الله بفضله وثوابه على المذنب وانما الذي يأباه العقل أن يعاقب الله من لا يستحق العقاب .

تمييز الخبيث من الطيب الآية ١٧٩ :

مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلى الْغَيْبِ وَلٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ★

الاعراب :

ما كان الله اللام في ليذر تسمى لام الجحود،لأنها تؤكد النفي ، وان مضمرة بعدها ، والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلق بمحذوف خبر لكان ، والتقدير ما كان الله مريداً لترك المؤمنين . ومثلها وما كان الله ليطلعكم ، أي ما كان مريداً لاطلاعكم . وحتى هنا بمعنى كي . ويميز فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى .

المعنى :

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) كان أعداء الرسول (ص) فئتين : الأولى المشركون ، وهم الذين رفضوا الإيمان به باطناً وظاهراً ، وأعلنوا الحرب عليه منذ البداية ، وانتهت بهم الحال الى أن جمعوا له الجموع ، وأعدوا له ما استطاعوا من قوة ، فجمع لهم كما جمعوا، وأعد كما أعدوا .. فكانوا أعداء معروفين متميزين عن غيرهم من المسلمين .

الفئة الثانية : المنافقون ، وهم الذين أضمروا الكفر والعداء للنبي وصحبه ، وأظهروا لهم الحب والولاء .. وكانت مهمتهم العمل ضد النبي (ص) داخل صفوف المسلمين .. فتارة يروجون الاشاعات الكاذبة ، وأخرى يُغرون المسلمين بمعصية الله والرسول (ص) ، وحيناً يثبطون عزائمهم،ويخوفونهم من المشركين .. وفي بعض الغزوات انضموا الى جيش المسلمين،ثم تركوهم في منتصف الطريق ، وقد لاقى منهم النبي والخلص من أصحابه أكثر مما لاقوه من المشركين ، لأن هؤلاء يحاربون في العلنية ، والمنافقون يكيدون في الخفاء ، ويدبّون الضراء .. وهذا شأنهم مع كل داعٍ الى الخير في كل زمان ومكان ، يندسون في صفوف الطيبين للفساد والتخريب ، وقد ذكرهم الله سبحانه في العديد من الآيات ، منها الآية ١٧٣ – ١٧٩ وهي التي نحن بصددها،ومنها الآية ١١٢ من سورة الانعام : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً » .

وقد فُرض على النبي (ص) ان يعامل هؤلاء، وكل من نطق بكلمة الإسلام معاملة المسلمين ، فيحقن دماءهم ، ويحترم أموالهم ، ويندبهم الى الحرب معه ، ويشركهم في الغنائم ، لأن الإسلام ما زال في دور الانشاء والتكوين،فلو قتلهم الرسول ، أو طردهم لقال البسطاء : ان محمداً لا يُرضيه أحد آمن به أو كفر ، ولاتخذ المشركون من ذلك وسيلة للدعاية ضد الإسلام ونبيه .. ومن أجل هذا حار النبي (ص) في أمر المنافقين ، وضاق بهم ذرعاً .. ان قبلهم أفسدوا، وزهدوا المسلمين في الجهاد ، وان رفضهم خاف على دعوته من قلة الأنصار والأتباع ، فأنزل الله سبحانه قوله : (ما كان الله ليذر المؤمنين) . أي ليس من حكمته تعالى ان يدع الحال كذلك ، يتوارى المنافقون وراء دعوى الإسلام، بل انه سبحانه يسلط عليهم الأضواء ، ليعرفوا ويفتضحوا أمام الملأ ، ولا يبقى لهم منفذ للكيد والفساد .. والمحك الذي يفضح المنافقين ليس أمراً بالكلام كالتلفظ بالشهادتين ، ولا بالركوع والسجود ، وما اليه مما لا عسر فيه ولا حرج، وانما هو الأمر بالجهاد وبذل النفس الذي يكشف الغطاء عن المنافقين ، ولا يُبقي لهم مجالاً للرياء والخداع ، والكيد ونفث السموم .

بهذا الامتحان العسير ، والأمر بالصبر والثبات في وقعة أحد تعرفون يا معشر المؤمنين نعمة الله عليكم ، وانه لم يدعكم على الحال التي كنتم عليها من التباس الصادقين منكم بالأعداء الأدعياء الذين تقنعوا من قبل باسم الإسلام .. والمراد بالطيب المؤمنون ، وبالخبيث المنافقون ، وأفرد اللفظ ، لأنه اسم جنس .

(وما كان الله ليطلعكم على الغيب) . أي ليس من حكمته تعالى ، ولا من سننه أن يطلعكم على علمه بالناس ، ويقول لكم : هذا طيب ، وذاك خبيث، بل عليكم أن تعرفوا ذلك بالتجربة عند المحن والشدائد ، كما حدث في وقعة أحد ، وعندما دعا النبي (ص) الصحابة على ما بهم من ألم الجراح أن يخرجوا معه ثانية لطلب العدو ، ومقابلته في حمراء الأسد .. وبكلمة ان الله لا يخبر أحداً بما في قلوب الناس من ايمان ونفاق ، وانما يأمر بالتضحية بالنفس والمال،وعند التنفيذ والعمل يُعرف الأصيل من الدخيل .

أجل ، ان الله يُطلع بعض رسله على نفاق هذا ، أو ايمان ذاك لحكمة هو بها أعلم ، وهذا معنى قوله سبحانه : (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء).

ومثله الآية ٢٦ من سورة الجن : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » .

ولله ميراث السموات والأرض الآية ١٨٠ – ١٨٢ :

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ★ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ★ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ★

الإعراب :

يحسبن فعل مضارع،والذين يبخلون فاعل . والمفعول الأول ليحسبن محذوف، والتقدير البخل خيراً ، مثل من كذب كان شراً له ، أي كان الكذب شراً له . وخيراً مفعول ثان . و (هو) ضمير فصل لا محل له من الاعراب . . ومـــا بخلوا (ما) منصوبة بنزع الخافض ، أي سيطوقون بما بخلوا به طوقاً في أعناقهم. وقتلهم الأنبيـــاء منصوب ، لأنه معطوف على ما قالوا ، أي وسنكتب قتلهم الانبياء . وذلك مبتـــدأ . وبما قدمت (بما) متعلق بمحذوف خـبر . وان الله بفتح الهمزة ، عـــلى تقدير الباء ، أي وبأن الله ليس بظلام للعبيد ، والمصدر المنسبك مجرور بالباء ، متعلق بالخبر المحذوف .

المعنى :

(ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم) . بعد ان حرض سبحانه فيما تقدم على بذل النفس عقبه بالتحريض على بذل المال .. والمقصود بالآية الذين يمتنعون عن إعطاء الزكاة والخمس الواجبين، لا عن بذل الصدقة المستحبة ، لأن الوعيد الشديد الذي دلت عليه الآية انما يحسن على ترك الواجب دون المستحب .

وقيل : المراد بالآيـة من كتم اسم محمد (ص) وصفاته الواردة في التوراة والانجيل ، وقيل : بل كلّ من بخل بعلمه عمن يحتاج اليه .. ولكن المتبادر من الآية البخل بالمال ، لا بالعلم ، ويومىء اليه قوله تعالى .

(سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) . هذا تفسير لقوله (هو شراً لهم). والتطويق هنا كناية عن شدة العذاب نظير قوله تعالى : « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم – ٣٦ التوبة » .

الغني وكيل لا أصيل :

لقد حث الله سبحانه على البذل والانفاق في العديد من آياته ، وفي الكثير منها ايماء الى أن جميع الأموال ليست ملكاً لمن هي في يده ، وانما هي ملك لله وحده ، والانسان أمين عليها ، ومأذون بالتصرف فيها ضمن حدود معينة لا يجوز أن يتعداها ، تماماً كالوكيل على الشيء يتبع ارادة الأصيل في جميع التصرفات[1] ومن تلك الآيات هذه الآية : يبخلون بما آتاهم الله من فضله .. والآية ٧٧ من القصص : وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة .. والآية ٤٧ من سورة يس : انفقوا مما رزقكم الله .. الى كثير غيرها .. وفي الحديث القدسي : المال مالي ، والأغنياء وكلائي ، والفقراء عيالي ، فمن بخل بمالي على عيالي أدخلته النار ، ولا أبالي . وأصرح الآيات دلالة الآية ٧ من سورة الحديد :

---

١ بعد أن تنتهي من قراءة هذا الفصل اقرأ فصل « الايمان بالله ومشكلة العيش » في تفسير الآية ٥ من سورة النساء، فانه مرتبط بهذا الفصل .

« آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . ومعنى جعله خليفة أقامه مقامه .

فالآيات والأحاديث تفيد ان الاسلام لا يقر ملكية الانسان للمال بشتى معانيها، سواء أكانت الملكية فردية مطلقة ، كما هي في المذهب الرأسمالي ، أو ملكيـة مقيدة ، كما هي في المذهب الاشتراكي ؛ او ملكية جماعية ، كما هي في المذهب الشيوعي .. كل هذه الأنواع للملكية ينفيها الاسلام ، ويحصر الملك الحقيقي بالله وحده ، ولكنه سبحانه قد أباح للانسان أن يتصرف في هذا المال ، وينفقه على نفسه وأهله بالمعروف ، وفي سبيل الخير ، على شريطة أن يصل اليه عن طريق ما أحلـه الله ، لا عن طريق ما حرم ونهى ، كالغش والخداع ، والنهب والسلب ، والرشوة والربا والاحتكار والاتجـار بالمسكرات والمحرمات ، فالاذن بالاستيلاء على المـال محدود بحدود ، والاذن بالتصرف فيه أيضاً محدود ضمن نطاق خاص .

وتسأل : ان بعض الآيات تدل على ان المال ملك للانسان ، مثل: وجاهدوا بأموالكم .. وآتوا اليتامى أموالهم . وفي الحديث : « ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام .. الناس مسلطون على أموالهم » أما البيع والارث فهما من ضرورات الدين، والشريعة الاسلاميـة .. اذن ، لا مسوغ للقول بأن الاسلام يلغي الملكية بشتى أنواعها ؟

الجواب : ان الاضافة تصح لأدنى مناسبة ، تقول للضيف : هذا اناؤك ، وللضال : هذا طريقك ، مع العلم بأن الاناء ليس ملكاً للضيف ، ولا الطريق ملكاً للضال ، وانما القصد ان يسلك الضال الطريق المشار اليه ، ويأكل الضيف الطعام الذي في الاناء .. ومثله تماماً اضافة المال للانسان، يُقصد منها أن يتصرف فيه على سبيل الاباحة والاذن بالتصرف ، لا على سبيل الملك،ومنه قوله تعالى : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً – ٧٤ النحل » . وقول الرسول (ص) : « أنت ومالك لأبيك » .. وبديهة ان الزوجة ليست ملكاً طلقاً للزوج،ولا الولد ملكاً حقيقياً للوالد .

أما البيع والارث فيكفي لجوازهما حق الامتياز والاختصاص، أي ان الإسلام قد جعل لصاحب اليد امتيازاً على غيره في التصرف بالمـال ، وفي الوقت نفسه

أباح له أن ينقل الامتياز الى الوارث والمشتري .. والفرق بعيد بين الملك الحقيقي والامتياز .

والخلاصة ان الاسلام أباح للانسان حيازة المال بشروط خاصة ، وانفاقه ضمن نطاق معين ، وشدد على مراعاة تلك الشروط ، وهذا النطاق ، وحرم التجاوز عنهما ، وهذا وحده كافٍ وصريح في الدلالة على ان الانسان وكيل على المال، لا أصيل ، والا جاز له التصرف بلا قيد ولا شرط . وخير ما نختم به هـذا الفصل قول الإمام جعفر الصادق (ع) : المال مال الله وهو ودائع عند عباده، وجوز لهم أن يأكلوا قصداً — أي مقتصدين — ويلبسوا قصداً ، وينكحوا قصداً، ويركبوا قصداً ، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين، ويلموا به شعثهم، فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً ويشرب حلالاً ، ويركب وينكح حلالاً ، وما عدا ذلك كان عليه حراماً .

(لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) . لم تذكر الآية أسماء الذين نطقوا بهذا الكفر ، ولكن المفسرين نقلوا ان الله حين أنزل على نبيه قوله : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » قال يهود المدينة الذين كانوا في عهد الرسول (ص) : « انما يستقرض الفقير من الأغنياء .. اذن ، الله فقير ، ونحن أغنياء » .. وليس هذا بمستبعد على اليهود ، بخاصة الاثرياء منهم ، فان مبادئهم وأعمالهم تدل دلالة واضحة على هذه الروح الشريرة ، واللامبالاة بالقيم والانسانية .. ومن تتبع تاريخهم يجد ان ما من بقعة من بقاع الأرض إلا وتركوا فيها أثراً من مفاسدهم ومقاصدهم الطاغية الباغية .. ولا شيء أصدق وأبلغ في تصوير حقيقة اليهود من قوله تعالى : « وترى كثيراً منهم يسارعون في الأثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون، لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الأثم واكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ، وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا — ٦١ المائدة .

ولست أشك اطلاقاً في ان كل من يعترض على حكمة الله ، ويقول بلسان المقال أو الحال : ما كان ينبغي لله أن يفعل كذا ، وكان عليه أن يفعل كيت، لست أشك في ان هذا يلتقي من حيث يريد أو لا يريد ، مع الـذين قالوا : يد الله مغلولة .

(سنكتب ما قالوا) . هذا تهديد ووعيد للذين قالوا : (ان الله فقير ونحن أغنياء) لأن كتابة الذنب تستدعي العقوبة عليه . (وقتلهم الأنبياء بغير الحق). ونكتب قتل اسلافهم للأنبياء ، ونسب اليهم القتل مع ان القاتل أسلافهم ، لأن الخلف راضٍ بما فعل السلف .. وسبق الشرح عند تفسير الآيـــة ٢١ من هذه السورة .

(ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلاّم للعبيد) . وكيف يظلم وقد نهى عن الظلم ، واعتبره أكبر الكبائر ، وعبر عنه بالكفر في أكثر من آية ؟. هذا ، الى ان الظالم انما يظلم لأنه مفتقر الى الظلم ، والله غني عن كل شيء .. وبهذا الأصل ، وهو غنى الله وعـدم افتقـاره الى شيء نثبت عدله سبحانه ، وأيضاً نثبت انه ليس بجسم ، لأن الجسم يفتقر الى حيز .

وبهذا يتبين معنا بطلان مذهب القائلين بأن الشر من الله ، وانه يخلق المعصية في العبد ، ثم يعاقبه عليها .. اللهم الا ان يبرروا مذهبهم بأنه جل وعز قال : ان الله ليس بظلاّم ، ولم يقل ليس بظالم ، ومعلوم ان ظلاّم من أمثلة الكثرة والمبالغة .. وعليه فإن الله سبحانه نفى عنه كثرة الظلم والمبالغـة فيه ، لا أصل الظلم .. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

القربان والنار الآية ١٨٣ ــ ١٨٤ :

ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَاتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ★ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ★

اللغة :

القربان مصدر على وزن عدوان ، ويطلق على الشيء الذي يتقرب به العبد الى ربه ، وهذا المعنى هو المراد من لفظ قربان في الآية . والزبر بفتح الزاي الزجر ، وبضمها جمع لزبور ، وهو الكتاب ، يقال : زبرت الكتاب ، أي كتبته ، ومزبور أي مكتوب .

الإعراب :

الذين قالوا ان الله عهد الينا (الذين) عطف بيان من الذين قالوا : ان الله فقير ، ونحن اغنياء ، لأن مصدر القولين واحد .

المعنى :

(الذين قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) . كل مبطل يزعم انه محق ، ويبرر أباطيله بالمفتريات والاتهامات ،حتى الذين يتاجرون بالحروب ، ويوقدون نيرانها هنا وهناك لتشغيل مصانعهم ، حتى هؤلاء يزعمون انهم يقتلون الأبرياء والأطفال والنساء ليستتب الأمن والسلم .. هذا هو منطق كل من عاند الحق والعدل خوفاً منه على مكاسبه ومنافعه .

اذن ، فلا بدع أن يفتري اليهود على الله الكذب ، ويقولوا لمحمد (ص) : لا نؤمن لك ، لأن الله كان قد أمرنا ان لا نصدق مدعي النبوة الا اذا ظهرت على يده معجزة خاصة ، وهي أن نقدم صدقاتنا،فتلتهمها نار تنزل من السماء .. واليهود الذين قالوا لمحمد (ص) هذا القول هم بالذات الذين نطقوا بكلمة الكفر، وقالوا : ان الله فقير ، ونحن أغنياء .

(قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلمَ قتلتموهم ان كنتم صادقين) . أمر الله سبحانه نبيه الأكرم بأن يكذبهم،ويجابههم بواقعهم التاريخي، ويقول لهم : ان أسلافكم قد طلبوا من الأنبياء السابقين هذه المعجزة بالذات ؛

أي نزول النار من السماء ، وأظهرها الله على أيديهم ، ومع ذلك لم يؤمنوا بهم، وقتلوهم ، وأنتم راضون بفعل أسلافكم ، وشأنكم شأنهم في العناد والعتو .. ولو كنتم طلاب حق لآمنتم بمحمد (ص) بعد ان قامت الحجة على نبوته .

(فان كذبوك فقد كـذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) . هذا خطاب للرسول الأعظم (ص) ، والغرض منه التسلية بالتأسي بمن سبق من الأنبياء ، فلقد كانت سيرتهم أن يتلقوا التكذيب والعناد من أهل الفساد كبني اسرائيل ، والذين على شاكلتهم ، مع انهم أقاموا الحجة على كل مكذب لنبوتهم ، ومعاند لدعوتهم..والمراد بالبينات المعجزات الواضحة الدالة على صدقهم. وبالزبر مواعظ الأنبياء وحكمهم،تماماً ككتب الحديث . وبالكتاب المنير التوراة، لأن اليهود أحدثوا فيها التحريف ، بخاصة فيما يعود الى محمد وصفاته ، ولأن الآيات واردة لبيان شأنهم .. فهم الذين قولوا : ان الله فقير ، وانه عهد اليهم أن لا يؤمنوا لرسول ، حتى يأتيهم بقربان تأكله النار .

كل نفس ذائقة الموت الآية ١٨٥ – ١٨٦ :

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ★ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ★

اللغة :

التوفية عطاء كامل غير منقوص . والزحزحة التنحية والابعاد.والعزم امضاء للامر ، والمراد به هنا ما ينبغي للعاقل أن يعزم عليه .

الإعراب :

لتبلون ولتسمعن اللام للقسم ، والنون موكدة . وأذى مفعول لتسمعن .

المعنى :

(كل نفس ذائقة الموت) . كأس تدور على كل انسان نبياً كان أو شقياً، ملكاً كان أو صعلوكاً .. أبداً لا وسيلة للفرار من الموت ، وكل ما فكر فيه الأطباء أن يطيلوا حياة الانسان ، لا أن يدفعوا عنه الموت ، وآخر محاولة قاموا بها لاطالة الحياة سنة ١٩٦٧ عملية زراعة القلب ، وهي أن ينزعوا هذا العضو من انسان أشرف على الموت ، ثم ينزعوا قلب المريض ، ويضعوا القلب الجديد مكانه ، وكلٌّ من القلبين لا يزال ينبض .

ولكن هذه التجربة آلت الى الفشل الذريع رغم تكرارها .. وقامت ضجة من أطباء كبار حول هذه التجربة ، وقالوا : انها جريمة لا تغتفر ، إذ لا يمكن التأكد ان الذي يُنزع قلبه سيموت بعد قليل ، لأن الموت يحدث على درجات ، منها الاغماء الطويل الذي يفقد الانسان معه جميع الحركات ، حتّى الانفاس ، ولا وسيلة في هذه الحال للتمييز بين موته وحياته . وسبق للأطباء مراراً أنهم قرروا موت أشخاص عادوا الى الحياة بعد قرار الاطباء ..

وبالأمس قرأت في الصحف ان عجوزاً مصرية أصابها اغماء ، فاستدعى أولادها الأطباء فجزموا من غير تردد بموتها ، وبعد اعلان الوفاة وتوزيع أوراق النعي وحفر القبر وحضور الناس للتشييع فتحت عينيها ، وقالت للمجتمعين : اذهبوا إلى أعمالكم مأجورين .. واذا عجز الطب أن يطيل في عمر الانسان ، بل ان يميز في أحيان كثيرة حياته من موته ، فبالأولى أن يعجز عن دفع الموت عنه .

(وانما توفون اجوركم يوم القيامة) . لا جزاء في الحياة الدنيا من الله سبحانه، وانما يجزيه على ما عمل جزاء كاملاً وافياً يوم القيامة .. وقال كثير من المفسرين: ان الله سبحانه يعطي الانسان قسطاً من الجزاء على عمله بعد الموت ، وقبل يوم القيامة ، ثم يعطيه القسط الأخير يوم القيامة ، وبه يتم الوفاء ويكمل ، وادعوا

ان لفظ (توفون) يدل على ذلك .

أما نحن فلا نفهم من لفظ (توفون) الا ما نفهم من قوله تعالي : « وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص – ١١٠ هود » . وهو لا يشعر بالتقسيط من قريب أو بعيد .. أجل ، في الحديث : « ان القبر روضة من رياض الجنة،أو حفرة من حفر النار » . ولكن هذا شيء ، ودلالة توفون على التوزيع شيء آخر .

(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) . بل من زحزح عن النار، ولم يدخل الجنة فهو من الفائزين .. وقد حدد كثير من الفلاسفة اللذة بدرء الألم، والسعادة بعدم الشقاء .

(وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) . وصف سبحانه الدنيا بمتاع الغرور ، لأن الانسان يغتر بها وينخدع ، أو لأنه اذا ملك شيئاً من حطامها أحدثت الغرور بنفسه .. قال الإمام علي (ع) : الدنيا تضر وتغر وتمر ، ان الله تعالى لم يرضها ثواباً لأوليائه ، ولا عقاباً لأعدائه ، وان أهـــل الدنيا كركب بينا هم حلوا اذا صاح صائح فارتحلوا .

(ولتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتـــاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) . هذا هو ثمن الحق والجنة .. صراع مرير مع المبطلين ، وصبر على تهمهم وافتراءاتهم ، وتضحية بالنفس والمال ، وكلما كان الانسان قوياً في دينه اشتد بلاؤه وعظم .. ذلك ان مهمة أهل الحق تحتم عليهم كراهية الباطل وأهله ، اذ لا صلح ولا هدنة بين الحق والباطـــل ، وقد كان المبطلون ولا زالوا أكثر عدداً وأقوى شوكة .. ومحال ان يسكتوا عن أعدائهم في العقيدة والمبدأ .. ومن الذي يعلم انه مكروه وبغيض لديك ، ثم يتقبل ذلك منك ، ويسكت عنك ؟ الا من عصم ربك .. ومن هنا كان تاريـــخ الأنبياء والمصلحين تاريخ حرب وجهاد مع المشركين والمفسدين ، أما البلوى في النفس والمال وغيرهما فهي نتيجة حتمية لكل حرب .

والمراد بالذين اوتوا الكتاب من قبلكم اليهود والنصارى،لأن التوراة والانجيل نزلا قبل القرآن ، والمراد بالذين أشركوا العرب الذين تظاهروا على حرب الرسول (ص) .

(وان تصبروا) على جهاد المبطلين ، وما يحل بكم من البلاء (وتتقوا) الله فيما يجب اتقاؤه (فإن ذلك) الصبر على البلاء واتقاء كم المحرمات (من عزم الأمور) .

وظيفة علماء الدين الآية ١٨٧ :

وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ★

الاعراب :

إذ ظرف متعلق بمحذوف ، أي أذكر اذ أخذ الله . واللام في لتبيننه للقسم، لأن أخذ الميثاق قائم مقام القسم . والهاء تعود إلى الكتاب . وكذلك هاء لا تكتمونه . و (لا) في (لا تكتمونه) للنفي وليست للنهي، تماماً كقولك : والله لا تقوم ، ومن أجل هذا لم يؤكد الفعل بالنون . والهاء في نبذوه تعود إلى الميثاق ، وفي (به) إلى الكتاب . وما في (بئس ما) محل نصب على التمييز المفسر للفاعل المستتر في بئس ، أي بئس شيئاً اشتروا به . ويجوز أن تكون (ما) محل رفع فاعل لبئس .

المعنى :

(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه). تنشىء الدولة مراكز للموظفين ، وتحدد لكل موظف مهمته ، وتأخذ عليه عهداً أن

يؤديها بأمانة واخلاص ، وتشرّع قوانين خاصة لعقوبته إذا تجاوز الحدود المقررة له .

وخلق الله الانسان ، وأمره بما يعود عليه بالخير والصلاح ، ونهاه عما يفسده ويضرّ به .. واختار الأنبياء لتبليغ أحكامه إلى عباده ، وأمرهم أن يأخذوا عهد الله وميثاقه على كل من بلغته هذه الأحكام أن يبلغها هو بدوره ويبينها للناس .. فالعالم بالأمور الدينية موظف عند الله سبحانه ، لتبيين ما أنزل على رسله ، ومن كتم شيئاً منه فهو مسؤول أمام الله جل وعلا ، تماماً كموظف الدولة مسؤول أمامها إذا أخل بمهمته .

وجاء في ذلك العديد من الآيات والروايات ، ذكرها العلماء في باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، منها قوله تعالى : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون – ١٥٩ بقرة » .. وقال الرسول الأعظم (ص) : الساكت عن الحق شيطان أخرس – فكيف إذا ناصر الباطل ؟ – وسئل عن أحب الجهاد الى الله ؟ فقال : كلمة حق عند سلطان جائر . وقال الإمام علي (ع) : ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا ، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا .

وهذا مبدأ عام لا يختص بعالم دون عالم ، ولا بأهل دين دون دين ، ولا بأصل أو فرع ،وقوله تعالى : واذا أخذ الله ميثاق الخ ... يرادف بعمومه هذا المبدأ ، لأن الذين أوتوا الكتاب يشمل اليهود والنصارى والمسلمين ، بل القرآن أشرف الكتب اطلاقاً، كما ان وجوب التبيين وتحريم الكتمان يشمل نبوة محمد (ص) وغيرها من أصول الدين وفروعه ، ولكن كثيراً من المفسرين خصصوا الآية بعلماء اليهود الذين كتموا أمر محمد (ص) ، وقال آخرون : انها تشمل اليهود والنصارى دون غيرهم ، لأنهم كتموا ما في التوراة والانجيل من الأدلة على نبوة محمد (ص) .. والاولى التعميم ، لعدم الدليل على التخصيص .

(فنبذوه وراء ظهورهم) . ونبذ الشيء وراء الظهر كناية عن عدم الاكتراث به والاهتمام بشأنه ، كما ان جعله نصب العين كناية عن شدة الاهتمام به .

(واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون) . كل من كتم الحق ايثاراً للعاجلة على الآجلة فقد باع دينه للشيطان بأبخس الأثمان .. البعض لا يكتفي بكتمان

الحق ، بل يحرف الكتاب والسنة طبقـاً لأهواء الوجهاء والأثرياء طمعاً بما في أيديهم .. وهؤلاء (يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) .

ان يحمدوا بما لم يفعلوا الآية ١٨٨ – ١٨٩ :

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ★ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★

اللغة :

الفوز النجاة ، ومفازة اسم مكان الفوز والنجاة .

الإعراب :

الذين مفعول أول لتحسبن . ومفعولها الثـاني محذوف ، والتقدير ناجين . وبمفازة متعلق بمحذوف مفعول ثانٍ لـ (فلا تحسبنهم) .

المعنى :

الفرح بذاته غير محرم .. ومن لا يفرح إذا أصابه خير ، أو نجا من شر ؟ بل الفرح من أجـل خير الناس ، يدل على صدق النية ، وطيب السريرة .. وقد فرح رسول الله (ص) بقدوم ابن عمه جعفر بن أبي طالب من الحبشة ،

وقبله بين عينيــه ، وقال : ما أدري بأيهما أنا أشد فرحــاً بقدوم جعفر أم بفتح خيبر ؟

وانما يكون الفرج مذموماً إذا كان بدافع الحقد والشماتة ، والغرور والخيلاء، أو يفرح الانسان لأنه سلب ونهب ، وقتل وأفسد ، دون أن يُعاقب أو يُعاتب، أو لأنه مكر وخادع ليحمد بما ليس فيه ، وانطلت حيله على البسطاء ، ففرح بتطبيلهم وتزميرهم ، الى غير ذلك من الصور التي نشاهدها هنا وهناك .

بعد هذا التمهيد نشير بايجاز الى الأقوال في هذه الآية :

(لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم) قيل : انها نزلت في أحبــار اليهود الذين كتموا اسم محمد وصفاته الموجودة في التوراة،وفي الوقت نفسه يحبون أن يمدحوا بالصدق ، وانهم على ملة ابراهيم (ع) .

وقيل : بل نزلت في المنافقين .. كانوا يتخلفون عـن رسول الله (ص) في حروبه وغزواتــه ، ويتعللون بالأكاذيب ، وكان النبي (ص) يظهر القبول ، ويفرحون هم بذلك ، ويحبون أن يمدحوا بما ليس فيهم من الإيمان .

وأرجح الأقوال ان الله سبحانه بعد ان ذكر في الآية السابقة الذين أخــذ الميثاق منهم الاّ يكتموا الحق ، فنبذوه واشتروا به ثمناً قليلاً ، بعد أن وصفهم الله بهذا الوصف فيما سبق – ذكرهم في هذه الآية بأنهم قد فرحوا بصنيعهم ذاك، وأحبوا ان يمدحوا ويوصفوا بالحق والصدق ، وهم أبعد الناس عنها .

ومهما تمادوا في الغي فانهم لا يخرجون عن قبضة الله وقدرتــه ، ولا ينجون من عذابه وعقابه .. كيف ؟ (ولله ملك السموات والأرض وهــو على كل شيء قدير) .

وبهذا التفسير يدخل في الآية اليهود والنصارى الذين كتموا أمر محمد (ص) والمنافقون من المسلمين الذين أضمروا الكفر ، وأظهروا الايمان .

وتسأل : لماذا قال تعالى : فلا تحسبنهم بعد قوله : لا تحسبن الـذين الخ ، مع العلم بأن فاعل الفعلين واحد ، ومفعولها واحد ؟

الجواب : جاء التكرار لدفع الالتباس بعد طول الكلام ، وقــد شاع اليوم هذا الاستعمال في الكتابة والاذاعة .

سؤال ثان : ان الله سبحانه قال : (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب). ثم قال : (ولهم عذاب أليم) . مع ان الجملة الأولى تغني عن الثانية ؟

الجواب : فرق بين الجملتين ، لأن الأولى أفادت انهم غير ناجين من العذاب دون أن تبين نوع العذاب : هـل هو خفيف أو أليم ؟ والثانية بينت انه من النوع الأليم ، تماماً كما تقول : احبك واحبك كثيراً .

الله وأولو الألباب الآية ١٩٠ ـ ١٩٥ :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ★ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ★ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ★ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ★ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ★ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ★

اللغة :

اختلاف الليل والنهار تعاقبهما ، ومجيء كل منهما خلف الآخر . والمراد باللب هنا العقل ، لأن اللب من كل شيء خيره وخالصه،وخير ما في الانسان عقله . والخزي الاهانة . والمراد بالميعاد هنا الوعد .

الاعراب :

الذين يذكرون بدل من أولي الألباب . وقياماً وقعوداً حال . وعلى جنوبهم في محل نصب على الحال أيضاً ، أي ومضطجعين . وباطـلاً حال من هذا ، ويجوز أن يكون صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي ما خلقت هذا خلقاً باطلاً . وان آمنوا (ان) بمعنى أي مفسرة لما قبلها ، مثل كتبت اليه ان افعل كذا ، أي افعل كذا . وتحسن الاشارة إلى انه جاء في القرآن الكريم (انّنا) بالنونات الثلاث ، كما في الآية (ربنـا اننا سمعنا) . وجـاء فيه أيضاً (انّا) بحذف احدى النونين من أن،مثل قوله تعالى : « انّا كنا فاعلين – ١٠٤ الأنبياء » . وعليه يصح ان نقول ونكتب : انّا وانّنا .

المعنى :

(ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الألباب). عرضنا الأدلة العقلية على وجود الله سبحانه عرضاً وافياً عند تفسير الآية ٢٢ من سورة البقرة ، فقرة « التوحيد » ثم أشرنا اليها ثانية عند تفسير الآية ١٦٤ من السورة المذكورة ، وهي بمعنى الآية التي نحن بصددها ، ولمكانها هنا نعود إلى الموضوع بايجاز ، وبأسلوب آخر :

ان أفضل الطرق لمعرفة الله سبحانه هو الطريق الذي استدل به جل وعلا على وجوده ، ويتلخص بأن ينظر العاقل الى الكون ، ويتفكر بإمعان في عجائبـه وأسرار ما فيه من اتقان وابداع ، فيرى ان كل ما فيه ينبيء عن قصد وغاية،

حيث وضع في المكان اللائق به ، وقام بدور فعال في تنظيم الكون وسير الحياة ، ومن هذين الأساسين معاً،وهما الحس والعقل يتوصل حتماً الى معرفة علة أولية، تتصف بالحياة والعلم والقدرة والحكمة البالغة .

وسمعت أكثر من واحد يقول — وكأنه قد أتى بجديد — : كل الناس ، حتى الملحدين يعترفون بوجود علة أولى ، سوى أن المؤمنين يسمونها الله،وغيرهم يسمونها المادة أو الطبيعة ، اذن ، الخلاف في التسمية فقط .

وهذا اشتباه وخطأ محض ، لأن المؤمنين يؤمنون بوجود علة أولى تُدرك بالعقل لا بالحس ، وتوصف بالحياة والعلم والقدرة والحكمة والعدل ، أما غيرهم فيقولون : انها تُرى بالعين ، وتُلمس باليد ، وانها عمياء صماء ، فالفرق بين القولين أبعد مما بين الأرض والسماء .

(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) . المراد بالقيام والقعود وعلى جنوبهم انهم في طاعة الله أبداً ودائماً ، والمراد بالتفكر في خلق السموات والأرض انهم عارفون بالله سبحانه ، أما تضرعهم اليه عز وجل ان يقيهم عذاب النار فدليل التقوى والإيمان . قال الرازي :

« ان أصناف العبودية ثلاثة أقسام : التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ، فقوله تعالى : (يذكرون الله) اشارة الى عبودية اللسان ، وقوله : (قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) اشارة الى عبودية الجوارح والأعضاء . وقوله : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) اشارة الى عبودية القلب والفكر والروح والانسان ليس إلا هذا المجموع،فاذا استغرق اللسان في الذكر،والأعضاء في العمل ، والجنان في الفكر كان مستغرقاً بجميع أعضائه في العبودية — ثم قال — فما أحسن هذا الترتيب في جذب الأرواح من الخلق الى الحق » .

وليس من شك ان ذكر الله ، والإيمان بـه ، والتعبد له حسن .. ولكن أحسن من ذكره باللسان ، والقيام له في الليل ، والصيام في النهار هو العمل من أجل الانسان ، والتضحية في سبيل الصالح العام .. وكل من طلب الكرامة عند الله دون هذه التضحية ، مع القدرة عليها فقد طلب الثمن من غير ثمن .

وبمناسبة قوله تعالى:(ربنا ما خلقت هذا باطلاً) نشير الى ان السنة قالوا: لا يجوز تعليل أفعال الله بشيء من الأغراض والعلل الغائية ، لأنه تعالى لا يجب

عليه شيء ، ولا يقبح منـه شيء . (المواقف ج ٨ ص ٢٠٢) . وفي كتاب المذاهب الاسلاميـة للشيخ أبي زهرة (فصل وحدانية التكوين : فقرة تعليـل الأفعال) ما نصه بالحرف « قال الاشاعرة ، أي السنة : « ان الله سبحانه وتعالى خلق الأشياء لا لعلة ولا لباعث » .

وقال الشيعة : ان جميع أفعاله عز وجل معللة بمصالح تعود على الناس ، أو تتعلق بنظام الكون ، كما هو شأن العليم الحكيم .. ومما استدلوا به على ذلك هذه الآية : ربنا ما خلقت هذا باطلاً .

ويمكن الرد على السنة بأقوالهم وأفعالهم ، لا بآية ولا برواية .. ذلك انهم يأخذون بالقياس والاستحسان والمصلحة المرسلة القائمة على رعايـة اللطف بالخلق وتحسين أحوالهم في معاشهم ومعادهم ، ويتخذون - من القيـاس والاستحسان والمصلحة المرسلة - أصولاً ومدارك للأحكام الشرعية الإلهيـة ، كما انهم ألفوا كتباً خاصة في بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه .. ولا معنى لهذا الا انه لا يأمر ولا ينهي الا لغرض صحيح ، وعلة حكيمة .

(ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته) . ونحن نطيعك رغبة في مرضاتك، وفراراً من هذا الخزي . وهكذا المؤمن الصادق يضع ثواب الله وعقابه نصب عينيه ، فيطيع خوفاً من هذا ، وطمعاً في ذاك . قال الإمام علي (ع) في وصف المؤمنين : « فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنـار كمن قد رآها فهم فيها معذبون » . أما من يعبد الله لذات الله ، لا طمعاً في جنته ، ولا خوفاً من ناره فهو رسول الله وتلميذه الإمام علي .

(وما للظالمين من أنصار) . كل من يناصر الباطل في هذه الحياة،ويتخاذل عن نصرة الحق ، ولا ينصف النـاس من نفسه فهو ظالم ، وما له يوم الحق والعدل من نصير .. وأبلغ موعظة في هذا الباب هي خطبة الرسول الأعظم (ص) حين شعر بدنو أجله الشريف ، قال :

« قال : أيها الناس من جلدت له ظهراً فهذا ظهري ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي ، ليأخذه مني ولا يخش الشحناء من قبلي ، فإنها ليست من شأني ، الا وان احبكم إليّ من أخذ مني حقاً ان كان له ، أو حللني منه،فلقيت ربي

طيب النفس » . وتمام القصة عند تفسير الآية ١٦٠ من هذه السورة فقـرة : « محمد ومكارم الأخلاق » .

(ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان ان آمنوا فآمنا) . هـذا هو شأن من طلب الحق لوجه الحق ، يفتح قلبه لدعوته ، ويستجيب اليها بمجرد سماعها ، أياً كان الداعي ، فكيف اذا كان سيد الرسل ، وخاتم النبيين ؟.

(فاستجاب لهم ربهم اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) . فالعبرة بالعمل ، لا بنسب العامل وعنصره ، ولا برجولته وأنوثته ، فالكل سواء في الإنسانية عند الإسلام ، وهذا تقرير لحق المرأة وكرامتها . (بعضكم من بعض). فالرجل أبو المرأة ، والمرأة أم الرجل ، وكل منهما أخ وزوج للآخر ، والجميع من أصل واحد ، كلكم من آدم ، وآدم من تراب ، وفي الحديث : « النساء شقائق الرجال » . وسبق الكلام عن المرأة في الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .

(فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عنـد الله والله عنده حسن الثواب) . بعد ان ربط سبحانه الجزاء بالعمل الصالح ، لا بالعنصر ولا (بالجنس الخشن أو اللطيف) بعد هذا بيّن ان الأعمـال الـتي يضاعف الثواب عليها هي :

١ – خروج المؤمن مختاراً من وطنه الذي لا يمكن اقامة دينه فيه الى بلـد يمكن فيه ذلك ، ومن أجل هذه الآية ، والآية ٩٧ من سورة النساء : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها أولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً». من أجل هاتين الآيتين أفتى الفقهاء بتحريم المقام على المستضعف في بلـد الكفر الذي لا يستطيع فيـه اداء الفرائض ، وشعائر الاسلام ، وأوجبوا عليه الهجرة والرحيل الى بلد مسلم يؤدي فيه ما أوجبه الله عليـه إلا إذا عجز ، ولم يتمكن من الهجرة .

ومن المؤسف ان بعض الأغنياء من شبابنا المسلم في هذا العصر يشدون الرحال الى أمريكا وأوروبا لا لشيء إلا للفسق والفجور ، والزنا والخمور .

٢ – اخراج المؤمنين قهراً من ديارهم ، كما فعل مشركو قريش بمن آمن بمحمد (ص) ، وكما فعلت اسرائيل ربيبة الاستعمار بأهل فلسطين .

٣ – الايذاء في سبيل الحق .. وما من أحد اتبع الحق إلا أوذي من أجله .. وجاء في الحديث ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صُلباً اشتد بلاؤه ، وان كان في دينه رقيقاً ابتلي على قدر دينه ، ولا شيء أعظم أجراً عند الله من احتمال الأذى في دين الله والصبر عليه .. اللهم اجعلنا من الصابرين .

٤ – التضحية في النفس في سبيل الحق .

كل هؤلاء يمحو الله سيئاتهم ، وفوق ذلك يثيبهم ثواباً يليق بجلاله وعظمته.. وتكرار لفظ الثواب والجلالة (ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب) ايماء الى ان ثوابه ليس كمثله ثواب ، كما انه جل وعلا ليس كمثله شيء .

الذين كفروا والذين اتقوا الآية ١٩٦ – ١٩٨ :

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ★ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ★ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ★

اللغة :

المتاع ما يتمتع به الانسان في العاجل ، والمهاد المكان الممهد كالفراش ، والنزل ما يهيء للنازل .

الإعراب :

متاع خبر مبتدأ محذوف ، أي ذلك التقلب متاع قليل ، وخالدين حال من الضمير في لهم ، ونزلاً حال من جنات ، أو مفعول مطلق،أي انزلوها نزلاً

المعنى :

ومعنى مفردات الآيات الثلاث واضح ، والمهم بيان المقصود من مجموعها .. وقال كثير من المفسرين في شرحها ما يتلخص بأن الكافر يعيش في هذه الحياة في رخاء ولين ، ولكن مصيره الى وبال وشقاء ، والمؤمن يعيش في شك وضيق وعاقبته السعادة والهناء . وبكلمة ان الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر ،والآخرة بالعكس .

والذي نفهمه نحن من هذه الآيات انها تعرضت للمقارنة بين الذين يؤثرون دنياهم على دينهم ، ولا يعملون إلا بوحي من مصالحهم الشخصية ، كاليهود ومن على شاكلتهم ، وبين الذين يؤثرون الدين على الدنيا مهما تكن النتائج ، وعبر عن الفريق الأول بالذين كفروا ، لأنهم يكفرون بالحق ، ولا يقيمون له وزناً ، وعبر عن الفريق الثاني بالذين اتقوا ربهم ،لأنهم تجنبوا سخطه ومعصيته .. وليس من شك ان من عمل للدنيا ، وجعلها كل همه ، واستباح من أجلها المحرمات يجتمع في يده الكثير من حطامها ، كما نشاهد ذلك بالفعل ،على العكس ممن زهد في الحرام ، وآثر عليه الجوع والحرمان .

والمراد بتقلب الفريق الأول في البلاد تنعمهم فيما انتهبوا من خيراتها ومقدراتها .

وقد يتوهم ويظن ان مظاهر النعمة والترف على أهل الباطل خير لهم وكرامة ، وان مظاهر الشظف والحرمان على أهل الحق شر ومهانة ، فدفع الله هذا التوهم بأن العكس هو الصحيح ، فان نعمة المبطلين متاع قليل ، ثم الى جهنم وبئس المصير ، وان بؤس المحقين الى زوال ، ثم الى نعيم دائم ، وراحة أبدية .

المؤمنون من أهل الكتاب الآية ١٩٩ - ٢٠٠ :

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ★

اللغة :

الخشوع الخضوع . وقيل : الصبر والمصابرة بمعنى واحد ، وقيل : الصبر ضبط النفس على مكروه لا يد فيه للغير ، كالمرض ، والمصابرة تحمل الأذى من الغير .. والرباط الاستعداد لجهاد العدو .

الإعراب :

خاشعين حال من الضمير في يؤمن،لأنه يعود الى من ، وهي بمعنى الجمع . وجملة لا يشترون حال أيضاً . وعند ربهم حال من الضمير في لهم ، ويجوز أن تتعلق عند بأجرهم .

المعنى :

(وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما انزل اليهم خاشعين لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم) . المراد بما انزل اليكم القرآن ، وبما انزل اليهم التوراة والانجيل .

وتشمل الآية كل من آمن ويؤمن بمحمد (ص) من أهل الكتاب ، وليست خاصة بالنجاشي ، أو بعبد الله بن سلام كما قيل ، لأن اللفظ عام ، ولا دليل على التخصيص ، وإذا كان الله سبحانه يتقبل الإيمان بمحمد (ص) ممن لم يؤمن بالله ولا بكتاب فبالأولى أن يتقبل هذا الإيمان من أهل التوراة والانجيل ، بخاصة بعد أن تركوا دينهم وأصعب شيء على الإنسان أن يترك ما ألف وورث من دين.

(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) . ختم الله سبحانه سورة آل عمران بهذه الآية التي جمعت بين الأمر بتقوى الله ، والأمر بجهاد أعدائه . وسبق الكلام في الصبر مفصلاً عند تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة : فقرة « الصبر » ، وفقرة « أنواع أجر الصابرين » .

التقوى :

ونختم هذه السورة الكريمة بكلمة موجزة عن التقوى . سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عن التقوى ؟ فقال : ان لا يفقدك الله حيث أمرك ، ولا يجدك حيث نهاك .. اذن لا بد في التقوى من العلم بأحكام الله، والعمل بها لوجه الله ، لأن العلم بلا عمل حجة على صاحبه ، والعمل بلا علم كالسير على غير الطريق ، وعلى هذا الأساس تكون التقوى هي الدين والأخلاق ، وأساس الفضائل .. قال رسول الله (ص) : « لا تقولوا : ان محمداً منا ، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون » . وقوله (ص) : ولا من غيركم يُشعر بأن غير المسلم إذا سلم الناس من يده ولسانه أقرب الى محمد (ص) ممن انتسب الى الإسلام، ولم يكف أذاه عن الناس .

وجاء في القرآن الكريم العديد من الآيات في ان الفوز والنجاة غداً للمتقين وحدهم .. وفي الأساطير حكاية تومىء إلى هذه الحقيقة ، وهي ان رجلاً كان في قديم الزمان يكثر من قول : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين .. فاغتاظ ابليس من ذلك ، وأرسل اليه بعض شياطينه ، فذهب اليه ، وقال له : قل : العاقبة للأغنياء . فقال : الرجل : كلا ، العاقبة للمتقين . ولما كثر بينهما الجدال اتفقا على أن يتحاكما إلى أول من يطلع عليهما ، ومن حكم عليه تقطع يده . فلقيا شخصاً ، فأخبراه . فقال : العاقبة للأغنياء ، لا للمتقين . فقطعت يد الرجل ، فرجع ، وهو يكرر القول : الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين. فجاء الشيطان ثانية ، وقال له : ألم تتعظ ؟ قال : كلا ، قال الشيطان : احاكمك على اليد الأخرى . قال : أجل ، فطلع شخص ، وتحاكما اليه ، فحكم ان العاقبة للأغنياء لا للمتقين . فقطعت يده الثانية . وعاد يكرر أكثر من الأول: الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين .. وحينئذ قال له الشيطان : أحاكمك الآن على ضرب العنق . قال الرجل : نعم . واذا بفارس مقبل ، فتحاكما اليه، بعد ان قصا عليه القصة . فأخذ السيف، وقطع عنق الشيطان ، وقال له : هذه عاقبة المفسدين . وأعاد الله للرجل يديه كما كانتا .. وتحقق ما قال من أن العاقبة للمتقين ، ولكن بعد الصبر ، وقطع اليمين واليسار .. ومحال ان يصل الانسان الى ما يبتغي الا بالصبر وتحمل المشاق .

سورة النساء

سورة النساء

مدنية ، وآياتها ١٧٦ ، نزلت بعد الممتحنة ، ونقل صاحب مجمع البيان قولاً ان فيها آيتين نزلتا بمكة،وهما : الآية ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الخ. والآية : ويستفتونك في النساء . وسميت سورة النساء ، لأنها افتتحت بذكرهن ، وفيها أحكام كثيرة تتعلق بهن .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

خلقكم من نفس واحدة الآية ١ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً★

اللغة :

الزوج يطلق على كل واحد معه آخر من جنسه ، فالمرأة المتزوجة زوج ، والرجل المتزوج زوج ، وهما زوجان والبث النشر ، ومنه قولهم : كالفراش المبثوث .

الإعراب :

الأرحام منصوب عطفاً على لفظ الجلالة ، أي اتقوا الله ، وقطع الأرحام .

المعنى :

في هذه الآية أمور نبينها فيما يلي :

١ – (يا أيها الناس اتقوا ربكم) . قيل : يا أيها الناس خطاب لأهل مكة . والصحيح انه عام لجميع المكلفين ، لأن ظاهر اللفظ يشمل الكل ، ولا دليل على التخصيص ، بل الأمر بالتقوى يؤكد الشمول والعموم ، لأن وجوب اتقاء المعاصي لا يختص بفئة دون فئة .

٢ – (الذي خلقكم من نفس واحدة) . نقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده ان الله تعالى « قد أبهم أمر النفس التي خلق الناس منها ، وجاء بها نكرة ، فندعها نحن على ابهامها .. وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة الناس بقوله : (يا بني آدم) لا ينافي هذا – أي لا يرفع الابهام – ولا يعد نصاً قاطعاً في كون جميع البشر من أبناء آدم ، إذ يكفي في صحة الخطاب أن يكون من وُجّه اليهم الخطاب في زمن التنزيل هم من أولاد آدم ، وقد تقدم في تفسير قصة آدم في أوائل سورة البقرة انه كان في الأرض قبله نوع من هذا الجنس فسدوا فيها ، وسفكوا الدماء » .

ويتلخص ما أراده الشيخ عبده ان القرآن لا يثبت ولا ينفي ان آدم أب لجميع البشر ، بل من الجائز أن يكون للبشر العديد من الآباء ، وآدم واحد منهم ، أما قوله تعالى : (يا بني آدم) فإنه ان دل على شيء فإنما يدل على ان الذين خوطبوا بذلك في عهد محمد (ص) كانوا أولاداً لآدم ، ولا يدل على ان كل من كان ويكون من البشر هو من نسل آدم ، بل يجوز أن يكون له أب غير آدم. هذا ملخص ما أراده الشيخ .

ونجيبه أولاً بأن الأوامر والنواهي الواردة في الكتاب والسنة لا تختص بمن وجد حال الخطاب ، بل تشمل كل من وجد ويوجد إلى آخر يوم، لأنها من القضايا

التشريعية التي تعم الحاضرين والغائبين من وجد منهم ومن يوجد من غير تفاوت، تماماً مثل من بلغ عشرين عاماً فعليه كذا ، ومن هذا الباب قوله تعالى : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم – ٦٠ يس » . فإنه موجه لجميع الناس دون استثناء ، سواء أكانوا في زمن الخطاب ، أم لم يكونوا .

ثانياً : ان الأوامر والنواهي في الكتاب والسنة التي خوطب بها بنو آدم ، لو كانت موجهة لخصوص من كانوا في عهد الرسول (ص) لمّا كنا نحن مكلفين بها ، ولمّا صح لنا الاستدلال بشيء منها على حكم من أحكام الله،مع ان جميع المسلمين ، ومنهم الشيخ عبده يحتجون بالقرآن وسنة الرسول (ص) ، بل هما المصدر الأول للعقيدة والشريعة الإسلامية بضرورة الدين .

وإذا كان التكليف الموجه لبني آدم شاملاً لجميع البشر فالجميع يكونون ، والحال هذه ، نسلاً لآدم دون استثناء ، وعليه تكون الآية ٦٠ من يس ، والآية ٢٧ من الأعراف : « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان » . والآية ١٧١ من الأعراف : « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم». والآية ٧٠ من الاسراء : « ولقد كرمنا بني آدم » ، تكون هذه الآيات بياناً وتفسيراً للنفس الواحدة في قوله تعالى : (خلقكم من نفس واحدة) وان المراد منها هو أبونا آدم دون لبس واشتباه بغيره .

أما قول الشيخ محمد عبده : كان قبل آدم نوع من هذا الجنس فأجنبي عما نحن فيه ، لأن الكلام في الجنس الباقي ، لا في الجنس البائد .

هذا،إلى ان الله سبحانه خاطبنا بقوله : (يا بني آدم) وأيضاً خاطبنا بقوله : (فإنا خلقناكم من تراب – ٥ الحج) . وأيضاً قال : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) فإذا عطفنا هذه الآيات بعضها على بعض تكون النتيجة : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » كما جاء في الحديث الشريف .

ثالثاً : لقد ثبت عن رسول الله (ص) انه قال : أنا سيد ولد آدم . فهل لمسلم – السؤال موجه للشيخ عبده – أن يظن أو يحتمل ان الرسول (ص) أراد نوعاً خاصاً من البشر ، لا كل البشر ؟.

٣ – (وخلق منها زوجها) . قيل : ان من في (منها) للتبعيض ، وان المراد بزوجها حواء ، وان الله تعالى خلقها من ضلع آدم ، وقيل : بل خلقها من فضل طينته كما في بعض الروايات .

ويلاحظ بأنه لا دليل على ان مِن في (منها) للتبعيض ، بل يجوز أن تكون للبيان ، مثل قوله تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً – ٢٠ الروم » ، وعليه يكون المعنى ان كلاً من النفس الواحدة وزوجها خلق من أصل واحد ، وهذا الأصل هو التراب ، لقوله تعالى : « ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون – ١٩ الروم » .

أما قول من قال : ان المراد بزوجها حواء فلا دليل عليه من القرآن ، حيث لم يرد لها ذكر فيه على الاطلاق .

٤ – (وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) . أي ونساء كثيراً ، فحذف الوصف من الثاني لدلالة الأول عليه ، ومن الطريف قول الرازي : ان وصف الرجال بالكثير ، دون النساء للتنبيه على ان اللائق بحال الرجال الاشتهار والبروز ، واللائق بحال النساء الخفاء والخمول ..

وان دل هذا التعليل على شيء فإنما يدل على ان الرازي حكم على طبيعة المرأة بما تستدعيه تقاليد المجتمع الذي تعيش فيه .. وبديهة ان هذه التقاليد تتغير وتتحول بحسب مقتضيات الزمن ، فمن الخطأ أن نأخذ منها مقياساً عاماً ، وقاعدة مطردة .

ومهما يكن ، فإن المعنى واضح ، وهو ان البشر متوالد من زوجين ذكر وأنثى ، ومنهما انتشرت الملايين جيلاً بعد جيل ، ويقال : ان في العالم الآن ما يزيد على ثلاثة آلاف من الملايين .

٥ – (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) . هذا اشارة ما يقوله بعضنا إلى بعض : سألتك بالله أن تفعل كذا . أو سألتك بالرحم أن تفعل كذا . أي سألتك بحق الله العظيم عليك ، وحق الرحم العزيز عليك ، والغرض من الأمر بتقوى الله والرحم أن نؤدي ما لهما علينا من حق ، فالآية أشبه بقوله تعالى : « ان اشكر لي ولوالديك الي المصير – ١٤ لقمان » .

والخلاصة ان الله سبحانه أمرنا في هذه الآية أن نتقي غضبه وعذابه ، وان نحسن إلى الأرحام ، وان لا يعلو بعضنا على بعض ، ولا يظلم أحد أحداً ، لأن الجميع من أصل واحد ، وختم ذلك بقوله : (ان الله كان عليكم رقيباً) . وهو تهديد ووعيد لمن عصى وتمرد .

أموال اليتامى الآية ٢ :

وَآتوا اليَتَامَى أموَالَهُم وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأكُلُوا أموَالَهُمْ إلَى أموَالِكُمْ إنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً★

اللغة :

المراد بالخبيث هنا الحرام ، وبالطيب الحلال . والحوب الذنب والإثم .

الإعراب :

الباء في (بالطيب) للبدلية ، وتدخل على المبدل منه ، وهو خير من البدل في مقام النهي ، كما في هذه الآية ، وفي قوله تعالى : (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) . وقوله : (ومن يتبدل الكفر بالايمان) . أما في غير النهي مثل بدّلت هذا بهـذا فليس بشرط أن يكون المبدل منه أفضل – على ما نرى – والضمير في (انـه) يعود إلى الأكل ، وهو مصدر متصيد من لا تأكلوا .

المعنى :

(وآتوا اليتامى أموالهم) . لا بد لليتيم من عاقل أمين يرعاه في تربيته ، ويدبر أمواله لمصلحته إلى أن يصبح أهلاً للاستقلال في نفسه،ومعرفة ما يصلحها ويفسدها ، وهذه الآية تتعلق بأموال الأيتام،فتأمر أوصياءهم أن يحافظوا عليها ، ولا يتعرضوا لها بسوء ، وأن يوصلوها اليهم بالانفاق عليهم ما داموا صغاراً ، ويسلموها لهم عند البلوغ والاستقلال .

(ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب) . المراد بالخبيث هنا المال الحرام ، وبالطيب المال الحلال ، والمعنى لا تأكلوا وتتمتعوا بأموال اليتيم ، وتحتفظوا بأموالكم ، وإذا فعلتم ذلك فقد استبدلتم الخبيث الذي حرمه عليكم من أموال اليتامى بالطيب الذي أحله الله لكم من أموالكم .. فهو نظير قوله تعالى : (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير – ٦١ البقرة) .

(ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم انه كان حوباً كبيراً) . المراد بلا تأكلوا هنا لا تتصرفوا ، والمعنى لا تتسلطوا على أموال اليتامى بالأكل والانتفاع ، كما تفعلون في أموالكم ، لأن مهمتكم تنحصر في حدود صيانتها ، واستثمارها لصالح الأيتام ، فإذا تجاوزتم هذه الحدود كنتم آثمين مجرمين .

وان خفتم الا تعدلوا فواحدة الآية ٣ – ٤ :

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذٰلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا★ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً★

اللغة :

القسط فعله قَسَط ، ومعناه الجور ، ومنه قوله تعالى : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » . والاقساط فعله أقسط ومعناه العدل ، وهو المراد هنا . وان لا تعولوا تأتي بمعنى لا تميلوا ، يقال : عال الميزان إذا مال ، وعال الحاكم إذا جار ، وتأتي بمعنى أعال الرجل إذا كثر عياله . والنحلة لغة العطية ، ولكن المراد بها هنا الفريضة بالنظر إلى انه تعالى أوجبها على الزوج . وهنأ الطعام ومرأ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه .

الإعراب :

ما في قوله تعالى (ما طاب لكم من النساء) اسم موصول ، والمراد بها النساء بالذات ، كما هو صريح الآية ، وقد حار المفسرون في معناها ، فمنهم من فسرها بجنس النسوة ، ومنهم بوصفهن ، ومنهم بالشيء ، والسر لحيرتهم قول النحاة : ان ما للذي لا يعقل ، ومن للذي يعقل ، وبديهة ان القرآن حجة على النحاة، وليسوا هم حجة على القرآن، وأطلق القرآن لفظة ما على من يعقل في كثير من الآيات ، من ذلك : (والسماء وما بناها) . (ولا أنتم عابدون ما أعبد) . (وما ملكت ايمانكم) . كما أطلق من على الذي لا يعقل : (ومنهم من يمشي على بطنه) .

أجل ، الأغلب أن تطلق ما على الذي لا يعقل ، ومن على الذي يعقل : ولكن الأغلب شيء ، وعدم الجواز اطلاقاً شيء آخر . ومثنى وثلاث ورباع حال من فاعل طاب ، وهذه الألفاظ معدولة عن اعداد مكررة ، وهي اثنين اثنين ، وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً أربعاً ، ولم يسمع فيما زاد على هذه الأعداد مثل خماس ومخمس . والمعنى المراد بلحاظ العطف بالواو لا بأو هو ان لكل واحد ان يختار أي عدد شاء من هذه الأعداد المذكورة ، ولو كان العطف بأو لكان المعنى ان للبعض ان يختار اثنتين لا أكثر ، وللآخر أن يختار ثلاثاً فقط، ولثالث أن يختار أربعاً . وواحدة بالنصب مفعول لفعل محذوف ، أي فاختاروا واحدة .

ونحلة منصوب على المصدر ، ويجوز أن تكون حالاً من الصدقات ، أي حال كونها نحلة . والضمير في منه يعود إلى الصدقات بالنظر إلى المعنى ، لأن معناها المهر . ونفساً تمييز . وهنيئاً مريئاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي أكلاً هنيئاً مريئاً .

المعنى :

(وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) . ان مبدأ تعدد الزوجات الى أربع مبدأ مقرر في الشريعة بحكم الكتاب والسنة ، والاجماع قولاً وعملاً ، بل هذا المبدأ معلوم بضرورة الدين ، ولكنه غير مباح اباحة مطلقة ، بل مقيد بشرط يبرره بضرورة الدين أيضاً .

وهنا سؤال يفرض نفسه، وهو إن المعنى الظاهر من هذه الآية ان من خاف منكم ان لا يعدل في اليتامى فليتزوج اثنتين وثلاثاً وأربعاً ، ومتى فعل ذلك لا يبقى ظلم ولا جور .. وليس من شك ان هذا المعنى لو كان مراداً لكان أشبه بالهذيان ، إذ لا ربط بين فعل الشرط وجوابه .. حاشا القرآن الكريم الذي فصلت آياته من لدن عليم حكيم ؟!.

والجواب عن هذا السؤال واضح وبسيط ، ولكن اختلاف أجوبة المفسرين وتضاربها ترك القارىء في حيرة لا يهتدي الى شيء .. ويتلخص الجواب بأن الكلام منذ بدايته موجه الى أوصياء اليتامى ، وهم المقصودون بالخطاب في قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم) . (ولا تتبدلوا الخبيث) . (ولا تأكلوا أموالهم) . وبعد هذه الخطابات المتعلقة بأموال اليتامى خاطب الله سبحانه الأوصياء بخطاب آخر يتعلق بنكاح اليتيمات ، وهو (وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى) الخ أي في نكاح اليتامى ، فحذف لفظ نكاح لدلالة فانكحوا عليه ، من باب حذف الأول لدلالة الثاني ، على حد تعبير النحاة ، ويكون تقدير الكلام هكذا : هذا فيما يعود إلى أموال اليتامى ، أما فيما يعود إلى نكاح الأناث منهم فعليكم أيها الأوصياء ان تزوجتم بهن ان لا تقصروا في حقوقهن ، وان خفتم التقصير وعدم العدل في معاملتهن بالنظر الى انهن وحيدات لا أحد يدافع عنهن فاتركوهن،

وتزوجوا من غيرهن فقد جعل الله لكم مندوحة عن اليتيمات بما أباحه لكم من التزويج بغيرهن واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً .. ولكن أيضاً على أساس العدل ، فإن خفتم أن لا تعدلوا مع التعدد فاقتصروا على الواحدة ، وبهذا يتم الربط بين فعل الشرط وجوابه ، تماماً كما تقول لجليسك : إذا كنت لا تأكل من هذا الصنف لأنك تكثر منه ، وتخاف من داء التخمة فكل من الأصناف الأخر ، ولكن على أساس عدم الاكثار منها ، والا وقعت في المحذور نفسه . وكل كلمة قدرناها لهذا المعنى الذي ذكرناه فإن السياق يدل عليها ، والمألوف من طريقة القرآن انه يوجز الكلام الى أقصى حد ، ويحذف منه كل ما يمكن أن يستحضره السامع والقارىء من الاشارة والايماء ، وان دلت حيرة المفسرين على شيء فإنما تدل على ان هذه الآية هي أبلغ آية في الايجاز .

(فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) . المراد بالعدل التسوية في الملبس والمسكن ونحو ذلك مما يدخل تحت طاقة الانسان،أما ما لا يدخل في وسعه من ميل القلب الى واحدة دون أخرى فلا يكلف الانسان بالعدل فيه ، وبهذا نجد الفرق بين قوله تعالى : (فإن خفتم ان لا تعدلوا فواحدة) وبين قوله : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم – ١٢٨ النساء) . فالمراد بالعدل الأول التسوية في الانفاق ، وبالعدل الثاني ميل القلب .

وتسأل : ان الله سبحانه قد أوجب الاقتصار على الواحدة مع خوف الرجل من الجور اذا عدد .. وبديهة ان الخوف حالة نفسية ذاتية تخطىء أكثر مما تصيب، وقد شاهدنا الكثير من الرجال تطغى عليهم شهواتهم ورغبتهم في تعدد الزوجات، فتعميهم عن تقدير ظروفهم ، وتدبر قدرتهم،وعلى هذا لا يكون للشرط مقياس صحيح ، وضابط مطرد ؟.

الجواب : ان هذا الاشكال لا مفر منه،اذا أردنا من الخوف الحالة النفسية ، أما اذا أردنا منه ظروف الرجل المادية والصحية ، وانها تتحمل أكثر من زوجة واحدة ، أما اذا أردنا هذا فالسؤال غير وارد من الأساس ، لأن الأشياء المحسوسة يمكن ضبطها بسهولة .. ولا شيء في الشريعة الإسلامية يمنع أن يعهد بتقدير ظروف الرجل الذي يريد التعدد الى هيئة خاصة ، كما هي الحال الآن في بعض الأقطار الإسلامية .

(ذلك أدنى ان لا تعولوا). أي ان الاقتصار على الواحدة اقرب الى العدل، وأبعد عن الجور والظلم ، وفي هذا ايماء الى ان على الرجل أن يكتفي بواحدة، لأن في التعدد مفاسد .. وجاء في تفسير البيضاوي ان البعض فسر (لا تعولوا) بكثرة العيال من عال الرجل اذا كثر عياله ، وعلى هذا يكون معنى الآية ان الأفضل ان لا يعدد الرجل زوجاته ، كيلا يتحمل من أجلهن وأجل أولادهن المشاق والمتاعب ، وقال صاحب المنار : « هذا هو الأرجح » .. وقال الإمام علي (ع) : قلة العيال احدى اليسارين .

(وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) . الصدُقات المهور ، والمراد بالنحلة هنا العطية التي فرضها الله على الزوج ، والمعنى اعطوا النساء مهورهن ، لأن الله سبحانه قد فرضها عليكم أيها الأزواج عطية منه للزوجات،لا عوضاً عن الاستمتاع، لأنه مشترك بين الزوجين .

(فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) . تملك الزوجة المهر ، وتتسلط عليه تسلط المالك على أملاكه ، ولا يجوز معارضتها فيه ، زوجاً كان أو أجنبياً . (وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) . إلا إذا اذنت ورخصت ، تماماً كغيرها من الملاك .

تعدد الزوجات :

شرع الإسلام تعدد الزوجات ، على شرط ، ما في ذلك ريب .. وليس هذا المبدأ من حيث هو محلاً للنظر والاجتهاد ، ولكن باب النظر والاجتهاد مفتوح في تفسير الشرط المبرر للتعدد ، فللمجتهد أن يقول : ان المراد من الخوف مجرد توقع الرجل أن يجور ولا يعدل بين الزوجات ، وعليه ينسد باب التعدد إلا فيما ندر، لأن هذا التوقع قائم بالنسبة إلى الأكثرية الغالبة .. ويؤكده ما نراه من الفساد في أكثر البيوتات التي فيها أكثر من زوجة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: (ذلك أدنى أن لا تعولوا)أي الاقتصار على الواحدة أقرب إلى العدل ، وأبعد عن الجور ، إذن ، فتعليق جواز

التعدد على الأمن من الجور والفساد أشبه بالتعليق على المحال بالنسبة إلى الأعم الأغلب .

والغريب ان الذين يتوقع منهم العدل بين الزوجات ، وتساعدهم الظروف المادية والصحية – يحجمون عن التعدد ، ويهابونه على الرغم من رغبتهم فيه ، وميلهم اليه ، أما الذين لا يتوقع العدل منهم بحال ، ويفسدون المجتمع بنسلهم وتعدد زوجاتهم ، أما هؤلاء فيقدمون على تعدد الزوجات بكل جرأة .. ومن المؤسف ان علماء الدين وقادته يجرون عقود الزواج لهؤلاء ، بلا توقف ، ودون سؤال وجواب ، حتّى كأن التعدد مباح اباحة مطلقة دون قيد أو شرط .

وبعد ، فإن تعدد الزوجات ليس من الواجبات ولا المستحبات في الشريعة الإسلامية ، وإنما شرعه الإسلام ضمن نطاق خاص ، ولمصلحة خاصة ، ولكن أعداء الدين اتخذوا من عمل الذواقين الذين لم يراعوا الشرط المبرر ، اتخذوا منه وسيلة للطعن والتشهير برسالة الإسلام وصاحبها ، كما هو شأنهم وديدنهم في الاحتجاج بعمل الأفراد على الدين والعقيدة ، ولو أنصفوا لعكسوا ، واحتجوا بالدين على الأفراد والأتباع .

وإذ اشترط الإسلام على الرجل أن لا يتزوج باثنتين إلا مع أمنه من الفساد والجوار فإن بعض النساء في بلاد أوروبا وأمريكا تتصل احياناً – وربما على علم من زوجها – بمن تشاء من الرجال – دون قيد أو شرط .. ان صح أخذ القيد والشرط في مثل ذلك .. وفوق هذا أقر مجلس العموم البريطاني في العام الماضي شرعية اللواط ، ووافقت عليه بعض المراجع الدينية ، وعمت البلاد الفرحة لهذه البادرة « الطيبة » والسبق في ميدان الحضارة والانسانية والتشريع الحديث .

ومن غرائب نظم الزواج ان في جنوب الهند ، وعلى حدوده الشمالية يباح للمرأة أن تتزوج بأكثر من رجل ، ولا يزال هذا النظام متبعاً حتّى اليوم .

ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الآية ٥ ـ ٦ :

وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً★ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً★

اللغة :

السفهاء جمع سفيه ، وهو المبذر الذي ينفق المال في غير وجهه . والمراد بالقيام هنا قوام الشيء وعماده . والابتلاء الاختبار . والايناس الابصار ، مأخوذ من انسان العين ، أي حدقتها التي تبصر بها ، ومنه قوله تعالى : (آنس من جانب الطور ناراً) والمراد بالرشد هنا التصرف في المال فيما ينبغي على العكس من معنى السفه . والاسراف مجاوزة الحد في التصرف في المال،والسرف الخطأ ، قال الشاعر : « ما في عطائهم منّ ولا سرف » . أي يصيبون في عطائهم من هو أهل له . والبدار المبادرة والمسارعة . والحسيب الرقيب .

الاعراب :

التي عطف بيان من الأموال ، لفظها مفرد ، ومعناها الجمع ، وعن الفراء

أن العرب يقولون : في النساء اللاتي أكثر من التي ، وفي الأموال التي أكثر من اللاتي ، وكلاهما في كلتيهما جائز . وقياماً مفعول جعل . واسرافاً وبداراً نصب على انهما حال ، أي مسرفين ومبادرين ، أو مفعول من أجله . والمصدر المنسبك من أن يكبروا مفعول بداراً . وبالمعروف متعلق بيأكل ، وقيل بمحذوف حال . وبالله الباء مزيدة . ولفظ الجلالة فاعل ، وحسيباً حال أو تمييز .

المعنى :

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) . قيل : هذا خطاب موجه لكل من في يده مال ، وانه مأمور ان لا يمكّن منه من يصرفه في غير وجهه ، ويضعه في غير محله ، سواء أكان المبذر ولداً أو زوجة لمن في يده المال ، أو داخلاً في وصايته ، أو أجنبياً عنه . وقيل : بل الخطاب موجه للآباء فقط ، وان الله سبحانه نهاهم ان يعمدوا الى ما خوّله لهم من مال ، فيملكونه أولادهم العاقين، وعند الشيخوخة ينظرون اليها بحسرة وندامة لحاجتهم اليها ، وعقوق أولادهم السفهاء .

والصحيح ان الخطاب موجه لخصوص الأولياء ، والمعنى يا أيها الأولياء لا تسلطوا السفهاء الذين تحت ولايتكم على أموالهم .. ويدل على ذلك قوله تعالى: (وارزقوهم فيها واكسوهم) فإنه خطاب لخصوص الأولياء .. هذا ، الى أن الآيات السابقة خطاب لهم خاصة ، فيحسن تعلق هذه بتلك .

والسفيه هو المبذر الذي يسيء التصرف في المال ، فيُمنع من التصرف فيه الا اذا اذن له الولي ، وله تمام الحرية في التصرفات التي لا تتصل بالمال من قريب أو بعيد . وتكلمنا عن أحكام السفيه مفصلاً في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق : باب الحجر .

ونقول : لو كان الخطاب موجهاً لخصوص الأولياء الناظرين في أموال السفهاء لوجب ان يقول أموالهم ، لا أموالكم ؟.

الجواب : ان الله سبحانه أضاف أموال السفهاء إلى الأولياء بالنظر إلى انها تحت ولايتهم ، ومعلوم ان الاضافة تصح لأدنى مناسبة .

الايمان بالله ومشكلة العيش :

(أموالكم التي جعل الله لكم قياماً) . قال الرازي : « معناه انه لا يحصل قيامكم ومعاشكم إلا بالمال ، فلما كان المال سبباً للقيام والاستقلال سماه الله بالقيام اطلاقاً لاسم المسبب على السبب » يريد بالسبب المال ، وبالمسبب المعاش .

ومن تتبع الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية يجد ان الإسلام قد أولى المال وتوجيهه لتحسين المعاش عناية كبرى ، بل ساوى بينه وبين النفس في العديد من الآيات ، منها قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - ١١١ التوبة » .. فالله سبحانه يبيع جنته بالمال الذي ينفق في سبيله ، تماماً كالتاجر يبيع سلعته بالمال الذي ينفق لمصلحته . ومنها قوله جل وعلا : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم - ٩٤ النساء » . وفي الحديث: « ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم » . ومن هنا قال الفقهاء : الأصل في كل شيء الحل إلا في الدماء والفروج والأموال ، فإن الأصل فيها التحريم .

وأطلق القرآن لفظ الخير على المال في كثير من الآيات ، منها : « وانه لحب الخير لشديد » بل قال بعض المفسرين : ان لفظ الخير لم يطلق في القرآن إلا على المال .. ونحن لا نوافق على هذا الرأي ، ولكنا نعلم بأن أكثر الآيات التي أمرت بالعمل الصالح ، والتعاون على الخير ، وإعداد العدة لأعداء الدين والوطن - لا يمكن امتثالها والعمل بها إلا بالمال .

وقد نهى الإسلام عن كنز المال ، وهدد الذين يكتنزونه بالعذاب الأليم ، كما نهى عن الإسراف والتبذير ، واعتبر المبذرين اخوان الشياطين ، لأن كلاً من التجميد والتبذير يعوق الحياة عن النمو والانتاج الذي ينفع الناس ، وأمر بالاقتصاد،والرفق في صرف المال وانفاقه . قال الرسول الأعظم (ص) : إذا أراد

الله لأهل بيت خيراً رزقهم الرفق في المعيشة ، وحسن الخلق . وقال الإمام علي (ع) : لا يذوق المرء حقيقة الايمان ، حتى يكون فيه ثلاث خصال : الفقه في الدين ، والصبر على المصائب ، وحسن التقدير في المعاش .

لقد ربط الإمام بين حقيقة الايمان ، وحل مشكلة العيش في هذه الأرض ، لأن حسن التقدير في المعاش معناه اتقان العمل ، وصرف الانتاج في وجهه النافع .. وهذا دليل قاطع على ان الدين لا ينفصل عن الحياة ، وانه شرع من أجل حياة لا إشكال فيها ولا تعقيد .. ومن فصل الدين عن الحياة ، ونظر اليه على انه مجرد طقوس وشعارات ، وزهد ومغيبات فهو اما جاهل أخذ الدين ممن يتكسبون به ، واما معاند للحق والبديهة .

وعند تفسير الآية ١٨٢ من سورة آل عمران ، فقرة : « الغني وكيل لا أصيل » ذكرنا ان المال كله لله ، وان الانسان مأذون بالتصرف فيه ضمن حدود خاصة ، فإذا تجاوزها كان من الغاصبين ، فارجع اليه فإنه يتصل بهذا الموضوع ، وقد نعود اليه مرة أخرى إذا عرضت آية تتعلق به ، ونأتي بما يتمم أو يوضح ما ذكرناه هنا وهناك .. فإن الفكر لا يحيط بالشيء من جميع جهاته ، بخاصة إذا كان مثل موضوع الايمان والعيش ، وإنما يتجه الفكر بكله إلى جهة من الجهات حين تومىء اليها آية أو رواية أو حادثة من الحوادث .

(وارزقوهم فيها واكسوهم) . الخطاب لأولياء السفهاء ، والمراد به أن ينفق الأولياء على السفهاء كل ما يحتاجون اليه من مأكل وملبس ومسكن وتعليم وزواج ، وما إلى ذلك .

وتسأل : لماذا قال فيها ، ولم يقل منها ؟.

الجواب : لو قال (منها) لكان المعنى ان يأكل السفيه من أصل ماله ، فينقص المال بذلك ، وربما استهلكه كله ان طال المدى ، أما في فإنها ظرف ، ويكون المعنى ان المال يكون محلاً للرزق ، وذلك أن يتجر به الولي ، ويستثمره ، وينفق على السفيه من الناتج ، لا من أصل المال .

سؤال ثانٍ : لماذا خص الكسوة بالذكر ، مع العلم بأن رزقهم يشمل الكسوة ؟

الجواب : خص الكسوة للاهتمام بها .. فربما توهم الولي ان المهم هو المأكل، أما الملبس فلا بأس بالتساهل فيه ، فدفع الله سبحانه هذا الوهم بذكر الكسوة صراحة .

والولاية على السفيه تكون للأب والجد له إذا بلغ الصبي سفيهاً، بحيث يتصل السفه بالصغر ، أما إذا بلغ رشيداً ، ثم عرض له السفه بعد الرشد تكون الولاية للحاكم الشرعي ، دون الأب والجد .

(وقولوا لهم قولاً معروفاً) . قد يرى بعض الأولياء ان على المولى عليه أن يسمع له ويطيع ، تماماً كما هو شأن الولد مع والده ، فنبه سبحانه بقوله هذا كي يتلطف كل ولي بمن هو في ولايته ، ويعامله معاملة يرضاها ، وتطيب نفسه لها .

(وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم) . دلت هذه الآية على ان المال لا يُعطى للصغير ، حتى يحصل له وصفان : البلوغ والرشد ، وقد أجمعت المذاهب الإسلامية على ان الاحتلام يدل على البلوغ ، سواء أحصل من الذكر ، أم الأنثى في أية سن ، وفي أية حال حصل في اليقظة ، أم في المنام ، واستدلوا بهذه الآية (وابتلوا اليتامى) وبقوله تعالى : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا – ٥٩ النور » .. وثبت عن الرسول الأعظم (ص) انه قال : « رفع القلم عن ثلاثة ، عن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ .. وقال : لا يتم بعد احتلام .

أما الرشد فيثبت باعطاء اليتيم شيئاً من ماله ، يتصرف فيه ، فإن أحسن وأصاب كان راشداً ، وسُلّم ماله اليه ، والا استمر الحجر عليه ، حتى ولو بلغ المئة عملاً بظاهر الآية ، وقال ابو حنيفة : يُسلم المال للسفيه بعد بلوغه ٢٥ عاماً (وان لم يكن رشيداً) – حاشية ابن عابدين ج ٥ باب الحجر .

(ولا تأكلوها اسرافاً) . أي لا تتجاوزوا أيها الأولياء في أكلكم من مال القاصر الحد المباح لكم ، لأن الولي يجوز له أن يأكل من مال القاصر ، شريطة أن يكون فقيراً . كما يأتي .

(وبداراً أن يكبروا) . قد يبادر الولي ، ويستعجل ببعض التصرفات في أموال اليتيم مخافة أن يكبر ، وينتزع أمواله من الولي ، فنهى الله سبحانه عن مثل هذا التصرف الذي تعود فائدته على الولي ، لا على القاصر ، ونبه إلى تحريمه وخطره .

(ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) . لا يخلو الولي أن يكون واحداً من اثنين : إما غنياً ، وإما فقيراً ، فإن كان غنياً فعليه أن يتنزه عن أكل مال اليتيم ، ويقنع بما آتاه الله من الغنى والرزق ، وان كان فقيراً جاز له أن يتناول منه بقدر حاجته الضرورية على أن لا يتجاوز ما يستحقه من أجر على خدمته ، وفي الحديث ان رجلاً سأل النبي (ص) عن يتيم في حجره : هل يأكل من ماله ؟ قال له : كلْ بالمعروف . وقيل : يأكل على سبيل القرض .. وظاهر الحديث يدحض هذا القول .

(فإذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً) . قال الإمامية والحنفية : لا يجب على الولي أن يُشهد على تسليم المال للقاصر بعد بلوغه ورشده، وحملوا الأمر بالاشهاد في هذه الآية على الاستحباب دون الوجوب نفياً للتهمة ، وتجنباً للخصومة .

وقال الشافعية والمالكية : بل الأمر هنا للوجوب ، لا للاستحباب أخذاً بالظاهر .

للرجال نصيب الآية ٧ ـ ١٠ :

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً★ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً★ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً

خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً★ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ
أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً★

الإعراب :

للرجال متعلق بمحذوف خبر ، ونصيب مبتدأ ، أي حاصل للرجال نصيب، ومما ترك متعلق بنصيب . ومما قلّ أو كثر بدل مما ترك بإعادة العامل . ونصيباً حال من الضمير في قلّ أو كثر . والضمير في منه يعود إلى المال المتروك ، ومفعول يخشى محذوف ، أي وليخش الله . وظلماً مصدر وضع موضع الحال، أي ظالمين ، وصاحب الحال الواو في يأكلون .

المعنى :

أربع آيات ، كل آية نظرت إلى جهة تتضح من البيان التالي :

١ – (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ أو كثر نصيباً مفروضاً). الوالدان واضحان، والأقربون عام لكل ذي رحم بما فيهم الأبناء وان نزلوا ، والآباء وان علوا ، والاخوة والأخوات وأولادهم ، والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات وأولادهم، ذكوراً واناثاً ، كباراً وصغاراً ، درهماً كان المال أو قنطاراً .. ومبدأ الارث للجميع حتم في الشريعة الإسلامية ، لا تجوز مخالفته بحال ، بدليل قوله تعالى : (نصيباً مفروضاً) . وهو إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من حرمان الاناث والذكور الصغار ، لا لشيء إلا لأنهم لا يركبون فرساً ، ولا يردون عادياً .. فأثبت الإسلام حق الإرث للانسان على أساس طبيعته الإنسانية ، لا على أساس ضربه بالسيف ، وطعنه بالرمح .

واستدل الشيعة بهذه الآية على بطلان التعصيب الذي أثبته السنة ، ونفاه الشيعة – وسنتعرض له قريباً – ومؤداه توريث الرجال دون النساء في بعض الحالات، منها إذا كان للميت بنت وابن أخ ، وبنت أخ فإن السنة يعطون النصف للبنت، والنصف الآخر لابن الأخ ، ولا شيء لأخته ، مع انها في درجته ومساوية له، ومنها إذا كان له أخت وعم وعمة فإنهم يوزعون التركة بين البنت والعم ، ويحرمون العمة .. فالقرآن يورث النساء والرجال ، وهم يورثون الرجال ، دون النساء .

أما الشيعة فإنهم يعطون التركة كلها للبنت في الصورة الأولى والثانية ، لأنها أقرب إلى الميت من أخيه وابن أخيه ، وبالأولى من عمه .

٢ – (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً) . المراد بأولي القربى أقرباء الميت المحجوبون عن ميراثه بمن هو أقرب اليه منهم ، كالأخ مع الابن ، والعم مع الأخ، والخطاب في (ارزقوهم) موجه إلى الورثة أو من ينوب عنهم ، وبديهة ان الورثة يتصدقون على هؤلاء إذا كانوا فقراء . أما المراد باليتامى والمساكين فغير أولي القربى . والأمر هنا بإعطائهم للندب ، لا للوجوب ، مثل تصدقوا ولو بشق تمرة ، ولكنه ندب مؤكد .

٣ – (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً) . الأمر في (ليخش) موجه إلى ولي اليتيم ، والمعنى ان على ولي اليتيم أن يفعل بماله ما يحب الولي أن يفعل بأموال أيتامه الولي الذي يقوم على شئونهم من بعده ، تماماً مثل عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به . وكما تدين تدان . وعن الإمام موسى بن جعفر (ع) ان الله أعد لمن يسيء التصرف في مال اليتيم عقوبتين : الأولى في الدنيا ، وهي اساءة التصرف في مال أيتامه . والثانية في الآخرة ، وهي نار الحريق . قال الإمام علي (ع) : احسنوا في عقب غيركم تحسن الناس في عقبكم .

٣ – (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً

وسيصلون سعيراً) . المراد بأكل النار أكل ما يوجب العذاب في النار ، فهو من باب اطلاق المسبب ، وهو النار،على السبب ، وهو أكل الحرام . وفي الحديث أشد الناس عذاباً حاكم جائر ، وآكل مال اليتيم ، وشاهد زور .

للذكر مثل حظ الانثيين الآية ١١ – ١٢ :

يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً★ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي

الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ★

اللغة :

الكلالة الاحاطة ، مأخوذة من الإكليل ، ويراد بها في باب الإرث قرابة الإنسان غير والديه وأولاده ، كالاخوة والأعمام ، لأن الوالدين والأولاد كالعمودين . وقد يوصف بالكلالة الميت المورِّث على معنى انه قد ورَّث غير أولاده ووالديه ، وقد يوصف بالكلالة الحي الوارث على معنى ان الوارث هو من غير صنف الآباء والأبناء . وقد جاءت لفظة الكلالة في آيتين من القرآن ، الآية الأولى هذه ، والمراد بها اخوة الميت من أمه فقط ، والآية الثانية هي (يفتيكم في الكلالة – ١٧٦ سورة النساء) . والمراد بها في الآية الأخيرة اخوة الميت لأبيه وأمه ، أو لأبيه فقط ، ويأتي التفصيل .

الاعراب :

، للذكر متعلق بمحذوف خبر ، ومثل مبتدأ ، والجملة تفسير (ليوصيكم الله) أي يقول لكم الله : للذكر مثل حظ الانثيين . والضمير في (كن) يعود على أولادكم . وفوق صفة نساء ، بمعنى زائدات على اثنتين ، ولكن المراد بها هنا اثنتان فما فوق بالاتفاق . ولأبويه متعلق بمحذوف خبر . ولكل واحد منهما بدل من أبويه مع تكرار العامل . والسدس مبتدأ . ومن بعد وصية متعلق بمحذوف خبر مبتدأ محذوف ، أي هذه الأسهم كائنة من بعد وصية . و (او) هنا للاباحة ، مثل جالس الحسن أو ابن سيرين ، أي جالس أيهما شئت منفرداً أو منضماً ، ولا يجب تقديم المعطوف عليه بأو ، وتأخير المعطوف من حيث الفعل، بل يجوز العكس كما يجوز الجمع بينهما ، فإذا قلت : كلْ لحماً أو بطاطس ،

جاز لمن خاطبته أن يأكل البطاطس أولاً ، ثم اللحم ، وان يأكل أحدهما فقط ، أو هما معاً . وفريضة منصوب على المصدرية ، أي فرض الله ذلك فريضة . (وان كان رجل يورث كلاكة) قال ابن هشام في كتاب مغني اللبيب،الباب الخامس : يجوز أن نعرب كان ناقصة ، وجملة يورث خبر ، وكلالة حال من الضمير في يورث ، وأيضاً يجوز أن نعرب كلالة خبر كان ، وجملة يورث صفة لرجل .. ويجوز ان تكون كان تامة بمعنى وجد رجل وجملة يورث صفة له ، وحينئذ يتعين أن تكون كلالة حالاً من الضمير في يورث . وغير مضار حال من فاعل يوصي . ووصية منصوب على المصدرية ، أي يوصيكم الله وصية لا يجوز تغييرها .

المعنى :

كانت أسباب الإرث في الجاهلية ثلاثة : الأول النسب في حدود الرجال الذين يحملون السلاح ، ويستطيعون القتال ، أما الإناث والضعفاء من الذكور فلا ارث لهم .. وقد عمم الإسلام الإرث للجميع . السبب الثاني التبني ، وهو ان يتبنى الرجل ولد غيره ، ويكون له حكم الابن الشرعي في الإرث وغيره ، وألغى الإسلام ذلك بقوله : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم – ٤ الأحزاب » . السبب الثالث العهد ، وهو أن يقول الرجل لآخر : دمي دمك،وترثني وأرثك ، وأقره الإسلام على وجه يأتي بيانه عند الاقتضاء .

وكان من هاجر مع الرسول (ص) من مكة إلى المدينة يرث من مهاجر مثله إذا كان بينهما مخالطة وود ، ولا يرث من المهاجر غير المهاجر،وان كان قريباً . وأيضاً بعد ان آخى النبي (ص)بين كل اثنين من أصحابه كان المتآخيان يتوارثان ، ثم نسخ الإسلام هذين السببين ، الهجرة والتآخي ، نسخهما بقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله – ٧٥ الأنفال و ٦ من سورة الأحزاب » .

واستقر موجب الإرث في الإسلام على أمرين : نسب وسبب ، والسبب أمران : زوجية وولاء ، ويأتي البيان حسب ترتيب الآيات ، وفيما يلي نشير إلى

مداليل ألفاظ الآيتين اللتين نحن بصددهما : وهما وما بعدهما من الآيات المتعلقة بالارث تفصيلٌ لما أجمله تعالى في قوله السابق : للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء الخ :

١ - (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) . اذا اجتمع أبناء الميت وبناته معاً اقتسموا للذكر مثل حظ الانثيين ، وإذا انضم اليهم غيرهم في الميراث كالزوج أو الزوجة ، أو الأب أو الأم أو همـا معاً أخذ كلٌ نصيبه حسب التفصيل الآتي ، والباقي يقتسمه البنون والبنات ، للبنت نصف ما يأخذه الابن باتفاق المذاهب الاسلامية ، دون استثناء .

وأيضاً اتفقت المذاهب عـلى ان الميت إذا ترك ابناً ، وأولاد أولاد فالابن يحجب عن الارث أولاد الأولاد . سواء أكانوا ذكوراً ، أم أناثاً .. واختلف فقهاء المذاهب فيما اذا ترك بنتاً واحدة ، أو بنتين فاكثر ، ولم يترك ابنـاً .. قال فقهاء المذاهب الأربعة : تأخذ البنت الواحدة النصف فقط ، والبنتان فأكثر الثلثين فقط ، والباقي يُعطى لغيرهن . وقال الشيعة الامامية : التركة كلها للبنت أو البنات ، ولا شيء لغيرهـا . والتفصيل في كتابنا الأحوال الشخصية عـلى المذاهب الخمسة .

٢ - (فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف) . قال صاحب مجمع البيان : « ظاهر قوله تعـالى : فوق اثنتين ان البنتين لا تستحقان الثلثين لكن الأمـة أجمعت على ان حكم البنتين حكم من زاد عليهما من البنات » . هذا هو الصحيح ، وكل ما قيل من التعليل والتأويل حول (فوق اثنتين) فهو من نسج الخيال .

وليس هذا بالشيء المهم ، وانما المهم بيان ما اختلفت فيه المذاهب الاسلامية من ميراث البنت والبنات إذا لم يكن للميت ولد ذكر .. وقد اتفق الفقهاء قولاً واحداً على ان الميت إذا ترك بنتاً واحدة اخذت النصف بالفرض ، وان تـرك بنتين فأكثر أخذن الثلثين ، واختلفوا في النصف الباقي بعد فرض البنت ، وفي الثلث الباقي بعد فرض البنتين ، لمن يُعطى ؟.

قال السنة : يُعطى الباقي لأخي الميت ، مستندين إلى روايـة عن طاوس عن

ابن عباس عن النبي (ص) انه قال : ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي لاولى عصبة ذكر .

وأنكر الشيعة حديث طاوس لأنه كذاب[1] وقالوا : يُرد النصف على البنت، فتنفرد بالتركة كلها ، تأخذ النصف بالفرض ، والنصف الثاني بالرد . وأيضاً يُرد الثلث الباقي على البنتين فأكثر ، فينفردن بجميع التركة الثلثين بالفرض ، والثلث الباقي بالرد ، واستدلوا بأن القرآن الكريم فرض الثلثين للبنتين فأكثر ، وفرض النصف للبنت الواحدة ، ولا بد من وجود شخص ما يرد عليه الباقي بعد الفرض ، والقرآن لم يعيّن هذا الشخص بالذات ، وإلا لم يقع الخلاف، فلم يبق لتعيين من يرد عليه الباقي إلا الآية ٧٥ من سورة الأنفال ، و ٦ من سورة الأحزاب: « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » . حيث دلت على ان الأقرب أولى ممن هو دونه في القرابة ، وليس من شك ان البنت أقرب من الأخ .

هذا ، إلى أن الشيعة لم ينفردوا بالقول : ان التركة بكاملها للبنت أو للبنات، فلقد ذهب الحنفية والحنابلة إلى أن الميت إذا ترك بنتاً أو بناتاً ، ولم يوجد واحد من أصحاب الفروض والعصبات فالمال كله للبنت ، النصف بالفرض ، والباقي بالرد ، وكذلك البنتان تأخذان جميع التركة ، الثلثين فرضاً ، والثلث الباقي رداً، مع العلم بأن الآية قالت : (فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف). فإذا كانت هذه الآية لا تمنع ان تأخذ البنت أو البنات جميع التركة في الصورة التي ذكرها الحنفية والحنابلة فكذلك أيضاً لا تمنع أن تأخذ البنت أو البنات التركة كلها في صورة أخرى ، والفرق تحكم ، لأن دلالة الآية واحدة لا يمكن تجزؤها بحال .

وأيضاً قال الحنفية والحنابلة : إذا ترك الميت أماً ، وليس معها واحد من أصحاب الفروض والعصبات تأخذ التركة كلها الثلث بالفرض ، والثلثين بالرد ،

---

[1] قال السيد محسن الامين في نقض الوشيعة فصل التعصيب : حتى طاوس أنكر أن يكون راوياً لهذا الحديث، وقال – أي طاوس – : ان الشيطان ألقاه على لسان من نسب إلي هذا القول . وأسند السيد الأمين ذلك إلى رواة السنة .

مع العلم بأن الله يقول : (فلأمه الثلث) فاذا جاز للام أن تأخذ التركة كلها مع قوله تعالى : (فلأمه الثلث) جاز أيضاً للبنت أن تأخذ التركة كلها ، وكذلك البنات . مع قوله : (فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف) على النحو الذي قدمناه . وقد بسطنا القول في ذلك في كتاب الأحوال الشخصية على المذاهب الخمسة ، والجزء السادس من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق . وأصدر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر كتاباً ضخماً باسم « دعوة التقريب » ، أدرج فيه بحثنا هذا بكامله .. وتجدر الاشارة إلى أن ما نقلناه عن الحنفية والحنابلة كان مصدره كتاب المغني لابن قدامة ، وميزان الشعراني ، باب الفرائض .

٣ - (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد) . يطلق الولد على الذكر والأنثى ، لأن لفظه مشتق من الولادة الشاملة للابن والبنت ، وقد استعمل القرآن لفظ الأولاد في الذكور والأناث ، قال تعالى : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين » . وقال: « ما كان لله أن يتخذ ولداً » .

والمراد بأبويه هنا خصوص الأب والأم ، ولا يدخل فيهما الجد والجدة .. فاذا ترك الميت أبوين وأولاداً يُنظر : فإن كان في الأولاد ذكر أخذ كل من الأبوين السدس ، والباقي للأولاد ، حتى ولو لم يكن إلا ذكر واحد ، وان لم يكن ذكر ، وكان الأولاد بنتين فأكثر أخذ الأبوان الثلث ، والثلثان للبنات باتفاق المسلمين جميعاً . وان كان مع الأبوين بنت واحدة فلكل منهما السدس ، وللبنت النصف بالفرض ، يبقى سدس ، يُرد على الأب فقط عند السنة ، وعلى الأب والأم والبنت عند الشيعة ، إذا لم تُحجب الأم بالاخوة ، ويقتسمون التركة أخماساً ، واحداً منها للأب ، وواحداً للأم ، وثلاثة للبنت ، وان حجبت الام بالاخوة يرد على الأب والبنت فقط ارباعاً ، أي ان الزائد يُقسّم أربعة أسهم ، واحد منها للاب ، وثلاثة للبنت .

٤ - (فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له أخوة فلأمه السدس) . إذا لم يكن للميت ولد ، ولا ولد ولد ، وانحصر ميراثه بأمه وأبيه أخذت الأم الثلث ان لم يكن للميت أخوة يحجبونها عما زاد عن السدس ، فإن كان له أخوة أخذت السدس فقط ، والباقي في الحالين للأب ، واختلفت المذاهب في عدد الاخوة الذين يحجبون الأم .. قال المالكية : أقل ما يحجبها اثنان من

الاخوة ، دون الأخوات . وقال الحنفية والشافعية والحنابلة : اثنان من الاخوة أو الأخوات . وقال الامامية : اخوان أو أخ واختان ، أو أربع أخوات ، على شريطة أن يكونوا أخوة أو أخوات للميت من أبيه وأمه ، أو من أبيه فقط ، وان يكونوا منفصلين عند موت المورّث لا حملاً ، وان يكون الأب حياً . وهؤلاء الاخوة يحجبون عن الميراث ، ولا يرثون .

٥ - (من بعد وصية يوصي بها أو دين) . اذا ترك الميت مالاً فيُبدأ قبل كل شيء بما يحتاج اليه من كفنه وجهازه الى قبره ، ثم بوفاء ديونه المالية، حتى الحج والزكاة ، والخمس والنذورات ، ثم بتنفيذ وصيته من ثلث ما يفضل عن تجهيزه ودينه ، ثم بالميراث ، لأنه أشبه باعطاء ما زاد عن الحاجة .

وتسأل : إذا كان الدين مقدماً على الوصية،فلماذا قدمها في الذكر واللفظ ؟

الجواب : ان التقديم في الذكر واللفظ لا يقتضي التقديم في الحكم والتنفيذ ، لأن العطف بـ (أو) لا يفيد الترتيب ، كما ذكرنا في فقرة الاعراب ، وانما يفيد المساواة في أصل الحكم بين المعطوف والمعطوف عليه ، فكأنه قال : من بعدهما..أما التقديم عملاً فيستفاد من دليل آخر،وقد ثبت عن الرسول الأعظم(ص)، وقام الاجماع على أنه لا وصية ولا ميراث إلا بعد وفاء الدين ، بالاضافة الى أحاديث كثيرة ان الميت مرتهن بديونه .

٦ - (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب اليكم نفعاً فريضة من الله ان الله كان عليماً حكيماً) . هذه جملة معترضة،تشير إلى أن تقدير المواريث وأسرارها لا تصاب بالعقول ، وانما يدركها خالق الانسان ، وهو وحده يعلم ما يضره وينفعه .. وهذه الآية تصلح للاستدلال على ان الأحكام الإلهية شرّعت لمصلحة الانسان وسعادته وهنائه ، ومن هنا نستدل على ايمان الانسان بصالح أعماله ، وعلى فسقه وإلحاده بضرره وفساده . (فريضة من الله) الحق ، لا من الانسان الذي تتحكم به الميول والأهواء ، وقد رأينا أكثر الهيئات التشريعية والمجالس البرلمانية تضع القوانين لصالح الأقوياء ، واستغلالهم الضعفاء .

٧ - (ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين) . اتفق المسلمون على

ان كلاً من الزوج والزوجة يشارك في الميراث جميع الورثة ، دون استثناء ، وعلى ان للزوج النصف من تركة الزوجة إذا لم يكن لها ولد منه ولا من غيره، والربع إذا كان لها ولد منه أو من غيره . وسبق في رقم ٥ انه لا ميراث إلا بعد الدين والوصية .

٨ - (ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثُمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) . للزوجة الربع من تركة زوجها إذا لم يكن له ولد منها ولا من غيرها ، والثُمن إذا كان له ولد منها أو من غيرها .

واتفقت المذاهب الأربعة على ان المراد بالولد هنا ولد الميت للصلب ، وولد الابن فقط ، ذكراً كان ، أو أنثى .. أما ولد البنت فإنه لا يمنع أحد الزوجين من نصيبه الأعلى،بل قال الشافعية والمالكية : ان ولد البنت لا يرث ولا يحجب، لأنه من فئة ذوي الأرحام .

وقال الإمامية : المراد بالولد في الآية مطلق الولد ، وولد الولد ، ذكراً كان أو أنثى ، فبنت البنت تماماً كالابن تحجب أحد الزوجين عن نصيبه الأعلى إلى الأدنى .

وإذا تعددت الزوجات فهن شريكات في الربع أو الثُمن ، يقتسمنه بالسوية .

وقالت المذاهب الأربعة : إذا لم يكن للميت وارث إلا الزوج ، أو الزوجة فلا يُرد الباقي لا على الزوج ولا على الزوجة (مغنى ابن قدامة) .

واختلف الإمامية فيما بينهم على ثلاثة أقوال : الأول يُرد الباقي على الزوج ، دون الزوجة ، وهذا هو المعروف بين الفقهاء اليوم ، وعليه عملهم . الثاني الرد على الزوج والزوجة اطلاقاً وفي جميع الحالات . الثالث الرد عليهما في غيبة الإمام العادل ، دون حضوره ، ونحن على هذا الرأي ، واليه ذهب الشيخ الصدوق ، ونجيب الدين بن سعيد ، والعلامة الحلي ، والشهيد الأول ، وذكرنا الدليل على اختيارنا في الجزء السادس من فقه الإمام جعفر الصادق (ع) .

٩ - (وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) . جاء لفظ

الكلالة مرتين في القرآن الكريم : في هذه الآية،وفي آخر آية من سورة النساء ، والمراد بها القرابة غير الوالدين والأولاد .. ويوصف بها الميت الموروث على معنى انه أخ أو أخت للورثة الأحياء ، كما يوصف بها الحي الوارث على معنى ان الوارث أخ أو أخت للميت ، والمعنيان – كما ترى – متلازمان ويتواردان على شيء واحد ، فبأيهما أخذت صح المعنى .

واتفق المفسرون على ان المقصود بالأخ والأخت في الآية التي نفسرها خصوص الأخ والأخت من الأم فقط ، بل قرأ البعض : وله أخ أو أخت من الأم ، أما ميراث الأخ والأخت من الأبوين ، أو من الأب فقط فيأتي حكمه في الآية الأخيرة من هذه السورة .

واتفقت المذاهب على ان للواحد من ولد الأم السدس بالفرض ذكراً كان أو أنثى ، وللأكثر الثلث ذكوراً كانوا أو اناثاً أو هما معاً،ويقتسمون فيما بينهم بالسوية ، للأنثى مثل الذكر .

١٠ – (من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم) . سبق انه لا ميراث إلا بعد وفاء الدين ، وتنفيذ الوصية . وقد نهى سبحانه عن الضرار في الدّين والوصية،والضرار في الدين أن يقر أو يوصي بدين ليس عليه بقصد الإضرار بالورثة ، والإضرار بالوصية أن يتجاوز حد الثلث مما يملك ، وإذا فعل يقف تنفيذ الزائد على اجازة الورثة .. وفي الحديث: انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس . (وصية من الله) . وكل ما أوصى الله به يجب الاذعان له ، والعمل بموجبه .

تلك حدود الله الآية ١٣ – ١٤ :

تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّـــاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَـــا وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ★ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ

وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ★

المعنى :

المعنى واضح ، ويتلخص بأن الله سبحانه بعد أن بيّن سهام المواريث وفق علمه وحكمته وعد المطيع بالثواب ، وتوعد العاصي بالعقاب ، ترغيباً في الطاعة ، وترهيباً عن المعصية . وقال عن أهل الجنة خالدين بالجمع ، وعن أهل النار خالداً بالأفراد ، لأن أهل الجنة يتمتعون بالاجتماع ، أما أهل النار فكلٌ في شغل بنفسه عن غيره .

وتجدر الاشارة الى بعض الأحاديث الواردة في علم الفرائض ــ أي المواريث ــ وفضله ، لأنه يراعي مصلحة الأسرة والمجتمع ، ويضع كل فرد في مرتبته من الميت ، ولا يحرم امرأة ولا صغيراً ، ويفتت الثروات،ولا يدع مجالاً لتضخمها وتكدسها في أيدي قلة ، كما هو الشأن في بعض الأنظمة الغربية الـتي حصرت الميراث بالابن الأكبر .

قال رسول الله (ص) : « تعلموا الفرائض ، وعلموها للناس ، فاني امرؤ مقبوض ، وان العلم ــ أي علم الشريعة الاسلامية ــ سيقبض ، وتظهر الفتن ، حتى يختلف الاثنان في الفريضة ، فلا يجدان من يفصل بينهما .. تعلموا الفرائض فانها من دينكم ، وان علمــه نصف العلم ، وانه أول ما ينتزع من أمتي » . وقوله : أول ما ينتزع من أمتي اشارة الى هذه القوانين الوضعية التي حلت محل الشريعة الاسلامية .

يأتين الفاحشة الآية ١٥ ــ ١٦ :

وَٱللَّاتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ

فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ★ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً ★

اللغة :

تطلق الفاحشة على الزنا واللواط . والتوفي الاستيفاء ، وهو القبض ، تقول : توفيت مالي واستوفيته إذا قبضته ، وعليه فمعنى يتوفاهن يقبضهن الموت .

الإعراب :

اللاتي مبتدأ ، وخبره جملة فاستشهدوا ، وجاز دخول الفاء على الخبر ، لأن اسم الموصول يجري مجرى الشرط . ويتوفاهن فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة .

المعنى :

(واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) . لا يثبت الزنا إلا بإقرار فاعله على نفسه أربع مرات ، سواء أكان رجلاً أم امرأة ، أم بشهادة أربعة عدول من المسلمين ، دون غيرهم ، كما دلت عليه لفظة (منكم) ولا بد أن يشهد كل واحد من الأربعة شهادة صريحة في ولوج الذكر في الفرج تماماً كالميل في المكحلة ، فإن نقص الشهود عن الأربعة ، أو اختلفت شهادتهم، ولم تتوارد على شيء واحد جُلد كل واحد منهم ثمانين جلدة ، وكل من يرمي امرأة أو رجلاً بالزنا ، ولم يأت بأربعة عدول يشهدون على النحو المتقدم – يجلد

ثمانين جلدة .. وان دل هذا على شيء فإنما يدل ان الأولى بالانسان ان لا ينقب عن عيوب النـــاس ، ويكشف أسرارهم ، لأن كشف العيوب يؤدي الى فساد المجتمع ، ويعرض الأسرة الى الضياع والشتات .

(فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتّى يتوفـاهن الموت) . أي اذا ثبت الزنا عـــلى المرأة حُبست في بيتها ، حتّى الموت عقوبة لها (أو يجعل الله لهن سبيلاً) . يشير الى أن الله سبحانه لم يجعل هذه العقوبة حكماً دائماً، بل جعلها لفترة معينة ، ثم يحدث التشريع النهائي ، وهكذا كان ، حيث نسخت هـــذه الآية ، وجُعل الرجم عقوبة الزنا ان حصل من متزوج أو متزوجة ، ومئة جلدة ان حصل من أعزب أو عزبة ، ويأتي التفصيل في سورة النور ان شاء الله .

(واللذان يأتيانها منكم فآذوهما) . اختلف المفسرون في المراد من (اللذان) . والأكثر على أنهما الزاني والزانية ، ويلاحظ على هذا القول انه خلاف الظاهر، لأن (اللذان) للمثنى المذكر ، ولأن الزانية تقدم حكمها ، ولا موجب للتكرار من غير فاصل ، والصحيح ان المراد بهما الرجلان : الفاعل والمفعول ، لظاهر لفظ (اللذان) ولفظ منكم ، أي من رجالكم كما في قوله تعالى (أربعة منكم) . وعقوبة اللواط الايذاء ، ومنـــه التأنيب والتوبيخ ، ونسخت هذه العقوبة ، كما نسخت عقوبة الزانية التي هي السجن المؤبد ، وأصبحت عقوبة كلٍ من الفاعل والمفعول الضرب بالسيف حتّى الموت ، أو الاحراق بالنار ، أو الالقاء من شاهق بعد تكتيف اليدين والرجلين ، أو هدم جدار عليه ، لأنه لا جريمـة أسوأ أثراً من الفعل الشنيع الذي يسلب الانسان انسانيته ، ويقلب حقيقته رأساً على عقب، وقديماً قيل : لو نُكح الأسد في دبره لذل .

(فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) . أي لا تكفوا عن ايذاء هذا المجرم بمجرد قوله : تبت واستغفر الله ما لم تثبت توبته النصوحة بعمله وحسن سلوكه .

يعملون السوء الآية ١٧ – ١٨ :

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ

فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً★ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً★

اللغة :

الجهل والجهالة ضد العلم ، وكل من الكلمتين يصح استعمالها بالسفه والحمق، ومنه قوله تعالى : (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) . وقوله : (اني أعظك أن تكون من الجاهلين) . واتفق المفسرون على ان المراد بالجهالة هنا السفاهة ، لأن معنى الآية لا يستقيم إلا على هذا الأساس . واعتدنا من العتاد ، وهو العدة .

الإعراب :

انما التوبة: الأصل انما قبول التوبة ، لأن على الانسان التوبة، وعلى الله القبول، ثم حذف وأقيم المضاف اليه مقامه ، وهو مبتدأ وما بعده خبر . وبجهالة في موضع الحال ، أي جاهلين . ولا الذين يموتون في محل جر عطفاً على قوله : للذين يعملون السوء .

المعنى :

(انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) . السوء العمل القبيح ، والجهالة السفاهة بترك الهدى إلى الضلال ، والمراد بالتوبة

عن قريب أن يتوب المذنب قبل أن يساق إلى الموت ، لأن الموت آتٍ لا ريب فيه ، وكل آتٍ قريب ، أما قوله : انما التوبة على الله فهو على حذفَ مضاف كما بينا في فقرةٍ الإعراب ، أي قبول التوبة عليه جل وعلا ، والمعنى المحصل ان من أساء ، ثم ندم وأناب يقبل الله انابته ، ويصفح عنه ، حتى كأنه لا ذنب له ، بل ان الله سبحانه يثيبه ثواباً حسناً .

وتسأل: ان ظاهر الآية يدل على انه يجب على الله أن يقبل التوبة من النادمين، مع العلم بأن الله يوجب على غيره ما يشاء ، ولا يوجب أحد عليه شيئاً،إذ ليس كمثله شيء .

الجواب : ليس المراد ان الغير يُوجب على الله أن يقبل التوبة .. تعالى الله .. وانما المراد ان فضله وكرمه يستوجب هذا القبول ، تماماً كما تقول للكريم : ان كرمك يفرض عليك البذل والعطاء ، ومن ذلك قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

(فأولئك يتوب الله عليهم) . ما داموا راغبين رغبة حقيقية في العودة إلى صفوف المؤمنين الأخيار . (وكان الله عليماً حكيماً) عليم بالتوبة النصوحة والزائفة ، حكيم بقبول الأولى من التائب ..

(وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن) . ان الله يقبل من تاب اليه ، على شريطة أن يتوب قبل أن تظهر له امارات الموت ، أما من تاب ، وهو يساق إلى القبر فلا تُقبل توبته ، لأنها توبة العاجز عما يئس من نواله .

وتسأل : وماذا أنت صانع بما روي عن رسول الله (ص) : « من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه ، وان الساعة لكثير ، من تاب ، وقد بلغت الروح هذه – مشيراً الى حلقه – تاب الله عليه ؟.

الجواب: في هذه الرواية نظر ، لامور :

الأول : انها تخالف كتاب الله ، وقد ثبت عن رسول الله (ص) انه قال: « قد كثرت عليّ الكذابة في حياتي ، وستكثر بعد وفاتي ، فمن كذب عليّ

فليتبوأ مقعده من النار ، فإذا أتاكم الحديث عني فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فلا تأخذوا به » . ومن أجل هذا لا نأخذ بحديث قبول التوبة اذا بلغت الروح الحلقوم .. وغير بعيد ان حكام الجور في عهد الأمويين والعباسيين قد أوعزوا الى بعض أذنابهم أن يضع لهم هذا الحديث ، ليحتجوا به أمام المحكومين بأن لهم مندوحة عند الله ، مهما جاروا وأفسدوا .. فلقد كان لكل حاكم منهم حزمة من فقهاء السوء يبررون أعمالهم ، ويكيفون الدين طبقاً لأهواء الشياطين .

الأمر الثاني : ان قبول التوبة عند الموت اغراء بارتكاب الذنب والمعصية .. وهذا من عمل الشيطان ، لا من عمل الرحمن .

الأمر الثالث : ان الله سبحانه انما يقبل العمل من العامل اذا صدر منه عن ارادة وحرية كاملة .. وبديهة ان الانسان انما يكون حراً بالنسبة الى العمل إذا كان قادراً على فعله وتركه معاً ، أما إذا قدر على الفعل دون الترك ، أو على الترك دون الفعل فانه يكون مسيراً لا مخيراً ، ومن هذا الباب التوبة عند الموت، إذ المفروض ان التائب في هذه الحال يعجز عن اقتراف الذنب والمعصية ، تماماً كما يعجز عنها من يقول غداً : « ربنا اكشف عنا العذاب انّا مؤمنون ــ ١٢ الدخان » . فان قبل الله التوبة ممن يُساق الى القبر فينبغي ان يقبلها ممن يُعذب في النار .. والفرق تحكم . ولذا سوّى الله بينهما ، وعطف أحدهما على الآخر ، حيث قال : (ولا الذين يموتون وهم كفار) أي ان الله سبحانه لا يقبل التوبة أيضاً من الذين يموتون على الكفر ، ولا يندمون إلا حين يرون العذاب يوم القيامة ، بل لا يقبلها منهم ، وهم في طريقهم الى هذا اليوم ، كما دلت الآية ١٠٠ من سورة المؤمنين : « حتّى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » .

أجل ، يجوز في نظر العقل أن يعفو جل وعز ويصفح عن المذنبين ، وان لم يتوبوا تفضلاً منه وكرماً .. ولكن هذا شيء ، وقبول التوبة عند الموت شيء آخر .

التوبة والفطرة :

التوبة فرع عن وجود الذنب ، لأنها طلب للصفح عنه .. ولا يخلو الانسان من ذنبٍ ما كبيراً كان أو صغيراً إلا من عصم الله ، وقد نسب الى الرسول الأعظم (ص) قوله :

ان تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألمّا

وقد أوجب سبحانه التوبة على من أذنب ، تماماً كما أوجب الصوم والصلاة، ومن الآيات الدالة على وجوبها هذه الآية : « انما التوبة على الله للذين يعملون». وقوله: « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً – ٩ التحريم » . وقوله: « وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً – ٣ هود » . وقوله : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون – ١١ الحجرات » .

والحقيقة ان وجوب التوبة لا يحتاج الى دليل ، لأنه من القضايا التي تحمل دليلها معها ، فكل انسان يدرك بفطرته ان على المسيء أن يعتذر عن اساءته ، ويطلب الصفح ممن أساء اليه ، وقد جرى على ذلك عرف الدول والشعوب، حتى ولو حصل التعدي خطأ ، ومن غير قصد ، فاذا اخترقت طائرة دولة أجواء دولة أخرى ، أو تجاوز زورق من زوارقها المياه الاقليمية ، دون اذن سابق وجب أن تعلن اعتذارها ، والا أدانها العرف والقانون .. اذن ، كل آية أو رواية دلت على وجوب التوبة فهي تقرير وتعبير عن حكم الفطرة ، وليست تأسيساً وتشريعاً جديداً لوجوب التوبة .

وعلى هذا فن أذنب ، ولم يتب فقد أساء مرتين : مرة على فعل الذنب ، ومرة على ترك التوبة ، وأسوأ حالاً ممن ترك التوبة من فسخها ، وعاد الى الذنب بعد أن عاهد الله على الوفاء بالطاعة والامتثال ، قال تعالى : « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام – ٩٥ المائدة » . وفي الحديث : « المقيم على الذنب . وهو مستغفر منه كالمستهزء » .. الله يستهزىء بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون .

ويتحقق الذنب بترك ما أمر الله به،أو فعل ما نهى عنه عن قصد وتصميم.. وبديهة ان أحكام العقل هي أحكام الله بالذات ، لأنه جل وعز يبلغ أحكامه

بوسيلتين: العقل ، ولسان رسله وأنبيائه .. والنتيجة الحتمية لهذا المبدأ انه لا ذنب ولا عقاب بلا بيان ، على حد تعبير الفقهاء المسلمين ، أو بلا نص على حد تعبير أهل القوانين الوضعية .

إذا تمهد هذا تبين معنا ان الانسان انما يكون مذنباً وعاصياً إذا فعل ما نهى الله عنه ، أو ترك ما أمر الله به عن تعمد وعلم ، فإذا فعل أو ترك ناسياً، أو مكرهاً ، أو جاهلاً من غير تقصير وإهمال فلا يعد مذنباً ، وينتفي السبب الموجب للتوبة ، قال : « فمن تاب بعد ظلمه » أي بعد ذنبه ، لأن كل من أقدم على الذنب فقد ظلم نفسه بتعريضها للحساب والعقاب .

أما تحديد التوبة فهي أن يندم المذنب على ما كان منه ، ويطلب من الله العفو والمغفرة ، ولا يعود إلى الذنب ثانية ، فإن عاد بطلت التوبة ، واحتاج إلى استئنافها بعهد أحكم ، وقلب أسلم ، قال الإمام زين العابدين (ع) : « اللهم ان يكن الندم توبة اليك فأنا أول التائبين ، وان يكن الترك لمعصيتك انابة فأنا أول المنيبين ، وان يكن الاستغفار حطة للذنوب فإني لك من المستغفرين » .

والمراد بالاستغفار الاستغفار بالفعل ، لا بالقول ، فيبدأ قبل كل شيء بتأدية حقوق الناس ، ورد ظلاماتهم ، فإذا كان قد اغتصب درهماً من انسان أعاده اليه ، وان كان قد أساء اليه بقول أو فعل طلب منه السماحة .. ثم يقضي ما فاته من الفرائض ، كالحج والصوم والصلاة ، سمع أمير المؤمنين علي (ع) رجلاً يقول : أستغفر الله . فقال الإمام : أتدري ما الاستغفار ؟ انه درجة العليين ، وهو واقع على ستة معان .. وذكرها الإمام ، منها العزم على ترك العودة إلى الذنب ، وتأدية الحقوق إلى المخلوقين ، وقضاء الفرائض ، ومتى توافرت هذه العناصر للتائب كان من الذين عناهم الله بقوله : « واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى – ٨٢ طه » أي استمر على الهداية وهي الإيمان والعمل الصالح ، وفي الحديث : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » . بل يصبح من المحسنين ، قال تعالى : توبوا إلى الله يمتعكم متاعاً حسناً . وقال : ان الله يحب التوابين . وقال الرسول الأعظم (ص) : من رأى انه مسيء فهو محسن .

أما السر لاحسان التائب ، وعظيم منزلته عند الله سبحانه فهو معرفته بنفسه،

ومحاسبتها على كل عيب ونقص ، وجهادها على الكمال والطاعة ، هـذا الجهاد الذي عبّر عنه رسول الله (ص) بالجهاد الأكبر .. وقديماً قال الأنبياء والحكماء: اعرف نفسك . ومرادهم ان يعرف الانسان مـا في نفسه من عيوب ، ويعمل على تطهيرها من كل شائبة .

وقد يقول قائل : ان الانسان نتيجة لعوامل كثيرة : منها أبواه ومدرسته ، ومجتمعه ومناخه ، وما إلى ذلك مما يؤثر في تكوين شخصيته ، ولا حول معه ولا طول ، وعليـه فلا يتصف الانسان بأنه أذنب وأساء ، لأن الـذنب ذنب المجتمع والظروف ، ومتى انتفى الذنب انتفى موضوع التوبة من الأساس ؟.

الجواب : صحيح ان محيط الانسان وظروفه تؤثر به .. ولكن صحيح أيضاً ان ذات الانسان وارادته تؤثر في ظروفه وبيئته ، كما يتأثر هو بها ، لأن لكلٍ من الانسان وظروفه واقعاً ملموساً ، وكل شيء له واقع ملموس لا بد أن يكون له أثر كذلك،وإلا لم يكن شيئاً ، وعلى هذا يستطيع الانسان أن يؤثر في ظروفه، بل يستطيع أن يقلبهـا رأساً على عقب ، إذا كان عبقرياً .. والشاهد الحس والوجدان .

ان شأن الظروف التي يعيشها الانسان أن تبعث في نفسه الميل والرغبة في ثمار الظروف ونتاجها ، وعلى الانسان أن ينظر ويراقب هذه الثمار ، وتلك الرغبة ، فإن كانت متجهـة الى الحسن من الثمار اندفع مع رغبته ، وإلا أوقفهـا وكبح جماحها .. وليس هذا بالأمر العسير .. ولو لم يكن للانسان مع ظروفـه حول وطول لما اتصف بأنه محسن ، وبأنه سيء ، ولبطل العقاب والثواب ، وسقط المدح والذم ، ولما كان لوجود الأديان والأخلاق والشرائع والقوانين وجه ومبرر .

سؤال ثانٍ : قلت : ان التوبة فرع الذنب ، مع العلم بأن الأنبياء والأئمة كانوا يتوبون الى الله ، وهم مبرؤن عن العيوب والذنوب .

الجواب : ان الأنبياء والأئمة مطهرون من الدنس والمعاصي ، مـا في ذلك ريب .. ولكنهم كانوا لمعرفتهم بالله ، وشـدة خوفهم منه يتصورون أنفسهم مذنبين ، فيتوبون من ذنب وهمي لا وجود له .. وهـذا مظهر وأثر من آثار عصمتهم وعلو مكانتهم .. لأن العظيم من لا يرى نفسه عظيماً ، بـل لا يراها

شيئاً مذكوراً في جنب الله ، ويتهمها دائماً بالتقصير في طاعته وعباده ، ومن أجل هذا يسأله العفو ، ويستعين به على حسن العاقبة ، على العكس من « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً – ١٠٥ الكهف » .

وخير ما قرأته في هذا الباب قطعة من مناجاة الإمام زين العابدين (ع) ، يطلب فيها من الله أن يسخر له عبداً من عباده الصالحين مستجاب الدعوة لديه تعالى .. كي يرى هذا العبد سوء حال الإمام من شدة خوفه من الله ، فيتأثر، وتأخذه الرقة على الإمام ، ويتوسل إلى الخالق الجليل ان يرفق بالإمام ، فيسمع الله دعوة هذا العبد الصالح ، وينجو الإمام من غضب الله وسخطه ، ويفوز برضاه ومغفرته ، وهذا ما قاله الإمام بالحرف : « فلعل بعضهم برحمتك يرحمني لسوء موقفي ، وتدركه الرقة عليّ لسوء حالي ، فينالني منه بدعوة هي أسمع لديك من دعائي، أو شفاعة أوكد عندك من شفاعتي تكون بها نجاتي من غضبك، وفوزي برضاك » .

قال الإمام زين العابدين ، وسيد السجادين مخاطباً ربه : (لعل بعضهم أوكد عندك من شفاعتي تكون بدعوته نجاتي) قال هذا يوم لا أحد على وجه الأرض يدانيه في فضيلة واحدة من فضائله الجلى .. وهنا يكمن سر الجلال والعظمة والكمال .

وبعد ، فإن التوبة متشعبة الأطراف ، وتتسع لكتاب مستقل ، وقد نعود إلى الكلام عنها في مناسبة ثانية .

وعاشروهن بالمعروف الآية ١٩ – ٢١ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ

خَيْراً كَثِيراً★ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً★ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً★

اللغة :

العضل التضييق والشدة ، ومنه الداء العضال . والمراد بالفاحشة هنا الزنا . والبهتان الكذب الذي يترك المفترى عليه في دهشة وحيرة ، لانقطاع حجته ضد الكاذب المكابر . والافضاء إلى شيء الوصول اليه بالملامسة ، مأخوذ من الفضاء، وهو السعة ، فكأنّ الزوج حين يباشر زوجته وسعها ووسعته إلى الحد الذي ليس بعده شيء . والميثاق الغليظ العهد المؤكد .

الاعراب :

المصدر المنسبك من أن ترثوا في موضع رفع فاعلاً ليحل ، أي لا يحل لكم ارث النساء . وكرهاً مصدر في موضع الحال ، أي كارهات . ولا تعضلوهن يجوز أن يكون محله النصب عطفاً على ترثوا ، أي لا يحل لكم أن ترثوا ولا ان تعضلوا ، ويجوز أن يكون محله الجزم على النهي . والمصدر المنسبك من أن يأتين في محل نصب على الحال ، أي آتيات بفاحشة . وبهتاناً وإثماً مصدران في موضع الحال ، أي باهتين آثمين عياناً ، ويجوز أن يكونا مفعولاً لأجله .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) . ظاهر الآية

النهي عن معاملة المرأة معاملة البهائم ، وأخذها على سبيل الميراث ، كما كان عليه أهل الجاهلية .. فلقد كانوا يحسبون زوجة الميت من جملة ما يتركه من ميراث ، فإذا مات جاء وليه – على ما يروى – وألقى عليها ثوباً ، وحازها بذلك كما يحوز السلب والغنيمة ، فإن شاء تزوجها،وان شاء زوّجها من غيره ، وقبض المهر ، تماماً كما يبيع السلعة ، ويقبض ثمنها ، وان شاء أمسكها في البيت ، وضيّق عليها ، حتى تفتدي نفسها بما يرضيه .

وقيل : ان ظاهر الآية غير مراد ، وان هناك مضافاً محذوفاً ، تقديره لا يحل لكم أن ترثوا أموال النساء كرهاً ، ومثال الارث كرهاً أن تكون المرأة في ولاية قريب لها ، كالأخ – مثلاً – وهي تملك شيئاً من المال ، فيمنعها أخوها من الزواج طمعاً في ميراثها ، لأنها ان تزوجت ورثها زوجها وأولادها دونه ، فأمر الاسلام باعطاء الحرية للمرأة في الزواج ، ونهى عن منعها منه بصيغة النهي عن ارثها كرهاً ، لأن الارث هو المقصود والغاية ، والمنع عن الزواج وسيلة له .

ونحن لا نرى حرجاً على من يختار التفسير الأول ، أو الثاني ، أو هما معاً، ما دام الاسلام ينهى عن معاملة المرأة معاملة المتروكات ، ويعطي الحرية للمرأة في الزواج واختيار الزوج .

(ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) . كما لا يجوز للزوج أن يملك المرأة كالبهيمة ، أو يمنعها من الزواج ، كذلك لا يحل للزوج أن يسيء الى زوجته بقصد أن تبذل له صداقها ، لتفتدي نفسها منه ، ومن سوء معاملته ، فإذا بذلت ، والحال هذه ، وأخذ منه المال فهو آثم ، إذ لا يحل مال امرىء إلا عن طيب نفس .

أجل ، اذا تبين انها اقترفت فاحشة الزنا جاز له ، والحال هذه ، أن يضيق عليها ويسيء معاملتها ، حتى تعطيه ما يرضيه ، لقوله تعالى : (الا ان يأتين بفاحشة مبينة) . المراد بالفاحشة الزنا ، ومبينة ، أي ثابتة . وقال جماعة : ان الفاحشة تشمل النشوز أيضاً ، ونقل صاحب البحر المحيط المالكي عن مالك ان للزوج أن يعضل زوجته الناشز ، ويأخذ منها جميع ما تملكه . وقال الشيخ محمد عبده : الفاحشة تشمل الزنا والنشوز والسرقة وغيرها من المحرمات .

وفي رأينا ان الزوج لا يحل له ان يعضل زوجته من أجل المال إلا اذا زنت، ويحرم عليه ذلك فيما عدا الزنا ، مهما كان الذنب وقوفاً عند اليقين من المعنى المراد من الآية .. هذا ، الى ان اقتراف الذنوب لا يحلل ولا يبرر أكل أموال المذنبين ، والا اختل النظام ، وعمت الفوضى .. ولمن يحل مال المذنب ؟ ألمذنب مثله ، أم لمعصوم عن الذنب ؟ والأول ماله حلال ، فكيف يستحل مال الغير؟ والثاني أين هو ؟.

ونجدر الاشارة الى أن القاضي لا يجوز له أن يحكم بسقوط مهر الزوجة التي ثبت عليها الزنا ، لأن جواز العضل والأخذ خاص بالزوج بينه وبين ربه .. وبتعبير الفقهاء : للزوج أن يأخذ المهر في مثل هذه الحال ديانة لا قضاء .

من طلب المزيد عوقب بالحرمان :

(فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) . قد يكره الرجل من زوجته بعض صفاتها ، ولا يصبر عليها ، فيطلقها ويتزوج بأخرى ، فإذا هي أسوأ حالاً ، وأقبح أعمالاً ، فيندم حيث لا ينفع الندم .. قال صاحب الأغاني : طلق الفرزدق النوال ، ثم ندم ، وتزوج بعدها امرأة مطلقة ، وكان يسمعها تئن وتحن الى زوجها الأول ، وتعدد وتردد ، فأنشأ يقول :

على زوجها الماضي تنوح وانني على زوجتي الأخرى كذاك أنوح

وقد رأيت أكثر من واحد لا يملك قوت يومه ، ويعيش كلاً على غيره قد تهيأ له عمل يقيم الأود ، ويسد الحاجة ، ويغني عن الغير ، فرفضه تعالياً عنه، وطلباً لما هو أعلى وأسمى ، فابتلاه الله بأسوأ مما كان فيه تأديباً له ، وعقاباً على ترفعه وتعاليه .. فتقطعت نفسه حسرات على ما ذهب وفات .. ولكن حيث لا ينفع الندم ، ومن الأمثال الشائعة في جبل عامل : (من طلبه كله فاته كله).
كما رأيت الكثير من حملة الشهادات العالية قد رضوا بما تيسر، وقنعوا بوظيفة

كاتب ، أو دونها ، وانتظروا الفرص متوكلين على الله سبحانه .. وما مضت الأيام ، حتى ارتفعوا شيئاً فشيئاً إلى أسمى المناصب . وجاء في الحديث : القناعة ملك لا يزول .. وكنز لا يفنى .. والمعنى المقصود ان من يكتفي بما يجد ، ولا يتعالى عليه احتقاراً له ، ورغبة فيما لا يجد فإنه في غنى دائم ، تماماً كمن يملك كنزاً لا يفنى .

(وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) . المعنى واضح ،ويتلخص بقوله تعالى : « وسرحوهن سراحاً جميلاً – ٤٩ الأحزاب » ، والسراح الجميل الطلاق ، مع تأدية جميع ما لها من حق .. وقال بعض المفسرين : اختلف العلماء في تحديد القنطار على عشرة أقوال .. والصحيح انه كناية عن الكثرة .. وقصة المرأة التي اعترضت على عمر بن الخطاب حين أراد أن يحدد المهر ، واعتراضها عليه بهذه الآية – أشهر من أن تذكر .

(أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) . أي تأخذونه باطلاً وظلماً ، كالظلم بالبهتان .

وتسأل : لماذا خص الله النهي عن أخذ مال الزوجة في حال استبدالها بأخرى، مع العلم بأن الأخذ محرّم على كل حال ؟

الجواب : ليس من شك ان الأخذ محرم ، سواء استبدل ، أو لم يستبدل، وقد تكون الحكمة في ذكر الاستبدال بالخصوص ان الزوج ربما توهم ان له أخذ المهر من الأولى ليدفعه للثانية ، لأنها ستقوم مقامها ، فيكون لها كل ما كان لتلك ، ولأن الدفع للاثنتين يثقل كاهله .. فأزال الله سبحانه هذا الوهم بالنص على الاستبدال بالذات .

(وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) . قال بعض المفسرين : المراد بالافضاء هنا عملية الجنس فقط . وقال آخرون : بل والخلوة أيضاً. وقال ثالث يجيد صناعة الكلام : « المراد بالافضاء العواطف والمشاعر ، والوجدانيات والتصورات ، والأسرار والهموم،والتجاوب والذكريات،والاختلاجات واللحظات» إلى آخر الصفات المسطورات .. رحمة الله عليه .. وأحسن ما جاء في كتب التفاسير لمعنى الافضاء ما قاله الشيخ محمد عبده : « هو اشارة إلى أن وجود كل من الزوجين جزء متمم لوجود الآخر ، فكأنّ بعض الحقيقة كان منفصلاً عن بعضها الآخر ، فوصل اليه بهذا الافضاء ، واتحد به » .

والأولى أن نفسر الافضاء بالفضل ، طبقاً لقوله تعالى : « ولا تنسوا الفضل بينكم ـ ٢٣٧ البقرة » ، أي احسان كل من الزوجين للآخر .. فقد ذكّر الله بقوله : « افضى بعضكم » ذكّر الزوج بما كان بينه وبين زوجته من قبل ليكون معها عند الطلاق ، كما كان قبل الطلاق .

الزواج مبادلة روح بروح :

(وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) . حدد الله سبحانه عقد الزواج بألفاظ ذكرها في كتابه العزيز ، وأوجب الوقوف عندها ، والتعبد بها تماماً كألفاظ العبادة ، وأضفى على عقد الزواج من القداسة ما أبعده عن كل العقود ، كعقد البيع والاجارة ، وما اليها ، لأن البيع مبادلة مال بمال ، أما الزواج فبادلة روح بروح ، وعقده عقد رحمة ومودة ، لا عقد تمليك للجسم بدلاً عن المال ، قال الفقهاء: ان عقد الزواج أقرب إلى العبادات منه إلى عقود المعاملات والمعاوضات، ومن أجل هذا يجرونه على اسم الله ، وكتاب الله ، وسنة رسول الله (ص) .. وقال الشيخ محمود شلتوت : « إذا تنبهنا إلى أن كلمة ميثاق لم ترد في القرآن الكريم إلا تعبيراً عما بين الله وعباده من موجبات التوحيد ، والتزام الأحكام ، وعما بين الدولة والدولة من الشؤون العامة الخطيرة علمنا مقدار المكانة التي سما القرآن بعقد الزواج اليها ، وإذا تنبهنا مرة أخرى إلى أن وصف الميثاق «بالغليظ» لم يرد في موضع من مواضعه إلا في عقد الزواج تضاعف لدينا سمو هذه المكانة التي رفع القرآن اليها هذه الرابطة السامية عن كل ما اطلق عليه كلمة ميثاق ».

المحرمات في الزواج الآية ٢٢ ـ ٢٣ :

وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ★ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ

وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً★

اللغة :

الربائب جمع الربيبة ، وهي بنت زوجة الرجل من غيره . والحلائل جمع الحليلة ، أي المحللة من الحلال ، والمراد بها الزوجة .

الإعراب :

الا ما قد سلف (ما) محل نصب على الاستثناء المنقطع ، ولا يجوز أن يكون متصلاً ، لأن الماضي لا يستثنى من المستقبل على سبيل الاتصال ، وضمير انه وكان يعودان على نكاح الآباء ، وساء فعل ماضٍ فاعلها مستتر يعود على ما عاد اليه ضمير (انه) وسبيلاً تمييز . وقال صاحب مجمع البيان: المخصوص بالذم محذوف . والصحيح انه لا حذف في الآية إلا إذا قلنا : ان ساء بمعنى بئس ، وانها أخذت حكمها .. ولا موجب لذلك .

وسبق عند تفسير الآية ٣ فقرة الاعراب ان (ما) تستعمل في الذي يعقل، كما في قوله تعالى : (ما نكح اباؤكم .. وما سلف .. وانكحوا ما طاب لكم .. أو ما ملكت ايمانكم) الى غير ذلك كثير ، كما ان (من) تستعمل في الذي

لا يعقل كقوله تعالى : ومنهم من يمشي على بطنه .. والنحاة محجوجون بالقرآن، ولا عكس.. وغريب ان أكثر المفسرين يؤلون القرآن بقول النحاة ولا يبطلون قول النحاة بالقرآن .

المعنى :

حرّم الله سبحانه الزواج بأصناف من النساء ، والمحرمات منهن على قسمين: محرمات على التأبيد ، أي ان السبب الموجب للتحريم غير قـــابل للزوال كالبنوة والاخوة والعمومة والخؤولة . ومحرمات تحريماً مؤقتاً ، أي ان سبب التحريم قابل للزوال ، مثل كون المرأة زوجة للغير ، أو أختاً للزوجة ، والتفصيل فيما يلي :

١ – (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف). كان الرجل يتزوج امرأة أبيه بعـــد موته إذا لم تكن أماً له ، بل ان اميـة جد أبي سفيان طلق امرأته وزوجها من ابنه ، وهـو حي ، فنهى الاسلام عن ذلك ، وتشدد فيه ، واعتبره فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً .

واتفق الفقهاء والمفسرون على ان التحريم يشمل زوجات الأجداد للأب والأم، وان هذا التحريم يتحقق بمجرد العقد ، سواء أحصل الدخول ، أم لم يحصل ، واختلفوا فيما لو زنى الأب بامرأة : هل تحرم على ابنه ؟ قال الامامية والحنفية والحنابلة : تحرم عليه . وقال الشافعية : لا تحرم . وعن مالك روايتان .

٢ – (حرمت عليكم امهاتكم) . أي نكاح امهاتكم،ومنهن الجدات للأب والأم.

٣ – (وبناتكم) . وان نزلن ؛

٤ – (واخواتكم) . سواء أكنّ للأبوين ، أم لاحدهما . ويحل الزواج بأخت الأخت ، وأخت الأخ إذا لم تكن أختاً . ومثال ذلك أن يكون لك ولد اسمـــه رؤوف ، ولامرأة بنت من غيرك اسمها هند ، فتعقد أنت على أم هند ، ثم تعقد لابنك من غيرها على بنتها هند من غيرك ، فإذا جاءك ولد من أم هنـد كان هذا الولد أخاً للزوجين ، أخاً لرؤوف من أبيه ، ولهند من أمها .

٥ – (وعماتكم) . العمة كل انثى هي أخت لرجل يرجع نسبك اليه بالولادة مباشرة ، أو بالواسطة ، فعمتك أخت لأبيك الذي ولدتَ منه بلا واسطة، وعمة

أبيك أخت لجدك الذي ولدت منه بواسطة واحدة،وعمة جدك أخت لأبـي جدك الذي ولدك بواسطتين .. وهكذا . وأيضاً تحرم عليك عمة أمك ، لأنهـا أخت لأبـي أمك الذي ولدك بواسطة واحدة . وتحل بنت العم والعمـة ، لأنها ليست أختاً لمن ولدتَ منه ، بل هي بنت أخيه ، أو بنت أخته .

٦ - (وخالاتكم) . الخالة كل انثى هي اخت لمن يرجع نسبك اليها بالولادة مباشرة ، أو بالواسطة ، فخالتك أخت لأمك التي ولدتَ منها مباشرة ، وخالة امك اخت لجدتك التي ولدتَ منها بواسطة واحدة . ومثلها خالة أبيك ، والفرق ان هذه اخت للجدة للأب ، وتلك أخت للجدة للأم . وتحل بنت الخال والخالة، لأنها ليست أختاً لمن ولدتَ منه ، بل بنتاً لأخيه أو اخته .

٧ - (وبنات الأخ وبنات الأخت) . وان نزلن .

٨ - (وامهاتكم اللاتي أرضعنكم واخواتـكم من الرضاعة) . اتفقوا قولاً واحداً على العمل بهذا الحديث : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » . وعليه فكل امرأة حرمت من النسب تحرم مثلها من الرضاع ، أمـاً كانت أو أختاً أو بنتاً أو عمة أو خالة أو بنت أخ أو بنت أخت .

واختلفوا في عدد الرضعات التي توجب التحريم . قال الامامية هي خمس عشرة رضعة كاملة ، لا يفصل بينها رضعة من امرأة اخرى ، أو يرضع الطفل من المرأة يوماً وليلة،على أن يكون غذاؤه طوال هذه المدة منحصراً بلبن المرأة فقط.

وقال الشافعية والحنابلة : لا بد من خمس رضعات على الأقل .

وقال الحنفية والمالكية : يحصل التحريم بمجرد حصول الرضاع كثيراً كان أو قليلاً . وهناك شروط أخرى ذكرناها مفصلاً في كتاب الأحوال الشخصية على المذاهب الخمسة .

٩ - (وأمهات نسائكم) . اتفقوا على ان ام الزوجة ، وان علتْ تحرم بمجرد العقد على البنت ، وان لم يحصل الدخول . وشذ من قال : ان العقـد لا يُحرّم الأم ، حتى يدخل بالبنت ، واستدل بالآية نفسها ، حيث جعل لفظ (اللاتي دخلتم بهن) وصفاً لأمهات النساء والربائب .. وأعرض فقهاء المذاهب عن هذا القول ، لأن الوصف يرجع إلى الأقرب ، وللأحاديث الصحيحة عن الرسول الأعظم (ص) . وهذه الأصناف كلها تحرم على التأبيد .

١٠ – (وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم للاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) . اتفقوا على ان بنت الزوجة لا تحرم على العاقد بمجرد وقوع العقد على أمها ، فيجوز له أن يطلق الأم قبل أن يدخل، ثم يعقد على بنتها . وليس معنى قوله : اللاتي في حجوركم ان الربيبة تحل إذا لم تكن في حجر الرجل ، لأن الربيبة تحرم ، وان لم تكن في حجر زوج الأم ، وانما ذكر المحجور لبيان الفرد الغالب ، لا الاحتراز من التي ليس في الحجر .

وقال الحنفية والمالكية : اللمس والنظر بشهوة يوجبان التحريم، تماماً كالدخول.

وقال الإمامية والشافعية والحنابلة : لا تحرم إلا بالدخول ، ولا أثر للمس ولا للنظر ، وان كانا مع الشهوة .

واتفقوا على ان حكم الوطء بشبهة حكم الزواج الصحيح في ما ذكر ، ومعنى وطء الشبهة أن تحصل المقاربة بين رجل وامرأة باعتقاد انهما زوجان شرعيان ، ثم يتبين انهما أجنبيان .

١١ – (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) اتفقوا على ان زوجة الابن وان نزل تحرم على الأب وان علا بمجرد العقد . وقوله من أصلابكم ليخرج ولد التبني ، أما الولد من الرضاعة فحكمه حكم الولد من النسب ، لحديث يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب .

١٢ – (وان تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) . اتفقوا على تحريم الجمع بين الأختين، فإذا فارق الرجل زوجته بموت أو طلاق جاز الزواج بأختها .

وقال الإمامية والشافعية : إذا طلق زوجته رجعياً فلا يجوز له أن يعقد على أختها إلا بعد انقضاء العدة . أما إذا طلقها بائناً فيجوز أن يتزوج الأخت في أثناء العدة ، لأن الطلاق البائن ينهي الزواج ، ويقطع العصمة .

وقالت سائر المذاهب : ليس له ذلك إلا بعد انقضاء العدة ، من غير فرق بين الطلاق الرجعي والبائن .

الجزء الخامس

والمحصنات من النساء الآية ٢٤ ـ ٢٥ :

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ★ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ★

اللغة :

محصنات جمع محصنة بفتح الصاد ، مأخوذ من الحصن ، ويختلف المراد من الحصن باختلاف متعلقه ، فالاسلام حصن ، والحرية حصن ، والزواج حصن ، والعفة حصن ، والآيتان اللتان نفسرهما تحتويان على هذه المعاني الأربعة ، والتفصيل في فقرة المعنى .

والاستمتاع طلب المتعة ، والمراد بها هنا المتعة بالمرأة على الوجه الشرعي . والطول الغنى . وأخدان جمع خدن ، ومعنـاه الصديق . ويُطلق على المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع . والعنت الجهد والشدة .

الإعراب :

والمحصنات عطف على النساء المحرمات المذكورات في الآية السابقـة ، أي وحرمت عليكم المتزوجات . وكتاب الله نصب على المصدر ، أي كتب الله عليكم كتاباً . وأحل لـكم ما وراء ذلـكم (ما) نائب فاعل لأحل . والمصدر المنسبك من أن تبتغوا بدل اشتمال من ما وراء ذلـكم ، لأن تحليل نكاح المرأة يحتاج إلى مال ، ويجوز أن يكون المصدر مفعولاً لأجله لأحل . ومحصنـين حال من واو تبتغوا . وغير مسافحين صفة لمحصنين . وفريضة منصوبة على المصدر،أي فرض الله ذلك فريضة . ومن لم يستطع منكم (منكم) متعلق بمحذوف حال من ضمير لم يستطع . وطولاً مفعول لم يستطع . والمصدر من أن ينكح المحصنات مفعول من أجله ، أي من عجز عن نكاح المحصنات لعدم المال فلينكح الاماء . بعضكم من بعض مبتدأ وخبر . ومثله وان تصبروا خير لـكم ، أي الصبر خير لـكم .

المعنى :

(والمحصنات من النساء إلا ما ملكت ايمانـكم) . سبق في فقرة اللغـة ان الاحصان في هاتين الآيتين قد جاء على أربعة معان : الزواج والعفة والحريـة والإسلام . والمراد بالمحصنات هنا المتزوجات ، لأن الزواج حصن للزوجة،يمنعها من الوقوع فيا لا ينبغي ، وحصن للزوج أيضاً للعلة نفسها ، فلقـد جاء في الحديث : « من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه » . والمراد بما ملكت ايمانـكم ان تصير المرأة ملكاً للرجل ، والمعنى ان المرأة إذا كانت متزوجة حرمت على غير زوجها إلا إذا تملكها مسلم ، فتحل حينئذ لمالكها رغم انها زوجة للغير ، والمسلم يملك المرأة بسببين :

الأول : ان تصير غنيمة له،وذلك أن تقع حرب دينية بين المسلمين والمشركين، فينتصر المسلمون،فيصبح المشركون بنسائهم وأطفالهم وأموالهم غنائم حرب للمسلمين، فإذا غنم المسلم امرأة دون زوجها وقعت الفرقة بين الزوجين باجماع المذاهب ، وان غنم الزوجين معاً لم تقع الفرقة بينهما عند الحنفية والحنابلة ، وتقع عند الإمامية والشافعية والمالكية ، فإذا أراد المسلم الذي حاز المشركة أن ينكحها جاز له ذلك بعد أن تضع حملها ان كانت حاملاً ، وبعد أن تحيض مرة واحدة ان كانت حائلاً ، ومن ذوات الحيض ، وإلا امتنع عنها ٤٥ يوماً ، ثم قاربها ان شاء .

وهذه الأحكام طُبقت في الفتوح الإسلامية الأولى ، وعللها البعض بأنها للردع والزجر عن الشرك ، والترغيب في اعتناق الاسلام .. أما نحن فنقول : انها أحكام تعبدية لا نعرف وجه الحكمة منها ، وكل ما نعرفه ان لها أشباهاً ونظائر في الشرائع ، وان بعضها حلل قتل النساء والأطفال ، أما الاسلام فقد أمر بالرفق في الأسرى والعبيد ، مهما كان دينهم ومذهبهم .

السبب الثاني الذي يملك به المسلم المرأة هو شراء الأمة ، وذلك أن يكون للرجل أمة مملوكة ، وكان قد زوّجها من عبد له أو لغيره ، ثم باعها من آخر ، فهذا البيع يفسخ زواج الأمة من العبد ويبطله عند الامامية،ويحل للمشتري أن يفترش الأمة التي ابتاعها بعد ان تستبرىء بوضع الحمل ، أو بحيضة ، أو بخمسة وأربعين يوماً .

وقال السيد رشيد رضا صاحب تفسير المنار : « ان بعض الصحابة كابن مسعود على هذا الرأي الذي ذهب اليه الامامية – ثم قال صاحب المنار – : ولولا ما اختاره الاستاذ الإمام – يريد ان الشيخ محمد عبده اختار غير مذهب الامامية – لكان قول الامامية أرجح من مذهب جمهور أهل السنة » .

فالسيد رشيد يعترف بأن قول الامامية أرجح من مذهب السنة ، ومع ذلك يرفضه لا لشيء إلا لأن استاذه لم يقل به .. وغريبٌ هذا من أمثال السيد رشيد الذي نعى في تفسيره على التقليد والمقلدين ، حتى أخرجهم من الدين ، لا من العلم فقط (انظر تفسيره للآية ١٦٥ – ١٦٧ من سورة البقرة) .

والخلاصة ان الاسلام أباح للمسلم أن ينكح المتزوجة إذا كانت امة ، وملكها

بالشراء ، أو كانت مشركة ، وغنمها في حرب دينية ، يدافع فيها عن الاسلام، ويدعو اليه .

وتسأل : ان لفظ المحصنات جمع مؤنث ، ومعناه واضح من غير بيان ، فأية فائدة من قوله تعالى : (من النساء) ؟.

الجواب : ان القرآن كثيراً ما يأتي بالقيد للتوضيح والتوكيد ، مثل (وقتلهم الأنبياء بغير حق) . مع العلم بأن قتل الأنبياء لا يكون ولن يكون إلا بالباطل. ثانياً : قد يتوهم متوهم ان المراد بالمحصنات خصوص المسلمات ، فجاء قيد (من النساء) لبيان العموم ، وان عقد الزواج محترم ، سواء أوقع على المسلمة، أم غيرها .

(كتاب الله عليكم) . هذا مجرد توكيد لما سبق من قوله تعالى : حرمت عليكم الخ ، أي ان تحريم الأصناف المذكورة هو حتم مفروض من الله .. فمن خالف فإن الله سبحانه هو الذي يحاكمه ويعاقبه .

(وأحل لكم ما وراء ذلكم) . لما انتهى سبحانه من بيان المحرمات أعطى قاعدة كلية ، وهي ان غير الأصناف المذكورة يحل نكاحهن ، على شريطة أن يحصل الزواج بهن حسب الأصول المقررة في الشريعة ، ومنها أن يدفع الراغب في النكاح للمرأة صداقاً شرعياً ، لا أجرة على البغاء ، وهذا معنى قوله : (ان تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) . فالمراد بالاحصان هنا العفة ، وبالسفاح الزنا ، ولفظ محصنين يغني عن غير مسافحين ، ولكنه جاء للتوكيد ، والاشارة إلى أن لصاحب المال أن ينفق أمواله في الملذات والطيبات غير المحرمة.. لأن الإسلام كما حرم طرائق الكسب غير المشروع ، كالربا والغش والغصب ، فقد حرم انفاق المال في المحرمات ، كالزنا والاعتداء على حرية الآخرين .

واتفق السنة والشيعة على ان قوله تعالى : (وأحل لكم ما وراء ذلكم) يدل على جواز الجمع بين العمة وبنت أخيها،وبين الخالة وبنت أختها .. لأن المعروف من طريقة المشرعين أن يذكروا المحرمات فقط ، لإمكان حصرها، أما المباحات التي لا يبلغها الاحصاء فيشيرون اليها بقولهم : (ما عدا ذلك) . ولكن السنة قالوا : ثبت عن الرسول (ص) انه قال : « لا تنكح المرأة على عمتها ، ولا على خالتها » .

وقال الخوارج : يجوز الجمع بينهما مطلقاً ، رضيت العمة والخالة ، أم أبتا .

واختلف الإمامية فيما بينهم ، فمنهم من قال بمقالة السنة . والأكثرية منهم ذهبوا الى انه اذا تزوج أولاً بنت الأخ ، أو بنت الأخت فله أن يتزوج العمة أو الخالة مطلقاً،وإذا تزوج العمة أو الخالة أولاً فلا يجوز له أن يعقد على بنت الأخ أو بنت الأخت إلا إذا أذنت العمة أو الخالة ، واستدلوا بروايات عن أهل البيت (ع) .

زواج المتعة :

(فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) . الضمير في (به) يعود على ما في قوله تعالى : (وأحل لكم ما وراء ذلكم) وجاء بصيغة المفرد باعتبار لفظ (ما) ، والضمير في (منهن) يعود على (ما) أيضاً ، وجاء بصيغة الجمع باعتبار معناها ، لأن المراد بما وراء ذلكم النسوة اللواتي يحل الزواج بهن، أما الأجور فالمراد بها المهور،والمعنى المحصل باتفاق المفسرين ان من أراد الزواج بامرأة من اللواتي تحل له فعليه أن يؤدي لها المهر حقاً مفروضاً من الله،لا صدقة واحساناً .

وقد كثر الكلام والنقاش حول هذه الآية: هل المراد بها الزواج الدائم فقط، أو زواج المتعة فقط ، أو هما معاً ، وعلى فرض ارادة المتعة ، فهل نسخت هذه الآية ، ونسخ معها زواج المتعة ؟.

وفيما يلي يتضح الجواب عن جميع ما أثير أو يثار من التساؤلات حول زواج المتعة .

جاء في كتب الحديث والفقه والتفسير للسنة والشيعة ان المسلمين اتفقوا قولاً واحداً على ان الإسلام شرّع متعة النساء،وان النبي (ص)أمر بها أصحابه. من ذلك ما جاء في الجزء السابع من صحيح البخاري ، كتاب الترغيب في النكاح ان رسول الله (ص) كان في جيش للمسلمين ، فقال لهم : قد أذن الله لكم أن تستمتعوا ، فاستمتعوا .. وفي رواية ثانية للبخاري : ايما رجل وامرأة توافقا فعشرة ما بينهما ثلاث ليال ، فإن أحبا أن يتزايدا أو يتتاركا تتاركا .

وفي صحيح مسلم ج ٢ باب « نكاح المتعة » ص ٦٢٣ طبعة ١٣٤٨ ﻫ عن جابر بن عبدالله الأنصاري انه قال : استمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر ، وفي الصفحة نفسها حديث آخر عن جابر ، قال فيه : ثم نهانا عمر .. ومثله عن الجزء الثالث من مسند الإمام أحمد بن حنبل .

وقال الرازي في تفسير آية (فما استمتعتم به) : « قال عمران بن الحصين ، وهو من فقهاء الصحابة وفضلائهم : ان الله أنزل في المتعة آية ، وما نسخها بآية أخرى ، وأمرنا رسول الله (ص) بالمتعة ، وما نهانا عنها ، ثم قال رجل برأيه ما شاء .. يريد ان عمر نهى عنها » .

وهذه الروايات ونظائرها موجودة في أكثر صحاح السنة وتفاسيرهم وكتبهم الفقهية ، وعليه يكون النزاع في انه : هل المراد بقوله تعالى(فما استمتعتم به الخ) الزواج الدائم فقط ، أو زواج المتعة فقط ، أو هما معاً ، يكون هذا النزاع عقيماً لا جدوى منه ، لأن النتيجة هي هي لا تختلف في شيء ، سواء أقلنا : ان آية (فما استمتعتم) عامة للمتعة ، أو قلنا : هي مختصة بالزواج الدائم ، إذ المفروض ان رسول الله (ص) قد أمر بزواج المتعة باتفاق المسلمين،وان كل ما أمر الرسول به فإن الله يأمر به أيضاً ، لقوله تعالى : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا – ٧ الحشر » .

أجل ، بعد ان اتفق السنة والشيعة على ان الاسلام شرّع المتعة اختلفوا في نسخها وتحريمها بعد الجواز والتحليل ؟.

قال السنة : حُرمت بعد ان كانت حلالاً .. وقال الشيعة : كانت حلالاً ، ولا تزال الى آخر يوم .. وبديهة ان على السنة أن يثبتوا النسخ والتحريم من الرسول (ص) ، لأنهم يدعون زوال الشيء الثابت بطريق القطع واليقين ، أما الشيعة فلا يكلفون بالاثبات على عدم النسخ ، لأن ما ثبت باليقين لا يزول إلا بيقين مثله – مثلاً – إذا اتفق اثنان على ان فلاناً كان حياً في العام الماضي ، ثم اختلفا في موته الآن فالاثبات على من يدعي الموت ، أما من يقول ببقاء الحياة فهو في فسحة ، ولا يُطلب منه شيء ، لوجوب الحكم بإبقاء ما كان على ما كان ، حتى يثبت العكس .

والسنة يعترفون بأن عليهم عبء الاثبات دون الشيعة ، ولذلك استدلوا على ثبوت النسخ بروايات عن النبي (ص) ، ورد الشيعة هذه الروايات ، وناقشوها متناً وسنداً ، وأثبتوا بالمنطق السليم انها موضوعة على الرسول الأعظم (ص) بأدلة:

« منها » ان السنة أنفسهم يعترفون بأنها مضطربة متناقضة ، قال ابن رشد في الجزء الثاني من البداية ، مسألة نكاح المتعة ما نصه بالحرف : « في بعض الروايات ان النبي (ص) حرم المتعة يوم خيبر ، وفي بعضها يوم الفتح ، وفي بعضها في غزوة تبوك ، وفي بعضها في حجة الوداع ، وفي بعضها في عمرة القضاء ، وفي بعضها عام أوطاس ، وهو اسم مكان في الحجاز ، ومحل غزوة من غزوات الرسول (ص) – ثم قال ابن رشد – : روي عن ابن عباس انه قال : ما كانت المتعة إلا رحمة من الله ، رحم بها أمة محمد (ص) ولولا نهي عمر عنها ما اضطر الى الزنا إلا شقي » .

و « منها » أي من ردود الشيعة على روايات النسخ انها ليست بحجة ، حتى ولو سلمت من التناقض ، لأنها من أخبار الآحاد .. والنسخ انما يثبت بآية قرآنية ، أو بخبر متواتر ، ولا يثبت بالخبر الواحد[1] .

و « منها » ما جاء في صحيح مسلم من ان المسلمين تمتعوا على عهد الرسول ، وعهد أبي بكر ، وهذا ينفي نسخها في عهد الرسول ، وإلا كان الخليفة الأول محللاً لما حرم الله والرسول .. وأصدق شيء في الدلالة على عدم النسخ في عهده (ص) قول عمر بالذات : « متعتان كانتا على عهد رسول الله انا انهى عنها ، واعاقب عليها » . ومهما شككت فلا أشك ولن أشك في ان عمر لو سكت عن هذا النهي لما اختلف اثنان من المسلمين في جواز المتعة وحليتها الى يوم يبعثون .

وتسأل : بعيد جداً أن يقول عمر هذا .. لأنه تحريم لما أحله الله ، ورد على رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى ؟.

الجواب : أجل ، هو أبعد من بعيد ، لأنه كما قلت : رد على الله ورسوله ..

---

[1] الخبر المتواتر هو أن يرويه جماعة بلغوا من الكثرة حداً يمتنع معه عادة اتفاقهم على الكذب . والخبر الواحد لا ينتهي إلى حد التواتر ، سواء أكان راويه واحداً ، أو أكثر .

ولكن المسلمين اتفقوا على ان عمر قال ذلك ، وما رأيت واحداً منهم نفى نسبته اليه .. بل في بعض الروايات ان عمر نهى عن ثلاثة أشياء أمر بها النبي لاشيئين، قال القوشجي في شرح التجريد – وهو من علماء السنة – قال في آخر مبحث الامامة : « ان عمر صعد المنبر ، وقال : ايها الناس ، ثلاث كن على عهد رسول الله ، انا أنهى عنهن ، واحرمهن ، واعاقب عليهن : متعة النساء ، ومتعة الحج ، وحي على خير العمل » ... وروى كل من الطبري والرازي ان علياً قال : لولا ان عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي . ومثله عن تفسير الثعلبي والسيوطي .

سؤال ثانٍ : أليس من الأليق بمكانة عمر أن نحمل قوله هذا على انه رواية عن النبي (ص) ، وليس رأياً من عمر ضد النبي (ص) ؟.

الجواب : أجل ، ان هذا الحمل أليق وأخلق ، ولكن قوله : « كانتا على عهد رسول الله ، وأنا أنهى عنها » يأبى هذا الحمل ، حيث نسب التحليل الى الرسول ، والتحريم الى نفسه ، ولو كان قوله رواية ، لا رأياً لنسب النهي الى الرسول ، لأنه أبلغ في الردع والزجر .

وبالاختصار : لا يمكن الجمع بحال بين القول : ان النبي (ص) نهى عن المتعة بعد أن أمر بها ، وبين قول عمر : كانت المتعة على عهد رسول الله ، وانا أنهى عنها .. وقد ثبت ان عمر قال هذا فيلزم من ذلك حتماً ان النبي لم ينه عن المتعة .. هذا بعض ما يرد من الطعون بروايات النسخ المنسوبة الى النبي .. ومن أراد التفصيل فليرجع الى تفسير آلاء الرحمن للشيخ محمد جواد البلاغي ، والبيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي ، ونقض الوشيعة للسيد محسن الأمين ، والجزء الثالث من كتاب دلائل الصدق للشيخ محمد حسن المظفر .

وتجدر الاشارة إلى أنه لا فرق بين الزواج الدائم ، وزواج المتعة في ان كلاً منها لا يتم إلا بعقد ومهر ، وفي نشر الحرمة من حيث المصاهرة ، وفي وجوب التوارث والانفاق وسائر الحقوق المادية والأدبية بين أولاد المتعة وأولاد الزواج الدائم ، وفي وجوب العدة على الممتع بها .. وفي الجزء الخامس من كتابنا فقه الإمام جعفر الصادق (ع) ذكرنا ١٤ وجهاً يتساوى فيها الزواج الدائم، والزواج المنقطع ، أي المتعة ، و ١٠ أوجه يفترق فيها كل عن الآخر .

(ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) . إذا جرى الزواج على مهر مبين محدد في متن العقد يصبح حقاً لازماً للزوجة، تتصرف فيه كيفما تشاء ، ولكن هذا لا يمنع أن يتراضى الزوجان بعد ذلك على ترك المهر كلاً أو بعضاً، أو الزيادة عليه ، كما انه لا مانع أن يتراضيا على نوع النفقة ومقدارها ، أو تركها من الأساس ، أو يتراضيا على الطلاق ، أو على الرجوع بعد الطلاق ، أو بعد انقضاء أمد المتعة ، وما إلى ذلك ضمن الحدود الشرعية .

(ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات) . المراد بالطول هنا المال ، وبالمحصنات الحرائر لمقابلتهن بالاماء المشار اليهن بقوله تعالى : (فمما ملكت ايمانكم) ، لأن الامة تدخل في ملك اليمين ، والمعنى من لم يجد من المال ما يمكّنه من الزواج بحرة فليتزوج امة مؤمنة .

(والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) . المراد بالإيمان الدين ، والمعنى لا ينبغي للمؤمن أن يستنكف عن زواج الامة للونها وعنصرها، لأن الناس جميعاً من آدم ، وآدم من تراب ، والتفاضل عند الله بالتقوى، لا بالاحساب والأنساب، وربّ أمة هي أكرم عند الله من حرة ، لأنها أبر وأتقى .

(فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف) . وأهل الأمة سيدها ومالكها ، والمراد بالأجور المهور (محصنات غير مسافحات) . أي عفيفات غير زانيات بصورة علنية ، كالمومس ، (ولا متخذات اخدان) أي ولا بصورة سرية ، كالتي تختص بصديق في الخفاء .

(فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب). المراد من الاحصان في (احصن) الزواج ، وفي (المحصنات) الحرائر، والمعنى ان الأمة إذا زنت فعليها من العقاب نصف ما على الحرة ، وهذا العقاب هو ما بيّنه سبحانه بقوله : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منها مئة جلدة ـ ٢ النور » .

(ذلك لمن خشي العنت) . ان الله سبحانه لا يريد أن يشق على عباده ، ولا أن يقعوا في الفتنة ، فمن مالت نفسه إلى المرأة فليتزوج حرة ، فإن لم يجد

المال تزوج بأمة مؤمنة ، وان استطاع الصبر عن زواجها ، وكان آمناً على دينه وصحته فالصبر خير وأفضل (وأن تصبروا خير لكم) .

وهذه الآية على طولها تعرضت لحكم زواج الحر بأمة ، ولعقوبتها إذا زنت، وأوجزنا في التفسير ، لأن الحديث عن الاماء وأحكامهن أصبح بلا جدوى بعد الغاء الرق .

وغريبة الغرائب ان أول دولة سبقت إلى الدعوة لإلغاء الرق تعامل الملونين في بلدها معاملة الحيوانات ، وتناصر الحكومات العنصرية في كل مكان ، وتضع مخططات جهنمية تهدد العالم بأسره ، ومستقبل الانسانية ، وأصدق الدلائل على هذه الحقيقة مشاركتها في خلق اسرائيل،ومساندتها في الاعتداء على البلاد العربية، وطرد المواطنين من بلادهم ، لا لشيء إلا لتخضع العرب لنفوذها وسياستها .. أما حشدها الجيوش بمئات الألوف في فييتنام ، وتفننها في التقتيل والتخريب فلا يعرف التاريخ له مثيلاً .. وأعتقد انه لا وسيلة للخلاص من شرور هذه الدولة إلا أن يرفض كل انسان في الشرق والغرب كل ما ينتمي اليها ، ويحمل أثراً من آثارها .

يريد الله ليبين لكم الآية ٢٦ — ٢٨ :

يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ★ وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ★ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ★

اللغة :

السنن المناهج .

الإعراب :

ليبين اللام قائمة مقام ان ، يقال : أردت لتذهب ، أي ان تذهب ، ومنه قوله تعالى : (يريدون ليطفئوا نور الله) أي ان يطفئوا . وتسبك ان او اللام التي في معناها مع الفعل بمصدر مفعولاً لبريد الله ، أي يريد الله التبيين لكم . ومفعول يبين محذوف ، تقديره هذه التكاليف من حلاله وحرامه . وضعيفاً حال من الإنسان .

المعنى :

(يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم) . بعد أن بيّن سبحانه في الآيات السابقة الأصناف المحرمة من النساء نسباً وصهراً ورضاعة ، وبيّن أيضاً ما يحل منهن بقوله : (وأحل لكم ما وراء ذلكم) بعد هذا قال عز من قائل : شرعنا لكم تلك الأحكام ، وبيّناها لكم ، كي تستغنوا بحلاله عن حرامه ، وبطاعته عن معصيته ، وتتبعوا في اجتناب المحرمات سبيل من سبقكم الى الهداية والايمان ، وأيضاً لكي يعرف التائب المنيب ما شرّع الله من الأحكام ، فيتقرب اليه بفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ..

وقيل : ان الله سبحانه أراد بقوله : (ويتوب عليكم) انه تعالى شرّع تلك الأحكام لتعملوا بها تائبين مما سلف منكم في زمن الجاهلية وأول الاسلام من نكاح حلائل الآباء ، والجمع بين الاختين ، وما الى ذلك من المحرمات ، ومهما يكن فان التائب وغير التائب لا يمكنه أن يطيع الله ، ويمتثل أحكامه إلا بعد بيانها والعلم بها ، فبيان أحكامه لعباده فضل منه ونعمة عليهم ، لأنه لا يأمر إلا بما فيه الخير والمصلحة ، ولا ينهى إلا عما فيه الشر والمفسدة ، وليس من الضروري أن يبيّن لنا سبحانه وجه الحكمة من أمره ونهيه ، ولسنا نحن مكلفين بمعرفته والبحث عنه ، وما علينا إلا التسليم والطاعة مؤمنين بأن أحكامه تعالى هي لخيرنا دنيا وآخرة .

(والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً

عظيماً) . الذين يتبعون الشهوات هم دعاة التحرر من القيود الدينية والأخلاقية، والانطلاق مع غريزة الجنس انّى توجهت ، وهؤلاء موجودون في كل عصر من عهد مزدك الى آخر يوم ، وان اختلفوا في شيء فانما يختلفون في الاسلوب تبعاً لعصورهم ، وقد تفننوا في القرن العشرين باسم الحرية والتطور ، وتجاوزوا الحد في اثارة الجنس عن طريق الأفلام والروايات ، والأعضاء العارية والحركات .. وهذا هو الميل والانحراف العظيم الذي أشار اليه سبحانه بقوله : (أن تميلوا ميلاً عظيماً) .

وتسأل : لقد كرر الله سبحانه التوبة في آيتين لا فاصل بينهما ، حيث قال: « ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم » . فما هو القصد من ذلك ؟.

الجواب : جاءت التوبة الأولى تعليلاً لبيان الحلال والحرام من النساء بصرف النظر عن أمر الله بالتوبة وإرادته لها .. أما التوبة الثانية فهي تعبير عن أمره تعالى وارادته التوبة بترك المحرمات ، وتقابلها ارادة متبعي الشهوات .. ونظير ذلك ان تقول لولدك ، اشتريت لك هذا الكتاب لتقرأه ، فاقرأه .. فذكرت القراءة أولاً لبيان السبب الموجب للقراءة ، وأعدتها ثانية ، لأنك تريدها منه ، وتأمره بها .

(يريد الله أن يخفف عنكم) . في تحليل من أحل لكم من النساء ، بل في غيرها أيضاً ، قال تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر – ١٨٥ البقرة » . « وما جعل عليكم في الدين من حرج – ٧٨ الحج » . وفي الحديث الشريف : (جئتكم بالحنيفية السهلة السمحة) .

(وخلق الانسان ضعيفاً) في مقاومة الدواعي والبواعث الى الطيبات والملذات، بخاصة للذة الجنس ، ومن أجل هذا أحل الله التمتع بالنساء ضمن الحدود التي سبق بيانها .. وفي الأساطير ان ابليس قال لموسى (ع) : ما خلا رجل بامرأة الا كنت صاحبه ، دون أصحابي .

وما رأيت أحداً صوّر ضعف الانسان في نفسه وجسمه كالإمام علي (ع) حيث قال : « ان سنح له الرجاء أذله الطمع ، وان هاج به الطمع أهلكه

الحرص ، وان ملكه اليأس قتله الأسف .. وان ناله الخوف شغله الحذر ، وان أصابته مصيبة فضحه الجزع، وان عضته الفاقة شغله البلاء » .. وقال : مسكين ابن آدم مكتوم الأجل ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ، تؤلمه البقة ، وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة .

وكما صوّر الإمام جهة الضعف في الإنسان فقد صوّر أيضاً جهة القوة والعظمة فيه ، من ذلك قوله : (الانسان يشارك السبع الشداد) أي ان موهبته لا تقف عند حد الظروف التي تحيط به ، بل يتعداها الى القمر والزهرة والمريخ، وسائر ما في الكون يسخره لحاجاته وأغراضه .. لقد أشار الإمام إلى ضعف الانسان كي لا يركن إلى قوته ويغتر بها ، فيطغى ، وأشار إلى قوته كي لا يستسلم للضعف ان أصابه ، فينصرف عن الجهاد والعمل .. والعاقل من يناضل ، وهو على حذر من المخبآت والمفاجآت .

لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الآية ٢٩ ـ ٣٠ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً★ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً★

الاعراب :

المصدر المنسبك من أن تكون في محل نصب على الاستثناء المنقطع، لأن التجارة عن تراضٍ ليست من جنس أكل المال بالباطل ، والتقدير كون التجارة عن

تراضٍ غير منهي عنها . وقرىء تجارةٌ بالرفع فاعلاً لتكون على انها تامة ، وقرىء بالنصب خبراً لتكون على انها ناقصة ، واسمها ضمير مستتر يعود على الأموال ، أي إلا أن تكون الأموال تجارة . وعن تراضٍ متعلق بمحذوف صفة لتجارة . وعدواناً وظلماً مفعول من أجله ، ويجوز أن يكونا موضع الحال ، أي معتدين وظالمين .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) . سبقت هذه الجملة بحروفها مع تفسيرها في الآية ١٨٨ من سورة البقرة .. ونعطف على ما سبق ما روي عن الإمام جعفر الصادق (ع) : ان من كان عليه دين ، وعنده مال ، فأنفقه في حاجته ، ولم يف به الدّين فقد أكل المال بالباطل ، بل عليه أن يفي به دَينه ، حتى ولو احتاج إلى الصدقة .. أجل ، يجوز له أن يستثني منه مؤونة يوم وليلة .

(إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم) . ولفظة (منكم) اشارة إلى انه لا بد من رضى الطرفين .. ويدل هذا الاستثناء على ان التجارة لا يشترط فيها أن يكون العوضان متساويين ، بحيث يكون كلٌ منهما على قدر الآخر بالقسطاس المستقيم ، لأن ذلك يكاد يكون مستحيلاً ، ومن ثم اذن الله سبحانه لكلٍ من المبتاعين أن يأكل الزائد عن ماله ، ما دام الطرف الآخر أوقع الصفقة برضاه واختياره ، على شريطة عدم الغش والكذب .

وتسأل : اذا أبدى التاجر براعة في الدعاية لسلعته وتزيينها وترويجها ، فهل يكون هذا من باب الغش ، وأكل المال بالباطل ؟.

الجواب : كلا ، ولكن اذا وقع البيع على السلعة بشرط أن تكون على وصف خاص ، ثم تبين العكس كان للمشتري الخيار في أن يفسخ البيع ، ويرجع السلعة لصاحبها ، ويسترد الثمن .

(ولا تقتلوا أنفسكم) . أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، وفيه اشعار بوحدة

الانسانية وتكافلها . وفي الحديث الشريف : « المؤمنون كنفس واحدة » . وقيل معنى (لا تقتلوا أنفسكم) لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بفعل ما نهاكم الله عنه .. وهذا المعنى صحيح في نفسه ، ولكنه خلاف ظاهر الآية .

(ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً) . ذلك اشارة الى قتل النفس ، وأكل المال بالباطل ، والعدوان والتعدّي على الحق ، ومثلـه الظلم ، وجاز العطف مع اتحاد المعنى لاختلاف اللفظ ، كقول الشاعر : « وألفى قولها كذباً وميناً » . ويمكن التفريق بين العدوان والظلم بأن الظلم يكون للنفس وللغير ، أما العدوان فلا يكون إلا على الغير ..

وعلى أية حال ، فان الناسي والخاطىء والمكره لا يتصف فعلهم بظلـم ولا عدوان إلا فعل المكره على القتل فانه يتصف بالظلم والعدوان — مثلاً — اذا قال ظالم قادر لزيد : اقتل هذا ، وإلا قتلتك . فلا يجوز لزيد أن يقتل المظلوم ، حتى ولو تيقن ان الظالم سينفذ وعيده فيه ، إذ لا يجوز للانسان أن يـدفع عن نفسه ضرر القتل بادخاله على الغير ، وإذا نفّذ زيد ارادة الظالم ، وقتل المظلوم قُتل زيد به قصاصاً ، وسجن الظالم الآمر بالقتل ، حتى الموت .

الكبائر الآية ٣١ :

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً★

اللغة :

الكبائر واحدتها كبيرة ، وهي المعصية العظيمة . ومُدخل بضم الميم من أدخل ، وبفتحها من دخل ، وفي الحالين هو اسم مكان : والمراد به الجنة .

الإعراب :

مُدخلاً مفعول فيه لنُدخلكم ، لأن المراد به المكان ، وهو الجنة .

المعنى :

قسم القرآن الكريم الذنوب الى قسمين : كبائر وصغائر ، وقد جاء هذا التقسيم في العديد من الآيات ، منها هذه الآية ، لأن المراد من (سيئاتكم) في قوله تعالى: (نكفر عنكم سيئاتكم)،المراد منها ما عدا الكبائر باتفاق المفسرين، والمعنى :من اجتنب كبائر الذنوب محونا عنه صغائرها .

ومنها قوله تعالى في الآية ٣٢ النجم : « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم » واللمم هي الصغائر .

ومنها قوله سبحانه في الآية ٥٠ الكهف : « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها » .

ومنها الآية ٧ الحجرات : « وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان » . وهي صريحة في ان المنهيات أقسام ثلاثة : الكفر ، وهو الجحود والإنكار. والفسوق، وهو اقتراف الكبائر . والعصيان ، وهو الصغائر .

وبهذا يتبين معنا ان قول من قال : كل الذنوب كبائر ، ولا صغائر فيها، لأن معصية الله في شيء كبيرة ، مهما كان ذلك الشيء ، ان هذا القول مخالف لظاهر القرآن . بالإضافة الى ان الشرائع الوضعية تقسم الجريمة الى جنحة وجناية. أجل يمكن نفي الصغائر بوجهٍ سنشير اليه .

ومهما يكن ، فإن الكتاب العزيز لم يضع حداً فاصلاً بين الكبيرة والصغيرة ، ولذا اختلف الفقهاء في معنى الكبيرة ، فذهب جماعة الى أن كل ما جاء في القرآن مقروناً بذكر الوعيد فهو كبيرة ، وما عداه صغيرة .. وخير الأقوال قول من قال : ان الذنوب جميعاً في نفسها كبائر ، كما قال من نفى الصغائر من الأساس ، وانما تقسم الذنوب الى كبائر وصغائر بمقارنة بعضها الى بعض . مثلاً : النظر الى الأجنبية بريبة ذنب كبير في نفسه،صغير بالنسبة الى القبلة ،

والقبلة صغيرة بالنسبة الى الجنس . وكذا الأكل على مائدة عليها خمر كبير في نفسه ، صغير بالقياس الى شرب الخمر .

وتجدر الإشارة الى ان لذات الفاعل وسوابقه وظروفه ودوافعه تأثيراً بالغاً في جعل الذنب كبيراً أو صغيراً على حد تعبير الفقهاء ، وجناية أو جنحة على حد تعبير المشرعين الجدد .. فعلينا قبل أن نضفي على الذنب صفة الشدة أو الضعف أن ننظر الى الفاعل ، هل فعل ما فعل لعدم فطنته وضعف ارادته، كما لو لبّس عليه غاوٍ أثيم ، أو فعله لحاجة ماسة ، أو لأنه مولع بالإساءة الى الناس ، كما هو شأن الكثيرين .. وقد تواتر عن الرسول (ص) انه قال : « انما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى .. لا صغيرة مع اصرار، ولا كبيرة مع استغفار ».

وعن الإمام الصادق (ع) : « انما خلد أهل النار في النار لأن نيّاتهم كانت في الدنيا أن يعصوا الله أبداً لو خلدوا فيها ، وانما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نيّاتهم أن يطيعوا الله أبداً ، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء » . وبسطنا القول في تأثير النية عند تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران، فقرة لكل امرىء ما نوى.. ومن المفيد أن نذكر خبراً عن الإمام جعفر الصادق (ع) يعدد فيه أنواع الكبائر.. روي ان عمرو بن عبيد دخل على الإمام ، وسأله عن الكبائر في كتاب الله ؟ فقال :

« ان أكبر الكبائر الشرك بالله ، لقوله تعالى : « ان الله لا يغفر أن يشرك به » . وقال : « ومن يشرك بالله فقد حرّم عليه الجنة ومأواه النار » .

وبعده اليأس من روح الله ، لأن الله يقول : « ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

ثم الامن من مكر الله ، لأن الله يقول : « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » .

ومنها عقوق الوالدين ، لأن الله تعالى جعل العاق جباراً شقياً في قوله : « وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً » .

ومنها قتل النفس التي حرّم الله الا بالحق ، لأنه تعالى يقول : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » .

وقذف المحصنات ، لأن الله يقول : « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » .

وأكل مال اليتيم ، لقوله سبحانه : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » .

والفرار من الزحف ، لأن الله يقول : « ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

وأكل الربا ، لقوله سبحانه : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » . ولقوله : « فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله » .

والسحر ، لأن الله يقول : « ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق » .

والزنا ، لأن الله يقول : « ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً » .

واليمين الغموس[1] ، لأن الله يقول : « ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة » .

والغلول[2] ، قال تعالى : « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » .

ومنع الزكاة ، لقوله جل وعز : « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » .

وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة ، لأن الله يقول : « ومن يكتمها فانه آثم قلبه » .

وشرب الخمر ، لأن الله عدل بها عبادة الأوثان .

وترك الصلاة متعمداً ، أو شيئاً مما فرض الله ، لأن رسول الله (ص) يقول: « من ترك الصلاة متعمداً فقد بريء من ذمة الله، وذمة رسوله، ونقض العهد » .

وقطيعة الرحم ، لأن الله يقول : « اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

---

١ اليمين الغموس هي الكاذبة التي تغمس صاحبها في النار .

٢ الغلول ذو الحقد والغش .

فخرج عمرو بن عبيد ، وله صراخ من بكائه ، وهو يقول : هلك من قال برأيه ، ونازعكم في الفضل والعلم يا أهل البيت .

واسألوا الله من فضله الآية ٣٢ – ٣٣ :

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً★ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً★

اللغة :

موالي جمع مولى ، ولفظه مشترك بين معانٍ كثيرة ، منها السيد الذي اعتق عبده ، ومنها العبد الذي اعتقه مولاه ، ومنها الوارث ، وهذا المعنى هو المراد في الآية . وأيمانكم بفتح الهمزة جمع يمين ، بمعنى القسم ، أو بمعنى اليد ، لأنها تعطى عادة عند العهد والعقد ، حيث تكون المصافحة باليدين عند التعاقد والتعاهد .

الإعراب :

للرجال نصيب مبتدأ وخبر . ومما اكتسبوا (مما) متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف ، كأنَّ سائلاً يسأل : ما هو هذا النصيب فقيل : هو مما اكتسبوا ،

على أن تكون من في (مما) للبيان لا للتبعيض ، ان هـذا النصيب هو كل مـا اكتسبوه لا بعضه . وموالي مفعول أول لجعلنا . ولكل متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً ، والتقدير جعلنا موالي وارثين لكل مال[1] تركه الوالدان والأقربون ، وعلى هذا تكون من في (مما) للبيان ، لا للتبعيض ، كأنّ قائلاً يقول : ما هو المال الذي ترثه الموالي ، فقيل : هو كل ما تركه الوالدان والأقربون . والذين عقدت ايمانكم (الذين) مبتدأ ، وخبره فآتوهم نصيبهم ، وجاز دخول الفاء على الخبر لأن اسم الموصول فيه رائحة الشرط .

المعنى :

(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) . ظاهر النهي ان الانسان لا يجوز له أن يتمنى لنفسه ما يستحسنه عند غيره من النعمة والفضل ، سواء أتمنى مع ذلك زوال النعمة عن الغـير ، وهو الحسد المذموم ، أم لم يفكر في ذلك اطلاقاً ، بل تمنى أن يكون له مثل ما لغيره ، وهذه هي الغبطة .

ولكن ظاهر الآية عـلى اطلاقه غير مراد ، لأن الغبطة لا بأس بها ، ولا ضرر منها،أما الحسد فحرم اذا بغى صاحبه على المحسود ، أو تضمن الاعتراض على الله وحكمته ، قال الرسول الأعظم (ص) : « اذا حسدت فلا تبغِ » أي إذا شعرت من نفسك الرغبـة في زوال النعمة عن غيرك فتمالك واكبت هـذا الشعور ، وجاهـده كي لا يظهر له أثر الى الخارج في قول أو فعل .. فان تمالكت فأنت غير مسؤول أمام الله ، وان اندفعت وراء شعورك تـدس وتفتري على صاحب النعمة فانك معتدٍ أثيم .

وعلى هذه الحال وحدها يحمل النهي في الآية ، لأن قول الرسول (ص) : « اذا حسدت فلا تبغِ » بيان وتفسير لها ، واذا جاز للانسان أن يتمنى لنفسه مثل ما لغيره من دون بغي فبالأولى أن يجوز له أن يتمنى ما يشاء من الخير ،

---

١ لو قدرنا لكل انسان كما فعل غيرنا لكانت الموالي من جملة متروكات الانسان ، ولا يستقيم المعنى إلا بتقدير محذوف ، أما إذا قدرنا لكل مال كما فعلنا نحن فيستقيم المعنى من غير حذف .

دون أن ينظر الى ما فضل الله به غيره عليه .. قال تعالى في معرض المدح : « ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار – ٢٠١ البقرة » .

(للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) . في تفسير مجمع البيان : « جاءت وافدة النساء الى رسول الله (ص) فقالت : يا رسول الله أليس الله رب الرجال والنساء وأنت رسول الله اليهم جميعاً ؟ فما بالنا يذكر الله الرجال ، ولا يذكرنا ؟ نخشى أن لا يكون فينا خير ، ولا لله فينا حاجة . فنزلت هذه الآية . »

والمعنى الظاهر منها ان لكل انسان نتيجة عمله ، فلا ينبغي له ان يشغل نفسه بالحسد المذموم،لأنه يعود على صاحبه بالوبال دنيا وآخرة ، قال الإمام علي (ع) : لا تحاسدوا ، فـان الحسد يأكل الإيمان ، كما تأكل النار الحطب » وقال : « صحة الجسد من قلة الحسد » . وذكر الله سبحانه النساء للتنبيه على ان الرجل والمرأة سواء في ان لكلٍ منهما ما سعى : « اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض – ١٩٥ آل عمران .

يدعو الله ويعمى عن سبيله :

(واسألوا الله من فضله) . فإن خزائنه لا تنفد ، ونعمه لا تحصى ، قال الإمام زين العابدين (ع) في بعض مناجاته : « علمتُ – يا إلهي – ان كثير ما أسألك يسير في وُجدِك ، وان خطير ما أستوهبك حقير في وسعك ، وان كرمك لا يضيق عن سؤال أحد ، وان يدك في عطاياك أعلى من كل يد » . وفي الحديث : « سلوا الله من فضله ، فالله يحب أن يسأل » .

وتقول : ان الأمر بالسؤال يستدعي الاجابة ، مع العلم بأن كل الناس ، أو جلهم يسألون ويلحون في السؤال والدعاء ، ولا يستجيب الله لهم ؟

الجواب : ان الله سبحانه كما أمر بالدعاء فقد أمر أيضاً بالسعي والجد ، وقال : « وان ليس للانسان الا ما سعى – ٤٠ النجم » . ومعنى هذا ان الله سبحانه ضمن اجابة الداعي عن طريق السعي والعمل ، ولم يضمن الإجابة عن

كل ما يمر بخاطر الإنسان بمجرد ان يطلب ويسأل .. كيف ؟ ولو فعل لخرب الكون .. ثم هل الله جل وعز آمر ، أو مأمور ؟ وماذا يفعل اذا تلقى دعوتين متناقضتين في آن واحد ؟ وما قولك بمن يدعو الله ، ويعمى عن سبيله ؟.

وبالتالي،ان أمره تعالى بالسؤال من فضله تعبير ثانٍ عن أمره بالجد والعمل، وان على الإنسان ان يتجه الى كسبه متوكلاً على الله وحده ، ولا ينظر الى كسب الغير ، وما آتاه الله من فضله .. وما من أحد شغل نفسه بغيره الا تنغص عيشه ، وتاه عقله ، وارتبك في جميع أموره .. وقد عرفت ، وأنا طالب في النجف الأشرف زملاء لا ينقصهم الاستعداد والذكاء،وأمضوا في النجف سنوات طوالاً ، ومع ذلك كانوا من الفاشلين ، لا لشيء الا لأنهم اشتغلوا بالناس عن أنفسهم ودروسهم .. ولله من قال : « من راقب الناس مات غماً » . وتكلمنا مفصلاً عن الدعاء والاجابة في تفسير الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم) . المراد بالموالي هنا الورثة ، وقد ذكر الله منهم في هذه الآية ثلاثة أصناف : الأول الوالدان ، ويشملان الأجداد والجدات . الثاني الأقربون ، ويشملون الأولاد والأخوة والأعمام والأخوال . الثالث الذي جرى بينهم وبين المورّث عقد خاص أو عام يترتب عليه الإرث ، والعقد الخاص، كعقد الزواج وعقد الملك ، وعقد ضمان الجريرة ، والعقد العام هو الإسلام ، وكل هؤلاء يدخلون في قوله تعالى : « والذين عقدت ايمانكم » .

وعقد الزواج معروف ، أما عقد الملك فهو أن يملك الحر عبداً ، ثم يعتقه تقرباً الى الله ، لا لقاء شيء ، أو كفارة عن شيء ، فإذا مات هذا العبد المعتَق ، ولا وارث له ورثه الذي كان قد أعتقه . أما عقد ضمان الجريرة ، أي الجناية فهو أن يتفق اثنان على أن يضمن كلٌّ منهما جناية الآخر، أو يضمن أحدهما ما يجنيه الآخر ، دون العكس ، فإذا تم الاتفاق بينهما حسب الشروط المقررة في كتب الفقه كان على الضامن بدل الجناية ، وله لقاء ذلك ميراث المضمون اذا لم يكن له من وارث الا الضامن ، أما عقد الإسلام فالمراد به العهد العام بين النبي (ص) ومن آمن به ، فإذا مات المسلم ، ولا وارث له اطلاقاً

فبراثه للنبي (ص) أو لمن يقوم مقامه ، فقد روي عن رسول الله انـه قال : « أنا وارث من لا وارث له » . وفي رواية ثانية : « أنا ولي من لا ولي له » . وفي ثالثة : « أنا مولى من لا مولى له ، أرث ماله ، وأفك عنه » .. وكفى دليلاً على ذلك قوله تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم – ٦ الأحزاب » .

وفي كتاب وسائل الشيعة العديد من الروايات ان علياً أمير المؤمنين (ع) كان يقول : « اذا مات الرجل ، وترك مالاً ، ولا وارث له اعطوا المال أهـل بلده » . ولا يتنافى هذا مع قول الرسول (ص) ، لأن الرسول قد وهب حقه في هذا الميراث للفقراء من أهل بلد الميت .

وتقدمت الإشارة الى نصيب الأبوين والأخوة والزوجـين في الآية ١٢ وما بعدها من هذه السورة ، وتفصيل أنصبة جميع الورثة في كتب الفقه .

الرجال قوامون على النساء الآية ٣٤ – ٣٥ :

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَموَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً★ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً★

اللغة :

قوامون جمع قوام على وزن فعّال مبالغة قيام ، ومعناه القيام بالأمر، والمراد

به هنا اللذي يقوم بشؤون المرأة ، وهو الزوج ، وقانتات جمع قانتة ، والمراد بها المطيعة ، وحافظات للغيب جمع حافظة ، وهي المرأة التي تحفظ زوجها لدى غيابه فيما يجب حفظه من النفس والمال . والنشوز الارتفاع ونشوز أحد الزوجين ترفعه عن القيام بالحقوق الزوجية . والشقاق الخلاف الذي يجعل كلاً من المختلفين في شق . والحَـكم هو الذي يفصل بين المتخاصمين .

الاعراب :

بما فضل الله الباء للسبب . وما مصدرية ، أي بتفضيل الله ، والمجرور متعلق بقوامين ، وبما أنفقوا معطوف على بما فضل الله . وفالصالحات مبتدأ ، وقانتات خبر ، وحافظات خبر ثان . وبما حفظ الله (ما) مصدرية ، والتقدير بحفظ الله ، والمعنى ان المرأة الصالحة تحفظ غيبة زوجهـا بأمر الله أو كما أمر الله . وبين أصلها ظرف مكان ، ثم استعملت اسماً للوصال والفراق ، مثل: هذا فراق بيني وبينك . وأضيف الشقاق هنا الى بين تجوّزاً ، لأن الشقاق يضاف حقيقة الى الزوجين ، لا الى بينهما ، وأصل الكلام هكذا : وان خفتم شقاقاً بينهما ، مثل مكر الليل ، أصله مكر في الليل .

المعنى :

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) . الرجل والمرأة ركنا الحياة ، ومحال أن تستقيم بأحدهما دون الآخر ، ومعنى هذا ان بين الرجل والمرأة نوعاً من التفـاوت .. ولو تساويا من جميع الجهات لأمكن الاكتفـاء بأحد النوعين ، وكان وجود الآخر وعدمه سواء .. فالدعوة – اذن – الى المساواة بينهما في كل شيء تخالف منطق الحياة .

ورب قائل : ان المرأة وأنصارها يريدون لها المساواة في الحقوق والواجبات، ولا يريدون لها المساواة مع الرجل في كل شيء، حتى الحمل والرضاعة – مثلاً – .

ونجيب ان التفاوت في التكوين العضوي يستدعي حتماً التفاوت في بعض الحقوق

والواجبات ، بل وفي بعض الغرائز النفسية أيضاً ، وعليه فمن يطلب التساوي في جميع الحقوق والواجبات بينهما فقد ابعد ، تماماً كمن يطلب التفاوت في الجميع ، والصواب انهما يشتركان في أكثر الحقوق ، أو الكثير منها ، وأهمهـا المساواة أمام الله والقانون ، وحرية التصرف في المال ، واختيار شريك الحياة . ويفترقان في بعض الحقوق .. وعند تفسير الآية ٢٢٨ من سورة البقـرة ذكرنا ١٤ فرقاً بين الرجل والمرأة في الشريعة الإسلامية . أما الآية التي نفسرها فإنها تفيد :

١ - ان الرجال قوامون على النساء ، والمراد بالرجال هنا خصوص الأزواج ، وبالنساء خصوص الزوجات ، وليس المراد بالقيام على المرأة السلطة المطلقة ، بحيث يكون الزوج رئيساً دكتاتورياً ، والزوجة مرءوسة له ، لا ارادة لهـا معه ولا اختيار ، بل المراد ان له عليها نحواً من الولاية ، وقد حدد الفقهاء هذه الولاية بجعل الطلاق في يد الزوج ، وان تطيعه في الفراش ، ولا تخـرج من بيته الا بإذنه ، وهما فيما عدا ذلك سواء : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » .

٢ - ان الله سبحانه ذكر سببين لهذا النحو من ولاية الزوج على الزوجة ، وأشار الى السبب الأول بقوله : (بما فضل الله بعضهم عـلى بعض) . والى السبب الثاني بقوله : (وبما أنفقوا من أموالهم) . ونبـدأ بالسبب الأول .. فالضمير في (بعضهم) يعود على النساء والرجال معاً ، وذكّر الضمير من باب التغليب ، والمراد ببعض الأولى الرجال ، وببعض الثانية النساء .

وتسأل : لماذا قال تعالى : (بما فضل الله بعضهم على بعض) ولم يقل بما فضلهم عليهن ، مع انه أخصر وأظهر ؟.

الجواب : لو قال : فضلهم عليهن لفُهم منه تفضيل جميـع أفراد الرجال على جميع أفراد النساء ، وهذا غير مقصود ، لأنه بعيد عن الواقع ، فكم من امرأة هي أفضل من ألف رجل ، فجاء لفظ بعض للاشارة الى أن هذا التفضيل انما هو للجنس على الجنس من حيث هو بصرف النظر عن الأفراد .

وقد أبهم سبحانه ، ولم يبين وجه الأفضلية ، حيث قال : (بما فضل الله) وكفى .. وقال المفسرون وغيرهم : ان الرجل أقوى من المرأة في تكوينه العضوي والعقلي ، وأطالوا الكلام والاستدلال ، ومنهم من ألـّف كتباً خاصة في هذا الموضوع .

والذي نشاهده ان الأعمال الجليلة في ميدان العلم والدين والفن والفلسفة والسياسة كلها من الرجال ، لا من النساء ، واذا وجدت امرأة ، لها دور في ذلك فهي من الطرائف والنوادر .. وبديهة ان الشاذ النادر يؤكد القاعدة ، ولا ينفيها .. وفوق هذا شاهدنا المرأة تهتم قبل كل شيء بالتفصيلات والأزياء التي تجسم انوثتها ، وتبرزها عريانة ، وتلونها بكل ما يجذب الرجل ، ويلهب شعوره نحو الجنس اللطيف .. ومن هنا كانت بيوت الأزياء ومبتكرات التفصيل للنساء ، دون الرجال ، ولا تفسير لاهتمام المرأة بانوثتها ، وانصراف الرجل الى جليل الأعمال في ميادين الحياة الا التباين في الغرائز والتكوين النفسي بين الاثنين .

أما السبب الثاني لأفضلية الرجل فقد بينه سبحانه بقوله : (وبما انفقوا من أموالهم) كما أشرنا ، وهو واضح لا ابهام فيه كالسبب الأول ، لأن الذي يتحمل مسؤولية الانفاق على غيره لا بد أن يكون أفضل من الذي لا يُطلب منه شيء ، حتى الانفاق على نفسه .. ان هذا حامل ، وذاك محمول .

وتجدر الاشارة الى ان قوله تعالى : (وبما نفقوا من أموالهم) يشعر بأن الزوج إذا لم ينفق على زوجته لم يكن قواماً عليها ، وكان لها ، والحال هذه ، ان تطلب من الحاكم الشرعي الطلاق ، وعلى الحاكم أن ينذر الزوج ، فان امتنع عن الانفاق لعجزٍ أو عناداً أمره بالطلاق ، فان امتنع طلّقها عنه ، لأن الحاكم ولي الممتنع ، وعلى هذا مالك والشافعي ، وجماعة من علماء الشيعة الامامية، منهم السيد صاحب العروة الوثقى وملحقاتها ، والسيد محسن الحكيم ، ونحن على هذا الرأي .. وعقدنا لهذه المسألة الهامة فصلاً مستقلاً في الجزء السادس من كتاب «فقه الإمام جعفر الصادق» بعنوان: طلاق الحاكم لعدم الانفاق،عرضنا فيه الأقوال والأدلة بنحوٍ من التفصيل .

(فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) . الزوجة الصالحة هي الموافقة لزوجها ، الحافظة لنفسها حسبما أمر الله وأراد ، فلا تعصيه في شيء أباحه الله له،ولا تطيعه في شيء حرمه الله عليه وعليها ، قال رسول الله (ص): « خير النساء التي اذا نظرت اليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، واذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك » .

والحديث عن الزواج لا ينتهي الى حـد ، ولا أحد يعرف السر الكامن في قول من قال: لا أتزوج ولو شنقوني، إلا المتزوجون .. ان بعض الزوجات سرطان يقضي على الأرواح ببطء .. وإذا كان الانسان مخيراً، لا مسيراً فان هذا الانسان هو الأعزب، أما المتزوج فلا ارادة له، ولا اختيار الا من شذ.. وفي بعض الديانات ان الله غداً لا يعاقب بالنار ، ولا يثيب بالجنة ، بل يزوج العاصي عجوزاً فانيـة تؤلمه في خَلقها وخُلقها ، ويزوج المطيع شابة جميلة تسره خَلقاً وخُلقاً .

(واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن) . والمراد بالنشوز في الآية الامتناع عن القيام بحقوق الزوجية .. وقد يكون النشوز من الزوجة فقط ، أو من الزوج ، أو منهما معاً .. وبعد أن أشار سبحانه الى الزوجة الصالحة أشار الى الزوجة الناشزة ، وأباح للزوج اذا تمردت عليه زوجته من غير حق ان يعظها ، فإن هي قبلت ، والا هجرها في الفراش فان هي قبلت وإلا ضربها ضرباً خفيفاً للزجر والتأديب ، لا للتشفي والانتقام .. هذا الى ان الأمر بالوعظ ، ثم بالهجر ، ثم بالضرب هو أمر للاباحـة والترخيص ، لا للوجوب والالزام ، فقد اتفق الفقهاء جميعاً على ان ترك الضرب أولى ، وان الذي يصبر على أذى الزوجة ولا يضربها خير وأفضل عند الله ممن يضربها ، كما اتفقوا على انـه كلما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به ، وحرم الأشد . قال رسول الله (ص) : « لا يضرب أحدكم امرأته كما يضرب البعير أول النهار ثم يضاجعها آخر النهار ... خيركم خيركم لاهله ، وأنا خيركم لأهله» .

ومن الطريف ان الطبري الذي وصفوه بشيخ المفسرين قال في تفسير قولـه تعالى : (واهجروهن في المضاجع) . انه أمرٌ من الله للزوج إذا عصته زوجته ان يربطها بالحبل – كما يربط البعير – في البيت الذي يضاجعها فيه .. والذي حمله على هذا التفسير ان العرب تسمي الحبل الذي يربطون به البعـير هجاراً ، فاذا كان كذلك يكون معنى اهجروهن اربطوهن بالهجار .. وأبلغ رد لهـذا التفسير قول الزمخشري : « وهذا من تفسير الثقلاء » .

(فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً) . من السبل الثـلاث ، لأن الوعظ والهجر والضرب وسيلة الى الطاعة ، فاذا حصلت الغايـة ذهبت الوسيلة . ويشير قوله تعالى : (فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً) الى ان الزوج لا يجوز له

ان يلتمس الأعذار الكاذبة لايذاء الزوجة ، حتى ولو كانت كارهة له ، ما دامت قائمة بحقوقه المشروعة..فان الحب والبغض لا يدخلان في استطاعة الانسان، والله سبحانه لا يحاسب ولا يعاقب إلا على ما يظهر من قول أو فعل .

(ان الله كان علياً كبيراً) . قال الرازي ما يتلخص بأن المقصود من قوله تعالى : (ان الله كان علياً كبيراً) أمور،الأول : تهديد الأزواج على ظلم النساء . الثاني : ان الله لا يكلف إلا بالحق . الثالث : انه سبحانه لا يكلف إلا ما يطاق ، فعلى الأزواج ان لا يكلفوا النساء ما لا يقدرن عليه . الرابع : انه لا يكلف العاصي إذا تاب ، فإذا تابت المرأة عن نشوزها فدعوا معاقبتها . الخامس : انه لم يهتك السرائر ، فأنتم أولى أن تكتفوا بظاهر حال المرأة ، ولا تفتشوا عما في قلبها من البغض .

والرازي من الأشاعرة القائلين بأن لله ان يكلف الانسان ما لا يطيق ، ودافع عن هذا المذهب بحرارة في كثير من الموارد في تفسيره الكبير ، بخاصة عند تفسير قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها – ٢٨٦ البقرة » .. وقد ذهل هنا عن مذهبه التقليدي ، ورجع الى الفطرة الصافية التي فطر الله الناس عليها ، وقال ما نصه بالحرف: « ان الله لا يكلفكم إلا ما تطيقون ، فكذلك لا تكلفوهن محبتكم ، لأنهن لا يقدرن على ذلك » .

(وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) . تعرضت الآية السابقة لنشوز الزوجة ، وتعرضت هذه لنشوز الزوجين ، وامتناع كل منهما عن القيام بحقوق الآخر ، وقوله تعالى : (وان خفتم شقاق بينهما) أراد به الخوف من استمرار الشقاق الحاصل بالفعل . والخطاب في خفتم وابعثوا خاص بالحكام الشرعيين ، لأنه بهم أليق وأنسب ، والأمر ببعث الحكمين للاستحباب ، لا للوجوب ، والغرض منه اصلاح ذات البين ، والمحافظة على الاسرة،والخوف من ضياع الأطفال والصغار .

ويشترط في الحكم ان يكون أهلاً للاصلاح ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، ويجوز أن يكون من غير الأهل والأرحام ، لأن القرابة ليست شرطاً في الحكم ، ولا في الوكيل ، وذكر الأهل في الآية للأفضلية ، لا للالزام ، لأنهم أعرف ببواطن الحال ، وأشفق من الغير ، وأكتم للأسرار ، ومهمة الحكمين ان يسعيا

في الصلح،فإن تعذر رفعا تقريراً للحاكم الشرعي بواقع الحال،وما يريانه من مصلحة الطرفين،ولا حق لهما بالتفريق الا بإذن الزوج،ولا بالبذل عن الزوجة الا بإرادتها .

(ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما) . اختلف المفسرون في ضمير يريدا ، وضمير بينهما على من يعودان ؟ قيل : ان ضمير يريدا يعود الى الحكمين ، وضمير بينهما الى الزوجين ، ويكون المعنى ان أراد الحكمان اصلاحاً بين الزوجين يوفق الله بين الزوجين ، وهذا بعيد عن الصواب أولاً : لأن المفروض بالحكمين انهما يريدان الإصلاح ، والا لم يكونا حكمين . ثانياً : قد يريد الحكمان الإصلاح ، ومع ذلك لا يحصل التوفيق ، مع ان الله قال : ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ، وعليه يجب حصول التوفيق بمجرد وجود ارادة الإصلاح من الحكمين .. والواقع هو العكس .

والصحيح ان الضميرين يعودان الى الزوجين ، ويكون المعنى ان الزوجين اذا صلحت نيتهما ، وكانا قاصدين استمرار الزواج والمحافظة على بقاء الأسرة ، فإن مهمة الحكمين تنجح ، ويوفق الله بين الزوجين لا محالة ، لأنه متى صلحت النية صلحت الحال،واستقامت الأفعال،واذا ساءت نية الزوجين فإن مآل وظيفة الحكمين الى الفشل ، حتى ولو قصدا الإصلاح ، وبذلا كل الجهود وأقصاها .

وتجدر الاشارة الى أن الله سبحانه ذكر نشوز الزوجة ثم نشوز الزوجين معاً، ولم يذكر نشوز الزوج فقط .. ولكن الفقهاء تعرضوا له ، وقالوا : اذا تعدى الزوج ، ومنع الزوجة بعض حقوقها الواجبة وعظته ، فإن قبل ، والا فليس لها هجره ، ولا ضربه كما له هجرها وضربها اذا نشزت ، ليس لها ذلك، حتى ولو علمت ان هجره وضربه يجديانها نفعاً،لأن الهجر والضرب يحتاجان الى الاذن من الشرع ، ولا اذن منه لها بهما .. أجل ، لها أن ترفع أمرها الى الحاكم الشرعي ، وعلى الحاكم أن يتثبت ويتبين ، فإن ثبت لديه تعدي الزوج نهاه ، فإن عاد عزّره بما يرى من الشتم أو الضرب أو السجن .. وان امتنع عن الإنفاق عليها ، مع قدرته عليه جاز للحاكم أن يأخذ من مال الزوج ، وينفق عليها ، ولو ببيع شيء من أملاكه ، وان لم يملك شيئاً كان له – على رأيي – ان يطلقها قهراً عنه ، ان طلبت هي الطلاق .. وسبقت الاشارة الى ذلك عند تفسير قوله تعالى : (وبما أنفقوا من أموالهم) .

وبالوالدين احساناً الآية ٣٦ :

وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً★

اللغة :

ذو القربى صاحب القرابة ، كالأخ والعم ، ومن اليهما . والجار ذو القربى هو الذي قَرُبَ جواره. والجار الجُنُب الذي بَعُدَ جواره . والصاحب بالجنب من كان رفيقاً في السفر ، أو جليساً في الحضر ، أو شريكاً في الدرس ، أو في حرفة ، وما إلى ذلك . وابن السبيل المسافر المنقطع عن أهله وماله . وملك اليمين الرق ، لا وجود له اليوم .

الإعراب :

شيئاً مفعول مطلق ، لأن المراد به هنا شيء من الشرك . واحساناً مفعول مطلق لفعل محذوف ، أي احسنوا بالوالدين احساناً . وبذي القربى وما بعده معطوفان على الوالدين .

المعنى :

(واعبدوا الله) . وما عُبد الله بشيء أفضل من الجهاد والاستشهاد من أجل الحق والحرية والانسانية ، أما طلب العلم والعمل من أجل الحياة ، والتعاون

على ما فيه الخير ، واصلاح ذات البين فأفضل من عامة الصلاة والصيام ، كما جاء في الحديث .

(وتشركوا به شيئاً) . انكار الألوهية من الأساس كفر وجحود . أما الشرك فهو على نوعين : شرك في الألوهية ، كمن يؤمن بأن الخالق والرازق أكثر من واحد . ومن هذا الشرك الاعتقاد بأن لله وزراء وأعواناً ومستشارين . وشرك في الطاعة ، كمن يؤمن بأن الخالق والرازق واحد لا شريك له ولا أعوان له ولا وزراء ولا مستشارين ، ولكنه يعصي الخالق في طاعة المخلوق ، ويؤثر مرضاته على مرضاة الله ، ومن هذا الشرك الرضا عن الحاكم الجائر ، وعن الوزير أو النائب الخائن ، والقاضي الجاهل الفاسق ، وعن كل من تولى شأناً من الشؤون العامة ، وما هو له بكفؤ . وفي الحديث من رضي بفعل قوم فهو شريك لهم .

(وبالوالدين احساناً) . قرن الله سبحانه وجوب التعبد له بوجوب البر بالوالدين في العديد من الآيات ، منها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى : « وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً — ٢٤ الاسراء » . ومنها : « أن اشكر لي ولوالديك الي المصير — ١٤ لقمان » .

ومن دعاء الإمام زين العابدين لوالديه : « يا إلهي أين طول شغلهما بتربيتي ؟ وأين شدة تعبهما في حراستي ؟ وأين إقتارهما على أنفسهما للتوسعة علي ؟ هيهات ما يستوفيان مني حقهما ، ولا أدرك ما يجب علي لهما ، ولا أنا بقاض وظيفة خدمتهما » .

(وبذي القربى) . بعد الأمر بالإحسان للوالدين أمر بالإحسان للأقارب والأرحام ، ثم (اليتامى والمساكين) ولو انهم أبعد مكاناً من الجار ، لأن اليتيم فقد الناصر والمعين ، أعني الأب ، ولأن المسكين لا ينتظم حال المجتمع الا بالعناية به ، والمسكين الذي ينبغي العناية به هو الضعيف العاجز عن الكسب ، أما اعانة القادر على العمل ، ومع ذلك آثر البطالة والكسل ، فتشجيع على الرذيلة ، وفي الحديث : ان الله يحب العبد المحترف .. ويكره العبد البطال . وقال الحواريون لعيسى : من أفضل منا ؟ قال : أفضل منكم من يعمل بيده ، ويأكل من كسبه .

وذكرنا في فقرة « اللغة » معنى (الجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم) . ولا ينحصر الإحسان بإعطاء المال ، بل يشمل الرفق والتواضع والسعي في قضاء الحوائج ، والنصح في المشورة، وكتمان السر ، وغض الطرف عن العورات ، وعدم اشاعة السيئات، واعارة الأدوات ، وما إلى هذه .. وعلى أية حال ، فان الأمر بالاحسان الى هؤلاء ندب لا فرض .

(ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) . هذا تهديد ووعيد لمن يأنف من أقاربه الفقراء ، وجيرانه الضعفاء .

يبخلون ويأمرون الناس بالبخل الآية ٣٧ – ٣٩ :

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ★ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً ★ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً ★

اللغة :

الرئاء المراءاة . والقرين الصاحب .

الإعراب :

الذين يبخلون يجوز أن يكون محـل (الذين) النصب بدلاً مين (مَن) في

قوله تعالى : (لا يحب من كان مختالاً) . ويجوز الرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره ملمومون أو معذبون ، وعلى هذا يكون الكلام مستأنفاً . والذين ينفقون عطف على الذين يبخلون . ورئاء مفعول من أجله لينفقون ، ويجوز أن تكون في موضع الحال ، أي مرائين ، وله متعلق بكلمة قرين الأولى . وساء فعل ماضٍ ، والفاعل مستتر يعود على قرين . وكلمة قرين الثانية تمييز .

المعنى :

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) . بعد أن أمر سبحانه في الآية السابقة بالبذل والاحسان هدد في هذه الآية من يبخل ، ويأمر غيره بالبخل .. وكل بخيل يأمر الناس بالبخل ، بل كل مسيء يود أن يجد له أقراناً وأمثالاً ، لكي تتوزع المسؤولية على الجميع : ويتقي ألسنة القدح واللم .. وبديهة ان كثرة اللصوص لا تبرر اللصوصية،وتجعلها حلالاً ، بل تضاعف من جرمها وجريرتها .

وما رأيت كلاماً تستجيب له النفس كالأمر بالبخل والامساك ، ذلك ان المال عزيز يعادل الروح ، ولا تسخو بشيء منه – في الغالب – إلا بعد جهد جهيد ، والأمر بالامساك يصادف هوى في النفس ، فتستجيب له بيسر وسهولة.. قال الشيخ محمد عبده عند تفسير هذه الآية : ان للآمرين بالبخل شبهة قوية ، وقد أثرت في نفسي ،فكنت أرد الدراهم الى جيبي بعد اخراجها ، لأن المنفرين من الانفاق كانوا يقولون لي : ان هذا غير مستحق ، واعطاؤه اضاعة ، فاذا وضعت المال في مكان آخر يكون خيراً وأولى .

والصحيح ما قلناه : ان الأمر بالبخل إنما يؤثر على المرء حين يجد هوىً في نفسه ، لا لقول المنفرين وشبهتهم ، ومهما يكن ، فان العظيم هو الذي يتغلب على هوى نفسه،ويرغمها على تقبل الشاق العسير ، ان كان فيه خيرها وصلاحها. قال الإمام علي (ع) : أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه . وفي الحديث : أفضل الأعمال أحزها ، أي أشقها .

(ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) . وفضل الله سبحانه يشمل كل نعمة، ومنها المال والعلم . وكتمان العلم محرم ، ونشره واجب ، ولكن بأسلوب يبشر ولا ينفر ، ويقرب ولا يبعد ، لأن العلم وسيلة ، والعمل هو الغاية .

وقال بعض العلماء : ان الغني اذا كتم غناه ، وتفاقر أمام الناس فقد فعل محرماً ، واستدل بهذه الآية ، وبقوله تعالى : « واما بنعمة ربك فحدث ـ ١١ الضحى » . وفي الحديث : اذا أنعم الله على عبد نعمة أحب ان يرى أثر نعمته عليه .

(وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا) سياق الآية يدل على ان المراد بالكافرين هنا الذين كتموا فضل الله ونعمته ، وعن الإمام موسى بن جعفر الصادق (ع) انه قال : التحدث بنعم الله شكر ، وترك ذلك كفر . وفي الآية ٧ من سورة ابراهيم : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد » . وعلى هذا يحمل الكفر في الآية على كفران النعم ، لا على الكفر بمعنى جحود الالوهية .

(والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر) . سبقت هذه الآية مع تفسيرها في سورة البقرة، الآية ٢٦٤ . ويتلخص المعنى بأن الذي ينفق ماله رياء ، والذي يبخل به سواء عند الله ، وربما كان المرائي أسوأ حالاً ، لأنه أشبه بالكافر الذي لا يعمل لله .

قرين الشيطان :

كل ما يزين فعل الغواية ، ويُغري بالفساد والضلال فلك ان تسميه شيطاناً، خاطراً كان ، أو انساناً ، أو أي شيء، فلفظ الشيطان رمز لكل غوي مضل ، يُخفي حقيقته في أثواب الصالحين ، ومن أجل هذا نرى كثيراً من الناس يقولون ويفعلون بوحي من الشيطان وغوايته ، وهم يحسبون انه وحي من الله وهدايته.. وأقرب المقربين لدى الشيطان من وثق الناس بقداسته، ولم يعرفوا شيئاً عن حقيقته، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : (ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) . وبقوله: (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ـ ١٢٠ النساء) .

وكما ان الشيطان قرين له في الدنيا فهو قرين له في الآخرة أيضاً، فقد جاء في الحديث : الإنسان مع من أحب . وقال الإمام علي (ع) : « فكيف اذا كان بين طابقين من نار : ضجيع حجر ، وقرين شيطان » .

والشيطان يقسّم أتباعه الى أقسام ، ويوكل الى كل مهمة تناسبه، تماماً كقائد الجيش ، فنهم من يغريه بإراقة الدماء ، والتعدي على الشعوب الآمنة ، كالدول التي أوجدت اسرائيل ، وأمدتها بالمال والسلاح للاعتداء على العرب وبلاد العرب، لا لشيء الا لتخضعهم للاستعمار سياسياً واقتصادياً . وقسم يغريهم بالفسق والفجور والتهتك والتبرج . وقسم يأمرهم بالصلاة والصيام ، وارتداء ثوب الصالحين والزاهدين ، ليصطاد بهم البسطاء والأبرياء .

واذا استعصى عليه المتقون ، وأعيته فيهم الحيل رضي منهم ولو بكلمة حق يقولونها تلبية لطلبه ، روي ان ابليس قال لعيسى ابن مريم (ع) : قل : لا إلّه الا الله . قال له عيسى : أقولها ، لا لقولك ، بل لأنها حق . فرجع اللعين خاسئاً .. وترمز هذه الحكاية الى ان الإيمان لا يكون بالتهليل والتكبير ، ولا بالصيام والصلاة ، فإن هذه قد تكون من مصائد الشيطان ومكائده ، وانما الإيمان الحق يقاس بالعلم بالله وأحكامه ، ومعرفة مداخل الشيطان التي تفسد على المؤمن اخلاصه وأعماله .

(وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) . لقد ربط سبحانه بين الإيمان به وباليوم الآخر ، وبين الإنفاق ، لأنه نفى الإيمان عن البخيل الممسك ، ومعنى هذا ان الإنفاق دليل الإيمان ، والإمساك دليل الكفر ، والوجه في ذلك ان المؤمن المتوكل على الله حقاً ينفق ، وهو واثق بالخلف ، ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية، كما قال الإمام علي أمير المؤمنين (ع)، أما ضعيف الإيمان فيستمع الى شيطانه الذي يأمره بالإمساك ، ويوعده الفقر، ان هو أنفق . ومهما يكن، فإن المراد بالإيمان هنا ايمان الطاعة والعمل، لا ايمان العقيدة فقط ، والمراد بالكفر كفر الطاعة والعمل، لا الجحود ، وانكار الألوهية .

ومن أقوال الإمام علي (ع) في البخيل : « عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب ، ويفوته الغنى الذي اياه طلب ، يعيش في الدنيا عيش الفقراء،

ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء » . ومعنى قوله : الغني يستعجل الفقر،انه أسوأ حالاً من الفقير ، لأن الغني ما يزال خائفاً من زوال غناه ، أما الفقير فلا يزال راجياً لزوال فقره .

ان الله لا يظلم مثقال ذرة الآية ٤٠ ـ ٤٢ :

إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجراً عَظِيماً ★ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هُؤُلاَءِ شَهِيداً ★ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ★

اللغة :

المثقال أصله المقدار الذي له ثقل ، وان قلّ . والذرة ما يوجد من الأجسام، وهي هنا تمثيل للقليل ، وفي آية ثانية تمثيل للقليل بحبة الخردل .

الإعراب :

مفعول لا يظلم محذوف تقديره لا يظلم أحداً، ومثقال ذرة صفة لمفعول مطلق محذوف ، تقديره ظلماً مثقال ذرة . وتلك ناقصة ، وضميرها مستتر يعود على مثقال ذرة ، وحسنة خبرها ، وأصل،تك،تكون بضم النون ، فحذفت الضمة للجزم ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين عليها وعلى النون ، فصارت تكن ، ثم حذفت النون للتخفيف ، وقد وردت في القرآن بحذف النون كهذه الآية ،

وبإثباتها كقوله تعالى : ان يكن غنياً أو فقيراً . فكيف للانكــار ، وموضعها الرفع خبراً لمبتدأ محذوف ، تقديره فكيف حال هؤلاء . ومن كل أمـة متعلق بمحذوف حال من شهيد . وشهيداً حال من ضمير بك . ولو مصدرية بمعنى ان ، والمصدر المنسبك مفعول يود تسوية الأرض ، ولا يكتمون معطوف على يود . ولفظة الله منصوبة بنزع الخافض ، أي لا يكتمون عن الله حديثاً .

المعنى :

(ان الله لا يظلم مثقال ذرة) . بعد أن أمر سبحانه بعبادته ، وبالإحسان للوالدين ، ومن ذكر معهم ، وعقب بذم البخل ، ومن أنفق رياء ، ومن كتم فضل الله ، وتوعد المختالين وإخوان الشياطين ، بعد هــذا بيّن سبحانه مؤكداً انه لا ينقص أحداً من أجر عمله شيئاً ، وان كان كذرة الهباء ، بل يضاعف ثواب المحسنين تفضلاً من عنده ، كما قال : (وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) . ومن لدنه اشارة الى انه تعالى يعطي المحسن في مقابل حسناته ، ثم يزيده علاوة على أجره (أضعافاً كثيرة) .

وللفلاسفة أقوال في ان الله : هل يثيب المطيع على سبيل الحتم والاستحقاق، بحيث لو منعه لكان ظالماً له .. تعالى الله .. أو على سبيل التفضل والإحسان ؟.

والأقرب في رأينا ان الله سبحانه يثيب على الواجب تفضلاً ، لأنه لا أجر ولا شكر على واجب ، أما المستحب فيثيب عليه استحقاقاً .. وعلى أية حال ، فإن الأمر سهل ، لأن الثواب حاصل ، ما في ذلك ريب ولا خلاف ، وعليه يكون النزاع في أن سببه التفضل أو الاستحقاق يكون هذا النزاع عقيماً، ما دام السبب خارجاً عن المقدور والاستطاعة .

(فكيف إذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) . يجمع الله الناس غـــداً للحساب والعقاب ، وقبل كل شيء يشهد على كل قوم نبيهم بأنه قد بلغهم رسالة ربه،وعلمهم الحلال والحرام مباشرة ، أو بواسطة أصحابه، أو التابعين لهم ، أو العلماء والفقهاء ، فالمراد بالشهيد الأول كل نبي سابق على محمد،وبالشهيد الثاني محمد (ص) . وهؤلاء اشارة الى أمة محمد (ص) وأبعد من

قال : ان هؤلاء اشارة الى جميع الأنبياء السابقين ، وان محمداً يشهد عليهم ، وهم يشهدون على أممهم .. لقد أبعد هذا القائل ، لأن الشهادة انما تجوز وتسمع على من يجوز في حقه الاهمال لواجبه ، وهذا محال في حق الأنبياء ، فالشهادة عليهم كذلك .. وعند تفسير الآية ١٤٣ من سورة البقرة ذكرنا ان محمداً (ص) يشهد على علماء أمته بأنه بلغهم الاسلام وأحكامه ، وعلماء الأمة يشهدون عليها بأنهم قد بلغوها رسالة الاسلام على وجهها .

وقال الشيخ محمد عبده في تفسير هذه الآية ما يتلخص بأن الله سبحانه سيقابل غداً ويقارن بين عقيدة كل أمة وأعمالها وأخلاقها ، وبين عقيدة نبيها ، فان كانت هي هي كانت الأمة من الأمم الناجية ، وإلا فهي من الهالكين ..

وهذا التفسير من وحي ثورة الشيخ على البدع والتقاليد البغيضة .. وهو غير بعيد عن الواقع ، فإن عملية هذه المقارنة إذا لم تقع بالذات في حضرة الخالق جل وعلا فان نتيجتها كائنة لا محالة .

(يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) . المعنى ان الكفار يتمنون يوم القيامة ، حيث ينكشف لهم الغطاء لو انهم لم يخلقوا ، وانهم كانوا والأرض سواء ، أي تراباً ، كما في الآية ٤٠ من سورة النبأ : « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » .

(ولا يكتمون الله حديثاً) . هذا كلام مستأنف ، ومعناه انهم لا يستطيعون كتمان ذنب من ذنوبهم التي اقترفوها ، وأخفوها عن أعين الناس في الدنيا ، لأن الله سبحانه محيط بهم وبأعمالهم ، ولأن الملائكة وسمعهم وأبصارهم وألسنتهم وجلودهم وأيديهم وأرجلهم ، كل هؤلاء تشهد عليهم بما كانوا يفعلون : « حتى اذا جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون – ٢٠ فصلت » .. « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون – ٢٥ النور » .

اللهم رحمةً بمن لا طاقة له بعدلك ، وغوثاً لمن لا نجاة له دون عفوك .

وتسأل : كيف نجمع بين قوله تعالى : (ولا يكتمون الله حديثاً) وبين قوله : (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم

تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين — ٢٣ — ٢٤ الانعام) .

الجواب : من الجائز أن يكون مرادهم انهم لم يكونوا مشركين في اعتقادهم، حتى تحقق لهم الآن شركهم وخطأهم . وإلى اللقـــاء عند تفسير سورة الانعام ان شاء الله تعالى .

لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى الآية ٤٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَـائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً★

اللغة :

الجنب ، بضم الجيم والنون ، هو الذي اصابته الجنابة ، ويستوي فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع . والغائط المكان المنخفض من الأرض ، وجمعـه غيطان ، ويقصده أهل البوادي والقرى عند قضاء الحاجة . والمراد بملامسة النساء هنا الجماع . ومعنى التيمم في اللغة القصد،وفي الشرع الطهارة بالتراب . والصعيد وجه الأرض . والطيب الطاهر .

الإعراب :

وأنتم سكارى مبتدأ وخبر ، والجملة حال ، وصاحبه الواو في تقربوا ، ولا جنباً معطوف على الحال ، فكأنه قال : لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً . وعابري سبيل منصوب على الحال،لأن المستثنى منه غير مذكور ، وهو الأحوال، والمعنى لا تقربوا الصلاة أو موضع الصلاة وأنتم جنب في جميع الأحوال إلا في حال عبوركم،ويسمى هذا الاستثناء بالمفرغ ، و (الا) فيه مهملة غير عاملة، وما بعدها يعرب بحسب ما قبلها ، وقال صاحب مجمع البيان : عابري سبيل منصوب على الاستثناء .. وهذا اشتباه ظاهر،لأن (الا) هنا مهملة ، كما قدمنا . ومن قال:بوجوب مسح تمام الوجه واليدين في التيمم قال : الباء في (بوجوهكم) زائدة ، ومن قال بوجوب مسح بعض الوجه وبعض اليدين قال : الباء للتبعيض .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا) . هنا مسائل :

١ ـ ان هذا الخطاب موجه للمسلمين قبل تبيين الحكم بتحريم الخمر الذي تعرضت له الآيتان ٩٠ و ٩١ من سورة المائدة،والآية ٣٢ من الأعراف معطوفة على الآية ٢١٩ من البقرة ، وذكرنا ذلك مفصلاً في المجلد الأول من التفسير الكاشف ص ٣٢٨ وما بعدها عند تفسير الآية ٢١٩ ، وفي الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق ، باب الأطعمة والأشربة .

وتجدر الإشارة الى ان النهي عن الصلاة حال السكر لا يدل على انه حلال في غير الصلاة ـ مثلاً ـ اذا قلت : لا تنظر الى النساء ، وأنت ماشٍ في الطريق فلا يفهم من قولك هذا الاذن بالنظر اليهن في الصالونات .. وبكلمة ان الآية دلت على تحريم الصلاة حال السكر ، وسكتت عن حكم السكر في غير هذه الحال .

٢ ـ اختلفوا : هل المراد بالصلاة نفس الصلاة ، أو المسجد الذي تقع فيه

الصلاة ، من باب اطلاق الحال على المحل ، والكائن على المكان ، ومنه اطلاق اسم القهوة على المكان الذي تُشرب فيه ، وأكثر المفسرين على المعنى الأول ، وهو أظهر من ارادة المسجد .

٣ — اختلفوا أيضاً : هل المراد بالسكر سكر الخمر ،أو سكر النوم والنعاس ؟ والظاهر من السكر الشراب ، لا النعاس .

٤ — جاء على لسان بعض الرواة ان جماعة من الصحابة اجتمعوا عند أحدهم ، فصنع لهم طعاماً وشراباً قبل أن يبين الله حكم الخمر ، فأكلوا وشربوا ،فلما ثملوا جاء وقت الصلاة ، فقدموا أحدهم ليصلي بهم ، فخلط في صلاته ، وحرّف آية من القرآن .

وقد تتبع الشيخ محمد جواد البلاغي[1] في تفسيره آلاء الرحمن ، وأثبت كذب هذه الروايات بالأرقام،وتتلخص نتيجة بحثه الدقيق بأن الترمذي روى ان صاحب الدعوة هو عبد الرحمن بن عوف،وان علياً كان إمام الجماعة .. وروى أبو داود ان صاحب الدعوة رجل من الأنصار ، وكان عبد الرحمن من جملة المدعوين .. وابن جرير الطبري قال في تفسيره ، والسيوطي في الدر المنثور : ان إمام الجماعة كان عبد الرحمن بن عوف . وفي الدر المنثور أيضاً ان الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي وعبد الرحمن وسعد ، وان صاحب الدعوة هو علي . وفي مسند أحمد والنسائي ان عمر قال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً ، فنزلت : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » .

وكما اضطربت الروايات في الداعي،والإمام والمأموم كذلك تناقضت وتضاربت في الآية التي حصل فيها التحريف ، فرواية تقول : ان إمام الجماعة قال :

---

١ هو من كبار علماء الإمامية ، وكان دؤوباً صبوراً على العلم والبحث والتأليف لا يفتر عنه ليل نهار ، وأتقن اللغة العبرية ، وعرف أسرار اليهودية ، ونشر الكثير من معائبها ، وله : الهدى إلى دين المصطفى ، وأعاجيب الأكاذيب ، والتوحيد والتثليث ، والرحلة المدرسية ، وغيرها ؛ ومن تنكره لذاته وأنانيته ، وانصرافه لله وحده كان لا يضع اسمه على كتاب أنفق في تأليفه زهرة حياته ، وحين سئل عن السبب قال : لعلي أخطأت في بعض ما قلت ، فيطعن الذي في قلبه مرض على الطائفة التي أنا منها بسببي . توفي سنة ١٣٥٢ ﻫ .

أعبد ما تعبدون . وثانية تقول : بـل قرأ ليس لي دين . وكذلك اختلفت في زمن النزول وسببه . وفوق ذلك كله أثبت صاحب آلاء الرحمن ان الراوي الأول الذي قال : كان إمام الجماعة علياً ، أثبت انه خارجي ، ومن أعدى أعداء علي .

وعلى أية حال ، فإن صح ان جماعة من الصحابة شربوا ، وان إمامهم خلط في صلاته فإن هؤلاء هم الذين أشركوا بالله ، وعبدوا الأوثان ، وشربوا الخمر ، وأكلوا الحرام في الجاهلية التي نشأوا فيها ، وتربوا عليها .. وعلي بن أبي طالب ليس منهم ، لأنه نشأ وترعرع في حجر الرسول الأعظم (ص) ، وهو الذي تولى تربيته وتهذيبه منذ نعومة أظفاره ، وصاغه كما يشاء ويريد .

ورُبَّ قائل : ان قولك هذا من وحي العقيدة ، لا من وحي الواقع .

وأجيبه بأن الحكم الذي يعتمد على نشأة الشخص وتربيته هو من وحي الحق والواقع ، لا من وحي العاطفة والعقيدة .

(ولا جنباً الا عابري سبيل حتى تغتسلوا) . قيل : المراد بعابري سبيل المسافرون ، وان المعنى لا تقربوا الصلاة سكارى ، ولا جنباً الا في حال السفر .. ويلاحظ بأن الآية قد تعرضت لحكم المسافرين ، حيث جاء فيها (وان كنتم مرضى أو على سفر) . فإن فسرنا عابري سبيل بالمسافرين يلزم التكرار في كلام واحد بلا موجب . ثانياً : جاء في بعض الأحاديث تفسير (عابري سبيل) بالمرور في المسجد ، وانه يحرم على الجنب أن يدخل المسجد الا عابراً ، ما عدا المسجد الحرام ، ومسجد الرسول (ص) ، حيث لا يجوز للجنب أن يدخلهما اطلاقاً ، ولو عابراً .

وقالت المذاهب الأربعة : متى عمّ الماء جميع البدن تحقق غسل الجنابة من غير فرق بين الابتداء من أعلى أو من أسفل البدن .

وقسّم الإمامية غسل الجنابة الى نوعين : ترتيب وارتماس . والترتيب عندهم أن يصب المغتسل الماء على جسمه صباً ، وأوجبوا في هذه الحال الابتداء بالرأس ، ثم بالجنب الأيمن ، ثم بالأيسر ، فلو قدم المؤخر ، أو اخّر المقدم بطل الغسل . أما الارتماس فهو غمس تمام الجسم تحت الماء دفعة واحدة ، كالغسل في البحر والنهر وما اليهما .

المريض والمسافر والتيمم :

(وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) .

اضطربت أقوال المفسرين في هذه الآية ، حتى قال الشيخ محمد عبده : « طالعت في تفسيرها خمسة وعشرين تفسيراً ، فلم أجد فيها غناء ، ولا رأيت قولاً يسلم من التكلف » . وقال الألوسي في روح البيان : « ان هذه الآية من المعضلات » . وراجعنا نحن حوالي عشرين تفسيراً للسنة والشيعة ، وأكثر أصحابها نقل العديد من تفاسير الآية، فرأينا الأمر كما قال الشيخ محمد عبده، ولكن لم نرَ في الآية أية مشكلة أو معضلة ، كما رأى الألوسي .. وبعد وثوقنا من معناها ، وركوننا الى المراد منها حاولنا ايضاحه بالأسلوب التالي :

لقد ذكر سبحانه في الآية أربعة أصناف ، وهم المرضى ، والمسافرون، والذين جاءوا من الغائط ، والذين لامسوا النساء ، وأوجب عليهم أن يلجأوا الى التيمم عند عدم وجود الماء، لأن الأمر بالتيمم وقع جواباً لفعل الشرط المتضمن للأصناف الأربعة .

ومن المتسالم عليه عند جميع المذاهب ان ظاهر القرآن لا يجوز الاعتماد عليه، بخاصة في استخراج الأحكام الشرعية إلا بعد الرجوع الى السنة النبوية ، لأنها أحد مصادر الشريعة، كما أنها تفسير وبيان للقرآن بنص الآية ٧ من سورة الحشر: « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب » . وعليه ، فإذا لم يوجد في السنة النبوية ما يصرف لفظ الآية عن ظاهره وجب العمل به ، وإلا وجب العمل بما نستفيده من الكتاب والسنة مجتمعين ، لأنهما يصدران من معين واحد ، وهو الوحي .

ونتكلم فيما يلي عن كل واحد من الأصناف الأربعة الذين ذكرتهم الآية ، ومنه يتضح الجواب عن هذا التساؤل : هل في السنة النبوية ما يتنافى مع ظاهر الآية بالنسبة الى كل واحد من هذه الأصناف ؟.

١ - المريض ، وظاهر الآية يدل على انه يتيمم إذا لم يجد الماء ، وقد أجمع الفقهاء على العمل بهذا الظاهر ، لأن الصحيح يتيمم مع عدم وجود الماء فبالأولى

المريض .. واذا وجد المريض الماء ، وخاف الضرر من استعماله فهل يتيمم ، أو يستعمل الماء ، حتى مع خوف الضرر ؟. وقد اتفق الفقهاء على ان المريض يتيمم مع وجود الماء إذا خاف من استعماله ، واستدلوا بحديث : « لا ضرر ولا ضرار » ، وبما روي ان بعض الصحابة أصابته جنابة ، وكان به جراحة عظيمة ، فسأل بعضهم ، فأمره بالاغتسال ، فلما اغتسل مات ، وحين سمع النبي (ص) بذلك قال : قتلوه قتلهم الله . وعليه يكون قوله تعالى: (ولم تجدوا ماء) قيداً لجميع الأصناف المذكورة في الآية ، دون استثناء .

هذا هو المعنى الذي دلت عليه عبارة الآية بالاصالة ، لا بالتبع ، أما المعنى الذي تدل عليه بالتبع لوجود ان الشرطية ، والمعبر عنه بلسان الفقهاء وعلماء الاصول بمفهوم الشرط ،أما هذا المعنى المفهوم بالتبع فانه يوجب على كل واحد من الأصناف الأربعة أن يستعمل الماء إذا وجده ، ولا يجوز له التيمم بحال ، حتى ولو تضرر من استعماله .. ولكن قد علمت مما تقدم ان الفقهاء قد أجمعوا، وان السنة النبوية قد دلت على ان المريض يتيمم مع وجود الماء ، وخوف الضرر من استعماله ، وعليه فلا بد من اخراج المريض من هذا المعنى المفهوم بالتبع ، وابقاء الأصناف الثلاثة الذين يجب عليهم استعمال الماء بموجب هذا المفهوم التبعي، إذا وجدوا الماء .

واختصاراً ان الأصناف الأربعة يتيممون،مع عدم الماء ، ما في ذلك خلاف ولا ريب،اما مع وجود الماء فيستعمله من لا يخاف الضرر على نفسه من استعماله، اما من مرض مرضاً يخاف معه من استعمال الماء فيدعه ويتيمم .

٢ ـ المسافر ، وتدل الآية على انه يتيمم اذا لم يجد الماء ، سواء أكان سفره طويلاً ، أم قصيراً ، وهذا محل وفاق عند الجميع ، ولكن اختلفوا في الحاضر غير المريض الذي لم يجد الماء : هل يتيمم ويصلي ، أو تسقط عنه الصلاة من الأساس ؟.

قال أبو حنيفة : تسقط عنه الصلاة ، لأن ظاهر الآية ان التيمم يسوغ في السفر ، لا في الحضر .

واتفقت بقية المذاهب على ان فاقد الماء يجب عليه أن يتيمم ويصلي ، سواء

أكان مسافراً ، أم حاضراً ، لأن جواز التيمم في السفر لا يمنع من جوازه في الحضر .. وقد تواتر عن الرسول الأعظم (ص) : « ان الصعيد الطيب طهور المسلم ، وان لم يجد الماء عشر سنين » .. وقال أبو بكر المعروف بابن العربي في كتاب أحكام القرآن ج ١ ص ١٧٦ طبعة ١٣٣١ هـ : « ان أبا حنيفة كثيراً ما يترك الظواهر والنصوص للاقيسة » .

وتسأل : إذا كان كلٌ من المسافر والحاضر سواء في الحكم ، من حيث وجوب استعمال الماء مع وجوده ، والتيمم مع عدمه ، فلماذا نص القرآن على السفر بالذات ؟.

وأجابوا بأن الله سبحانه نص على السفر لأن الغالب فيه عدم وجود الماء ، أما عدم الماء في الحضر فنادر .. وهذا الجواب قول على الله بالظن والاستحسان، لأنه لا يستند الى آية ، أو رواية متواترة ، أو حكم جازم من العقل .. ولهذا نسكت عنه ..

٣ - (أو جاء أحدكم من الغائط) . الغائط كناية عما يخرج من السبيلين ، وهو البول والعذرة والريح ، فمن خرج منه شيء من ذلك ، وأراد الصلاة فعليه أن يتوضأ ان وجد الماء ، ويتيمم ان فقده اجماعاً وسنة .

٤ - (أو لامستم النساء) . كناية عن الجماع ، ومن طريقة القرآن أن يكني عنه ، ولا يصرح ، ففي الآية ١٨٧ من البقرة : « فالآن باشروهن » . وفي الآية ٢٢٢ منها : « ولا تقربوهن » . وفي الآية ٢٣٧ منها أيضاً: « من قبل أن تمسوهن » . وقال الشافعي : المراد بالمس في الآية مجرد الصاق الجسم بالجسم . ومهما يكن ، فان من أجنب ووجد الماء ، وأراد الصلاة فعليه أن يغتسل ، وان فقد الماء تيمم بدلاً من الغسل ، وكل ما يوجب الوضوء يسميه الفقهاء الحدث الأصغر ، وكل ما يوجب الغسل يسمونه الحدث الأكبر .

(فتيمموا صعيداً طيباً) . الصعيد الأرض ، والطيب الطاهر ، وهذه الآية في معنى الحديث الشريف : « خلقت لي الأرض مسجداً وطهوراً » .

(فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) . اتفقت المذاهب كلها على ان التيمم لا يكون إلا في هذين العضوين . واختلفوا في تحديد ما يجب مسحه بالتراب من الوجه

واليدين ، فقالت المذاهب الأربعة : يجب مسح جميع الوجه ، ويدخل فيه اللحية، تماماً كما هـو الشأن في الوضوء . وقال الحنفية والشافعية : يجب مسح اليدين بالتراب الى المرافق كالوضوء .

وقال الإمامية : يجب مسح بعض الوجه ، لا كله ، لأن الباء في قوله تعالى بوجوهكم للتبعيض ، تماماً كقوله: فامسحوا برؤوسكم بالنسبة الى الوضوء ، لأنها لو لم تكن للتبعيض تكون زائدة، والأصل عدم الزيادة . وقالوا : يجب مسح الكفين فقط .. والتفصيل في كتاب الفقه على المذاهب الخمسة .

يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا الآية ٤٤ ـ ٤٧ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ★ وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللهِ نَصِيراً★ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً★

اللغة :

الوالي من يتولى الشيء . والنصير الناصر . وراعنا ارقبنا . وليّاً ، أي فتلاً وتحريفاً . وأقوم أعدل . والطمس ازالة الأثر أو اخفاؤه ، وقريب منـه الطسم والطلس . والوجه يطلق على الوجه المعروف وعلى النفس ، ومنه أسلمت وجهي لله . واللعن العذاب والابعاد . وأصحاب السبت اليهود .

الإعراب :

وكفى بالله ولياً الباء زائدة ، ولفظ الجلالة فاعل ، ووليّاً حال ، أو تمييز، على معنى من ولي ، ومثله وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محـذوف ، والتقدير من الذين هادوا فريق أو قوم يحرفون الكلم ، ومثل هذا الاستعمال كثير ، ومنه : من الناس يقول كذا ، ومنهم يقول كذا أي من يقول . وغير مسمع حال ، وصاحبه الضمير في اسمع . وليـاً مفعول لأجله ، والعامل فيه يقولون ، ومثله طعناً . ولو انهم المصـدر المنسبك من ان واسمها وخبرها فاعل لفعل محذوف ، والتقدير لو ثبت قولهم ، أو لو وجـد قولهم . ولكان ناقصة ، واسمها ضمير مستتر يعود على المصدر المتصيد من قالوا، والتقدير لكان قولهم خيراً . والا قليلاً منصوب على الاستثناء من فاعل لا يؤمنون، أي قليلاً منهم آمنوا . ولا يجوز أن يكون قليلاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، كما قال صاحب مجمع البيان ، إذ يكون المعنى على هذا انهم آمنوا ايماناً ضعيفاً، وهذا المعنى غير مقصود .

اسرائيل وقوى الشر :

(ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتـاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) ، يدل سياق الكلام على ان المراد بالذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم اليهود ، حيث وصفهم الله بالضلال أولاً في قوله : (يشترون الضلالة).

ثم بالاضلال ثانياً في قوله : (يريـــدون أن تضلوا) . ثم بتحريف الكلم عن مواضعه في قوله : (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) .

وما عرف التاريخ قوماً أشد عناداً للحق ، وعداء للخير من اليهود ، فقد كانوا ضالين مضلين محرفين يوم كانوا أذلاء محكومـين ، أما اليوم ، وبعد أن خلق لهم الاستعمار دولة القراصنة والسفاحين ، فلم يقفوا عند الضلال والاضلال والتحريف ، بل صاروا رمزاً للشر العالمي ، وسلاحاً فتاكاً يملكه كل مستعمر ومتآمر على العباد والبـــلاد ، ومقياساً يميز قوى الشر والغدر عن قوى الخـــير والتحرر .. فما من دولة استعمارية في هذا العصر تهدف الى استعباد الشعوب الا وتلجأ الى اسرائيل لتحقق أهدافها ومراميها ، وما من فئة مستغلة باغية في الشرق والغرب الا تستعين في حماية مصالحها بهذه العصابة الغاشمة الآثمة .

ولكن الدلائل التي ظهرت في فيتنام تبشر ، ولله الحمد ، بتهيئة السبيـــل وتمهيده لانسان جديد يعرف كيف يقضي على أعداء الحق والانسانية .. ان انسان اليوم في فيتنام – نحن الآن في سنة ١٩٦٨ – وانسان الغد في كل مكان يختلف تماماً عن انسان الأمس .. انه يميز بين المخلص والخائن، ولا يخفى عليه هذا ، حتى ولو تقنّع بألف قناع وقناع ، يميز بينهما ، ويضع كلاً في مرتبته والمكان الذي يستحقه ، وعندها يعيش الناس بلا مشاكل وقنابل .. وقد أثبتت الحوادث وبخاصة نكبة ٥ حزيران ٦٧ ان مشاكلنا نحن العرب والمسلمين لم يكن لهـــا من مصدر الا وجود غير الأكفاء في مركـز القوة ، وهذا أمر عارض يزول مع الأيام .

(والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً) . الله يعلم ، ونحن أيضاً نعلم ان اليهود ومن يساندهم أعداء الحق والانسانية ، ولم يعد هذا خافيـاً على أحد بعد أن أصبحت الصهيونية ودولة اسرائيل رمزاً للشر العـالمي ، ولكن الكثير منا لا يعرف المنافقين العملاء ، لأنهم يختفون بثوب الأخيـار ، ويموهون على البسطاء .. ولهؤلاء يوم يظهرون فيه على حقيقتهم ، ويتـولى الله خزيهم ، واستئصال شأفتهم في أيدي المؤمنين والأحرار الطيبين .

(من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) . وفي الآية ٤١ من المائدة :

« ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين – وهم الذين يريدون اخضاع العباد والبلاد لسياستهم – يحرفون الكلم من بعد مواضعه » . وفي الآية ٧٥ من البقرة: « يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون». تماماً كما فعلوا بقرار الأمم المتحدة بوجوب انسحاب اسرائيل من الأراضي التي احتلتها في ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ ، وفسروه بوجوب المفاوضة مع العرب[1] وعرقلوا بذلك مهمة (غونار ياريغ) المبعوث الدولي لتنفيذ القرار .. وكل كلام لا يتفق مع مقاصدهم الشريرة يحرفونه عن مواضعه ، حتى ولو عقلوا وعلموا أنه من عند الله ، فلقد حرفوا التوراة من قبل ، ووضعوا مكان آيات العدل والرحمة الأمر بالسلب والنهب ، وقتل النساء والأطفال ، قال في تفسير المنار عند تعرضه لتفسير هذه الآية : « أثبت العلماء تحريف كتب العهد العتيق،والعهد الجديد بالشواهد الكثيرة ، وفي كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي مئة شاهد على التحريف اللفظي والمعنوي فيها » . ثم ذكر صاحب تفسير المنار بعض الشواهد لهذا التحريف في الجزء الخامس ص ١٤١ طبعة ١٣٢٨ هـ وألف الشيخ جواد البلاغي كتاباً قيماً جامعاً في هذا الموضوع ، أسماه الرحلة المدرسية، وطبع أكثر من مرة .

لقد دعا النبي (ص) يهود الحجاز مراراً الى اتباع الحق ، وعدم تحريف الكلام،فكانوا يصرون على العناد : (ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع). أي غير مسموع منك ، ولا مجاب لك فيما تدعونا اليه .. وليس هذا بغريب من عناصر الشر ، ومصادر الفساد .

(وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين) . قال المفسرون : ان اليهود قالوا للنبي (ص) : راعنا ، وهم لا يريدون المعنى الظاهر من هذه الكلمة ، وهو مراقبتهم والاصغاء اليهم ، وانما أرادوا الرعونة والحمق ، وهذا هو اللي والطعن في الدين . وسبق الكلام عن لفظة راعنا في تفسير الآية ١٠٤ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ١٦٦ .

---

١ ألف علماء المسلمين العديد من الكتب في اعجاز القرآن ، وذكروا أنواعاً من هذا الاعجاز ، ولكن لم يذكروا منها وصف القرآن لطبيعة اليهود وحقيقتهم ، مع انه لا يقل اعجازاً عن غيره .

(ولو انهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم) . ولأن هذا القول أعدل وأفضل ، وأقوم وأسلم أعرضوا عنه ، ولم يتفوهوا بـه . قال الرازي في تفسير هذه الآية : « المعنى انهم لو قالوا بدل قولهم (سمعنا وعصينا) سمعنا وأطعنـا ، لأنهم يعلمون بصدقك ، وبدل قولهم (واسمع غير مسمع) واسمع فقط ، وبدل قولهم (راعنا) انظرنا ، أي تمهل علينا حتى نفهم عنك، لو قالوا هذا لكان خيراً لهم عند الله وأقوم ، أي أعدل وأصوب » .

(ولكن لعنهم الله بكفرهم) . وتمردهم على الحق ، وتعصبهم للباطل ، ولعنة الله هي غضبه وسخطه (فلا يؤمنون إلا قليلاً) . لقـد دخل الناس في الاسلام أفواجاً من جميع الطوائف والأديان على مدى التاريخ إلا اليهود ، فـما أسلم منهم إلا قليل كعبدالله بن سلام ، وبعض أصحابه ، بـل حاربوا الاسلام والمسلمين ، وما زالوا يكيدون لـه بكل الوسائل والدسائس ، وهذا من أقوى الأدلة على ان الاسلام حق وصدق .. والغريب ان قادة الاسلام ودعاته لم يستدلوا على عظمته وانسانيته بعداء اليهود الذين قالوا: «يد الله مغلولة » عداءهم للاسلام، ولكل من قال : لا إله إلا الله .

(يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا مصدقاً لما معكم) . ظاهر الخطاب يشمل اليهود والنصـارى ، لأنهم جميعاً من أهل الكتـاب .. وقيل : الخطاب مختص باليهود بقرينـة السياق . والمراد بما أنزلنا القرآن الكريم ، فانه مصدق للتوراة كما نزلت على موسى (ع) ، وللانجيل كما نزل على عيسى (ع) .

لقد دعا النبي (ص) اليهود الى الاسلام باعتباره حقاً من عند الله ، وقـدم لهم الدلائل والبينات مرات بعـد مرات .. ولكن ما لليهود والحق وبراهينه ؟.. انهم لا يدينون إلا بالربح والمال ، ولن يجدوا الربح العاجل في الاسلام ، ولا في التوراة ، وانما يجدونه في الاحتكار والربـا ، وفي السلب والنهب ، والغش والخداع ، والدعارة والقمار ، واثارة الفتن والحروب ، وما الى هذه من المفاسد والموبقات : ومن أجل هذا سبقوا في هذا الميدان الأولين والآخرين ، والنبي (ص) يعلم هذا حق العلم، ولكنه دعاهم لالقاء الحجة فقط : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً - ١٦ الاسراء » .

(من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على ادبارها) . رأينا لهذه الآية أربعة تفاسير متناقضة ، وأرجحها فيما نرى تفسير الشيخ محمد عبده ، ويتلخص بأن الطمس كناية عن أن الله سبحانه يعمي عليهم السبيل، بحيث لا يستطيعون التوجه الى مقاصدهم ، تماماً كالذين يردّون الى الوراء كلما أرادوا التقدم الى الأمام .

(أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) . وأصحاب السبت قوم من اليهود حرفوا الدين ، وتعدوا حدود الله ، فخذلهم وانتقم منهم في الدنيا قبل الآخرة، وتعرضنا لهم في تفسير الآية ٦٥ من سورة البقرة ص ٢٢٠ من المجلد الأول : وفي هذه الآية هدد الله خلفهم بأنهم إذا لم يرتدعوا عن الضلال والاضلال والتحريف فانه تعالى يخذلهم ، كما خذل أسلافهم .. وفي كثير من التفاسير ، ومنها تفسير الرازي ومجمع البيان والبحر المحيط قرأت جملة انقلها بالحرف ، وهي « عندنا انه لا بد من طمس أو مسخ في اليهود قبل قيام الساعة » .. اللهم آمين رب العالمين . (وكان أمر الله مفعولاً) لا رادّ لحكمه، ولا ناقض لأمره الذي يقول للشيء كن فيكون .. اللهم عجل هذا الأمر الذي يجعل دينك الأعلى ، وحزبك الأقوى .

ان الله لا يغفر ان يشرك به الآية ٤٨ ـ ٥٠ :

إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً★ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً★ أُنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً★

اللغة :

أفترى فلان الكذب اختلقه . الفتيل ما كان في شق النواة ، والنقير النقطة

التي في ظهر النواة ، والقمطير القشرة الرقيقة على النواة ، وكل واحد من هذه يضرب مثلاً للشيء التافه الحقير .

الاعراب :

اثماً مفعول مطلق لافترى،لأن الافتراء معناه الإثم ، فهو مثل جلست قعوداً . وفتيلاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي لا يظلمون ظلماً مقدار فتيل ، وقال صاحب مجمع البيان هو مفعول ثان مثل ظلمته حقه ، وهو اشتباه ، لأن الظلم في مثاله وقع على الحق بالذات ، لا على نظيره ، أما في الآية الكريمة فالمراد به انه لم يقع على نظير الفتيل،لا على نفس الفتيل . وكيف محل نصب على الحال ، والعامل فيه يفترون . وجملة يفترون محل نصب مفعول انظر . وكفى به الباء زائدة ، والهاء راجعة الى الافتراء ، وهو مصدر متصيد من يفترون ، والتقدير وكفى الافتراء . واثماً تمييز بمعنى من اثم .

المعنى :

(ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) . وقبل الشروع بتفسير الآية نمهد بأمرين يتصلان بها اتصالاً وثيقاً :

١ - ينقسم الشرك الى نوعين : شرك في الألوهية ، كمن يعتقد بتعدد الخالق والرازق . وشرك في الطاعة ، كمن يؤمن بإله واحد نظرياً ، ولكن يطيع المخلوق في معصية الخالق . والكفر أيضاً على نوعين : كفر في الألوهية وجحودها من رأس . وكفر في الطاعة ، كمن يؤمن بإله واحد ، ثم يعصيه تهاوناً ، ومنه كفران النعم ، وعدم شكر المنعم . والمراد بالشرك في الآية النوعان الأولان من الشرك والكفر ، أي الايمان بتعدد الآلهة،وعدم الايمان بشيء اطلاقاً .

٢ - اذا ورد كلام عام يحكم حكماً ايجابياً على عديد من الأفراد ، وورد

أيضاً كلام خاص ينفي حكم الخاص عن بعض الأفراد التي تناولها العام ، وكان الكلامان من مصدر واحد،ان كان الأمر كذلك وجب حمل العام على الخاص ، أي استثناء ما دل عليه الخاص مما دل عليه العام،وللتوضيح نضرب هذا المثال : قال تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . فقد دلت الآيـة على ان كل سارق تُقطع يده ، حتى أيام المجاعة ، ثم جاء الحديث الشريف يقول : « لا يقطع السارق في عام مسنت » أي مجاعة ، فوجب ، والحال هذه ، أن نقيد آية السرقة العامة بحديث المجاعة ، والحكم بأن كـل سارق يُقطـع الا أيام المجاعة .

وبعد ان تمهد معنا هذا نقارن بين ثلاث آيات ، ومن نتيجة المقارنة يتضح المراد من قوله تعالى : « ان الله لا يغفر ان يشرك به » .

جاء في الآية ٥٣ الزمر : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » . فلفظ هذه الآية عام،ومعناها واضح،وهو ان الله يغفر كل ذنب،حتى الشرك،ولكن آية (ان الله لا يغفر أن يشرك به) لفظهـا خاص ، ومعناها واضح أيضاً ، وهو ان الله لا يغفر الشرك ، فوجب استثناء المشرك من آية الزمر جمعاً بين الآيتين، ثم جاءت آية ثالثة تقول : « واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى – ٨٢ طه » ، فهذه الآية أخرجت التائب من آية (ان الله لا يغفر) تماماً كما أخرجت هي المشرك من آية الزمر .

فتحصل معنا من مقارنة الآيات الثلاث ، وعطف بعضها على بعض ان من تاب من الشرك غفر الله له ، لأنه كفّر عن ذنبه،وان من مات على الشرك فلا نجاة له ، لأنه فوّت الفرصة على نفسه،ولأن الصفح عنه اغراء بالشرك والخضوع لغير الحق والعدل .. هذا ، الى ان العفو عن المشرك ، معناه ان الله يقول لمن أساء : أحسنت .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وتسأل : ان قوله تعالى : (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) يشعر بأن أي ذنب – غير الشرك – يرتكبه الانسان يجوز أن يغفره الله قبل التوبة،لأن غفران الذنب مع التوبة ثابت بنص الكتاب والسنة ، فيختص قوله : (يغفر) بالمؤمن المذنب غير التائب .. وبكلمة ان الآية تدل على ان الصفح عن ذنب المؤمن لا

ينحصر بالتوبة فقط ، بل قد يصفح الله عن ذنوب المؤمنين ، دون أن يتوبوا؟.

الجواب : اتفق المسلمون على أن من مات على توبــة قَبِـل الله منه للآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، واختلفوا في المسلم المذنب اذا مات قبل التوبة .

قال الخوارج : هو مخلد في النار ، تماماً كالكافر ، سواء أكان ذنبه كبيراً أم صغيراً .

وقالت طائفة من المرجئة : هو في الجنة من غــير عقاب ، اذ لا يضر مع الايمان معصية ، ولا ينفع مع الكفر طاعة بزعمهم .

وقال الشيعة والسنة : لا يخلد في النار ، ويترك ذنبه لمشيئة الله : فإن شاء غفر ، وادخله الجنة منذ اللحظة الأولى ، وان شاء عذّبه بمقدار ما يستحق ، ثم أدخله الجنة .

والذي نراه نحن لا يختلف كثيراً عن قول السنة والشيعة ، ونقرره بهــذا الأسلوب : ان الله سبحانه لا يشاء الغفران عبثاً ، ومن غير حكمة تستدعيه ، والحكمة الموجبة للغفران لا تنحصر بالتوبة ، فقد تكون الشفاعة ، أو غيرها ، وليس من الضروري أن نعلمها بالتفصيل ، بل يكفي العلم بأن الله حكيم وكفى. وعليه فلا مانع في نظر العقل أن يغفر الله ذنوب المؤمن ، وان لم يتب .. وسبق منا كلام يتعلق بهذا البحث عند تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة ، فقرة مرتكب الكبيرة ص ١٣٩ من المجلد الأول .

دليل التوحيد والأقانيم الثلاثة :

(ومن يشرك بالله فقد افترى اثمــاً عظيماً) . لأنه آمن بالمستحيل . ومن الأدلة على ان الله واحد انه لو وجد إلهان : فلا يخلو : إما أن يكون أحدهما قادراً على تدبير العالم ، واما ان لا يكون ، فان كان قادراً كان وجود الثاني عبثاً ، ولزوم ما لا يلزم ، وان لم يكن قادراً فلا يصلح للالوهية ، لعجزه من جهة ، وعدم الفائدة من وجوده من جهة ثانية .

وخير الأدلة كلهــا ما استدل به سبحانه على وحدانية ذاته بذاته ، حيث

قال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون – ٢٢ الأنبياء » . أي لو كان في السماء والأرض آلهة سوى الله لما استقامتا ، ولفسد من فيهما وما فيهما ، ولم ينتظم أمر من الأمور . ذلك انه لو وجد إلهان لكان كل منهما قادراً ، ومن شأن القادر أن يكون مريداً ضد ما يريده الآخر ، وعليه فإذا أراد أحدهما خلق شيء ،وأراد الآخر خلافه ، فاما أن يحصل مرادهما معاً ، فيلزم اجتماع الوجود والعدم ، وهو محال ، واما أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر ، فيكون هذا الآخر عاجزاً ومغلوباً على أمره .. وبديهة ان العاجز لا يكون إلهاً .

وفي الآية ٩١ المؤمنون : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ».ومن الأمثلة الشائعة « حصانان لا يُربطان على معلف واحد » .

وقال علي أمير المؤمنين لولده الحسن (ع) : «واعلم يا بني انه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ، ورأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته » .

وتسأل : هل القول : ان الله واحد ، ولكنه ذو أقانيم ثلاثة : اب وابن وروح القدس هو من باب التوحيد ، أو من باب تعدد الآلهة ؟.

الجواب : ان هذا يتوقف على بيان المراد من الأقانيم،فان اريد منها الصفات كالرحمن والرحيم فهو من التوحيد ، وان اريد منها الشخص فهو من التعدد .. وقال سعيد الخوري الشرتوني في أقرب الموارد : « أقانيم جمع أقنوم ، ومعناه الأصل والشخص » . وعلى هذا يكون من تعدد الآلهة ، لا من التوحيد، ويؤيده ان لفظ الاب والابن،يستدعيان التعدد والتغاير في الشخص والذات .. بالاضافة الى ان الصور والتماثيل في المعابد الخاصة للسيدة العذراء (ع) تعبر بوضوح عن التعدد ، لأنها تحمل بين يديها طفلاً يرمز الى السيد المسيح (ع) .

(ألم تر الى الذين يزكون) . قال المفسرون : نزلت هذه الآية في اليهود ، وسواء أكان غرور اليهود هو السبب لنزول هذه الآية ، أو لم يكن فانها أصدق صورة عن مزاعمهم وادعاءاتهم التي لا مثيل لها في الكذب والافتراء ، مثل قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً .

وقولهم : نحن شعب الله المختار ، أي إن الله لهم وحدهم ، وانه خلق الناس جميعاً عبيداً لهم .. ولم يكتفوا بهذا ، حتى دفعهم الجهل والغرور الى القول : ان الله فقير ونحن أغنياء .

أجل ، لا أحد أغنى وأقدر منهم اطلاقاً على الاختلاق ، والتمويه ، والتزوير ، فبالأمس القريب أشاعوا وأذاعوا ، وملأوا الشرق والغرب صراخاً وعويلاً ان العرب يعدون العدة للهجوم عليهم ، في حين كانوا ومن يساندهم من دول الاستعمار يبيتون المكر والغدر ، ويدبرون عملية الاغتيال والهجوم على العرب ، وبعد أن أحكموا الخطة نفذوها على حين غرة ، واقترفوا من المظالم والمآثم ما أنسى الناس أعمال هتلر وجنكيزخان .

هذه صورة مصغرة من مزاعم اليهود ، ذكرناها على سبيل المثال، لا الحصر والاحصاء .. وهل تحصى مزاعم اسرائيل الكاذبة ، وفضائحها الآثمة ؟.

وتسأل : اذا كانت هذه هي حال اسرائيل فكيف استطاعت أن تقيم دولة مضى عليها أكثر من عشرين عاماً حتى الآن ؟.

الجواب : ان دول الاستعمار هي التي صنعت اسرائيل لحماية مصالحها في الشرق، وليس لليهود من الدولة الا الاسم ، أما بقاؤها الى اليوم فلبقاء الاستعمار الذي ضرب عليها خيمة من الأوكسجين .. وهو في طريقه الى الزوال، وان طال الزمن، وبديهة ان صنيع الشيء يزول بزواله .

وان سألت كيف سلّط الله الطغاة الكافرين على عباده الموحدين تجد الجواب في فقرة « نكسة ٥ حزيران » عند تفسير الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .

(بل الله يزكي من يشاء) . لا من يشهد لنفسه بنفسه ، وبديهة ان الله سبحانه لا يزكي الا من تشهد له أفعاله بالتزكية .. والآية ، وان نزلت في اليهود ، فإنها تشمل كل من يزكي نفسه ، لأن اللفظ عام ، والعبرة بعموم اللفظ ، لا بسبب النزول .. وقد أثبتت التجارب ان ما من أحد يزكي نفسه الا لجهله وغروره ، أو لنقص فيه يحاول اخفاءه ، ولكن بشهادة غير مقبولة ، حتى عند نفسه لأنه يعلم كذبها .

(انظر كيف يفترون على الله الكذب) بقولهم : نحن شعب الله المختار .. وأبناء الله وأحباؤه . وما إلى ذلك . « وقد خاب من افترى » .

يؤمنون بالجبت والطاغوت الآية ٥١ - ٥٢ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً★ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً★

اللغة :

الجبت يُطلق على معانٍ ، والمراد به هنا معبودٌ غير الله . والطاغوت مصدر بمعنى الطغيان ، مثل رحموت بمعنى الرحمة .

الإعراب :

سبيلاً تمييز ، والعامل فيه أهدى . مثل أحسن منه قولاً .

المعنى :

(ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) . وصف الله سبحانه اليهود في الآيات السابقة بالضلال والاضلال والتحريف واللي في الكلام،وتزكية النفس كذباً وافتراء ، ثم وصفهم في هذه الآية بأنهم (يؤمنون بالجبت والطاغوت) أي بالأصنام التي يعبدها قريش .

وتسأل : كيف قال سبحانه عن اليهود انهم (يؤمنون بالجبت والطاغوت) مع العلم بأنهم لا يعترفون بأصنام قريش ؟.

الجواب : أجل ، ان اليهود لا يعترفون بأصنام قريش بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم اعترفوا بها دجلاً ونفاقاً ، وتعصباً وعناداً لمحمد (ص) ومن آمن به ، وقالوا لعبدة الأصنام : أنتم أهدى سبيلاً من المسلمين .. وكان الأولى باليهود أن يناصروا المسلمين على عبدة الأصنام ، لأن المسلمين أهل كتاب ، ويعترفون بالتوراة على العكس من عبدة الأصنام ، فلما خالف اليهود الحق ووقفوا مع المشركين وصفهم الله تعالى بأنهم كعبدة الأوثان (يؤمنون بالجبت والطاغوت) .

وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : (هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً) . أي ان اليهود قالوا : المشركون أهدى سبيلاً من المؤمنين ، فالجواب عن السؤال موجود في الآية نفسها .

وبهذا يتبين ان (هؤلاء) اشارة الى عبدة الأوثان ، وان اللام في (للذين كفروا) للتعليل ، أي ان اليهود قالوا ما قالوا من أجل ارضاء الذين كفروا، وهم مشركو قريش ، ولم يقولوا ذلك ايماناً منهم بما قالوا .

(أولئك لعنهم الله) . وهم اليهود الذين نافقوا وصدقوا بالأصنام تعصباً وعناداً للمسلمين المصدقين بنبوة أنبيائهم ، كموسى وداود وسليمان ، ويحيى وزكريا .

(ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) . الا أميركا التي سلحت اسرائيل ، وساندتها يوم ٥ حزيران ، ودافعت عنها في الأمم المتحدة ومجلس الأمن دفاعاً لا ينساه كل عربي مخلص ، ولا مسلم مؤمن ، مهما طال الزمن .. ونحن على ما بنا من جراح نؤمن ايماناً لا ريب فيه بأن الله وحده هو الناصر القاهر ، وان العاقبة في النهاية للحق والعدل ، وما على طلابه الا أن يصبروا ولا يتعجلوا الوصول ، ويصمدوا ولا يهابوا سلاح العدو أياً كان .. وبالتالي أن يستفيدوا من التجارب .

لا يؤتون الناس نقيراً الآية ٥٣ ــ ٥٥ :

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً★ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً★ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً★

اللغة :

النقير نقرة في ظهر النواة ، ومنها تنبت النخلة .

الإعراب :

أم حرف عطف ، وتستعمل في معنيين : الأول المعادلة ، نحو أزيد عندك ام بكر ؟ أي أيهما عندك ؟ وتسمى المتصلة . المعنى الثاني الاضراب عما قبلها ، نحو انها لإبل أم شاه ، أي بل شاه ، وتسمى منقطعة ، وأم هنا للاضراب بمعنى بل . واذن حرف جواب وجزاء ، وتنصب المضارع بثلاث شروط أن تقع في صدر الكلام ، وان لا يفصل بينها وبين الفعل فاصل ــ ولا يضر الفصل بالقسم ولا النافية ــ وان يكون الفعل للاستقبال لا للحال . واذا سبقها حرف العطف جاز فيها الإهمال والاعمال ، وهي هنا مهملة لتقدم الفاء عليها ، ويجوز إعمالها . وسعيراً تمييز .

المعنى :

ما زال الكلام عن اليهود ، فقد وصفهم الله سبحانه في الآية ٤٤ بالضلال والاضلال ، وفي الآية ٤٥ بعدائهم المؤمنين ، وفي الآيـة ٤٦ بتحريف الكلام واللي فيه ، وفي الآية ٤٩ بتزكيتهم لأنفسهم ، وفي الآيـة ٥٠ بالافتراء ، وفي الآية ٥١ بالعناد والتعصب ، وتفضيل عبدة الأصنام دجلاً ونفاقاً على الموحدين، ثم وصفهم سبحانه بالبخل في هذه الآية :

(أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً) . والمعنى ان اليهود ليس لهـم دولة وملك ، ولو كان لهم نصيب من السلطان لاحتكروا جميع الخيرات ، ولم يتركوا لأحد شيئاً ، حتى ولو كان مقدار النقير الحقير .. وصدق الله العظيم ، ونبوءة القرآن الكريم ، فقد كانوا، وما زالوا لا يطيقون نعمة الله على عبدٍ من عباده ، فإن استطاعوا انتزاعها منه بالدس والمؤامرة ، أو بالربا، أو بالأغراء ببناتهم ونسائهم فعلوا،وان كان لهم شيء من القوة سلبوا ونهبوا وأجروا الدماء نهراً ، فمن اليوم الذي اغتصبوا فيه أرض فلسطين سنـة ١٩٤٨ أخرجوا أهلها من ديارهم بعد أن أقاموا مذابح للنساء والأطفال في أكثر من مكان .. وفي سنة ٦٧ قامت اسرائيل بمساندة الاستعمار بعملية الاغتيال لأجزاء أخرى من البلاد العربية ، وكررت فعلتها الأولى من الذبح والتشريد ، وليس هذا بغريب على تاريخهم وطبيعتهم .

وقد ملك العرب ، وامتد سلطانهم مئات السنين ، وانتشر شرقاً وغرباً،وكان اليهود من جملة رعاياهم ، فأقاموا العدل بين الجميع ، وأحسنوا لليهود وغيرهم من أهل الأديان ، حتى قال المنصفون من علماء الغرب كغوستاف لوبون : «ما عرف التاريخ فاتحـاً أرحم من العرب » وشهد غيره منهم بمثل شهادته .. ولا بدع (فكل اناء بالذي فيه ينضح) كما قال ابن الصيفي .

ومن المفيد أن ننقل ما ذكره صاحب المنار عند تفسير هـذه الآية منذ ٦٠ عاماً حين كانت فلسطين في حكم العثمانيين ، قال ما نصه بالحرف :

« وحاصل معنى الآية ان هؤلاء اليهود أصحاب أثرة وشح مطاع يشق عليهم ان ينتفع منهم أحـد ، فإذا صار لهم ملك منعوا الناس أدنى النفع وأحقره ،

فكيف لا يصعب عليهم أن يظهر من العرب نبي يكون لأصحابه ملك يخضع له اليهود ، وهذه الصفة لا تزال غالبة على اليهود ، حتى اليوم ، فإن تم لهم ما يسعون اليه من اقامة دولة بفلسطين يطردون المسلمين والنصارى ، ولا يعطونهم نقيراً .. والدلائل متوفرة على ان القوم يحاولون امتلاك الأرض المقدسة، وحرمان غيرهم من جميع أسباب الرزق .. وقد ادخروا لذلك مالاً كثيراً ، فيجب على العثمانيين أن لا يمكنوا لليهود في فلسطين ، ولا يسهلوا لهم امتلاك أرضها، وكثرة المهاجرين، فإن في ذلك خطراً كبيراً .. » . وقال صاحب تفسير المنار : « ان الآية لا تثبت ولا تنفي ملك اليهود في فلسطين ، وانما بينت ما تقتضيه طباعهم من العمل في فلسطين وغيرها لو ملكوا » .

هذا ما قاله عالم من علماء المسلمين في تفسير هذه الآية : « أم لهم نصيب من الملك فاذاً لا يأتون الناس نقيراً » . قاله قبل أربعين عاماً من قيام دولة اسرائيل بفلسطين ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على صدق محمد (ص) في نبوته ورسالته ، حيث أخبر بوحي من السماء قبل أكثر من ألف وثلاثمئة سنة ان اليهود لو ملكوا لكان منهم الذي حدث بالفعل سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧ : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين – ٢٢ الزمر » .

(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) . هذه صفة أخرى من صفات اليهود وهي الحسد ، والمراد بالناس محمد (ص) ومن معه من المؤمنين: وحسدهم اليهود على ما افاء الله عليهم من دين الحق ، والتمكين في الأرض.. ولما عجز اليهود عن رد هذه النعمة عن المسلمين تحالفوا ضدهم مع المشركين ، وبثوا الدعايات الكاذبة ضد الاسلام ونبي الاسلام، وفي النهاية دارت عليهم دائرة السوء ، وطردوا من الحجاز بما كانوا يفعلون .

(فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً) . المراد بالكتاب زبور داود ، وتوراة موسى ، وبالحكمة النبوة والعلم . والمعنى لماذا تحسدون أيها اليهود محمداً (ص) والعرب على النبوة والتمكين في الأرض ؟ فان الله قد وهب من قبل مثل ذلك لأسلافه ، كيوسف وداود وسليمان .

(فنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً) . اختلف المفسرون : هل الضمير في (به) يعود الى محمد (ص) أو الى ابراهيم أو الى الكتاب ؟. والأرجح الذي يتلائم مع المعنى ، ويساعد عليه الاعتبار انه يعود الى كل نبي آتاه الله الكتاب والحكمة ، ولفظ (كل نبي) وان لم يذكر في الآية صراحة فإنه مفهوم من مجموع الكلام وسياقه .. وعلى أية حال ، فلا خلاف في أن معنى الآية انه لا غرابة ان لا يؤمن هؤلاء وأمثالهم بمحمد (ص) فإن الأنبياء السابقين آمن بهم فريق ، وكفر بهم فريق ، والفريق الكافر كان كثيراً كما قال سبحانه : « فنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ــ ٢٦ الحديد » . (وكفى بجهنم سعيراً) . أي احتراقاً والتهاباً لمن صدّ عن الحق .

بدلناهم جلوداً غيرها الآية ٥٦ ــ ٥٧ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً★ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً★

اللغة :

نصليهم أي نشويهم ، يقال : شاة مصلية ، أي مشوية . ونضج الثمر أو اللحم أدرك وطاب ، والمراد بنضجت هنا احترقت وتلاشت .

الاعراب :

ناراً منصوب بنزع الخافض ، أي نصليهم بالنار ، ومثله ظلاّ ظليلاً ، أي

ندخلهم في ظل ظليل والظليل صفة للظل ، واشتق من لفظه للمبالغة في الوصف، كقولهم ليل أليل ، وداهية دهياء . وكلما منصوب على الظرف ، لأنه مضاف الى (ما) المصدرية الظرفية ، والعامل فيه بدلناهم .

المعنى :

(ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها) . هذه الآية بيان لقوله تعالى في آخر الآية السابقة : (وكفى بجهنم سعيراً) . والمراد بالآيات هنا كل ما ثبت في الدين بالضرورة ، مثل علم الله وقدرته ، والملائكة والجنة والنار ، وما الى ذلك مما يعود الى أصول الدين ، ومثل وجوب الصوم والصلاة ، وتحريم الزنا والخمر ، وما اليهما من الأحكام الفقهية ، والمسائل الفرعية .

وليس من شك ان الجحود كفر : وهل التشكيك كفر أيضاً كالجحود ؟. بحثنا ذلك مفصلاً في فقرة حكم تارك الاسلام عند تفسير الآية ١١٥ من سورة آل عمران .

وتسأل : ان الله سبحانه عادل ما في ذلك ريب ، فاذا أحرق الجلد الذي عصى فيه صاحبه فقد زال وتلاشى ، فاذا خلق مكانه جلداً جديداً وعذّبه كان هذا تعذيباً لجلد لم يعص الله ، وهو غير جائز عليه عز وجل ؟.

وعن الإمام جعفر الصادق (ع) انه أجاب عن هذا السؤال بقوله : ان الجلد هو هو ، وهو غيره ، وضرب لذلك مثلاً باللبنة تكسرها ، حتى تصير تراباً، ثم تصب عليه ماء وتجبله حتى يصير لبنة من جديد ، فتكون هي هي في مادتها، وهي غيرها في صورتها .

وغير بعيد ان يكون تبديل الجلود كناية عن أليم العذاب وشدته .. وفي جميع الأحوال فان المطلوب منا ان نؤمن بعدل الله وقدرته . أما التفاصيل فغير مسؤولين عنها .

(ليذوقوا العذاب) . أي ان السبب الموجب لتبديل الجلود هو احساسهم بالعذاب الدائم . وهذا النوع من العذاب مختص بالجاحد والمشرك ومن تخاف

الناس من شره ، ونحن نحيا ونموت على شهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلى العداء لكل شرير غاشم ، قال أهل العلم بالله : الذين يدخلون النار ، ولا يخرجون منها خمسة : مدعي الربوبية كنمرود وفرعون ، ومن نفى الإله جملة واحدة ، ومن جعل مع الله إلهاً آخر ، والمنافق ، وقاتل النفس المحرمة .

وبديهة أن مِن أظهر أفراد المنـافقين مَن يثير الحروب باسم المحافظة على السلم ، ويستعبد الشعوب باسم صيانة الحرية ، وينهب أقوات العبـاد باسم العمل على رفع مستوى معيشتهم ، وينشر الفجور والتهتك باسم التطور والتمدن .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات الخ تقدم نظيرها مع التفسير في سورة آل عمران الآية ١٥ .. هذا الى أنها واضحة لا تحتاج الى تفسير .

تأدية الأمانة والعدل في الحكم الآية ٥٨ — ٥٩ :

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ★

اللغة :

المراد بالتأويل في قوله : واحسن تأويلاً المآل والعاقبة ، من آل يؤول اذا رجع . وقيل ، المراد به التفسير .

الإعراب :

المصدر المنسبك من أن تؤدوا في محل جر بالباء المحذوفة ، والتقدير يأمركم بتأدية الأمانة . واذا حكمتم معطوف على يأمركم ، والمعنى ويأمركم اذا حكمتم أن تحكموا بالعدل . ونعما نعم فعل ماضٍ ، ومعناها المدح . وما محل نصب على التمييز بمعنى شيئاً ، وهي مفسرة للضمير المستتر في نعم ، والتقدير نعم الشيء شيئاً . والمخصوص بالمدح محذوف خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هو تأدية الأمانة والعدل في الحكومات . وجملة يعظكم صفة لما . والجملة من نعم وما بعدها خبر انّ . وذلك مبتدأ . وخير خبر ، وأحسن معطوف على خبر . وتأويلاً تمييز .

المعنى :

(ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها) . لقد تضمنت الآيتان وجوب تأدية الأمانة ، والعدل في الحكم ، واطاعة الله والرسول وأولي الأمر .. وقد جاء في الكتاب والسنة العديد من الآيات والروايات في الحث على حفظ الأمانة وأدائها لصاحبها براً كان أو فاجراً ، لأنها حق له بما هو انسان ، لا بما هو صالح أو طالح ، فمن القرآن هذه الآية : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات » . ومنه : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم – ٢٧ الأنفال » . ومن الروايات : « لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » . ولكن لم يرد في الكتاب والسنة – على ما نعلم – تحديد لمعنى الأمانة .

والذي نفهمه ان الأمانة هي الوديعة عندك لغيرك .. وعليك أن تحتفظ بها وتحرص عليها ، وان تردها لصاحبها عند طلبها ، كما هي ، فإذا أمسكتها عنه ، أو رددتها ناقصة محرفة فأنت خائن بحكم الكتاب والسنة .

وليس من الضروري أن تكون الأمانة عيناً حسية ، كالمال والكتاب ، فقد تكون سراً ، أو نصيحة ، أو عملاً .. وأيضاً ليس من الضروري أن يكون صاحبها الذي أن تؤديها له شخصاً حقيقياً ، فقد يكون الدين أو العلم ، بل قد

تكون نفسك بالذات صاحبة الأمانة ، وأمانة الدين والعلم ما تعلمه من حلال الله وحرامه ، ومن الخير والشر ، وتتحقق التأدية لهذه الأمانة بأن تعمل بما تعلم ، أما أمانة نفسك عندك فأن تختار ما هو الأصلح لها في دنياها وآخرتها .

وبكلمة ان الأمين هو الذي يؤدي ما عليه كاملاً غير منقوص ، سواء أكان الذي فرض هذا الواجب هو الدين ، أو العلم ، أو الوطن ، أو المجتمع ، أو أي شيء آخر .. فليست الأمانة – على هذا – ذوقاً وسليقة يعجبها من الطعام أو الشراب هذا ، لا ذاك ، ومن النساء هـــذه ، لا تلك ، ولا وصفاً يحبب الناسَ بصاحبه ، كاللطف وخفة الروح ، بل الأمانة عصب الحياة وقوامها الذي لا يستقيم شيء بدونه ، والى هذا المعنى أشار الإمام علي (ع) بقوله : «الأمانات نظام الأمة » أي ان الأمة لا تنتظم شؤونها الا اذا أدى كـــل انسان ما يطلب منه .. وقال :

« من لم يختلف سره وعلانيته ، وفعله ومقالته فقد أدى الأمانة ، وأخلص العبادة .. ومن استهان بالأمانة ، ورتع في الخيانة ، ولم ينزه نفسه ودينه عنهـا فقد أحل بنفسه في الدنيا الخزي ، وهو في الآخرة أذل وأخـزى ، وان أعظم الخيانة خيانة الأمة ، وأفظع الغش غش الأمة » . يشير الى القادة اللصوص ، وسوء أثرهم ، وفظاعة خطرهم .

ومن الدلائل على قداسة الأمانة وعظمتها قول الفقهاء : من أعلن الحرب على الإسلام والمسلمين ، وأباح دماءهم وأموالهم ، لا لشيء الا بغضاً بكلمة التوحيد حل ماله ودمه ، ولا تحل أمانته ، قال الإمام زين العابدين (ع) : لو ائتمني قاتل أبي على السيف الذي ذبحه به لما خنته .. وقال رجل للإمام الرضا (ع) : ان يهودياً خانني في ألف درهم ، وحلف ، ثم وقعت له عندي أرباح ، فهل اقتص منه ؟. قال الإمام : ان كان ظلمك فلا تظلمه .. وفي رواية ثانيـــة : « ان خانك فلا تخنه ، ولا تدخل فيما عبته عليه » ، والسر في ذلك ان الأمانة حق لصاحبها بوصفه انساناً ، لا بوصفه مسلماً ، لا مشركاً ، أو طيبـــاً ، لا خبيثاً . وسنعود الى الحديث عن الأمانة عند تفسير الآية ٧٢ من سورة الأحزاب: « انّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض » .

(واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) . بعد أن أوجب سبحانه رد الأمانة الى أهلها عقب بوجوب العدل في الحكم بين الناس ، لأن من لا ينصف الناس من نفسه فلا يحق له أن ينصبها حكماً بينهم .. ووجوب العدل لا يختص بالقاضي ، بل يشمل الوالي أيضاً ، والوالي العادل هو الذي يهتم بجميع نواحي الحياة ، كالصحة والثقافة والعيش والحرية للجميع .. وقبل كل شيء يجب عليه أن لا يدع منفذاً لطامع – أجنبياً كان أو من الوطن – يسلك منه الى التحكم والسيطرة على شأن من شؤون الناس ومقدراتهم .. فلقد أثبتت الأحداث التي مررنا بها ان المصدر الأول والأخير لما أصابنا من ويلات ونكبات هو تسرب اللصوص وغير الاكفاء الى مراكز القوة ، والمناصب العالية .

أما عدل القاضي فيتمثل في مساواته بين الخصمين في كل شيء ، واعطاء كل ذي حق حقه بصرف النظر عن دينه وعقيدته ، وصداقته وعداوته ، وعظمته وضعته ، وما عرف التاريخ شريعة اهتمت وتشددت في ذلك كالشريعة الاسلامية ، قال رسول الله (ص) : « من جُعل قاضياً فقد ذبح بغير سكين » يشير الى أن مهمة القاضي أصعب المهمات وأدقها ، لأن عليه أن يجاهد نفسه ويكافحها اذا كان الحق على غير ما يهوى .. وقال « القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاضٍ في الجنة ، فأما الذي في الجنة فرجل علم الحق ، فقضى به، وأما اللذان في النار فرجل قضى للناس على جهل ، ورجل علم الحق ، وقضى بخلافه » .. وقد تواتر ان علياً أمير المؤمنين (ع) جلس للمحاكمة بين يدي قاضيه شريح هو ونصراني خاصمه في درع .

(ان الله نعما يعظكم به) . المراد بالعظة هنا الأمر برد الأمانة ، ولفظ نعم يشعر بأن الله سبحانه لا يأمر إلا بما فيه الخير والصلاح .

من هم أولو الأمر ؟

(يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) . لقد كثر الكلام والنقاش حول المراد من أولي الأمر ، وما يعتبر فيهم من صفات ، كما تشبث بها الحكام الادعياء على وجوب اطاعتهم ، أو السكوت عنهم – على

الأقل – وأيضاً استدل بها جماعة من الفقهاء على أن مصادر الشريعة وأصولها تنحصر بأربعة ، وهي : كتاب الله لقوله تعالى : أطيعوا الله . والسنة النبوية لقوله : وأطيعوا الرسول . والاجماع لقوله : وأولي الأمر منكم . والقياس لقوله: فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ، حيث زعموا ان المعنى قيسوا ما لا نص فيه على نظيره الذي فيه نص من الكتاب والسنة ، ويأتي البيان عن ذلك، ولا خلاف في ان الكتاب والسنة هما الأصلان الأساسيان للتشريع ، أما الاجماع والقياس فقد اختلفوا في حجيتها ، وفي دلالة الآية عليهما . وفيما يلي نعرض الجهات التي تضمنتها الآية ، والآراء التي قيلت حولها .

١ – لا يختلف اثنان من المسلمين في أن اطاعة الله والرسول انما تكون بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وانهما وسيلتان للتعبير عن شيء واحد ، « من يطع الرسول فقد أطاع الله – ٨٠ النساء » . « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا – ٧ الحشر » . « وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى – ٥ النجم » . ومن هنا اتفق المسلمون قولاً واحداً على رفض كل ما ينسب الى النبي (ص) اذا تنافى مع مبدأ من مبادىء القرآن وحكم من أحكامه .

وتسأل : لماذا كرر لفظ الاطاعة عند ذكر الرسول ، ولم يكررها عند ذكر أولي الأمر ؟.

الجواب : للتنبيه على ان اطاعة الرسول أصل بذاته ، تماماً كإطاعة الله ، ومن هنا كان قول كل منهما مصدراً من مصادر الشريعة ، وليس كذلك اطاعة أولي الأمر .. انها فرع وتبع لاطاعة الله والرسول، ان اولي الأمر رواة عن الرسول .

٢ – ان لفظ منكم يدل بوضوح على ان حاكم المسلمين يجب أن يكون منهم، ولا يجوز اطلاقاً ان يكون من غيرهم ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً – ١٤١ النساء » .

٣ – اختلفوا في المراد من أولي الأمر بعد اتفاقهم على شرط الإسلام ، فمن قائل : انهم الخلفاء الراشدون . وقائل : انهم قادة الجيش . وقال ثالث : هم علماء الدين . وقال الشيخ محمد عبده : هم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند ، وسائر الزعماء الذين يرجع اليهم الناس في الحاجات والمصالح، فإذا اتفق

هؤلاء على أمر وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا أمناء وألا يخالفوا أمر الله، ولا سنة رسوله ، وأن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر واتفاقهم عليه .

وقال الشيعة الإمامية : ان الله سبحانه عطف بالواو اطاعة أولي الأمر على اطاعة الرسول بدون قيد ، والعطف بالواو يقتضي الجمع والمشاركة في الحكم ، ومعنى هذا ان اطاعة أولي الأمر هي اطاعة الرسول ، وان أمرهم هو أمره .. وليس من شك ان هذه المرتبة السامية لا تكون الا لمن اتصف بما يؤهله لهذا الطاعة ، ولا شيء يؤهله لها الا العصمة عن الخطأ والمعصية ، فهي وحدها التي تجعل طاعته وطاعة الرسول سواء ، وقد اعترف الرازي بفكرة العصمة صراحة، وقال : ان أولي الأمر الذين تجب اطاعتهم لا بد أن يكونوا معصومين،والرازي – كما هو معروف – من كبار علماء السنة وفلاسفتهم ومفسريهم ، وهذا ما قاله بالحرف :

« اعلم ان قوله (أولي الأمر) يدل عندنا على ان اجماع الأمة حجة ، والدليل على ذلك ان الله تعالى أمر بالطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية ، ومن أمر الله بطاعته لا بد أن يكون معصوماً عن الخطأ ، اذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ،كان بتقدير اقدامه على الخطأ مع ان الله قد أمر بمتابعته ، فيكون ذلك أمراً بفعل الخطأ ، مع العلم بأن متابعة المخطىء منهي عنها .. فثبت ان المقصود من أولي الأمر المذكورين في الآية لا بد أن يكون معصوماً».

وهذا عين ما قاله الشيعة في تفسير هذه الآية ، والخلاف بينهم وبين السنة في التطبيق وتعيين المعصوم ، فالسنة يقولون : العصمة للأمة ، وفسروا الأمة بأهل الحل والعقد ، وقال كثير منهم : يكفي بعض أهل الحل والعقد.. وقال الشيعة : ان المراد بأولي الأمر أهل البيت ، وهم المعصومون والمطهرون من الرجس والدنس ، ففكرة العصمة – اذن – ليست خاصة بالشيعة ، ولم يتفردوا بالقول بها ، بل هي عند السنة ، كما هي عند الشيعة ، والفرق انما هو في التطبيق وتعيين المعصوم ، كما قلنا،فالحملة على الشيعة من أجل القول بالعصمة ، دون غيرهم ، لا مبرر لها الا التعصب ، وبث روح الشقاق والتفرقة .

واستدل الشيعة على عصمة أهل البيت بأن العصمة منحة إلهية يختص الله بها

من ارتضى من عباده، ومحال أن تحصل العصمة بالاكتساب، مهما اجتهد الانسان، وجاهد، كما هو شأن سائر الصفات، كالعدالة والايمان، وما اليها. وعليه ينحصر الطريق الى معرفة العصمة بالوحي فقط، وقد ثبت النص كتاباً وسنة على عصمة أهل البيت (ع)، من ذلك قوله تعالى: «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً – ٣٣ الأحزاب».

ومن ذلك قول الرسول الأعظم (ص): «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع علياً فقد أطاعني، ومن عصى علياً فقد عصاني». رواه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح، وصححه أيضاً الذهبي في تلخيص المستدرك، وفي الكتاب المذكور قال النبي (ص): علي مع القرآن، والقرآن مع علي لن يفترقا، حتى يردا علي الحوض. وروى الترمذي في مسنده والحاكم في مستدركه وابن حجر في صواعقه عن الرسول الأعظم (ص) انه قال: اللهم ادر الحق مع علي كيف دار. وأيضاً روى الامام ابن حنبل والترمذي والحاكم وابن حجر قوله (ص): اني قد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، واشتهر عن النبي (ص): انما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا. الى عشرات الأحاديث، وكلها مدوّنة في كتب السنة وصحاحهم، ومروية بأسانيدهم، وقد جمعها ووضع لها علماء الشيعة مؤلفات خاصة في القديم والحديث، فن القديم كتاب الشافي للشريف المرتضى، وتلخيصه للشيخ الطوسي، ونهج الحق للعلامة الحلي، ومن الحديث المجلد الثالث من أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين، ودلائل الصدق للشيخ المظفر، والمراجعات لشرف الدين.

وبالاجمال ان الشيعة والسنة يؤمنون معاً بالعصمة كمبدأ[1] وأيضاً يتفق الشيعة

---

١ ان فكرة العصمة لا تختص بالشيعة ولا بالسنة، فالمسيحيون قالوا بعصمة البابا، والشيوعيون بعصمة ماركس ولينين، والصينيون بعصمة ماوتسي تونغ، والاخوان المسلمون بعصمة حسن البنا، والقوميون السوريون بعصمة أنطون سعادة، وهكذا كل حزب يقول بعصمة رئيسه ومؤسسه وواضع مبادئه. وقد تكلمنا عن العصمة مفصلا عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة، فقرة الإمامة وفكرة العصمة، ص ١٩٦ من المجلد الأول.

وأكثر السنة ، أو الكثير منهم على ان أولي المذكورين في الآيــة معصومون ، وأيضاً يتفقون على ان الدليل على عصمتهم ان الله أوجب اطاعتهم ، تماماً كما أوجب اطاعة الله والرسول ، ولكن السنة والشيعة يختلفون في المراد من أولي الأمر المعصومين : هل هم أهل الحل والعقد ، أو هم أهل البيت (ع) ؟.

قال السنة : هم أهل الحل والعقد . وقال الشيعة : هم أهل البيت ، لأن العصمة منحة إلهية لا تعرف الا بالنص من الله والرسول ، وقد ثبت النص عنهما على عصمة أهل البيت ، اذن يكون المراد بأولي الأمر أهل البيت دون غيرهم ، وبتعبير ثانٍ ان أولي الأمر في الآية معصومون لوجوب اطاعتهم، لأن من وجبت اطاعته فهو معصوم .. وأيضاً ثبتت عصمة أهل البيت بالنص ، ولم تثبت عصمة غيرهم ، ومن ثبتت عصمته فهو واجب الطاعة ، فالنتيجة الحتمية ان أولي الأمر هم أهل البيت ، وان أهل البيت هم أولو الأمر دون غيرهم .. ومثل ذلك أن يقول لك قائل : استمع للناصح الأمين ، ولا ناصح أمين الا زيد ، فالنتيجة استمع لزيد .

ومما استدل به الشيعة على عدم جواز الرجوع الى أهل الحل والعقد في الأمور الدينية – قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون – ١٨٦ الأعراف » . وقوله : « وأكثرهم لا يعقلون – ١٠٦ المائدة » . وقوله : « ولكن أكثركم للحق كارهون – ٣٤ التوبة » . ومعنى هذا ان الحق لا يعرف بالناس قلّوا أو كثروا ، وانما تعرف الناس بالحق الذي يؤخــذ من كتاب الله ، وسنة نبيه ، وحكم العقل البديهي الذي لا يختلف فيه اثنان .

– على الهامش – أرسم هذه الكلمات في شهر آذار سنة ١٩٦٨ والانتخابات لمجلس النواب بلبنان قائمة على قدم وساق ، والأكثريــة تزدحم على صناديق الاقتراع ، لتنتخب من دفع لهـــا سلفاً ثمن الأصوات بعـــد المزايدة ، أو وعد أصحابها بتلبية أغراضهم وأهوائهم . وسلام عـــلى من وصف بعض الانتخابات بقوله : « فصغى رجل لضغنه – أي مال مع حقده – ومال آخر لصهره ، مع هن وهن » كناية عن أشياء يكره ذكرها . وقال في مناسبة ثانية : « همج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا الى ركن وثيق » .

القياس :

(فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) . قدمنا ان قوله تعالى : (اطيعوا الله واطيعوا الرسول) يدل بالاتفاق على وجوب التمسك بالكتاب والسنة، وان قوله : (وأولي الأمر منكم) يدل على وجوب اطاعة أهل بيت النبي (ص) عند الشيعة ، وعلى اطاعة أهل الحل والعقد عند أكثر السنة ، أو الكثير منهم . والآن نتكلم عن قوله : (فان تنازعتم في شيء الخ) وهل يدل على وجوب العمل بالقياس ، أو هو أجنبي عنه ؟. وقبل الجواب عن هذا السؤال نطرح السؤال التالي :

لماذا أوجب الله سبحانه الرد عند التنازع الى الله والرسول ، دون أولي الأمر مع العلم بأنه أوجب اطاعة الثلاثة ؟.

الجواب : لأن التنازع قد يقع في تعيين أولي الأمر أنفسهم ، كما حدث ذلك بالفعل ، حيث قال السنة : هم أهل الحل والعقد . وقال الشيعة : هم أهل البيت ، وعليه يجب الرجوع في هذا التنازع الى كتاب الله ، وسنة الرسول ، ومن أجل هذا استدل الشيعة بآية التطهير وحديث الثقلين وغيره على ان أولي الأمر هم أهل البيت .

ونعود الآن الى دلالة الآية على وجوب العمل بالقياس،أو عدم دلالتها عليه. والقياس هو اعطاء حكم الواقعة المنصوص عليها شرعاً لواقعة أخرى لم ينص الشارع عليها لمشاركة الواقعتين في علة يستنبطها الفقيه من تلقائه وعندياته – مثلاً – نص الشارع على ان الجدة لأم ترث ، ولم ينص على الجدة لأب ، فنُورّث الجدة لأب قياساً على الجدة لأم ، لأن كلتيهما جدة ..

قال السنة : ان قوله تعالى: « فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » يدل على صحة العمل بهذا القياس ، لأن « معناه فردوه الى واقعة بيّن الله حكمها ، ولا بد أن يكون المراد فردوها الى واقعة تشبهها » .

وقال الشيعة : ان الآية بعيدة عن القياس ولا تدل على أكثر من وجوب الرجوع الى الكتاب والسنة في المسائل الدينية التي يقع فيها الخلاف بين الفقهاء ، وأقوال الأئمة المعصومين تدخل في السنة،لأنها روايات عن جدهم رسول الله(ص) ،

أما طريقتهم فيما لا نص فيه من الكتاب والسنة فهي الرجوع الى حكم العقل البديهي القطعي الذي لا يختلف فيه اثنان ، مثل قبح العقاب بلا بيان ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وليس القياس من هذا الباب ، لأن نتائجه كلها ظنية ، والظن لا يغني عن الحق شيئاً [1] .

ومما استدل به الشيعة على بطلان القياس ان الامور العرفية يصح قياس بعضها علي بعض ، لأن أسبابها بيد العرف ، أما الأحكام الدينية فلا يصح فيها القياس ، لأن الشرع قد جمع بين المختلفات ، كما في موجبات الوضوء ، حيث سوّى بين النوم والبول ، وفرّق بين المجتمعات ، حيث أوجب قطع يد من سرق درهما ، دون من اغتصب مئات الألوف .

(ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) . قال صاحب مجمع البيان : « فما أبين هذا وأوضحه » . ونقول : ما ألطف هذا التفسير وأحسنه . (ذلك خير وأحسن تأويلاً) . أي ان اطاعة الله والرسول ، وارجاع حكم المختلف فيه الى الكتاب والسنة أحمد عاقبة ومآلاً ، هذا اذا فسرنا التأويل في الآية بالمآل. وقيل: المراد به التفسير ، وعليه يكون المعنى ان تفسير الله والرسول لما تنازعتم فيه خير وأحسن من تفسيركم ، ومهما يكن ، فان لفظ التأويل يتحمل المعنيين .

يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت الآية ٦٠ ـ ٦٣ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً ★ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى

---

١ هذا ما عليه العمل اليوم عند علماء الشيعه ، ولكن الموجود في عهد علي أمير المؤمنين لمالك الاشتر ان الرد إلى الله في الآية هو الأخذ بالنص الصريح في كتاب الله ، والرد إلى رسول الله هو الأخذ بسنته التي أجمع المسلمون على نسبتها اليه .

مَـــا أُنْزَلَ اللهُ وَإِلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً★ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً★ أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَـــا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً★

اللغة :

الزعم في أصل اللغة القول حقاً كان أو باطلاً ، ثم كثر استعماله في الظن والاعتقاد اللذين يُعتقد ببطلانهما ، أو يُشك بصدقها ، ولم يُستعمل في القرآن الا في الكذب والباطل ، فمن استعماله في الباطل قوله تعالى : « هذا لله بزعمهم – ١٣٦ الانعام » . ومن استعماله في الكذب قوله : « زعم الذين كفروا ان لن يُبعثوا – ٧ التغابن » . والطاغوت مصدر ، وفيه مبالغة ، والمراد به هنا المبطل . والصدود الإعراض .

الاعراب :

كيف في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف ، أي كيف صنيعهم اذا أصابتهم مصيبة . وجملة يريدون حال ، ومثلها جملة وقد أمروا ، وجملة يحلفون . أما جملة ان أردنا الا احساناً فجواب القسم . وفي أنفسهم متعلق ببليغ ، أي قل لهم قولاً يؤثر في نفوسهم .

المعنى :

(ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بمـــا انزل اليك وما انزل من قبلك

يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) . ألم تر الخطاب للنبي (ص) بصيغة الاستفهام ، والمراد به التعجب من حال المنافقين الذين أبطنوا الكفر ، وأظهروا الإسلام والإيمان بالكتب السماوية ، ومحل التعجب انهم كذّبوا أنفسهم بأنفسهم ، حيث رفضوا التحاكم عند أهل الحق ، وانصرفوا عنهم الى أهل الباطل ، مع ان الاسلام يأمرهم بالابتعاد عن الضالين والمبطلين ، ولكن الواقع تغلب على التزبيف والتمويه ، وأبطل ما كان يدعون .

قال صاحب مجمع البيان : تخاصم يهودي ومنافق من المسلمين ، فقال اليهودي: احاكمك الى محمد ، لأنه علم ان محمداً (ص) لا يقبل الرشوة ، ولا يجور في الحكم . فقال المنافق : بل بيني وبينك كعب الأشراف – يهودي – لأنه علم ان كعباً يأخذ الرشوة ، ويجور في الحكم .

ورغم علمنا بأن أكثر المفسرين لا يتثبتون في أسباب التنزيل ، وأنهم يتخذون من الحادثة سبباً لنزولها ، رغم علمنا هذا فلا نرى مثالاً يفسر المعنى المراد من الآية أوضح من هذه الحادثة التي ذكرها صاحب مجمع البيان .. رفض المنافق التحاكم الى الرسول (ص) ، لأنه يكفر به وبدينه ، أما اليهودي فانه يؤمن باليهودية،ومع ذلك أبى التحاكم عند يهودي مثله،وطلب التحاكم الى الرسول (ص)، وهو كافر به وبدينه ، والسر هو المنفعة .. ولا تختص هذه الظاهرة باليهود ، فكل من نال خيراً من دين ، أو مبدأ فلا ينبغي الوثوق به ولا بدينه إلا بعد الابتلاء ، فان كثيراً من الناس يقبضون الألوف ، ويعيشون سعداء ، لا لشيء إلاّ لثقة الناس بإيمانهم وصلاحهم . وربما كانوا ممن ينطبق عليهم قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة – ١١ الحج » .

وقال الإمام علي (ع) : الثناء بعد البلاء . وقال ولده الإمام الحسين (ع) : الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت عليه معائشهم ، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون . وكان الرسول الأعظم (ص) يقول في السراء: « الحمد لله المنعم المفضل ، ويقول في الضراء : الحمد لله على كل حال » يشير الى انه مؤمن بالله راضٍ بما قدّر ، حتى في هذه الحال ، تماماً كالولد البار ، يبقى على اخلاصه لوالده ، حتى في حال تأديبه له .

قال الإمام علي (ع) : لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على ان يبغضني ما أبغضني . وكان حفيده الإمام زين العابدين (ع) يقول فيما يقول اذا أصابته شدة : يا إلهي أي الحالين أحق بالشكر لك ؟ وأي الوقتين أولى بالحمد لك ؟ أوقت الصحة التي هنأتني فيها ؟ أو وقت العلة التي محصتني بها ؟.. اللهم اجعل مخرجي من علتي الى عفوك ، وسلامتي من هذه الشدة الى فرجك .

(ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) . هذا دليل صريح على ان الشر من الشيطان ، لا من الرحمن .. وكل فكرة تدفع بك الى الشر تسمى شيطاناً ، قال تعالى : « الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس » . وفي الحديث: « اذا قال لك الشيطان : ما أكثر صلاتك !.. فقل له : غفلتي أكثر . واذا قال لك : ما أكثر حسناتك !.. فقل : سيئاتي أكثر . واذا قال : ما أكثر من ظلمك !.. فقل : من ظلمته أكثر » . وبديهة ان النفس هي التي تصور لصاحبها انه عابد ومحسن ومظلوم ، ولا ينخدع بأباطيلها هذه الا جاهل مغرور.

(واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) . لأنهم لا يؤمنون بالله ولا برسوله ، ولا بشيء الا بالعاجل من أين أتى .

(فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم) . وأعظم المصائب كلها على المنافقين أن ينكشف أمرهم ، وينفضح سرهم أمام الملأ، حيث يعرفون عند الناس بالخيانة والغدر والكذب والمكر والخداع والجبن والهوان .

(ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احساناً وتوفيقاً) . يأتون الرسول خاضعين خانعين يتعللون بالمعاذير ، والله يعلم ، ورسوله يعلم ، والناس يعلمون ان المنافقين لكاذبون ، وانهم يتخذون ايمانهم جنة ووقاية من الخزي والعقوبة .

(فاعرض عنهم) . أي تجاهل أمرهم ، فلا تقبل منهم عذراً ، لأنهم يستغلون قبولك هذا في أغراضهم ، ولا تعاقبهم ، لأنهم اعتذروا ولو ظاهراً (وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) . كأن يأمرهم النبي (ص) بتقوى الله بأسلوب يشعرون معه بأنهم مخطئون ، وان عليهم أن يحاولوا تطهير أنفسهم بالانابة .. هذا هو مبدأ الإسلام في كل مجرم لا يعاجله بالعقوبة ، ولا يؤيسه

من العفو ، بل يستنفد معه جميع الطرق الى اصلاحه : « اذهبا الى فرعون انه طغى وقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى – ٤٤ طـه » . وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) : الفقيه ، كل الفقيه من لم يُقنّط الناس من رحمة الله ، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ومصدر هذه الحكمة قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله – ٥٣ الزمر » .

وما أرسلنا من رسول الا ليطاع الآية ٦٤ – ٧٠ :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً ★ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ★ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ★ وَإِذاً لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ★ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ★ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً ★ ذٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً ★

اللغة :

الشجر معروف ، وشجر الأمر بين القوم ، وتشاجروا تنازعوا وتداخل كلام بعضهم ببعض ، مأخوذ من التفاف أغصان الشجر ، وتشابكها وتداخل بعضها ببعض . والحرج الضيق . والتثبيت التقوية وجعل الشيء ثابتاً راسخاً . والصديقين جمع صديق مبالغة في الصدق والمداومة عليه .

الاعراب :

من رسول (من) زائدة ، ويُؤتى بها بعد النفي في مثل الآية لتأكيد العموم والاستغراق . واللام في ليطاع لام كي ، والمصدر المنسبك من ان المضمرة والفعل مجرور باللام متعلق بأرسلنا على معنى المفعول من أجله . وجملة جاءوك خبر أنهم ، والمصدر المنسبك من ان واسمها وخبرها فاعل لمحذوف ، والتقدير لو حصل مجيئهم . فلا وربك (فلا) أفادت هنا نفي ما سبق ، أي ليس الأمر كما زعموا ، ثم استأنف القسم . ويحكموك منصوب بأن مضمرة بعد حتى . وثم لا يجدوا معطوف على فعل مقدر ، أي فتقضي ثم لا يجدوا . وان اقتلوا (ان) مفسرة بمعنى أي . وقليل بالرفع على انه بدل من ضمير فعلوه ، ويجوز النصب على الاستثناء . وتثبيتاً تمييز . واذن سبق اعرابها في الآية ٥٣ من هذه السورة . ورفيقاً تمييز على معنى من رفيق ، ويجوز ان يكون حالاً ، أي في حال المرافقة . وكفى بالله الباء زائدة ، ولفظ الجلالة فاعل .. وعليماً تمييز .

المعنى :

(وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) . المراد باذن الله أمره جل وعلا ، وتسأل : ان هذا الاخبار أشبه بتوضيح الواضح ، لأن اضافة الرسول الى الله تدل بذاتها على انه أرسل كي يطاع ، وإلا لم يكن للاضافة معنى ، فما هو القصد ، اذن من هذا البيان ؟.

الجواب : القصد القـــاء الحجة على المنافقين الذين عصوا الرسول ، ورفضوا التحاكم اليه .. ووجه الحجة ان الله سبحانه بيّن للمنافقين وغيرهم في هذه الآية ان معصية الرسول ليست معصية له بالذات ، وانما هي معصية لله ، حيث أبى إلا ان يجري الأمور على سننها : ومن هذه السنن أن يبُلغ أحكامه لعباده بواسطة رسول منهم ، وعلى هذا فمن عاند الرسول فيما يبلغه من أحكام الله فقد عانـد الله ، والى هذا المعنى يشير قوله تعالى : (باذن الله) . والنتيجة ان المنافقين ، وكل من يعصي الله مستحقون للعقاب لأنهم عصوا الله وخالفوه .

(ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جـــاءوك فاستغفروا الله واستغفر الرسول لهم لوجدوا الله تواباً رحيماً) . ظلموا أنفسهم ، حيث عرضوها للعذاب والهلكـة بما اقترفوا من ذنوب ، وظلموا الله أيضاً بتجاوز حدوده ، وعصيان أوامره ، وظلموا النبي (ص) ، لأنهم رفضوا حكمه ، وارتضوا حكم الطاغوت ، وأظهروا له خلاف ما يضمرون .

وبالرغم من هذا كله فان الله قد فتح لهم باب التوبـة ، وما عليهم إلا أن يلجوه ، ويطلبوا المغفرة ، فان فعلوا أدخلهم في رحمته ، وان استنكفوا فـــلا يجدون من دونه ولياً ولا نصيراً .

وتسأل : ان قوله تعالى : (واستغفر لهم الرسول) يتنافى مع مبدأ الاسلام الذي يرفض فكرة الوسطاء بين الله والناس ؟.

الجواب : أجل ، لا واسطة بين الله وعباده ، ولكن فيما يعود الى حقوقه تعالى ، والتعدي عليها ، أما التعدي عـلى حقوق الناس فالأمر اليهم ، والصفح عنها يُطلب منهم ، لا من غيرهم .. والمنافقون قد آذوا الرسول ، وتعدوا على حقه فكان لا بد في توبتهم ان يظهروا الندم له ، ويطلبوا الصفح منه ، وكل من أظهرت له خلاف ما تضمر فقد ظلمته ، وتعديت على حقه ،بل لو علمت ان (فلاناً) ظن بك وصفاً حسناً ، وما هو فيك ، وعاملك واتمنك على أساسه ، ثم تجاهلت وأغضيت ولم تلفت نظره ، وعلى الأقل تتهرب منه ، إذا كان كذلك فأنت ظالم له .

(حتى يحكموك فيما شجر بينهم) ، لأن جميع الأحكام التي تلفظ بها محمد

ليست منه ، وإنما هي من الله وحده ، والنبي لسانه وبيانه .

(ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) . المعنى انهم لا يؤمنون ، حتى يعلموا علم اليقين ان حكمك هو حكم الله بالذات ، وان من ردّ عليك فعلى الله يرد .. ومحال أن يشعر المؤمن حقاً بالضيق والحرج من حكم يعلم انه من عند الله .. أجل ، قد يريد بينه وبين نفسه أن يكون الأكل مباحاً في شهر رمضان – مثلاً – ، ولكنه مع ذلك يصوم ويمتنع عن الأكل خوفاً من عذاب الله الذي هو أشد وأشق من الصيام ، وقد تغلبه نفسه على المعصية ، ولكنه يتألم ويتبرم منها ، ويلعنها ، لأنها استثقلت الحق .. وهذا عين الايمان .

(ولو انّا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم) . ان دين الله سعة ويسر ، وخير وصلاح ، فلا يكلف أحداً فوق طاقته ، ولا بغير منفعته ديناً ودنيا ، قال تعالى : « وما جعل الله عليكم في الدين من حرج – ٧٨ الحج » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم – ٢٤ الأنفال . وعليه فإن الله سبحانه لا يأمر بالخروج من الديار ، ولا بقتل النفس الا ما كان من الاسرائيليين لأمر استحقوا من أجله هذا القتل .

وتسأل : اذا كان الأمر كذلك فلا وجه لقوله تعالى : (ولو انّا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم) لأنه أمر بما لا يطاق ؟.

الجواب : ان هذا مجرد فرض ، ولذا جيء بـ (لو) التي تدل على امتناع شيء لامتناع غيره ، والغرض من هذا الفرض أن يبين الله سبحانه ان المنافقين لا عذر لهم اطلاقاً في العناد والتمرد على أحكامه سبحانه ، حيث لا مشقة فيها ولا ارهاق ، بل هي رحمة لهم ، وسعة عليهم ، ومع هذا عصوا واستنكفوا .

واذا استنكف المنافقون واضرابهم عن طاعته جل وعلا ، على ما فيها من سهولة ويسر فإن في صحابة الرسول (ص) من لو أمر بقتل نفسه لفعل،والى هؤلاء اشار تعالى بقوله : (الا قليل) ومن هذا القليل ياسر وزوجته اللذان استشهدا في التعذيب من أجل الإسلام ، وولدهما عمار الذي قتلته الفئة الباغية يوم صفين، وكان في مناجاته يخاطب الله،ويقول : اللهم انك تعلم لو اني أعلم ان مرضاتك

في ان اضع سيفي هذا في صدري ، وأنحني عليه ، حتى يخرج من ظهري لفعلت .

(ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً وأشد تثبيتاً) . المراد بفعل ما يوعظون به اطاعة الله في أوامره ونواهيه : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً – ٧١ الأحزاب » . والمراد بالتثبت الثبات على الإيمان، قال الإمام علي (ع) : « فمن الايمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب ، ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور الى أجل معلوم » .وبهذا فسّر الامام الصادق قوله تعالى: « فمستقر ومستودع – ٩٨ الانعام » .

(واذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً) . هذا بيان للخير في قوله سبحانه : (لكان خيراً لهم) وكل أجر الله وثوابه عظيم ، وان قل – ان صح التعبير – فكيف اذا وصفه هو بالعظمة .

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) . هذه الآية تأكيد للآية السابقة ، وترغيب في الايمان والصلاح الذي يجعل صاحبه رفيقاً للنبيين والشهداء والصالحين .

من هم الصديقون ؟

قال الشيخ محمد عبده : « الصديقون هم الذين زكت فطرتهم ، حتى أنهم يميزون بين الحق والباطل ، والخير والشر بمجرد عروضه عليهم » .

وهذا القول قريب من قول الصوفية بأن الانسان اذا جاهد نفسه وروّضها أدركت الحق تلقائياً من غير تعلم .

والأليق بالواقع أن نفسر الصديقين بالأئمة المعصومين الكاملين في أنفسهم المكلمين لغيرهم ، لأن الله سبحانه قد جعلهم في المرتبة الثانية من النبيين بلا فاصل ، وهذه المرتبة لن تكون أبداً لمن يجوز عليه الخطأ ، لان من جاز عليه الخطأ لا يكون مكملاً لغيره كمالاً حقيقياً ، بل يحتاج الى كامل حقيقي يرده عن خطأه ، وهذا الكامل هو المعصوم ، وبتعبير ثانٍ ان الصادق على نوعين :

الأول أن لا يتعمد الكذب ، ولكن يجوز عليـه الخطأ والاشتباه ، كمن يخبر بشيء ، وهو يؤمن بصدق ما اخبر ، ثم يتبين ان خبره غير مطابق للواقع ، فيكون هو صادقاً في قصده ، وخبره كاذباً .. وهذا كثيراً ما يحدث .

النوع الثاني : ان لا يتعمد الكذب ، ولا يجوز عليه الخطأ ، بحيث لا يخالف قوله الواقع بحال ، وهذا هو المراد بالصديقين ، وبأولي الأمر في الآية ٥٩ من هذه السورة ، وعند تفسير هذه الآية ، فقرة « من هم أولـو الأمر » ذكرنا الدليل من الكتاب والسنة عـلى ان أهل البيت (ع) معصومون لا يجوز عليهم الخطأ والاشتباه . وعلى هذا يكون المراد بالصديقين في الآية ٦٩ ، وأولي الأمر في الآية ٥٩ هم أهل البيت .

وأيضاً قال الشيخ محمد عبده : « ان المراد بالشهداء هنا أهل العدل والانصاف الـذين يؤيدون الحق بالشهادة لأهله بأنهم محقون ، ويشهدون على أهل الباطل بأنهم مبطلون » .

وهذا تأويل لظاهر اللفظ من غير دليل . فان المفهوم من الشهداء انهم الذين قُتلوا في سبيل الله والحق .. أجل ، جاء في الحديث ان مـداد العلماء كدماء الشهداء ، وان من مات دون ماله ، أو تمنى الاستشهاد في سبيل الحـق مات شهيداً ، أي له ثواب الشهيد . وبديهـة ان الشهيد شيء ، ومن له منزلتـه شيء آخر .

أما الصالحون فهم الذين صَلحت عقائدهم وأعمالهم ، قال الامام علي (ع) : بالايمان يُستدل على الصالحات ، وبالصالحات يُستدل على الايمان » . وليس من شك ان المعرفة بحلال الله وحرامه اجتهاداً أو تقليداً شرط أساسي في الصلاح ، لأن الجهل يُفسد الاعتقاد والعمل .

(ذلك الفضل من الله) . أجل ، ان مرضاة الله ، ورفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين هي السعادة الحقة ، والفضل الدائم ، لا هذا المتاع الزائل

خذوا حذركم الآية ٧١ - ٧٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً★ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً★ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً★

اللغة :

للنفر معانٍ كثيرة ، والمراد به هنا الخروج للحرب . والثُبات بضم الثاء جمع ثبة . وهي الجماعة المنفردة ، والتبطئة من الابطاء ، والمراد بها هنا الحمل على البطء والتأخر . والمراد بالشهيد الحاضر .

الإعراب :

ثبات حال من الواو في (انفروا) ومثله جميعاً . واللام في (لمن) للابتداء دخلت على اسم ان واللام في (ليبطئن) جواب قسم محذوف ، أي اقسم ان منكم لمن ليبطئن ، والقسم وجوابه صلة لمن . وكأنْ للتشبيه ، وهي مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، أي كأنه . وجملة لم يكن خبر، وجملة كأن مع اسمها وخبرها لا محل لها من الإعراب ، لأنها معترضة بين قوله تعالى: (ليقولن) ومفعول القول ، وهو (يا ليتني كنت معهم) . ويا للتنبيه ، وليست للنداء ، والمنادى محذوف ، كما قيل . وفافوز منصوب بأن مضمرة بعد

الفاء ، والمصدر المنسبك معطوف على مصدر متصيد من معنى ليتني كنت معهم، أي ليت كان لي الحضور معهم فأفوز .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) . هذه الآية من آيات الحث على الجهاد، وسبق منها كثير ، وما يأتي أكثر ، ولكن هذه الآية توجب النفير العام ، وحشد الأمة كلها الى الحرب ، ان أحوج الحال .. وان دل هذا الاهتمام على شيء فإنما يدل على ما كان للاسلام من أعداء ، يدبرون له المكائد والمصائد ، وما للمسلمين من خصوم يناصبونهم ويفتنونهم عن دينهم .. والى اليوم يقاسي الإسلام والمسلمون الكثير من أهل الكفر والطغيان ، فمن الطبيعي – اذن – ان يحث الله سبحانه المسلمين على الحذر والتعرف على قوة العدو والاستعداد له بسلاح أمضى وأقوى .

(فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً) . انفروا أمر بالخروج للحرب ، وثبات أي فصائل وفرقاً من الجنود المتخصصين للقتال ، وجميعاً أي جيشاً وشعباً ، حسبما تقتضيه الحال . والقصد هو الاستعداد لمجابهة العدو، وحشد جميع الطاقات والقدرات ، واستنفاد كل وسيلة لردعه عن البغي والعدوان ، حتى ولو أدى الدفاع الى تطوع الأمة كلها للحرب كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساء . قال العلامة الحلي في التذكرة : « لو أحوج الحال الى الاستعانة بالنساء وجب » .

الحرب بين الأمس واليوم :

كانت الحرب فيما مضى بالرجال ، وتعبئة الجنود والكتائب ، أما اليوم فقد أصبح العلم قوة في كل ميدان ، وحوّل السيف والرمح ، وغيرهما من أدوات الحرب الى صواريخ موجهة ، وقاذفات القنابل ، وغواصات نووية ، ودبابات برمائية ، وحاملات طائرات ، وغازات سامة ، ومخترعات للتجسس جواً وبراً

وبحراً[1] ..الى ما لا يعلمه إلا الله والراسخون في علم التخريب والتدمير .

ولم يكتفِ تجـار الحروب بتوجيه العلم ، وعبقرية العلماء الى اختراع آلات الخراب والدمار ، حتى أنشأوا معـاهد للتخصص بعمليـات التخريب ، وتدبير المؤامرات والانقلابات ، وايقاظ الفتن والأحقاد ، واشاعـة الفوضى والجرائم ، ووضع الخطط لانتشار الخوف والرعب وانهيار الأعصاب ، والاستخفاف بالأخلاق والقيم ، والايمان بالأساطير والخرافات .. الى كل ما يمهد لسيطرة القوي عـلى الضعيف ، وعبودية المتخلف للمتقدم .

هذا هو نوع السلاح الذي يحاربنا به عدو الدين والانسانية .. فبأي شيء نتقي شره وعدوانه ؟. أبالسباب والشتائم ،أو بالندب والبكاء ، أو بالمشاحنات والخلافات؟ لا شيء — ونحن الآن على ما نحن — الا ان نعرف من هو عدونا ؟ وما هي مقدرته ؟. ونحذر منه ومن أساليبه وألاعيبه ، ولا نطمئن اليـه في شيء ، وأن نتعلم من أخطائنا ، ونتحرر من الخونة ، ونعمل جاهدين يداً واحدة على تقويتنا في شتى الميادين ، وبهذا نستطيع أن نقف في وجه العدو .. وعلى الأقل لا يصل بنا الأمر الى الحد الذي وصلنا اليه الآن .

لقد سحق شعب فيتنام الأعزل رؤوس الأمريكيين ،على رغم ما يحشدونه من قوى ، وينفقونه من بلايين الدولارات . وقبل فيتنام تحررت كوبا من امريكا ، وهي أقوى دول العالم على الاطلاق.. والآن تأسر كوريا الشماليـة سفينة التجسس بيبلو ، ولا تستطيع أمريكا أن تبدي حراكاً .. والسر — فيما نعتقد — ان هذه الشعوب قد وعت مصالحها ونظمت صفوفها ، وتلافت أخطاءها ، فضربت على أيدي الخونة ، وأبعدتهم عن القيادة ومركز القوة ، وآمنت بحقهـا ومبادئها ، واستهانت بالحياة في سبيلها . ولا يمكن لقوى العالم مجتمعة أن تقهر شعباً منظماً واعياً فيتنامياً كان ، أو عربياً ، والفرق في الأوضاع ، لا في الطبـاع ، وفي الوعي والصلابة فيما يؤمن ويعتقد .

(وان منكم لمن ليبطئن) . يشير سبحانه الى الطابور الخامس الـذي يندس

---

[1] يدور الآن ٤٠ قمراً صناعيـاً حول الأرض بحجة بحوث الفضاء ،ومهمتها في الواقع التجسس ، ولامريكا وحدها ٣٠ سفينة للتجسس ، وألفا محطة على الأرض للغاية نفسـها .

في صفوف الطيبين بقصد التخريب والتثبيط عن مقاومة العدو .

وتسأل : ان (منكم) خطاب للمؤمنين ، والمنافقون أبعد الناس عن الايمان، فكيف ساغ جعلهم من المؤمنين ؟.

الجواب : لأنهم معدودون من المؤمنين في الظاهر ، ويعاملون معاملتهم، تماماً كمن يحمل جنسية بلدٍ ، وهو عميل لمن يستعمره ويستغله ، وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان .

(فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي اذ لم أكن معهم شهيداً) . هذا القول حكاية لحال المنافق الذي كان يفرح ويغتبط اذا هُزم المسلمون في معركة لم يشهدها معهم .. وكل من فرح بسلامته من البلاء الذي أصاب اخوانه في سبيل الله ، والجهاد لاعلاء كلمة الدين فهو منافق .

وتسأل : ان قوله : (قد أنعم الله عليّ) اقرار منه بوجود الله ، فكيف ساغ جعله من المنافقين ؟.

الجواب: انه نافق باظهار الإسلام والإيمان بمحمد (ص)،واضمار الكفر بنبوته، وهذا لا يتنافى مع الإقرار بالخالق ، فما كل من آمن بالله آمن بمحمد (ص) ، وقد أخبر الله ان من الناس من يؤمن به ، وفي الوقت نفسه يؤمن بغيره ، أو بمن يقربه اليه زلفى : « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون — ١٠٦ يوسف » .

(ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً) . بعد أن أخبر سبحانه ان المنافق يفرح بتخلفه عن المسلمين اذا هُزموا ونكبوا أخبر انه يندم على ترك الغزو معهم اذا انتصروا وغنموا .. وبديهة ان من هذا شأنه فليس من المسلمين في شيء ، ولو كان مسلماً كما يدعي ، ويظهر المودة بينه وبين المسلمين لشعر بأن خيرهم خيره ، وشرهم شره ، واشتهر الحديث عن رسول الله (ص) : ان المسلمين كأعضاء الجسم الواحد ، وكالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وان من لم يهتم بأمورهم فليس منهم .

الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة الآية ٧٤ – ٧٦ :

فَلْيُقَاتِلْ في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجراً عَظِيماً ★ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخرِجْنَا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ★ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ★

اللغة :

يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، أي يبيعونها بالآخرة ، كما في قوله تعالى : « ولبئسما شروا به أنفسهم – ١٠٢ بقرة » .

الإعراب :

ومن يقاتل (من) اسم شرط في موضع رفع على الابتداء ، وخبرها جواب الشرط ، وهو فسوف نؤتيه و (فيقتل أو يغلب) عطف على فليقاتل . وما لكم مبتدأ وخبر . وجملة لا تقاتلون حال ، أي ما لكم تاركين القتال . والمستضعفين عطف على سبيل الله بحذف مضاف، والتقدير وفي خلاص المستضعفين من الكفار . والذين عطف بيان للرجال والنساء والولدان . والظالم صفة للقرية . وأهلها فاعل لظالم ، وجاز وصف المؤنث ، وهو قرية بالمذكر ، وهو الظالم .

لأن الوصف اذا كان عاملاً عمل الفعل يُلحظ في تذكيره وتأنيثه الاسم المعمول له ، وأهلها مذكر ، لا مؤنث .

المعنى :

(فليقاتل في سبيل الله الذي يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) . يشرون ، أي يبيعون . واحسن ما قيل عند تفسير هذه الآية ما يلي :

« ان الإسلام لا يقاتل على الأرض ، ولا للاستيلاء على السكان ، لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات ، والأسواق للمنتجات ، أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات ، انه لا يقاتل لمجد شخص ، ولا لمجد بيت ، أو طبقة ، أو دولة ، أو أمة ، أو جنس ، انما يقاتل في سبيل الله . لاعلاء كلمة الله في الأرض ، ولتمكين منهجه من تصريف الحياة ، ولتمتيع البشرية بهذا المنهج ، وعدله المطلق بين الناس ، مع ترك كل فرد حراً في اختيار العقيدة التي يتمتع بها » .

وتمنيت ، وأنا أقرأ قوله ، (لا يقاتل الإسلام ليجد الخامات للصناعات) ان يعطف عليه هذه الجملة : ولا ليشحم المعامل والفبارك بدماء الأحرار والنساء والأطفال .

(ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) . كل من ناصر الحق لوجه الحق ، وامتثالاً لأمر الله وحده فهو مشكور ومأجور ، سواء انتصر وغنم ، أو غُلب وهُزم .. واتفق المؤرخون على اختلاف نزعاتهم ان السر في انتشار الإسلام هو عقيدة النبي (ص) والصحابة بأنهم الرابحون على كل حال ، مقتولين أو قاتلين ، فإن تكن الأولى فالمصير الى الجنة ، وان تكن الثانية فقد علت كلمة الحق ، وهذا ما يبغون .. بالاضافة الى اعتقادهم بأن أجلهم اذا جاء لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون .. ومتى بلغ معتقد المرء هذا المبلغ لم يقف في وجهه حاجز .

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان).

هاجر النبي (ص) من مكة الى المدينة ، وهاجر معه من استطاع من المسلمين ، وبقي فيها من عجز عن الهجرة ، وفيهم رجال ونساء وأطفال ، وكانوا يلقون من المشركين أذى شديداً من أجل دينهم ، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، ولا يجدون معيناً ، ومن أجل هذا وصفهم سبحانه بالمستضعفين ، ولما تقطعت بهم الأسباب لجأوا الى الله ، وهم يقولون : (ربنا اخرجنا من هذه القرية – أي مكة – الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً) .

وقد جعل الله من محنة المستضعفين سبيلاً لحث المسلمين على الجهاد لخلاص اخوانهم في الدين .

وبقي جماعة من المستضعفين بمكة الى عام الفتح ، حيث دخل الرسول المسجد الحرام منتصراً ، واستسلم صناديد الشرك ، وتحطمت الأصنام ، وعلت كلمة الإسلام ، ومنّ الله على الذين استضعفوا في مكة ، وصاروا أعز أهلها .

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت). أمر سبحانه المؤمنين في الآية ٧١ أن ينفروا ويخرجوا للحرب سرايا أو كافة ، وفي الآية ٧٤ أمرهم بالقتال في سبيل الله ، وفي الآية ٧٥ بالحث على خلاص المستضعفين .. وقسم في هذه الآية المقاتلين الى مؤمنين يقاتلون من أجل الحق والعدل ، والى كافرين يقاتلون من أجل السيطرة والسلب والنهب ، وهؤلاء هم أولياء الشيطان .. وقد أمر الله المؤمنين بجهادهم ، واعلان الحرب عليهم، وعدم مهادنتهم بحال ، لأن قتالهم خير وصلاح للانسانية ، ومهادنتهم شر وفساد .

والخلاصة ان الآيات التي أشرنا اليها وغيرها الواردة في القتال كلها تهدف الى شيء واحد ، الى الصلابة والثبات في جهاد المبطلين والمستغلين ، ولا تختلف آيات الجهاد إلا بالاسلوب والتعبير .. « عباراتنا شتى وحسنك واحد » .

(فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفاً) . وتسأل : ان المعنى الظاهر من هذه الآية ان المحقين ينتصرون دائماً على أهل الباطل ... والعكس هو الواقع في أغلب الأحيان ، فما هو السر ؟.

وسبق نظير هذا السؤال مع جوابه مفصلاً عند تفسير الآية ١٣٧ من سورة

آل عمران ، فقرة نكسة حزيران ، ونجيب هنا بأسلوب آخر ، استوحيناه من خطبة للامام (ع) في نهج البلاغة بعنوان « من خطبة له عليه السلام في المكاييل والموازين » . وخلاصة الجواب ان الحشرة السامة لا تحيا وتنمو إلا في القذارة والأوساخ .. وهكذا الشيطان لا يجد منفذاً لكيده إلا حيث يفسد المجتمع ، فهنا تقوى عدته ، وتمتلىء شباكه ، ويظهر من قول الامام ان مهمة ابليس تنجح ، حيث يكون في المجتمع فقراء بائسون، وأغنياء متمردون، وهذا ما قاله بالحرف :

« هذا اوان فيه قويت عدة الشيطان، وعمت مكيدته، وأمكنت – أي سهلت – فريسته ، اضرب بطرفك ، حيث شئت من الناس ، فهل تبصر الا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً ، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً ، أو متمرداً كأنّ باذنه عن السمع وقراً ، أين خياركم وصلحاؤكم ؟. وأين أحراركم وسمحاؤكم ؟ وأين المتورعون في مكاسبهم ، والمتنزهون في مذاهبهم – الى ان قال – أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه ، وتكونوا أعز أوليائه عنده.. لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر العاملين به » .

كفوا أيديكم واقيموا الصلاة الآية ٧٧ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ★

الإعراب :

لما هنا حرف ، وتقتضي جملتين فعليتين ، وتدل على أن الثانية وجدت عند وجود الجملة الأولى ، ولذا تسمى حرف وجود لوجود ، وبعضهم يسميها حرف وجوب لوجوب ، والمعنى واحد . واذا هنا حرف مفاجأة وقعت في جواب لما ، ولا تدخل إلا على الجمل الاسمية ، نحو خرجت فإذا أسد بالباب ، وفريق مبتدأ ومنهم متعلق بمحذوف صفة له . وجملة يخشون خبر . والكاف في كخشية الله بمعنى مثل في موضع نصب صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي يخشون الناس خشية مثل خشية الله . و (أو) بمعنى بل . ومحل أشد الجر عطفاً على كخشية الله ، وخشية تمييز . ولولا هنا للتحضيض ، أي الطلب ، وتدخل على المضارع، وعلى الماضي إذا كان بمعنى المضارع ، كما في الآية ، أي لولا تؤخرنا . ومتاع خبر لمبتدأ محذوف ، أي ما تستمعون به متاع قليل . وفتيلاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي لا تُظلمون ظلماً مقدار فتيل .

المعنى :

دعا النبي (ص) أول ما دعا الى الله في مكة ، فقاومه الأقوياء خوفاً على مصالحهم ، ونعتوه بالجنون والسحر والكذب ، ولولا حماية عمه ابي طالب له لقضوا على حياته ... وإذا عجزوا عنه فقد نكلوا بمن آمن به ، وكان النبي (ص) يأمرهم بالصبر ، وكف الأيدي لكثرة العدو ، وقلة الناصر .. ولما اشتد ايذاء المشركين وبطشهم بالمؤمنين المستضعفين قالت فئة منهم للرسول (ص) : يا رسول الله إءذن لنا بقتال المشركين . فقال : اني أمرت بالصبر .. وكان (ص) يبث في قلوب صحابته روح الثقة ، والأمل بانتشار الاسلام ، وزوال سلطان البغي .

وبعد أن أمضى بمكة ثلاث عشرة سنة من بدء الدعوة هاجر الى المدينة ، وهاجر معه من استطاع من المسلمين،ومن جملتهم الذين استأذنوه بقتال مشركي مكة .. ولما كثر عدد المسلمين في المدينة ، وأصبح في مقدورهم الدفاع عن أنفسهم أمرهم الله بجهاد المشركين اتقاء لشرهم ، بعد ان كان قد نهاهم عنه،

وهم قلة مستضعفون ، لأن حكمته تعالى اقتضت ان تجري الأمور على سننهـا وأسبابها ، وان لا ينتشر دينه بين الناس الا بالوسائل البشرية ، وان لا يفرض الدين عليهم فرضاً بقدرته العلوية ، كما تفرض الأمطار والزوابع .

وحين جد الأمر بالقتال جــزع وخاف الذين كان يأخذهم الحماس لقتـال المشركين ، ويستعجلونه ، وهم في مكة ، حيث لم يكن مأذوناً لهم بالقتال .. وهذا هو شأن الذين يندفعون مــع العاطفة من غير تفكـير وروية ، يشتدون ويتحمسون للنزال والقتال الى حد الهوس ، حيث يكون الإقدام تهوراً وانتحاراً، ويتراجعون جزعاً وانهياراً ، حيث تشتد الحاجة الى القتــال ، ويكون حتماً لا مناص منه .

وليس من الضروري ان يكون هؤلاء من المنافقين أو الشاكين في دينهم .. فقد يكونون منافقين ، وقد يكونون من الضعفاء الذين يخافون الموت ، ويؤثرون الحياة جبناً على الاستشهاد في سبيل الحق .. وقـد تعرضت الآيــة التي نحن في صددها لهذا الفريق من المسلمين ، وحماسهم للقتال في مكة ، ثم خوفهم منه في المدينة .. ومهدنا بما تقدم قبل أن نشرع بتفسير الآية لتوضيح المراد منها .

(ألم تر الى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) . المراد بـ (الذين) من استعجلوا القتال ، وتحمسوا له ، وهم في مكة . وقوله تعالى : قيل لهم الخ اشارة الى أن النبي (ص) كان قد أمرهم بالصبر والكف عن القتال ، والانصراف الى ما أمروا به من اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، لأن هذا هو الموقف الحكيم يوم كانوا في مكة .

(فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس – أي العدو – كخشية الله أو أشد خشية) . المعنى انه لمــا توافرت أسباب القتال للمسلمين بعد ان هاجروا الى المدينة ، واشتدت اليه الحاجة أمروا به .. ولكــن فريقاً من الذين كانوا يستعجلون القتال في مكة ، حيث لم يفرض عليهم كرهوه بعد أن فُرض عليهم حباً بالحياة ، وجبناً عن مقابلة العدو ، وخشية من نكاله .. وقوله تعالى: (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) كناية عن ان الخوف بلغ بهم نهايته .

والخلاصة ان هذا الفريق من المسلمين تحمس للقتال حين النهي عنه، لأنه عملية انتحارية ، وتقاعسوا حين الأمر به ، لأن تركه موت وانتحار .. وكان عليهم أن يتحمسوا للقتال عندما أمروا به ، لا عندما نُهوا عنه .

(وقالوا ربنا لمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب) . طلبوا المزيد في آجالهم رغبة في متاع الحياة .. وان اتجاههم هذا الى الله بتضرع وأسى ينبيء عن ايمانهم به .. وبديهة ان عصيان أمر الله بالموت لا يدل على الإلحاد ، كما ان اختيار الموت على حياة الذل لا يدل على الإيمان بالله ، فلقد رأينا الكثير من الملحدين يؤثرون الموت أحراراً على الحياة مع الظالمين ، كما رأينا الكثير من المسلمين يوقعون صكوك الاذلال والاستعباد على أنفسهم وقومهم .

(قل متاع الدنيا قليل) . المراد بقليل هنا عدم البقاء ، وسرعة الزوال ، وكل متاع الدنيا الى زوال ، بالاضافة الى انه مشوب بالهموم والمكاره .

(والآخرة خير وأبقى) . الآخرة نهاية المطاف ، والقليل من نعيمها خير من نعم الدنيا مجتمعة ، كما ان القليل من عذابها أعظم من عذاب الدنيا بكامله.. والعاقل هو الذي يؤثر العظيم الدائم ، وان كان مؤجلاً على الحقير الزائل وان كان معجلاً .

أينما تكونوا يدرككم الموت ٧٨ - ٧٩ :

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَما لِهٰؤُلاَءِ ٱلْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ★ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ★

الإعراب :

أينما ظرف لاستغراق الأمكنة ، ومحلها النصب بفعل الشرط ، وهو تكونوا ، وتجزم فعلين لأنها بمعنى ان الشرطية . و (فما لهؤلاء) مبتدأ وخبر . ومعنى (ما) هنا الاستفهام مع الانكار ، نحو أي شيء حصل لك ؟. ورسولاً حال . وللناس متعلق به ، والمراد بهذا التعليق التعميم ، مثل قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس — ٢٨ سبأ » . وشهيداً تمييز .

المعنى :

(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) . سبق نظيرها عند تفسير الآية ١٤٥ من سورة آل عمران ، فقرة « الأجل محتوم » .

(وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) . كل ما يراه الانسان حسناً يقال له حسنة ، ويرادفها لفظ الخير الذي يرغب فيه الانسان ويتمناه ، وكل ما يراه سيئاً يقال له سيئة ، ويرادفها لفظ الشر الذي يبتعد عنه الانسان ويأباه،وقد يكون الخير عاماً كالخصب والرخاء الذي لا يختص بفرد أو فئة ، وقد يكون خاصاً كسعادة المرء ببيته وأسرته ، وكذلك الشر يكون خاصاً كشقاء المرء بزوجته وأولاده ، ويكون عاماً كالجدب والغلاء ، والمراد بالحسنة في الآية خير الطبيعة الذي يعم الجميع،كالمطر ونحوه ، وبالسيئة شرها العام الذي يشمل الجميع ، كالقحط وما اليه ، لأن المنافقين والمشركين كانوا ان أصابتهم نعمة كالمطر قالوا : ان الله أكرمنا بها ، وان أصابهم نقمة كالقحط قالوا : هذا بسبب محمد ، تماماً كبني اسرائيل الذين أخبر الله عنهم بقوله : « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى — ١٣١ الأعراف » .

ليس بالامكان أبدع مما كان :

(قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يفقهون سبيلاً) . هذا رد على

من نسب الحسنة الى الله ، والسيئة الى رسول الله ، لأنهما معاً من الله ، ذلك ان القحط والأمطار ، والزلازل والمعادن ، كل هذه وما اليها من لوازم الطبيعة وآثارها ، والله سبحانه هو الذي خلق الطبيعة وأوجدها ، اذن ، ينسب خير الطبيعة وشرها اليهـا مباشرة ، والى الله سبحانه بواسطة ايجاده للطبيعة .. فهو جلت عظمته سبب الأسباب .

وتسأل : لماذا لم يخلق الله الطبيعة من غير شر ، بحيث تكون خيراً خالصاً من كل شائبة ، ويريح بهذا عباده من الويلات والمتاعب ؟.

وقد طُرح هذا السؤال أو الإشكال منذ آلاف السنين ، وحلّه « زرادشت » بوجود إلهين : إله للخير ، وهو « موزد » وإله للشر ، وهو « اهريمان » . وقال آخرون : ان الله خلق هذه الطبيعة بما فيها ولها من خير وشر ، ولكنه في الوقت نفسه خلق عقولاً تكيّف هذه الطبيعة الى خير الانسان وصالحه ، ومنها هذه المخترعات التي قربت البعيد ، وسهلت العسير ، وأنشأت السدود لصد الفيضان ، وتنبأت بالعواصف قبل وقوعها . الى ما لا يحصى كثرة . وقال عابد زاهد : ان الشر لا بد منه لعقوبة العصاة والمذنبين .. وهذا الجواب يكذبه العيان والقرآن ، فان الطبيعة لا ترحم مؤمناً ولا ضعيفاً ، والزلازل لا تميز بين الطيب والخبيث ، قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة – ٢٥ الأنفال » . ومنهم من قال : الله يعلم ، ونحن لا نعلم شيئاً . وقال الأشاعرة ، هذا السؤال مردود شكلاً وأساساً ، لأن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض والغايات : « لا يسأل عما يفعل » .

وجاء في كتاب الأسفار للعظيم الشهير بالملا صدرا ما يتلخص بأنه من المحال ذاتاً ايجاد كون لا شر فيه ، فان الكون الطبيعي من حيث هو ، وبموجب وضعه وتكوينه يلزمه حتماً ان يكون فيه خير وشر ، وقوة وضعف ، وحنان وعنف ، وإلا استحال وجوده من الأساس ، كما يستحيل على أمهر المتخصصين في فن البناء ان يبني من حبة الرمل حصناً منيعاً [١] . ذلك ان الطبيعة يستحيل أن توجد وتتكون إلا من عناصر متضادة متباينة ، وهذه العناصر في حركة دائمة بين جذب

١ والفلاسفة يعبرون عن هذا وأمثاله بالعجز في المقدور ، لا في القادر .

ودفع ، وتفاعل مستمر ، ومن هذا التفاعل تتولد الظواهر الطبيعية ، كالزوابع والعواصف ، والحر والبرد ، والمطر والصحو ، وما إلى ذلك من آثار الطبيعة خيرها وشرها ، وعلى هذا يدور الأمر بين اثنين لا ثالث لهما : أما ان لا يوجد الكون من رأس ، واما أن يوجد بخيره وشره ، وهذا هو معنى القول المشهور: « ليس بالإمكان أبدع مما كان » . كما انه يتفق تماماً مع قول علماء الطبيعة : ان في كل جزء من أجزائها قوة موجبة ، وأخرى سالبة .

وبهذا يتبين معنا ان قول القائل : لماذا لم يخلق الله الطبيعة من غير شر ، ان هذا أشبه بقول من قال : لماذا لم يخلق الله ناراً ، لا حرارة فيها ، وثلجاً، لا برودة فيه ، وعقلاً لا ادراك له ، وحياة لا حراك فيها ، وموتاً ، لا جمود فيه .. ان هذا السؤال تعبير ثان عن هذيان المحموم ، وقوله : لماذا لا يكون الشيء غير نفسه .. وبهذا ندرك السر البليغ العميق في قوله تعالى : (ما لهؤلاء لا يفقهون حديثاً) .

والخلاصة انه لا تأثير لمحمد (ص) ، ولا لغيره في شيء من خير الطبيعة وشرها . وقد اشتهر عن الرسول الأعظم انه قال حينما انكسفت الشمس عند موت ولده ابراهيم : الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره مطيعين له، لا ينكسفان لموت أحد ، ولا لحياته .

(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) . وتسأل: ان الله سبحانه أضاف في الآية الأولى كلاً من الحسنة والسيئة الى نفسه ، حيث قال : (كل من عند الله) وفي الآية الثانية أضاف الحسنة اليه ، والسيئة الى العبد ، فما هو وجه الجمع ؟

الجواب : قدمنا ان المراد بالحسنة في الآية الأولى خير الطبيعة، وبالسيئة شرها ، وانهما من ظواهر الطبيعة ، وهي من صنع الله ، فصحت نسبتها اليه تعالى بهذا الاعتبار . أما المراد بالحسنة في الآية الثانية فهو نجاح المرء في هذه الحياة ديناً ودنيا ، والمراد بالسيئة فشله وخذلانه فيها ، وقد نسب الله سبحانه هذا النجاح المعبر عنه بالحسنة ، نسبه الى نفسه بالنظر الى انه تعالى قد زوّد الانسان بالصحة والإدراك ، وأمره بالعمل من أجل سعادته في الدارين ، فإن امتثل وعمل وبلغ

النجاح نسب نجاحه الى الله ، لأنه هو الذي أقدره عليه ، وزوده بأدواته، وبهذا اللحاظ قال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله) .

وأيضاً يجوز أن ينسب النجاح الى الانسان ، لأنه آثر الجد والعمل على الاهمال والكسل .. ولا دلالة في الآية على ان الانسان لا تأثير له اطلاقاً في نجاحه ، أما اذا أهمل وتكاسل ، ولم يصل الى شيء بسبب اهماله وتكاسله فلا ينسب فشله وحرمانه الا اليه ، لأنه هو الذي بلغ بنفسه هذا المبلغ بسوء ما اختار لها من الإهمال . وبهذا الاعتبار قال سبحانه : (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) . ولا يجوز أن يُنسب الفشل الى الله بحال ، لأنه جل وعلا قد أمر الانسان بالعمل ، وحثه عليه بعد أن زوده بجميع الأدوات والمؤهلات .

فما ارسلناك عليهم حفيظاً الآية ٨٠ – ٨٢ :

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ★ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ★ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ★

اللغة :

حفيظاً ، أي تحفظ عليهم أعمالهم ، وتحاسبهم عليها . وبرزوا من عندك ، أي خرجوا من عندك . والتبييت كل شيء دُبّرَ بليل، والمراد به هنا التزوير . والتدبر التأمل والنظر في عواقب الأمور .

الإعراب :

حفيظاً حال ، وصاحبه الكاف في أرسلناك . وطاعة خبر لمبتدأ محذوف ، أي شأننا طاعة ، أو مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير عندنا طاعة . وكفى بالله وكيلاً مرّ اعرابه أو اعراب نظيره عند تفسير الآية ٤٤ و ٧٨ من هذه السورة .

المعنى :

(من يطع الرسول فقد أطاع الله) . سبق تفسيره في الآية ٥٩ من هذه السورة .

(ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) . ان وظيفة الرسول تحددها كلمة الرسول نفسها ، كما تحدد كلمة الشمس معناها ، أما الحساب والعقاب فإلى الله، لا الى الرسول: « ان الينا إيابهم،ثم إن علينا حسابهم – ٢٦ الغاشية » . وتكلمنا عن هذا الموضوع مفصلاً عند تفسير الآية ٢٧٠ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٤٢٢ .

(ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول – الطائفة التي أظهرت الطاعة – والله يكتب ما يبيتون) . ظاهر الآية ان المسلمين بجملتهم أظهروا طاعة الرسول (ص) ولكنهم لم يكونوا جميعاً مخلصين فيما أظهروا ، بل منهم فئة منافقة تخادع الرسول ، وتبيت خلاف ما تبديه له من الطاعة .. وهذه الآية رد مفحم لمن ادعى ان جميع الصحابة عدول ، وان مجرد الصحبة للرسول (ص) تعصم صاحبها من كل شبهة .

(فأعرض عنهم وتوكل على الله) . الخطاب للنبي (ص)،والمعنى ان الحكمة تستدعي ان لا تهتك ستر المنافقين ، وتذكرهم بأسمائهم،وأيضاً لا تطمئن اليهم، وتقبل عليهم اقبالك على المؤمنين المخلصين .. والأيام كفيلة بإظهارهم على حقيقتهم . ومثل هذه الآية الآية ٦٣ من السورة نفسها،وتقدمت هي وتفسيرها .

اليهود واعجاز القرآن :

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً).
عند تفسير الآية ٢٣ – ٢٥ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٦٥ ، فقرة « سر الاعجاز في القرآن » تعرضنا لهذا السر على سبيل الاجمال ، لأن التفصيل يستغرق كتاباً في حجم هذا المجلد .. وبعد ان مضينا في التفسير اكتشفنا أسراراً لإعجاز القرآن لم يتنبه اليها من سبق من علماء المسلمين ، حتى الذين ألّفوا كتباً خاصة في اعجاز القرآن ، وما كان هذا عن قصور أو تقصير منهم .. حاشا ، ولكن كتاب الله لا تنقضي أسراره وعجائبه : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً – ١١٠ الكهف » .

وقد أصاب من هذه الكلمات كلٌ بقدر ما اسعفه عصره ومواهبه ، فان الزمان عنصر فعال في الكشف عن معاني القرآن وأسراره ، قال ابن عباس : « في القرآن معانٍ سوف يفسرها الزمان » . ومن هذه المعاني ما أومأت اليه الآية ٥٣ من هذه السورة : « أم لهم – أي لليهود – نصيب من الملك فاذاً لا يؤتون الناس نقيراً » . وذكرنا عند تفسيرها وتفسير الآية ٤٦ من السورة نفسها تنبؤ القرآن بفظائع اليهود وجرائمهم اذا ملكوا ، وبعد نيف وثلاثة عشر قرناً تحقق هذا التنبؤ ، وهذا دليل قاطع على نبوة محمد (ص) وصدق رسالته .. وهذا هو الاعجاز الذي أردناه من قولنا : لم يتنبه اليه العلماء والمفسرون ، لأن اليهود كانوا آنذاك أذلاء محكومين ، لا نصيب لهم من الملك في فلسطين ولا في غيرها .

ومن جملة الأدلة على ان القرآن وحي من الله قوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) من هذا الاختلاف عدم التناسق والتناسب في أقوال البشر أسلوباً وتفكيراً ... فما من عالم أو أديب أو أي انسان إلا ويختلف قوة وضعفاً في تعبيره وتفكيره ، أما القرآن فهو على مستوى واحد في بلاغة اسلوبه ، وعظمة معانيه .

والسر ان للانسان ظروفاً وحالات تختلف وتتغير من حين الى حين ، بل من لحظة الى لحظة ، وهو تابع لها يتقلب بحسبها ، ولا ينفك تغيره عن تغيرها

بحال . وفي قوله تعالى : (كثيراً) اشارة الى ان تقلّب الانسان مع ظروفه لا يبلغه الحصر ، وهذا الاختلاف يفسر لنا التفاوت في اسلوب الانسان وتفكيره ، أما الذات القدسية فانها هي هي متوحدة في كل شيء أزلاً وأبداً ، لا تتبدل بالأحوال ، ولا تتغير بالظروف : « وكيف يجري على الله ما هو أجراه، وبعود فيه ما هو أبداه ، ويحدث فيه ما هو أحدثه ؟. اذن ، لتفاوتت ذاته ، وتجزأ كنهه » . كما قال الإمام علي (ع) . وهذا وحده يفسر لنا التناسق والتناسب في كتاب الله إداءً ومضموناً من ألفه الى يائه .

الأسرار الحربية واذاعتها الآية ٨٣ :

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ★

اللغة :

الاستنباط الاستخراج ، ويستعمل – غالباً – في استخراج الحكم من مصدره بالاجتهاد .

الإعراب :

فضل الله مبتدأ ، وخبره محذوف ، أي لولا فضل الله كائن ، أو كائنان بالنظر الى ان ورحمته معطوفة على فضل الله . وقليلاً منصوب على الاستثناء المنقطع من الضمير في لاتبعتم ، وقيـــل : هو صفة لمفعول مطلق محذوف ، والتقدير اتباعاً قليلاً .

المعنى :

(واذا جاءهم أمر الامن والخوف اذاعوا به) . كان في صحابة الرسول (ص) – كما يكون في أي حزب ومعسكر – المخلص والمنافق ، والشجاع والجبان ، والقوي والضعيف في ايمانه ، والعاقل المجرب الذي يرتفع الى مستوى الأحداث ، والجاهل الذي لا يتدبر الأمور ولا يقدر العواقب ، وقد تحدث القرآن عن كل هؤلاء تصريحاً تارة ، وتلويحاً أخرى .

واتفق المفسرون على ان هذه الآية نزلت فيمن كانوا يسمعون أخبار الأمن والخوف التي كانت تتعلق بقوة المسلمين العسكرية ، فيذيعونها بين الناس ، ثم اختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المذيعين : هل هم المنافقون ، أو البسطاء السذج من ضعفاء المؤمنين ؟ فقال كل فريق بما ترجّح عنده .. أما نحن فلم يترجح لدينا ارادة المنافقين ، دون الضعفاء ، ولا الضعفاء ، دون المنافقين ، لأن كل ما أفاده ظاهر الآية ان جماعة من الذين كانوا حول النبي (ص) اذا وصل اليهم خبر من أخبار السلام والأمان ، أو الحرب والعدوان تكلموا به ، وأفشوه بين الناس .. ولا شيء أضر على الأمن الداخلي والخارجي من افشاء الأسرار العسكرية ، بخاصة مع عدم تثبت المذيعين من صدق الخبر ، فإن الكثير من أنباء الحرب يختلقها ويروجها العدو بقصد الاستفادة منها ، واشاعة الفتن والقلاقل في صفوف المسلمين .

(ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . ضمير أولي الأمر منهم يعود على المسلمين ، ومن للتبعيض ، أي ان أولي الأمر هم بعض المسلمين ، أما ضمير منهم في يستنبطونه منهم فقد اختلف فيه المفسرون ، فمن قائل : انه يعود على الذين أذاعوا خبر الأمن أو الخوف . وقائل : انه يعود على أولي الأمر ، وهو الأظهر ، ومن للبيان ، لا للتبعيض . والمراد بأولي الأمر من يثق الرسول (ص) بكفاءتهم الدينية والعلمية ، والذين عناهم الله بقوله : « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين – ٦٣ الأنفال » .

والمعنى كان الأولى بالذين أذاعوا ما سمعوه من أخبار الحرب ان يمسكوا عن

الخوض فيما بلغهم ، ويعرضوه على الرسول والأكفاء من أصحابه فهم وحدهم الذين يعرفون أخبار الحرب ومكائدها ، ويستخرجون الأشيـاء من مصادرها ، ويردونها الى أصولها ، فقوله تعالى : (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) معناه ان الأكفاء يعرفون حقيقة الخبر المذاع ، والقصد منه ، لأنهم هم الذين يستخرجون الخفايا والحقائق من منبعها الأول ، ويفعلون ما توجبه الحكمة والمصلحة .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلاً) . المراد بفضل الله ورحمته انزال القرآن ، وبعثة محمد (ص) . والمعنى لولا كتاب الله وسنة نبيه لبقيتم على الكفر والضلال الا قليلاً منكم ، مثل قس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو ، ومن اليهم ممن آمن بالله وحده بوحي من فطرته الصافية قبل أن يبعث الله محمداً (ص) ، وهذا النوع من المؤمنين يسمون الحنيفية . والحنيف عند العرب من كان على دين ابراهيم (ع) .

لا تكلف الا نفسك الآية ٨٤ :

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً★

اللغة :

الحض التحريض على الشيء . والمراد بالتنكيل هنا العقاب والعذاب ، وعسى في كلام الله واجبة التحقق ، وفي كلام غيره متوقعة .

الاعراب :

فقاتل الفاء واقعة في جواب شرط مقدر ، أي ان أردت الفوز فقاتل . ولا

تكلف مبني للمجهول ، والضمير المستتر نائب فاعل . ونفسك مفعول ثـان ، على حذف مضاف ، أي لا تكلف إلا افعال نفسك ، وبأساً وتنكيلا تمييز .

المعنى :

(فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين) . بعد أن ذكر سبحانه في الآية ٧٧ الذين خافوا من القتال ، وقالوا : ربنا لمَ كتبت علينـا القتال ، وذكر في الآية ٨١ الذين أظهروا الطاعة ، وأضمروا العصيان ، وقالوا طاعة ، وبيتوا غير الذي قالوا ، وذكر في الآية ٨٣ الذين أذاعوا ما سمعوا من أخبار الحرب وأسرارها بعد هذا كله أمر الله نبيه بالقتال والجهاد ، دفاعاً عن الحق ، وان يحرض المسلمين ، ويحثهم على الجهاد معه ، ويحارب بمن يستجيب له ، ويعرض عمن أعرض منهم ، فانه غير مسؤول ، ولا مكلف بأعمال غيره، وانما هو مكلف بأعمال نفسه فقط . وهذا معنى قوله : « لا تكلف إلا نفسك» وليس معناه قاتل وحدك ان لم يقاتل أحد معك ، كما قيل ، لأن الله قد نهى النبي والمسلمين عن القتال في بدء الدعوة ، وأمرهم بالصبر على ايذاء المشركين لهم حين كانوا بمكة ، لأن القتال كان آنذاك أشبه بالعمليات الانتحارية منـه بالجهـاد في سبيل الله .. ولم يأمرهم بالجهاد إلا بعد أن هاجروا الى المدينة ، وأصبح بمقدورهم الوقوف في وجه الأعداء ، فكيف يأمر النبي بالقتال منفرداً ؟

(عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) . عسى هنا واجبة التحقق ، لأنها من كلام الله ، والله لا يخلف الميعاد ، والمراد بالذين كفروا صناديـد قريش الذين أخرجوا النبي (ص) من مكة ، وجيشوا الجيوش لحربه مرات .. وقد أنجز الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب المشركة وحده .

الشفاعة والتحية الآية ٨٥ ـ ٨٧ :

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَـاعَةً

سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً★ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً★ اَللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً★

اللغة :

الشفاعة مأخوذة من الشفع ، وهو ان يصير الانسان شفعاً لصاحبه،أي ناصراً له . والكِفل الحظ والنصيب . والمقيت بفتح الميم من المقت بمعنى البغض، وهذا غير مراد هنا . والمقيت بضم الميم بمعنى معطي القوت ، وهذا الاعطاء يستدعي المقدرة ، وعليه يصح أن يطلق المقيت بالضم ، ويراد به المقتدر ، وهذا المعنى هو المراد هنا ، وقد عُدّ المقيت بالضم من أسماء الله تعالى. والحسيب يأتي بمعنى المحاسب على العمل ، وبمعنى الكافي ، وأي المعنيين أردت من الآية صح .

الاعراب :

الله لا إله إلا هو (الله) مبتدأ ، ولا نافية للجنس ، وإله اسمها ، والخبر محذوف ، أي موجود ، وهو بدل من إله على المحل ، لأن اسم (لا) محله الرفع ، والجملة من لا واسمها وخبرها خبر لفظ الجلالة . واللام في ليجمعنكم واقعة في قسم محذوف ، والتقدير والله ليجمعنكم . وحديثاً تمييز .

المعنى :

(من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن

له كفل منها) . يدل سياق الكلام على ان المراد بالشفاعة الحسنة التحريض على القتال ، وبالشفاعة السيئة تثبيط العزائم عنه .. ولكل من المشجع والمثبط جزاء دعوته وآثارها ، فلمن يدعو الى الجهاد نصيب من أجره ، ولمن يدعو الى التخاذل نصيب من وزره .. والمبدأ عام في كل شفاعة خير ،وكل شفاعة سوء ، وفي الحديث : « من سنّ سنة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها، ومن سن سنة سيئة كان له مثل وزر من عمل بها » . فالإسلام يبارك كل خير ، سواء أكان سنة يقتدي بها الغير ، أو عملاً صدر من ملحد،أو نية مجردة عن العمل، فالمهم أن يصدق عليه اسم خير أو فضيلة أو حسن أو طيب أو ما اليه. وتعرضنا لذلك عند تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران،فقرة « لكل امرىء ما نوى » ، وعند تفسير الآية ١٧٨ من السورة نفسها ، فقرة « الكافر وعمل الخير » .

(وكان الله على كل شيء مُقيتاً) . أي قادراً على أن يجازي كلاً بما يستحق ، فيثيب صاحب الشفاعة الحسنة ، ويعاقب صاحب الشفاعة السيئة – أنظر معنى مُقيت في فقرة اللغة – .

(واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) . اتخذ الإسلام كلمة التوحيد شعاراً لعقيدته ، وجعل السلام تحيته المختصة به للاشارة الى ان منهاجه في الحياة هو نشر السلام ، ومقاومة العدوان .. بالاضافة الى ان معنى الإسلام التسليم للعدل والاحسان ، والخير والأمان ، وفوق ذلك كله فإن السلام من أسماء الله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون – ٢٣ الحشر » .

(ان الله كان على كل شيء حسيباً) . يحاسب على عدم رد التحية ، وغيره من ترك المحرمات ، وفعل الواجبات .

واستدل الفقهاء بهذه الآية على وجوب رد السلام ، اما بالمثل ، أي أن تعيد تحية من حياك بالحرف دون زيادة أو نقصان،واما ان تزيد عليها : ورحمة الله،وأمثالها. والرد فرض على سبيل العين اذا وُجهت التحية الى شخص معين ، وكفاية اذا وُجهت الى جماعة ، ان قام به البعض سقط عن الباقين،والا فالكل ملومون ومؤاخذون .. وفي الحديث : التحية تطوع ، والرد فرض .

وقال أصحاب أبي حنيفة : المراد بالتحية في الآية الكرامة بالمال،فمن أهدى اليك شيئاً فعليك أن تهديه بمقدار ما أهدى اليك ، أو تزيد . (أحكام القرآن للقاضي أبي بكر الأندلسي) .

طرق متنوعة لاثبات المعاد :

اهتم الاسلام اهتماماً بالغاً بالدعائم الأولى للاسلام ، واثباتها بشتى الأساليب ، وهذه الدعائم هي : الايمان بالله ، والرسول ، واليوم الآخر .. وفي المجلد الأول عقدنا لكل واحد من هذه الثلاثة فصلاً مستقلاً ، تكلمنا عن الأول بعنوان التوحيد عند تفسير الآية ٢١ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٥٩ ، وعن الثاني بعنوان: فأتوا بسورة من مثله عند تفسير الآية ٢٣ ص ٦٤ ، وعن الثالث بعنوان كيف تكفرون بالله عند تفسير الآية ٢٨ ص ٧٤ . ومن تتبع آي الذكر الحكيم الواردة في البعث والحشر يجدها على أنواع ، منها :

١ ــ مجرد اخبار عن وقوع يوم القيامة : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ــ ٤٨ ابراهيم » .

٢ ــ اخبار مع تأكيد الوقوع بالقسم ونفي الريب ، كهذه الآية: « ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه » . أي والله ليجمعنكم .

٣ ــ الاستدلال على امكان المعاد بخلق السموات والأرض .. أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى انه على كل شي قدير ــ ٣٣ الأحقاف » . وأوضح تفسير لهذه الآية قول من قال : « ومن ركب البحر استقل السواقيا » .

٤ ــ الاستدلال بخلق النبات : « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ــ ٩ فاطر » .

٥ ــ الاستدلال بخلق النشأة الأولى للانسان : « فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ــ ٥١ الاسراء » .

٦ ــ الاستدلال بالمشاهدة والعيان ، من ذلك ان الله سبحانه أمات جماعة من بني اسرائيل ثم أحياهم : « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله

جهرة فأخذتكم الصاعقة ، وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون – ٥٦ البقرة » .

وأحيا الرجل الاسرائيلي بعد قتله : « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون – ٧٣ البقرة .

وأيضاً أحيا عزيراً بعد موته : « فأماته الله مئة عام ثم بعثه – ٢٥٩ البقرة» .

وأيضاً أحيا طيور ابراهيم الأربعة بعد أن قطعها أجزاء : « قال خذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً – ٢٦٠ البقرة » .

وأحيا أهل الكهف بعد أن أماتهم ٣٠٩ سنوات : « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم – ١٩ الكهف » .

وصدق الله العظيم : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون – ٢٧ الزمر » .

وهل يتذكر جاهل يقيس من لا يعجزه شيء على من لا يقدر على شيء؟ وكيف يؤمن المنافق بيوم يُعز الصادقين ، ويذل المنافقين ؟ ولا أدري أي ضرر على المجتمع أو الأفراد من الايمان بيوم يميز الله فيه الخبيث من الطيب، وبمحكمة يتساوى فيها الجميع أمام الحق والعدالة ؟.

فما لكم في المنافقين فئتين الآية ٨٨ – ٩٠ :

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ★ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ★ إلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ★

اللغة :

الركس والنكس واحد ، وهو تحوُّل الشيء من حال الى حال أردأ منها . والسبيل الطريق ، ويستعمل في الحجة ، تقول : لا سبيل لك عليه ،أي لا حجة لك تعتل بها عليه . والميثاق العهد . وحصرت صدورهم ، أي ضاقت .

الإعراب :

فما لكم الفاء تفريع على ما قبلها من الآيات . و (ما) استفهام انكار . ولكم متعلق بمحذوف خبر ، أي ما حصل لكم . وفئتين حال ، والعامل فيه الخبر المحذوف . وجملة والله أركسهم حال من المنافقين . ومن يضلل (من) اسم شرط محله الرفع بالابتداء ، وخبره جملة جواب الشرط ،والجملة من المبتدأ والخبر حال من الواو في تهدوا . وودوا لو تكفرون (لو) هنا مصدرية ، وتقع كثيراً بعد ود وبود ، ولكنها غير ناصبة ، والمصدر المنسبك منها ومما بعدها مفعول ودوا ،أي ردوا كفركم . وجملة حصرت صدورهم حال من واو جاءوكم ، أي جاءوكم وقد حصرت صدورهم . ولو شاء الله (لو) للامتناع . واللام في لسلطهم واقعة في جواب لو ، ومثلها اللام في فلقاتلوكم، لأن المعطوف على الجواب جواب .

المعنى :

(فما لكم في المنافقين فئتين) . نزلت هذه الآيات في خصوص المنافقين الذين بقوا في دار الكفر ، ولم يهاجروا الى المدينة بدليل قوله تعالى : (حتى يهاجروا) لأن الهجرة انما تكون من دار الكفر الى دار الاسلام ، وقبل فتح مكة كانت المدينة هي الدار الوحيدة للاسلام .. وظاهر هذه الآيات صريح في أن حكم من نافق ، وبقي في دار الكفر غير حكم من نافق وهو مقيم في دار الاسلام ، لأن الله سبحانه أمر بقتل أولئك وأسرهم ، دون هؤلاء .. وقبل أن ينزل هذا الأمر من السماء اختلف الصحابة ، وانقسموا فئتين في حكم المنافقين الذين بقوا في دار الكفر : فئة ترى مقاطعتهم وعدم الاستعانة بهم في شيء ، بل واعلان الحرب عليهم ، تماماً كمن جاهر بالشرك وعداء المسلمين . وفئة ترى التساهل والتسامح ، وان يعاملوا معاملة المسلمين .

ويظهر ان النبي (ص) سكت عن هذا الخلاف ، حتى حسمه الله بقوله : (فما لكم في المنافقين فئتين) أي لا ينبغي أن تختلفوا في أمرهم ، بل عليكم أن تجمعوا قولاً واحداً على عدم التساهل معهم بحال ، وبيّن سبحانه السبب الموجب بقوله : (والله اركسهم بما كسبوا) أي رد حكمهم الى حكم الكفار المحاربين من جواز قتلهم وسبيهم ، لأنهم كالكافر المحارب ، أو أشد ضرراً بسبب بقائهم في دار الشرك الذي لا يستفيد منه إلا عدو الاسلام والمسلمين .

الاضلال من الله سلبي لا ايجابي :

(أتريدون أن تهدوا من أضل الله) . هذا يشعر بأن الفئة المتسامحة من المسلمين كانت تأمل أن يعود هؤلاء المنافقون الى الهداية ، فقطع الله أملهم بقوله: (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً) . وتسأل : لقد أخبر أولاً ، عظمت كلمته ، انه أركس أولئك المنافقين بسبب كسبهم وسوء اختيارهم للبقاء في دار الكفر .. ثم قال سبحانه : انه هو الذي أضلهم .. فأضاف اضلالهم اليه بعد ان أضافه اليهم ، فما هو وجه الجمع ؟.

الجواب : ليس المراد بمن أضل الله ويضلـــل الله خلق الاضلال فيهم .. كلا ، وانما المراد ان من حاد عن طريق الحق والهداية بإرادته ، وسلك طريق الباطل والضلال باختياره فإن الله يعرض عنه ، ويدعه وشأنه .. وليس من شك ان من أوكله الله الى نفسه لا يجد سبيـــلاً الا الضلال ، والجور عن القصد ، وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى : (والله أركسهم بما كسبوا) كل الانسجام .

وبتعبير أوضح : كل من سلك طريق الحق فإن الله يشمله بعنايته ، ويرعاه بتوفيقه : « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون – ٢٨ النحل » . وهذه العناية من الله بالمتقين تسمى هداية وتوفيقاً وولاية ووكالة من الله،وما الى ذلك.. وكل من سلك طريق الباطل فإن الله يعرض عنه ، ولا يرده الى الهداية قسراً ، ويلجئه اليها إلجاءً . وهذا الإعراض منه تعالى يسمى اضلالاً وخذلاناً واركاساً، وما اليه .. وبكلمة واحدة ان الاضلال من الله معناه سلبي ، لا ايجابي،ومعنى الهداية منه ايجابي بنحو من اللطف والتدبير .

ولا بد من التنبيه الى ان حكمة الله سبحانه تستدعي ان يلطف بعبده ، ولا يتخلى عنه ، تماماً كما لا تتخلى الوالدة عن وليدها الا اذا كان العبد هو السبب الموجب لتخلي الله عنه لولوجه في العصيان والتمرد كما تتخلى الأم عن ابنها الذي أوغل في العقوق .

(ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) . كل انسان يود أن يكون جميع الناس على شاكلته . وسبق تفسيره في المجلد الأول ص ١٧٣ الآية ١٠٩ من سورة البقرة .

(فلا تتخذوا منهم أوليـــاء حتى يهاجروا في سبيل الله) . بعد أن هاجر رسول الله (ص) الى المدينة أوجب سبحانه الهجرة اليها عـــلى كل من أسلم إلا إذا عجز عنها ، أو أذن له الرسول لبقاء لمصلحة تعود عـــلى المسلمين .. ومن الآيات التي حث الله بها على الهجرة قوله تعالى : « والذين آمنـوا ولم يهاجروا ما لـكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا – ٧٢ الأنفـــال » . والسر – كما يبدو لنا – ان المسلمين كانوا قلة قبل فتح مكة ، فإذا تفرقوا هنا وهناك ضعفوا وطمع بهم العدو ، واذا اجتمعوا في مكان واحـد حول الرسول الأعظم (ص)

قويت شوكتهم ، وهابهم من يطمع بهم وهم متفرقون .. هذا الى فوائد كثيرة تترتب على الاجتماع والانضمام .. وبقيت الهجرة الى المدينة واجبة ، حتى فتح النبي مكة،ونصره الله على أعدائه ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ولم يبق للهجرة من سبب .. قال رسول الله (ص) : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » .

(فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم) . أي ان أولئك المنافقين إذا لم يتركوا دار الكفر ويهاجروا الى المدينة ، وينضموا الى الرسول والمسلمين فخذوهم أي أسروهم ، واقتلوهم أينما ظفرتم بهم (ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً) . المراد بالوالي هنا الحليف،والنصير معروف ، والقصد ان يعرضوا عنهم اعراضاً كلياً، فلا يستنصحوهم ولا يستنصروهم ولا يستعينوا بهم في شيء .

وتسأل : ان الاسلام دين الحرية والتسامح مع جميع الطوائف وأهل الأديان، وشريعته تحافظ على حياة الناس ، كل الناس،وحقوقهم المعنوية والمادية، بصرف النظر عن آرائهم ومعتقداتهم .. فما باله هنا يأمر بأسر المنافقين وقتلهم أينما وجدوا ؟.

الجواب : فرق بعيد بين الطوائف وأهل الأديان ، بل والملحدين الذين أعلنوا عقائدهم وآراءهم على الملأ ، ولم يضمروا العداء لانسان ، ولا غدروا ولا تآمروا ولا ناصروا مبطلاً على محق ، فرق بعيد بين هؤلاء الذين لزموا جانب الحياد ، وبين المنافقين الذين أظهروا الاسلام ، وتستروا بكلمته ، وبقوا في دار الكفر بقصد الكيد للمسلمين ، والتآمر عليهم ، ومناصرة أعدائهم .. اذن : الأمر بأسر هؤلاء وقتلهم كان جزاء على عدائهم للاسلام في حين أنهم أظهروا الايمان به وأضمروا الكيد للنبي والمسلمين والغدر بهم ، والتآمر عليهم .. أما تسامح الاسلام مع بقية الطوائف وأهل الأديان فهو انسجام مع مبدأه في حماية الحرية لكل فرد ، وعدم الاكراه في الرأي والعقيدة حقاً كانت أو باطلاً ، ما دام وزرها على صاحبها فحسب ، والناس في أمن منها ومنه .

سؤال ثان : وثمّ به الجواب عن السؤال السابق ، وهو ان الاسلام يتسامح مع المنافقين ، تماماً كما يتسامح من غيرهم من الطوائف وأهل الأديان بدليل ان

الله أمر نبيه بتجاهلهم والاغضاء عنهم ، كما سبق في الآية ٦٣ من هذه السورة: « فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » ؟.

الجواب : ان هذه الآية أي ٦٣ نزلت في المنافقين الذين كانوا مع النبي (ص) بالمدينة ، ولم يكن في وسع هؤلاء أن يتعاونوا مع المشركين لبعدهم عنهم وقربهم من الرسول وقوة المسلمين ، والآية التي نحن بصددها ، أي ٨٩ نزلت في المنافقين الذين أصروا على البقاء في دار الشرك للكيد والغدر بالمسلمين .. هذا ، الى أن الله أمر نبيه بالاغضاء عن المنافقين حين كان الاسلام ضعيفاً قليل الأنصار ، ثم أمره بقتلهم بعد أن أصبح قوياً كثير الانصار ، تماماً كما أمره بالصبر في مكة، والجهاد في المدينة .

وبعد ان أمر الله بالتنكيل بأولئك المنافقين الأعداء الألداء استثنى منهم صنفين:

وأشار الى الصنف الأول بقوله : (الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) . يريد بهذا جل وعلا ان من يلتجيء من اولئك المنافقين الى قوم بينهم وبين المسلمين عهد في المهادنة وترك القتال ، ان هذا اللاجيء يُترك لا يُؤسر ولا يُقتل ، لأنه – والحال هذه – يكون مسالماً للمسلمين ، تماماً كالذين التجأ اليهم ، فيعامـل معاملتهم في عدم التعرض له .. ومن المفيد أن ننقل ما قاله الرازي – هنا – :

« إعلم ان هذا يتضمن بشارة عظيمة لأهل الايمان ، لأنه تعالى لما رفع السيف عمن التجأ الى من التجأ الى المسلمين فبالأولى أن يرفع العذاب في الآخـرة عمن التجأ الى محبة الله ومحبة رسوله » .

وليس من شك ان محبة أهل بيت الرسول (ص) هي محبة لله وللرسول، لقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى – ٢٣ الشورى » .

وأشار الى الصنف الثاني بقوله : (أو جاءوكم حصرت صدورهم ان يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) . أي ان الذين يتحرجون أن يحاربوا المسلمـين مع قومهم المشركين ، أو يحاربوا قومهم مـع المسلمين ، وجاءوا الى النبي (ص) يطلبون منه الرضا بالوقوف على الحياد ، لا معه ولا عليه ، ان هؤلاء يُتركون أيضاً ، لا يُقتل ولا يؤسر أحد منهم ، لأنهـم غـير محاربين . وخير مثال يفسر هذه

الآية ما جاء في مجمع البيان ان جماعة من أشجع جاءوا الى النبي (ص) ، وقالوا له : ان دارنا قريبة من دارك ، وقد كرهنا حربك ، وحرب قومنا ، وأتينا لنوادعك ، فقبل منهم ، ووادعهم . فرجعوا الى بلادهم .

ولا شيء أقوى وأصدق من هذا في الدلالة على ان الإسلام سلم لمن سالمه ، وحرب على من حاربه .

(ولو شاء لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) . ان الله سبحانه لا يتدخل بمشيئته التكوينية[1] في شيء من أمور الناس ، وانما أراد بقوله هذا ان يذكّر المسلمين بفضله عليهم .. وانه كان من الممكن أن ينضم هؤلاء الى أعداء المسلمين، ولكن الله سبحانه صرفهم عن ذلك بوقوفهم على الحياد ، فقوله : (ولو شاء لسلطهم عليكم) معناه لجرأهم عليكم ، ولم يجعل لكم هيبة في نفوسهم تبعثهم على طلب الموادعة والمتاركة .. وليس هذا من باب المشيئة التكوينية، بل من المشيئة التوفيقية، ان صح التعبير .

(فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً). « انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق – ٤٢ الشورى » .. وأيضاً قال عز من قائل : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم – ٨ الممتحنة » .. وقال جلت حكمته : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها – ٦٢ الأنفال » . الى غير ذلك من الآيات التي تدعو الى المحبة والاخوة والمساواة ، والتعاون على كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات .. وأروع ما في الإسلام انه يعتبر الأعمال الانسانية من صميم الدين وصلبه ، بل يعتبرها السبيل الوحيد الى الله .

ستجدون آخرين الآية ٩١ :

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى

---

١ تكلمنا عن ارادة الله التكوينية والتشريعية عند تفسير الآية ٢٦ – ٢٧ من سورة البقرة ، فقرة التكوين والتشريع ، المجلد الأول ، ص ٢٧ .

ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً ★

اللغة :

الفتنة في اللغة الاختبار ، والمراد بها هنا الشرك . والارتكاس الرد . والثقف الحذق ، يقال ثقف ثقافة ، أي صار حاذقاً . والمراد بثقفتموهم في الآية وجدتموهم ، أو ظفرتم بهم . والمراد بالسلطان الحجة ، لأن صاحبها يتسلط بها على خصمه ، وفي بعض التفاسير : ان السلطان في كتاب الله هو الحجة .

الاعراب :

كلما منصوب على الظرفية ، لأنه مضاف الى (ما) المصدرية ، والعامل اركسوا . والكاف في أولئكم حرف خطاب تدل – في الغالب – على حال المخاطب من التذكير والتأنيث والافراد والتثنية والجمع ، أما المشار اليه فتعرف حاله من لفظ اسم الاشارة ، لا من الكاف . وبتعبير ثانٍ ان مثل ذاكم كلمتان الأولى ذا ، وتدل على ان المشار اليه مفرد مذكر ، والثانية (كم) وتدل على ان المخاطب جمع مذكر ، فإن كان مؤنثاً قلت ذاكن ، وان كان مثنى قلت ذاكما ، وهكذا الحال في سائر أسماء الاشارة ، ومن خُوطب بها .

لا قتل ولا قتال في الاسلام :

عرضت الآيات السابقة صوراً متنوعة للذين لاقى منهم الرسول (ص) ألواناً

من المكر والخبث والتمرد على الله ورسوله .. وهذه الآية تعرض صورة أخرى لفريق هم أكثر الناس عدداً في كل زمان ومكان ، أعني المتميعين المذبذبين الذين لا واقع لهم الا التقلب والتردد ، يؤمنون بالقيم حيناً، وحيناً بها يكفرون .. ونحن لا ننكر ان الانسان يتأثر بظروفه ، وانه كثيراً ما يتغير بحسبها ، بل أثبتنا ذلك عند تفسير الآية ١٤٣ من سورة البقرة ، فقرة «تغير الأخلاق والأفكار» ، ومع هذا فانّا نعتقد – استناداً الى العيان – ان لبعض الأشخاص ذاتاً تتذبذب بطبيعتها ، وتنتقل من حال الى حال ، حتى ولو اتحدت ظروفها .

(ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) . المراد بالرد الدعوة، وبالفتنة الكفر ، وبالارتكاس الرجوع والتحول . والمعنى ان هذا الفريق كلما دعوا الى الكفر والارتداد رجعوا اليه ، وكانوا أقبح من كل كافر ثبت على كفره ، وخير ما قيل في تصويرهم ما حكاه بعض المفسرين : انهم كانوا اذا رجعوا الى قومهم يقال لأحدهم : قل : الخنفساء ربي . والقرد ربي . فيقولها. ويقال لأمثال هؤلاء : إمعون جمع إمع ، أي اني معك من باب النحت .

ومهما بلغت الحال بهؤلاء من الانحطاط وانعدام الشخصية والذبذبة بين الكفر والإيمان فإن الإسلام يدعهم وشأنهم ما لم يعتدوا ويقاتلوا .. فإن اعتدوا وقاتلوا فالإسلام يأمر بردعهم وقتلهم أينما وجدوا اذا أصروا على الحرب والقتال .. وهذا ما أراده الله بقوله : (فإن لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم حيث ثقفتموهم) .

وهذا دليل من عشرات الأدلة التي يقدمها القرآن الكريم ، والسنة النبوية على ان الخط الأساسي لدين الاسلام ان لا قتل ولا قتال إلا لردع من قاتل وسعى فساداً في الأرض : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين – ١٩٠ البقرة » .. « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة – ١٩٣ البقرة » .. اذن ، الاسلام سوّغ القتال ، حيث سوغته جميع الشرائع قديماً وحديثاً ، وأوجبته جميع العقول .. ورغم هذه الأدلة وغيرها فان أعداء الاسلام أبوا إلا أن يقولوا : انه دين السيف والقتال ، تماماً كالذي قال : عنزة وان طارت .

انظر تفسير الآية السابقة ٩٠: « وألقوا اليكم السلم فما جعل الله عليهم سبيلاً». وقارن بينها وبين قوله تعالى في الآية التي نفسرها ٩١ : « وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » . فان كلاً منهما تؤيد الأخرى في ان القتال لم يشرع في الاسلام إلا دفاعاً عن النفس ، ودرءاً للفساد ، وانه يقدر بهما وجوداً وعدماً، وكماً وكيفاً .

قتل الخطأ والعمد الآية ٩٢ - ٩٣ :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً★ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً★

الإعراب :

خطأ نعت لمفعول مطلق محذوف ، أي الا قتلاً خطأ ، ومثلها خطأ الثانية . فتحرير رقبة مبتدأ محذوف الخبر لدلالة الكلام عليه ، أي فالواجب عليه تحرير رقبة . وان يصدقوا أصله يتصدقوا ، فادغمت التاء في الصاد لقرب مخرجهما . وقال صاحب مجمع البيان : ان المصدر المنسبك من ان يصدقوا وقع موقع الحال ..

وهو اشتباه منه ، لأن المصدر هنا معناه الاستقبال : والحال لا يكون مستقبلاً ، والأليق انه واقع موقع الاستثناء ، أي تجب الدية الا مع التصدق فـلا تجب . وتوبة مفعول لأجله ، والعامل فيه فصيام شهرين ، لأنه بمعنى الفعل .

المعنى :

(وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمناً إلا خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا) . القتل على أنواع ثلاثة :

١ - عمد محض ، وهو ان يتعمد العاقل البالغ قتل غيره مباشرة ، كالذبح والخنق ، أو تسبيباً ، كدس السم بالطعام ، أو منعه عن الطعام ، حتى مات جوعاً . فاذا تحققت المساواة بين القاتل والمقتول في الدين والحريـة ، ولم يكن القاتل أباً للمقتول كان الخيار لولي المقتول بين ان يقتل القـاتل قصاصاً ، وبين أن يأخذ منه الدية ، ان رضي القاتل باعطائها ، فالخيار بين القصاص والديـة للولي في قتل العمـد ، فان اختار الدية كان الخيار للقاتل بين أن يقدم نفسه للقتل ، أو يدفع الدية ، فلا الولي يجبر القاتل على دفع الدية ، ولا القاتل يجبر الولي على أخذها . والدية الشرعية ألف دينار ، وتبلغ ٣ كيلوات ونصفاً و ٢٩ غراماً من الذهب .

٢ - شبه العمد ، وهو أن يكون القاتل عامداً في فعله ، مخطئاً في قصده، كمن ضرب صبياً للتأديب فمات ، وهذا النوع من القتل يوجب الديـة ، دون القصاص ، وهي ألف دينار تماماً كدية العمد ، وتكلمنا عن قتل العمد وشبهه عند تفسير الآية ١٧٨ - ١٧٩ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٢٧٤ .

٣ - خطأ محض ، وهـو أن يكون القاتل مخطئاً في فعله وقصده ، كمن رمى حيواناً فأصاب انساناً فقتله ، فان الانسان غير مقصود ، لا بالرمي ، ولا بالقتل . وهذا هو المراد بقوله تعالى : (ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبـة ودية مسلمة الى أهله إلا أن يصدقوا) . وقد دل الكتاب والسنة مجتمعين عـلى أن من قتل مسلماً متعمداً فعليه أن يكفّر بعتق رقبة ، وصيام شهرين متتابعين،

واطعام ستين مسكيناً ، فيجمع بين هذه الأصناف الثلاثة ، وتسمى هذه بكفارة الجمع .

وان كان القتل خطأ ، أو شبه عمد فيكفّر بعتق نسمة ، فان عجز صام شهرين متتابعين ، فان عجز أطعم ستين مسكيناً .

أما دية الخطأ فتتحملها العاقلة، وهم البالغون العقلاء الأغنياء من الذين يتقربون الى القاتل بالأب ، كالاخوة والأعمام وأولادهم الذكور دون الاناث ، ومقدار الدية الف دينار ، والدية حق لأولياء المقتول ، ان شاءوا طالبوا بها، وان شاءوا أسقطوها عن القاتل . والى هذا أشار تعالى بقوله : (الا ان يصّدّقوا) . وقال الفقهاء : وجبت الكفارة على من قتل خطأ زجراً له عن التقصير ، وحثاً على الحذر في جميع الأمور ، ووجبت الدية على العاقلة رفقاً بمن أخطأ ، ووجب القصاص في قتل العمد تأديباً له على تعمد الحرام .

(فإن كان من قوم عدوٍ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) . المراد بقوم عدو الكفار المحاربون ، وضمير هو يعود على المقتول . والمعنى ان المسلم اذا قتل شخصاً باعتقاد انه كافر ، ثم تبين انه مسلم يقيم بين قومه الكفار ، اذا كان كذلك فلا شيء على القاتل الا عتق نسمة ، وتسقط عنه الدية، لأن المفروض ان أهل المقتول كفار ، فإذا أعطوها تقووا بها على حرب المسلمين .

(وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) . أي اذا كان المسلم المقتول خطأ من قوم كفرة ، ولكنهم غير محاربين ، لأن بينهم وبين المسلمين عهد المسالمة ، اذا كان كذلك تُعطى دية المقتول الى أهله ، وان كانوا كفرة، لأن حكمهم ، والحال هذه ، تماماً كحكم المسلمين ، من حيث وجوب الدية .

وعلى القاتل أن يُكفّر بعتق نسمة ، فإن عجز صام شهرين متتابعين، وشرع الله هذه الكفارة على القاتل ، لتكون توبة له على ما صدر منه .

(ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) . أشرنا في صدر الكلام رقم (١) الى حكم القاتل عمداً، وانه القتل إلا أن يعفو الولي ، وذكر الله سبحانه في هذه الآية ان جزاءه في الآخرة الخلود في جهنم ، والغضب واللعنة من الله ، والعذاب العظيم .. وهذه

العقوبات الأربع كلها تأكيد وعطف تفسير ، والقصد التعظيم من اثر هذه الجريمة الشنعاء ، وانها من الكبائر التي لا يعادلها الا الكفر ، قال بعض الفقهاء : انها من أظهر أفراد الكفر ومعانيه .. ويأتي الكلام عن قتل النفس ظلماً في المجلد الثالث الآية ٣٢ من سورة المائدة ان شاء الله . وسبق الكلام عن الخلود في النار عند تفسير الآية ٢٥٧ من سورة البقرة ، فقرة الخلود في النار ، المجلد الأول صفحة ٤٠٠ .

اظهار الاسلام كاف في الباله الآية ٩٤ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ★

اللغة :

الضرب في الأرض السفر . والتبين التثبت . والعرض بفتح الراء الشيء الذي يقل لبثه ، ويأخذ منه البر والفاجر . والمغنم اسم لمكان الغنيمة أو زمانها ، ويطلق على ما يكتسبه الرجل من مال عدوه في الغزو .

الاعراب :

تبتغون الجملة حال من الواو في تقولوا . وكذلك كنتم الكاف بمعنى مثل في محل نصب خبراً مقدماً لكنتم ، وذلك مجرور بالاضافة .

المعنى :

اتفق المفسرون والمحدثون على ان السبب الموجب لنزول هذه الآية ان النبي (ص) أرسل سرية من أصحابه ، فالتقت برجل معه مال ، كغنم وما اليه، فحسبوه كافراً ، فتلفظ بما يدل على اسلامه من تحية الإسلام، أو كلمة الشهادة ونحوها ، فاعتبرها بعضهم انها كلمة يقولها لينجو بها من القتل ، فقتله .

ولما علم النبي (ص) شق ذلك عليه ، وأنّب القاتل . فقال : انما تعوذ بها من القتل . فقال له – كما في بعض الروايات – هلا شققت عن قلبه .

وألفاظ الآية لا تأبى هذا المعنى ، بل هي صريحة فيه ، فان قوله تعالى : (اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) معناه اذا ذهبتم الى الجهاد فتأنوا ، ولا تقدموا على قتل من تشتبهون في دينه وعداوته (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً) لأن كل من أظهر الاسلام كان له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، بخاصة فيما يعود الى حقن الدماء ، وحفظ الأموال ، أما باطنه فموكول الى الله وحده .

(تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة) . ويُشعر هذا بأن الذي دفع بهم الى قتل الرجل انما هو الطمع بما لديه من أموال ، وهو الذي جعلهم يتخيلون ان اظهاره لكلمة الاسلام كان بقصد الخلاص والنجاة .. فكثيراً ما يتصور الانسان نفسه على غير حقيقتها ، فيكون واقعها شيئاً ، وانطباعه عنها شيئاً آخر ، مع العلم بأنه هو هي ، وهي هو .. وهذا من خصائص الانسان وعجائبه .. وعلى أية حال ، فان الله قد نبّههم الى خطئهم هذا ، وانهم قد استعجلوا الغنيمة ، مع ان مغانم الله ونعمه لا تُعد ولا تحصى ، فيعوضهم منها عن مال المقتول أضعافاً مضاعفة.

(كذلك كنتم من قبل) . هذا رد عليهم ، ونقض لفعلهم بمنطق العقل والوجدان ، وتقريره انكم كنتم مشركين من قبل ، ثم دخلتم في الاسلام بنفس الكلمة التي نطق بها القتيل ، وقبلها النبي (ص) منكم ، وبها حُقنت دماؤكم وأموالكم ، فكان عليكم ان تقبلوا من القتيل ما قبله النبي منكم .. وهكذا أكثر

الناس ، يطلبون من غيرهم الرضا بالنصيب الأدنى ، ولا يرضون لأنفسهم إلا النصيب الأوفى .

(فمنّ الله عليكم) بقبول الاسلام،وجعلكم من الصحابة بمجرد كلمة الشهادة ، ولم يبحث النبي عما في قلوبكم،فلماذا لم تعاملوا غيركم بما عاملكم به رسول الله(ص) (فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيراً) . أي لا تفعلوا أي شيء بعد الآن ، حتى تكونوا على بينة مما تقدمون عليه ، ولا تأخذوا احداً بالظن والتهمة ، فان الله خبير بواقعكم ودوافعكم ، ويحاسبكم عليها بما تستحقون .

وعدّ الفقهاء هذه الآية مع آيات الأحكام[1] واستخرجوا منها حكمين شرعيين:

الأول : وجوب التثبت في كل شيء ، بخاصة في الأحكام الشرعية، وبوجه أخص في الدماء والأموال ، حيث أوجب الفقهاء فيها التحفظ والاحتياط ، وألحقوا بهما الفروج .

الثاني : ان كل من نطق بكلمة الاسلام ، وقال : أنا مسلم فحكمه حكم المسلمين من حيث الزواج والارث ، وما الى ذلك من الأحكام التي تترتب على مجرد اظهار الاسلام ، لا على نفس الاسلام حقيقة وواقعاً .

القاعدون والمجاهدون الآية ٩٥ ـ ٩٦ :

لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ

---

١ كل آية يستخرج منها حكم شرعي فهي من آيات الاحكام ، كآيات الحج والصيام ، والزواج والارث والمأكولات المحرمة ، وقد بلغت هذه الآيات حوالى ٥٠٠ آية ، ووضع لها فقهاء الشيعة والسنة كتباً مستقلة ، فمن كتب السنة آيات الاحكام للجصاص ، ومن كتب الشيعة كنز العرفان في آيات الاحكام للمقداد .

عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً★ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً★

اللغة :

الاستواء المماثلة ، تقول : استوى هـذا وهذا ، أو تساويا ، أي تماثلا . والضرر كل ما يضر ، والمراد به هنا العمى والعرج والمرض ، وما اليه مما يمنع من الجهاد . والمراد بالدرجة عند الله المنزلة ، قال رجل : يا رسول الله ما الدرجة ؟. فقال : أما انها ليست بعتبة أمك ، ما بين الدرجتين مئة عام .

الإعراب :

من المؤمنين متعلق بمحذوف حال من القاعدين . وغير صفة لهم . ودرجة قائمة مقام المفعول المطلق لفضّل ، لأن الدرجة هنا تتضمن معنى التفضيل ، أي فضّل الله المجاهدين تفضيلاً ، أو تفضلة . وكلاً مفعول أول لوعد ، والحسنى مفعول ثانٍ . وأجراً قائم مقام المفعول المطلق ، لأنه يتضمن معنى التفضيل : ودرجات بدل من أجر .

المعنى :

(لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) . من تخلف عن الجهاد لعذر مشروع ، كالعمى والعرج ، وما اليه فهو معذور ، بل ومأجور اذا كان مؤمناً مخلصاً يحب النصر للدين ، والخير وأهله ، ويود في واقعه لو كان معافى ليشارك المجاهدين في جهادهم ، فقد جاء في الحديث : « المرء مع من أحب » أي من أحب مجاهداً لا لشيء الا لأنه مجاهد فله أجر المجاهدين ، ومن أحب صادقاً لصدقه فله منزلته ، ومن

أحب ظالماً لظلمه فهو شريكه ، ومن أحب كافراً لكفره فهو مثله ، هذا حكم القاعدين غير الأصحاء .

أما الأصحاء منهم فيُنظر : فإن قعدوا عن الجهاد الذي وجب عليهم وعلى غيرهم ، كما في النفير العام فإنهم غير معذورين ، بل ملومين مستحقين للعقاب، لأنهم تمردوا وعصوا ، وعليه فلا تصح المفاضلة بينهم وبين المجاهدين بحال ، لأن المفاضلة مفاعلة ، وهي تقتضي المشاركة ، وهؤلاء لا يشاركون المجاهدين في شيء .. وان كان الجهاد فرض كفاية يحصل الغرض منه بفعل البعض،ولا حاجة الى الكل يكون القاعدون عنه معذورين ، مع قيام غيرهم بهذا الواجب ، ولكن المجاهدين أفضل من القاعدين ، على الرغم من وجود عذرهم المشروع ، لأنهم آثروا الكسل على العمل ، والاعتزال على النضال،وهؤلاء القاعدون هم المقصودون بقوله تعالى : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر » . وعلى هذا يكون المعنى لا يستوي عند الله القاعدون الأصحاء والمجاهدون الذين لم يجب عليهم الجهاد بالخصوص ، بل وجب عليهم وعلى غيرهم كفاية ، ولكن هم الذين تصدوا لهذا الواجب ، وأدوه على أكمله ، وأسقطوه عن الباقين . وهذا المعنى هو الذي أراده الله ، وأوضحه بقوله :

(فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) . بعد أن نفى التسوية بينهم وبين القاعدين بيّن ما امتاز به المجاهدون ، وهو تفضيلهم على القاعدين بدرجة ، فيكون قوله هذا تفصيلاً بعد اجمال ، وسر التفضيل ما أشرنا اليه من تحملهم مسؤولية الدفاع منفردين ، تماماً كما لو هاجم العدو بلداً،فصده عنه فريق دون فريق من أهله ، فيمتاز الفريق الأول على الثاني بالبداهة ، وان كان الثاني غير مؤاخذ بعد أن قام الأول بالواجب ، وحقق الغرض المطلوب ، ولذا قال تعالى : (وكلا وعد الله الحسنى) . ولكنه أعاد مؤكداً ومرغباً في الجهاد بقوله :

(وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) وبيّن هذا الأجر العظيم بأنه (درجات منه ومغفرة ورحمة) . ودرجة واحدة عند الله خير من الكون بما فيه ، فكيف الدرجات !! أما رحمته فلا شيء خير منها الا من هي منه ..

وكفى بمغفرته أماناً من عذابه وسخطه .. هذه هي المغفرة والرحمة والدرجة عند الله ، من نال واحدة فهو في عليين ، فكيف بمن نالها مجتمعة ؟!.

اللهم اني أسألك يسيراً من رحمتك ومغفرتك ، وأنت تعلم ان بي فاقة اليه .. وماذا يكون لو مننت وجبرت مسكنتي ؟! أتخشى نفاد مغفرتك ، وكنوز رحمتك ؟ أم ماذا يا مولاي ؟! ألاني مذنب .. أجل ، ولكن ألا تعلم بأني أعلم ان لا ملجأ لي منك إلا اليك ، وانه يسرني أن تعفو عني وتصفح .. اللهم إن كنت كاذباً فيما قلت فعاملني بما أنا أهله ، وان كنت صادقاً فيه فعاملني بما أنت أهله .

علي وأبو بكر :

قال الرازي بالنص الحرفي :

« قالت الشيعة : دلت هذه الآية (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) على ان علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر ، وذلك لأن علياً أكثر جهاداً ، فالقدر الذي فيه التفاوت كان أبو بكر من القاعدين فيه ، وعلي من القائمين ، واذا كان كذلك وجب أن يكون علي أفضل منه لقوله تعالى : (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) .

ثم ردّ الرازي على الشيعة بقوله – أيضاً بالنص الحرفي – : « فيقال لهم : ان مباشرة علي لقتل الكفار كانت من مباشرة الرسول لذلك ، فيلزمكم بحكم هذه الآية أن يكون علي أفضل من محمد (ص) ، وهذا لا يقوله عاقل ، فإن قلتم: ان مجاهدة الرسول مع الكفار كانت أعظم من مجاهدة علي معهم ، لأن الرسول كان يجاهد الكفار بتقرير الدلائل والبينات وازالة الشبهات والضلالات ، وهذا الجهاد أكمل من ذلك الجهاد ، فنقول : فاقبلوا منا مثله في حق أبي بكر ».

وهذه غفوة من فيلسوف المفسرين .. ولا أقول هفوة . أولاً : ان كل من قاس محمداً (ص) بواحد من صحابته في تقرير الدلائل والبينات فقد خرج عن الاسلام من حيث يريد ، أو لا يريد .. اللهم إلا لشبهة علقت بذهنه .. ذلك ان محمداً يقرر الدلائل والبينات بوحي من الله – كما سنشير – وصحابته يقررونها

بتعلم منه .. فالمقام الأول لله وحده ، ولا شريك معه ، والمقام الثاني لمحمد وحده ، ولا أحد معه ، والإيمان بهما معاً في رتبة واحدة ، من حيث ان كلاً من الإيمان بالله والإيمان برسوله ركنٌ مقوّم للاسلام ، ولا يتحقق بأحدهما،دون الآخر ، وعليه تكون الخلافة والصحبة والجهاد،ونحوه فرعاً عن الإيمان بالنبوة ، والنبوة أصل ، والفرع لا يقاس بالأصل .

ثانياً : ان المعنى الظاهر من لفظ المجاهدين في آية : (وفضّل الله المجاهدين) هو الجهاد بالسف ، لا بغيره باعتراف الرازي في تفسيره .. ولكنه ذهل عما قال ، وناقض نفسه بنفسه .. ولندع ظاهر الآية ، وجميع التفاسير ، ونرجع الى من نزل القرآن على قلبه ، ونسأله : أي الناس أفضل ؟ ونستمع لما يجيب.. وقد روى مسلم في صحيحه : ان رجلاً سأل رسول الله (ص) : أي الناس أفضل ؟ فقال : « رجل جاهد في سبيل الله بنفسه وماله » .. وكلنا يعلم (ان علياً أكثر جهاداً) على حد تعبير الرازي فيكون أفضل الناس،ما عدا النبي(ص) ، حيث لا شيء فوق مقام النبوة الا مقام الألوهية – كما بينا – وأيضاً كلنا يعلم بالبداهة ان الجهاد بالنفس أفضل وأعظم من الجهاد بالمال ، لأن المال يبذل في سبيلها ، وهي لا تبذل في سبيله .

ثالثاً : ان الرسول الأعظم (ص) – كما قدمنا – لم يقرر الدلائل والبينات، ولم يزح الشبهات والضلالات من عنده،بل الله سبحانه كان يلقنها لمحمد (ص)، ومحمد يبلغها بالحرف : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة – ٧٩ يس » .. « قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده – ٣٤ يونس » .. « قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين – ٣٨ يونس » .. « قل اتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً – ١٦ الرعد » .. الى عشرات الآيات .. وغريب ان يذهل الرازي عنها بعد ان أطال في شرحها وتفسيرها .

والأعجب الأغرب قوله : « فاقبلوا منا مثله – أي مثل ما قبلتم من محمد – في حق أبي بكر » . كلا ، وألف كلا ، لا نحن ولا أي مسلم يقبل منك ومن غيرك أن يكون لأبي بكر مثل ما كان لمحمد (ص) (في تقرير الدلائل

والبينات وازالة الشبهات والضلالات) والا كان أبو بكر نبياً ينزل الوحي عليه من الله .. استغفره وأعوذ به .. هذا ، الى أن منزلة علي من العلم لا تدانيها منزلة واحد من الصحابة على الاطلاق ، وكفى شاهداً على ذلك ما تواتر عن الرسول الأعظم « أنا مدينة العلم وعلي بابها » . وقد حفظ التراث الاسلامي من علم علي ما لم يحفظه لأبي بكر ، ولا لغيره من الصحابة .

أرض الله واسعة الآية ٩٧ - ١٠٠ :

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً★ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً★ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً★ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً★

اللغة :

توفى الشيء أخذه وافياً تاماً ، والمراد به هنا قبض الأرواح عند الموت . وراغمت الرجل اذا فعلت ما يكره . واشتقاقه من الرغام ، وهو التراب ، يقال

رغم أنفه ، لأن الأنف يكنى به عن العزة ، والتراب يكنى به عن الذلة ، لأن الناس تدوسه بأقدامها . فإذا أضفت إحدى الكلمتين الى الأخرى كانتا كناية عن ذل صاحب الأنف .

الاعراب :

الذين اسم ان ، وجملة قالوا فيم خبر . وتوفاهم يجوز اعتبارها فعلاً ماضياً اذا أبقيتها كما هي ، ولم تقدر تاء محذوفة ، ويجوز اعتبارها مضارعاً على معنى تتوفاهم . وظالمي أنفسهم حال من ضمير تتوفاهم . وفيم (ما) للاستفهام، حذفت منها الألف، والمجرور، متعلق بمحذوف خبراً لكنتم، أي كنتم في أي شيء . وأولئك مبتدأ أول ، ومأواهم مبتدأ ثان ، وجهنم خبر المبتدأ الثاني ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول . ومصيراً تمييز . ونصب المستضعفين على الاستثناء المنقطع من أولئك ، لعدم دخولهم في أهل جهنم . وسبيلاً منصوب بنزع الخافض ، أي لا يهتدون الى سبيل ، أو مفعول ، لأن لا يهتدون تتضمن معنى لا يعرفون . ومهاجراً حال من الضمير في يخرج .

المعنى :

كان للمسلمين في عهد الرسول (ص) هجرتان من مكة : احداهما الى الحبشة، وكانت لخمس سنين من مبعثه ، والثانية الى المدينة ، وكانت بعد ثماني سنين من الأولى ، ومن الصحابة من هاجر الهجرتين ، كجعفر بن أبي طالب الذي ختم حياته بالشهادة بعد أن قُطعت يداه ، فأكرمه الله عنهما بجناحين يطير بهما في الجنة ، ومن أجلها سُمي الطيار .

أما سبب الهجرة فهو الابتعاد عن الوقوع في التهلكة ، واللجوء الى مكان الأمن ، وتدبير الخطة للجهاد المنظم ، ومصارعة الباطل وصرعه .. وبالهجرة وفضلها انتصر الاسلام على أعدائه ، ولولاها لانطفأت شعلته ، وتحول الى رماد

تذروه الرياح ، ومن هنا كانت الهجرة حينذاك هي الفضيلة العظمى ، والمنقبة الأولى التي لا يدانيها شيء .

هاجر النبي (ص) من مكة الى المدينة ، وأمر المسلمين بالهجرة اليها . فاستجاب له كثيرون ، وتخلف آخرون تمسكاً بأموالهم ومصالحهم ، لأن المشركين كانوا لا يدعون مهاجراً يحمل معه شيئاً من ماله ، ويشددون عليه بالأذى ، ويمنعونه من اقامة دينه ، وهو عاجز عن الدفاع والمقاومة ، ولكنه كان قادراً على الخلاص والتحرر من الاضطهاد ، واقامة الدين على أكمل الوجوه بالهجرة من دار الحرب على المسلمين الى دار الإسلام والأمان ، الى المدينة ، حيث النبي والصحابة .. لذلك وبخ الله سبحانه الذين آثروا البقاء في دار الكفر والحرب على الدين وأهله ، وبخهم وأنبهم بلسان ملائكة الموت قائلاً :

(ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) بترك الجهاد والهجرة الى دار الإسلام ، والرضا بالبقاء في دار الكفر والاذلال والاخلال بواجبات الدين ، وتكثير الكافرين وتقليل المؤمنين (قالوا فيم كنتم) أي قال ملائكة الموت للذين تركوا الهجرة : في أي شيء كنتم ؟.. وليس هذا سؤالاً في واقعه ، وانما هو تأنيب وتبكيت ، وبديهة ان التأنيب يكون على شيء واقع ومعلوم ، وهو هنا تخلفهم عن اخوانهم المهاجرين الذين أطاعوا الرسول في تنفيذ خطته لتحطيم الشرك واعلاء كلمة الله .

وان سأل سائل : هل كان هذا التوبيخ من ملائكة الموت للمتخلفين حين الاحتضار وقبل الموت ، أم بعده ؟.

أجبناه : ان علم هذا عند ربي ، وقد سكت عنه ، فنسكت نحن أيضاً عما سكت الله عنه ، قال رسول الله (ص) : « ان الله سكت عن أشياء لم يسكت عنها نسياناً فلا تتكلفوها » .

(قالوا كنا مستضعفين في الأرض) . هذا اعتذار واعتلال من المتخلفين ، ومعناه ان المتخلفين أجابوا الملائكة الذين أنبوهم على التقصير في أمر الدين ، أجابوهم : كنا عاجزين في دار الشرك عن القيام بواجبات الدين، لأن المشركين اضطهدونا ، ومنعونا من ممارسة ما نعتقد ، فرد الملائكة هذا الاعتذار و (قالوا

– لهم مبكتين – ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) . أي كنتم قادرين على الهجرة الى دار الإسلام ، حيث تتخلصون من الذل ، وتقيمون الدين في حرية ، كما فعل غيركم من المسلمين .. وان دل هذا الحوار على شيء فإنما يدل على ان الله سبحانه لا يعذب أحداً الا بعد اتمام الحجة .. بل الا بعد تراكم الحجج عليه ، بحيث لا يدع للمذنب ملجأ الا مغفرته تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء .. اللهم وأنا شيء فلتسعني رحمتك .

(فأولئك – أي المتخلفون – مأواهم جهنم وساءت مصيراً الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان – الذين – لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً) . بعد أن هدد سبحانه وتوعد المتخلفين استثنى منهم المعذورين لمرض أو عدم النفقة ، وأسقط عنهم تكليف الهجرة ، لأن الله لا يكلف نفساً الا وسعها .

وتسأل : ان استثناء الرجال والنساء المعذورين له وجه معلوم .. فما الوجه لاستثناء الولدان ، مع العلم بأنهم ليسوا من أهل التكليف ؟.

وأجيبَ عن هذا السؤال بأن المراد بالولدان هنا العبيد والاماء .. أما نحن فنجيب بأن كثيراً من الولدان يستطيعون الهجرة بخاصة المراهقين ، بل ان بعضهم أقدر عليها من الكبار ، ومن أجل هذا قد يتوهم متوهم ان الهجرة تجب على من قدر منهم ، فدفع الله هذا التوهم ، وبيّن ان الهجرة تجب على كل قادر إلا إذا كان من الولدان .

الفقهاء ووجوب الهجرة :

وقد استدل الفقهاء بهذه الآية على ان المسلم لا يجوز له أن يقيم في بلد الكفر إذا تعذر عليه اقامة الدين فيه ، حتى ولو كان وطنه ، وله فيه أملاك ومصالح .

ولا موضوع اليوم لهذا الحكم ، لأن لكل انسان في كل بلد أن يعبد الله بالشكل الذي يريد ، فاذا ترك فهو وحده المسؤول .

ونسأل ، اذا علم ان اقامته في بلدٍ غير مسلم تؤدي به الى ترك الفريضة .. لا لأن أحداً يمنعه عنها ، بل لضعف الدافع عليها ، ووجود الصارف عنها ، كالملاهي ونحوها : فهل تجوز له الاقامة في هذا البلد ؟.

الجواب : اذا علم علماً يقينياً ان الذهاب الى أي مكان كان بلداً أو مجلساً أو سوقاً يوقعه حتماً في ترك الواجب،أو فعل الحرام وجب عليه الاحجام عنه ، وإذا كان مقيماً فيه وجب عليه الرحيل عنه ، لأن السبب التام الذي يستلزم حتماً الحرام فهو حرام .. قال تعالى : « فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين – ٦٨ الانعام » . وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) : « والهجرة قائمة على حدها الأول » أي لم يزل حكمها الوجوب على من يتعذر عليه القيام بأحكام دينه إلا في بلد مسلم . أما قول النبي (ص) : « لا هجرة بعد الفتح » فان المراد به الهجرة من مكة ، وتدل عليه لفظة الفتح .

(ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة) . ان الأرزاق لا تنحصر بالأوطان ، والهجرة لا تستوجب الحرمان ، فبلاد الله واسعة، ورزقه أوسع ، ونعمه في كل بلد لا تعد ولا تحصى .. وان كثيراً من الفقراء قد جمعوا من مهاجرهم أموالاً لم يحلموا بجزء منها ، وهم في أوطانهم .. ولو ان المتخلفين هاجروا لوجدوا من الرزق والعزة ما يرغمون به أنوف المشركين الذين أذاقوهم ألواناً من الذل والاضطهاد .. ولكن المتخلفين رفضوا الهجرة ، وتحملوا الهوان والاذلال من أعداء دينهم ، لا لشيء الا لأن الشيطان وعدهم الفقر ، ان هاجروا ، فركنوا الى وعده ، وآثروه على مغفرة الله وفضله : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم – ٢٦٨ البقرة » .

(ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) . كل من قصد بجد واخلاص عملاً من أعمال الطاعة ، ثم عجز عنه فان الله سبحانه يكتب له ثوابه تاماً كاملاً تفضلاً منه وكرماً . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران ، فقرة لكل امرىء ما نوى .. وروي ان جندب بن ضمرة لما سمع آية الهجرة قال لبنيه : والله لا أبيت في مكة ، حتى أخرج منها ، فاني أخاف أن أموت فيها ، وكان مريضاً شديد المرض ، فخرجوا يحملونه على سرير ، حتى اذا بلغ مكاناً في الطريق يقال له التنعيم مات ، فنزل قوله تعالى : ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله الخ ..

بين هجرة الرسول من مكة المكرمة وهجرة الفلسطينيين من الأرض المقدسة :

من عجيب الصدف وغرائبها أن يتفق – من غير قصد – وصولي بتفسير القرآن الكريم الى آيات الهجرة – مع أول السنة الهجرية لعام ١٣٨٨ ، واسرائيل تحتل أرضنا المقدسة ، وأهلنا يهاجرون منها فراراً من التنكيل والتقتيل الجماعي الذي مارسته اسرائيل ، وما زالت تمارسه .

وقد أوحت إليّ هذه الصدفة بالمقارنة بين اعتداء المشركين في مكة على المسلمين ، واخراجهم من ديارهم ، وبين الاعتداء الاسرائيلي – وبالأصح – الاعتداء الاستعماري على الأرض المقدسة ، واخراج أهلها من ديارهم . ثم انتقلت من هذه المقارنة الى استخراج العبرة والعظة من جهاد النبي (ص) والمسلمين في هجرتهم ، وتدبير الخطط واحكامها الذي بلغ بالمسلمين الى أوج النصر على عدوهم ، وتحطيم طغيانه وعدوانه ، وأوقف صناديد قريش الذين أخرجوا النبي من مكة ، أوقفهم بين يديه أذلاء مستسلمين ، يستمعون اليه ، وهو يقول لهم : «ما تظنون اني فاعل بكم » ؟

وقد يظن البعض ان الهدف الأول من هجرة النبي والمسلمين هو مجرد الهروب بدينهم من المشركين الذين تعرضوا لهم بالأذى ، ومنعوهم من ممارسة الشعائر والأعمال الدينية ، تماماً كما يلتجيء العابد الزاهد الى المسجد ، ليقيم فيه صلاته بعيداً عن الضوضاء والغوغاء ... كلا ، لقد كانت هجرة المسلمين أبعد وأعمق من ذلك ... والدليل ما حققته من نتائج وأهداف . لقد كانت هجرة الرسول بالاضافة الى الهروب بالدين – خطة مرسومة ومدبرة تمهيداً للمعركة الفاصلة ، تماماً كانسحاب الجيش من ميدان القتال الى موقع آخر من مواقعه استعداداً للهجوم المعاكس والانقضاض على العدو بضربة قاضية لا تقوم له بعدها قائمة .

وبعد أن وصل النبي الى المدينة آخى بين أصحابه ، وجمع القلوب المتخاصمة ، وأذاب ما فيها من عصبية وأحقاد ، وحين تم له ذلك بدأ يرغّب المسلمين في الجهاد ، ويحثهم على الدفاع عن كيانهم وعقيدتهم ، ويضمن الجنة لمن يقتل في سبيل الله ، والعزة والكرامة دنياً وآخرة لمن ينجو من القتل . ولما أخذت هذه

التعاليم سبيلها الى نفوسهم شرع في تجنيدهم وتأليف السرايا ، يبعثها هنا وهناك .. وقادها بنفسه أكثر من مرة ، وحققت الاستقرار والأمن للمسلمين ، كما أقلقت راحة قريش وسلامتها .. ثم تحولت السرايا الى معارك كبرى ، والمسلمون يبذلون أرواحهم وأموالهم ، حتى جاء نصر الله والفتح : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا » .

وأحسب ان هذه الاشارة كافية لاستخراج العبرة التي يجب أن ننتفع بها في نكبتنا باسرائيل ومن ساند اسرائيل .

هاجر النبي (ص) من مكة لاعتداء المشركين عليه وعلى أصحابه ، وهاجر الفلسطينيون من الأرض المقدسة لاعتداء الصهيونية والاستعمار عليهم وعلى نسائهم وأطفالهم . وكانت هجرة المسلمين آنذاك ابتعاداً عن الوقوع في التهلكة، وانسحاباً من ميدان المعركة لتجميع القوى ، والاستعداد للضربة القاضية على العدو . ويجب أن يكون خروج الفلسطينيين من ديارهم بهذا القصد والروح، ولهذه الغاية بالذات، لا بقصد اخلاء البيت للصوص يسرحون فيه ويمرحون .

وبدأ النبي هجرته بالتآخي بين أصحابه .. وعلى قادة العرب والمسلمين أن يبدأوا بالتآخي والتصافي بين القلوب ، وان يوحدوا كلمتهم لمجابهة العدو ، تماماً كما فعل النبي قبل أن يجابه المشركين . ومن حاد عن هذا السبيل فقد التقى مع اسرائيل ، وحقق امنيتها من حيث يريد أو لا يريد .

وأرسل النبي السرايا ليقلق أمن المشركين ، وأمدّ المسلمون هذه السرايا بكل ما يحتاجون .. ويجب على العرب والمسلمين أن يشجعوا الفدائيين من الفلسطينيين وغيرهم ، ويمدوهم بالمال والعتاد ويتعاونوا معهم الى أقصى الحدود ، ليقلقوا راحة اسرائيل وأمنها .. وعبأ النبي جميع المسلمين للمعركة الفاصلة الكبرى ، واستأصل الشرك من جذوره بعد أن رسخ قروناً في كل جزء من أرض الجزيرة العربية .. وهذا ما يجب أن يفعله قادة العرب والمسلمين .

واذا لم نعتبر بهذا الدرس من تراثنا وتاريخنا، ونكون جميعاً جنوداً من جنود الله والوطن فلسنا جديرين باسم العرب والعروبة ، ولا باسم الإسلام والمسلمين .. بل ولا باسم الانسان والانسانية بعد أن أصبح هذا العصر عصر الفداء والكفاح والتحرر من كل ما فيه شائبة الظلم والاستغلال .

ونختم هذه الكلمة بالتحية والإكبار لأبنائنا الفدائيين الأشاوس الذين ضربوا أروع الأمثلة للبطولة والفروسية ، والفداء والتضحية في أرضنا المحتلة ، وأثبتوا للعالم كله اننا في مستوى عصر الكفاح والنضال من أجل الحرية والكرامة .

صلاة الخوف الآية ١٠١ ـ ١٠٣ :

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً★ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً★ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً★

المعنى :

الصلاة لا تترك بحال ، حتى حين المرض والحرب ، وبالأولى في السفر ، ويؤديها كل مكلف حسب مقدرته على الوقوف أو الجلوس ، فان عجز عنهما أداها مضطجعاً ، حتى الأخرس يجب عليه أن يحرك لسانه ، ويشير بيده بدلاً عن النطق ، والتفصيل في كتب الفقه .

(واذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) . نزلت هذه الآية في أحكام الجهاد والخوف ، تماماً كالآيات السابقة ، فان سياق الجميع واحد ، وأوضح من السياق قوله : (ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) فان المراد بالفتنة هنا القتل ، أما السفر المراد من الضرب بالأرض فقد ورد مورد الغالب ، لا لبيان الشرط والقيد ، أما قوله : (فليس عليكم جناح) فالمراد به الوجوب والالزام ، لا الرخصة والاباحة ، لأن الأخبار فسرته بالالزام ، ومثله آية الطواف : (فلا جناح عليه أن يطوف بهما – ١٥٨ البقرة » . وحيث وردت الآية في صلاة الخوف ، لا في صلاة القصر فيكون المراد بقوله : (ان تقصروا من الصلاة) القصر في عدد الركعات والتغيير في هيئة الصلاة حسبما تستدعيه الضرورة .

ولصلاة الخوف شروط ، أهمها أن يكون في العدو قوة ، يستطيع بها الهجوم والفتك .. أما كيفيتها فقال الشهيد الثاني في اللمعة : انها كثيرة تبلغ العشرة .. وتصح جماعة وفرادى ، وهذه صورة لصلاة الخائف منفرداً ، ذكرها صاحب الشرائع ، قال بالنص الحرفي :

« أما صلاة المطاردة ، وتسمى صلاة الخوف مثل أن تنتهي الحال الى المعانقة والمسايفة ، فيصلي حسب امكانه واقفاً أو ماشياً أو راكباً ، ويستقبل القبلة بتكبيرة الاحرام ، ثم يستمر ، ان أمكنه الاستمرار ، والا استقبل بما أمكنه ، وصلى ، مع التعذر الى أي جهة أمكن ، واذا لم يتمكن من النزول صلى راكباً ، ويسجد على قربوس سرجه ، وان لم يتمكن أومأ إيماء ، فان خشي صلى بالتسبيح ، ويسقط الركوع والسجود ، ويقول بدل كل ركعة : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

وهذه الصورة كافية وافية في الدلالة على ان الصلاة فرض لازم ، لا يسقط أثناء النزال والقتال ، ولا حين النزع والاحتضار ، وان المرء يؤديها كماً وكيفاً حسب امكانه ومقدرته .

(واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم). هذا بيان لصلاة الخوف جماعة، والمعنى اذا أردت يا محمد الصلاة جماعة بالمقاتلين فاجعلهم طائفتين : واحدة تصلي معك ، وهي حاملة السلاح ، والثانية تقف بإزاء العدو للحراسة ، وكما تصح جماعة مع النبي (ص) تصح مع غيره أيضاً .

(فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم) . أي اذا سجد من يصلي مع الرسول (ص) فلتقف الطائفة الحارسة خلف المصلين . (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) . أي بعد أن تنتهي الأولى من الصلاة تأخذ الثانية مكان الأولى في الصلاة ، وتأخذ الأولى مكان الثانية في الحراسة . (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) . هذا بيان للحكمة التي استدعت تشريع الصلاة في هذه الحال بهذا الشكل ، وهي ان لا يغتنم العدو فرصة اشتغال المسلمين المقاتلين بالصلاة ، فيباغتهم ، وينال منهم ما يريد .

(ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) . بعد أن أمر سبحانه المصلين بحمل السلاح أذن لهم بتركه ، إن ثقل عليهم حمله بسبب المطر أو المرض ، ولكنه تعالى أوجب عليهم الحيطة والتيقظ ، كي لا يصيب العدو منهم غرة .

(فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) . المراد بالصلاة هنا صلاة الخوف وبقضائها الفراغ منها . والمعنى ان ذكر الله حسن على كل حال ، لا في الصلاة فقط ، قال الامام علي (ع) : افترض الله من ألسنتكم الذكر ، وأوصاكم بالتقوى ، وجعلها منتهى حاجته من خلقه . وقال ابن العربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية : من حاز على ذكر الله في قيامه وقعوده واضطجاعه فقد حاز الوجود .

(فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً).

المراد بالكتاب ان الصلوات الخمس مكتوبة ومفروضة ، والمراد بالموقوت انها محدودة بأوقات معينة صباحاً ومساء ، والقصد انه متى وضعت الحرب أوزارها، وزال الخوف فعليكم ان تؤدوا الصلاة في أوقاتها ، ولا تتهاونوا بها . وتكلمنا عن الصلاة واهتمام الإسلام بها فيما سبق من الآيات،وان تركها يؤدي الى الكفر. (أنظر المجلد الأول ص ٣٦٨) .

وتسأل : ان الآية أوجبت صلاة الخوف ، حيث كان القتال بالسيف والرمح والخنجر ، أما الآن فقد تطور سلاح الحرب الى ما نعلم من آلاته الجهنمية .. وعليه ينبغي ارتفاع صلاة الخوف لارتفاع موضوعها .

الجواب : ان السبب الموجب لهذه الصلاة هو الخوف من حيث هو بصرف النظر عن الحرب وآلاته قديمة كانت ، أو حديثة ، فإذا حصل الخوف بسبب غير الحرب جاز قصرها كماً وكيفاً .

قال صاحب الجواهر : « اذا خاف من سيل أو سبع أو حية أو حريق ، أو غير ذلك جاز أن يصلي صلاة شدة الخوف ، فيقصر عدداً وكيفية ، لعدم الفرق في أسباب الخوف المسوغة ، فقد سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عمن خاف من سبع أو لص : كيف يصلي ؟ قال : يكبر ويومىء ايماء » .

ومرة ثانية نقول مؤكدين : ان الصلاة لا تسقط بحال ، وان كل انسان يؤديها بالنحو الذي يستطيعه من القول والفعل ، فإن عجز عنهما أومأ الى الصلاة بطرفه ، فإن عجز عن الايماء استحضر صورة الصلاة في ذهنه .

ولا تهنوا في ابتغاء القوم الآية ١٠٤ :

وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً★

اللغة :

الوهن الضعف . والابتغاء الطلب . والرجاء الأمل ، وقيل : المراد بـه هنا الخوف . والصحيح انه على بابه .

الإعراب :

كما تألمون الكاف بمعنى مثل ومحلها النصب صفة لمفعول مطلق محذوف . وما مصدرية ، والتقدير يألمون ألماً مثل ألـمكم .

المعنى :

(ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) . لو نزل اليوم وحي من السماء في وضعنا مع اسرائيل لما زاد حرفاً واحداً على هذه الآية .. ان أحوج ما نحتاج اليه لمقاومة العدو الشرس المتغطرس ، وردعه عن الغي والبغي هو ان نشد عزائمنا ، ونثق بالله وبأنفسنا، وان لا نصغي الى المستعمرين والانتهازيين الذين يبغون استغلالنا وهزيمتنا، ويلفقون الدعايات والاشاعات المضللة ليخدعونا عن واقعنا وطاقاتنا .

ان مجرد القلق يفيد العدو ، ويكون عوناً له على ما يريد فضلاً عن الخوف والانهيار ، ومن أجل هذا نهانا سبحانه عن الخوف من عدو الله والانسانيـة ، مهما كان ويكون ، وأمرنا بالثبات علي مقاومته ، وأنبأنا بأنـه يألم منا كما نألم منه ، ولكننا أعلى منه ، لايماننا بالله واعتمادنا عليه .. أما اسرائيـل فإنها تعتمد على الاستعمار والمستعمرين واخوان الشياطين الذين أوجدوها ، وأمدوها بالمـال والسلاح ، وشجعوها على الاعتداء ، وناصروها في الأمم المتحدة ومجلس الأمن . وما من شك انه اذا وثقنا بأنفسنا ، وثبتنا في المقاومة مخلصين، وبذلنا ما نملك من طاقات ، كما أمرنا الله عز وجل يكون النصر لنا لا محالة .

وقال تعالى في آية ثانية : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله

معكم – ٣٥ محمد ، .. والمسلمون هم الأعلون بعقيدتهم وتاريخهم وعددهم ومقدراتهم ، ولا تذهب هذه الطاقات ، ولن تذهب هباء .. ولا بد ان يظهر أثرها باذن الله عاجلاً أو آجلاً .

الدفاع عن الخائنين الآية ١٠٥ – ١١٣ :

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً★ وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً★ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً★ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً★ هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً★ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً★ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً★ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً★ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً★

اللغة :

الخصيم هنا بمعنى المدافع ، أي لا تكن مدافعاً ومحامياً للخائنين ، ويوضحه قوله تعالى : (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) . ويختانون أنفسهم، أي يخونونها ، لأن وبال الخيانة يعود عليها، كما تقول للمجرم : قد ظلمت نفسك . والخوان مبالغة في الخيانة . ويستخفون يتسترون حياء أو خوفاً . ويبيتون يدبرون ويزورون . وجادلتم عنهم ، أي دافعتم ، وفي فقرة « المعنى » نُفرق بين السوء والإثم والخطيئة .

الاعراب :

أراك الله رأى هنا بمعنى الرأي، وتعدت الى مفعولين بسبب الهمزة، والمفعول الأول الكاف ، والمفعول الثاني ضمير محذوف ، وتقديره بما أراكه الله . واللام في (للخائنين) معناها شبه التمليك ، مثل جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وقال ابن هشام في المغني : « تأتي اللام بمعنى عن » . وهذا المعنى أليق بهذه اللام . ها أنتم (ها للتنبيه) ، وأنتم مبتدأ . وهؤلاء خبر . وجملة جادلتم عطف بيان وتفسير لهؤلاء . وام من عطف على فمن يجادل الله . ولولا حرف يدل على امتناع الشيء لوجود غيره . وفضل مبتدأ ، وخبره محذوف، أي لولا فضل الله عليك موجود .

المعنى :

من تتبع التفاسير ، وتأمل في هذه الآيات ، وتدبّر معانيها يطمئن الى انها نزلت في رجل من المسلمين سرق متاعاً ، ورمى بجريمته بريئاً ، وان قوم السارق وأقاربه ذهبوا الى النبي (ص) ، وحاولوا أن يقنعوه بشتى الأساليب ان يدافع عن صاحبهم ، ويبرئه من السرقة ، وانه اذا لم يفعل ذلك هلك صاحبهم، وكاد النبي يستجيب لدعوة هؤلاء المضللين ، ولكن الله سبحانه رفق بأمين وحيه ،

ومبلّغ شريعته ، وعصمه عما تآمروا به عليه ، وأطلعه على الحقيقــة ، وفضح السارق ، وبرأ الذي رماه بجرمه ظلماً وبهتاناً .. وقيل : ان المتهم البريء كان من اليهود ، والسارق كان من الأنصار ، وانه بعد ان افتضح هرب وانضم الى المشركين .. وظاهر الآيات ينطبق كل الانطباق على هذه الحادثة ، واليك البيان.

(انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحــكم بين النـاس بما أراك الله) . نقول – ونستغفر الله – ان هذا الخطاب من الله لنبيـه الأكــرم يومىء الى نحو من العتاب ، فكأنه جلت عظمته يقول له : انــي اصطفيتك لنفسي ورسالتي دون الخلق ، وأنزلت عليك القرآن لكي تحكم بين الناس بما تعلم علم اليقين انه حكم الله ، والآن أوشك المخادعون أن يغرروا بك ، ولكن الله عصمك عما دبروه لك من حملك على تبرئة غير البريء ، حيث أطلعك على حقيقتهم ومؤامراتهم .

وان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان العصمة ليست أمراً قهرياً كالطول والقصر ، وانما هي وصف يصرف صاحبه عن الحرام ، مع قدرته على فعله ، ويدفع به الى فعل الواجب ، مع قدرته على تركه .

وهذه الآية رد وابطال لقول القائلين بأن النبي يحكم في بعض المسائل باجتهاده ، لأنها صريحة واضحة في أنه لا يحكم إلا بوحي من الله .. هذا ، الى ان المجتهد يصيب ويخطىء ، والنبي يفصل في خلاف المجتهدين ، ويبيّن خطـأ من أخطأ وصواب من أصاب .

(ولا تكن للخائنين خصيماً) . النبي ما خاصم ، ومحــال أن يخاصم عن الخائنين ، ونهيه عن التخاصم عنهم لا يستلزم وقوعه منــه ، بل ان النهي عن المحرم يقع قبل اقترافه ، ولو ورد بعده لانتقض الغرض منه .

وتسأل : إذا كان فعل الحرام محالاً على النبي لمكان عصمته ، فما هو المسوغ – اذن – لنهيه عنه ؟.

الجواب : ان لله ان يوجه أمره الى نبيه في جميع الحالات ، لأنـه أمر من الأعلى الى من هو دونــه في العلو .. هذا ، الى ان الأمر بالواجب ، والنهي عن المحرم كثيراً ما يوجهان من الله الى الأنبياء لمجرد الاعلام بالحكم .

(واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً) . قال الطبري في تفسيره : ان

الله أمر النبي أن يستغفر عن عقوبة ذنبه في المخاصمة عن الخائنين .. ونحن نستغفر الله من هذا التفسير ، فان النبي (ص) – كما قدمنا – لم يخاصم عن الخائنين بدليل الآية الآتية ١١٣ : (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء) . أما الأمر بالاستغفار من الذنب فانه لا يستلزم وجود الذنب..والذي نراه في تفسير الآية ان النبي (ص) بصفته بشراً قد يحسن الظن بمن لا يستحقه ، ثم تنكشف له الحقيقة عن طريق الوحي أو غيره قبل ان يرتب أي أثر على حسن ظنه ، فأمره سبحانه أن يستغفر الله مما يعرض له من حسن الظن بمن ليس أهلاً له .. والقصد ان يتحفظ ويحتاط ، ولا يركن إلا بعد اليقين .

(ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خواناً أثيماً). الخطاب بظاهره للنبي (ص) ، ولكن التكليف عام لكل عاقل بالغ ، بخاصة القضاة والحكام ، أما الذين يختانون أنفسهم فهم من اقترف ذنباً ورمى به بريئاً.. ومن جادل عنهم فهو مثلهم ، ومعنى خيانة المرء لنفسه ان يحملها ما لا تطيق من العذاب لاخلاله بالواجبات ، وارتكابه المحرمات ، وقدمنا ان النبي (ص) ما دافع ، ولن يدافع عن الخائنين ، وهذه الآية تؤكد قوله : (ولا تكن للخائنين خصيماً) وتبين أيضاً ان من ظلم غيره فقد ظلم نفسه ، وانه تعالى يمقت كل خائن وظالم لنفسه ولغيره .

(يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول) . يخفي المجرم جريمته ، ويتوارى في الظلام عن أعين الناس رغبة في مدحهم ، أو رهبة من ذمهم ، وكان الأولى أن يعكس القضية فيستخفي من الله – لو أمكن – ولا يعتني اطلاقاً بالناس ، لأن الله وحده هو مالك الضر والنفع ، وغيره لا يغني عنه شيئاً ، ومديح الناس وذمهم مجرد كلمات تذهب مع الريح .. وإذا كان الاختفاء من الله محالاً فطاعته تكون حتماً ، لا ندباً .. ولا حكمة أبلغ من هذا البيت :

فليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

لو أراد الشاعر الخالق ، دون المخلوق .

(ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً) . الخطاب والاشارة – هؤلاء – لقوم السارق الخائن، لأنهم وحدهم الذين دافعوا عنه ، وناضلوا دونه ، وقد أنبهم تعالت كلمته بأن دفاعهم عنه لا يجدي الخائن نفعاً يوم يعرض على الله ، ويقول له ولكل مجرم من أمثاله وأمثالهم : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون – ٥٩ يس » .

(ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) . هذا هو المخرج من الذنب ، الاعتراف به ، والتوبة منه ، فهي وحدها تكفره وتتداركه .. وكما ان الله سبحانه شديد العقاب فإنه غفور لمن تاب ، رحيم بمن التجأ اليه ، وفي الحديث : ان الله لا يمل ، حتى تملوا ، فإذا تركتم ترك . أي اذا تركتم التوبة من الذنب ترك الصفح عنه .. فكان الأولى بالذين دافعوا عن المجرم أن يؤنبوه على جريمته ، وينصحوه بالتوبة لو كانوا من الناصحين المؤمنين حقاً .

وفي هذه الآيات أربع كلمات لا بد من الاشارة الى وجه الفرق بينها، ليتضح الفرق بين الآيات التي ظاهرها التكرار .. الكلمة الأولى الإثم في الآية ١٠٧ و ١١١ و ١١٢ ، والكلمة الثانية والثالثة السوء وظلم النفس ، وقد ذكرا في الآية ١١١ ، والرابعة الخطيئة في الآية ١١٢ ، ويجمع هذه الآية معنى واحد ، وهو المعصية ، وتفترق هذه الكلمات عن بعضها بأن السوء ما يُساء به الى الغير، وظلم النفس ادخال الضرر عليها بترك واجب ، أو فعل محرم ، والخطيئة الخطأ الذي لا يُعذر فيه صاحبه ، كالجاهل المقصر ، يخطىء في تأدية ما عليه لجهله ، مع قدرته على التعلم ، وحكمه حكم المتعمد في المسؤولية ، لتهاونه في البحث والسؤال : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون – ٤٣ النحل » ، والإثم ارتكاب الذنب عن علم به ، وتصميم على فعله ، وهو عام يشمل السوء ، وظلم النفس .

وعلى هذا يكون معنى : (من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) . معناه من أساء الى غيره بالشتم أو الضرب ، وما اليه ،

أو الى نفسه فقط كاليمين الكاذبة ثم تاب قبل الله منه ، حتى كأنه لم يسىء ، ولم يظلم .

ومعنى : (ومن يكسب اثماً فإنما يكسبه على نفسه) ان من يتعمد ارتكاب الذنب فقد أساء الى نفسه ، سواء اقتصرت هذه الاساءة عليه وحده ، أو تعدت الى غيره .

ومعنى : (ومن يكسب خطيئة أو اثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً واثماً مبيناً) ان من رمى غيره بجرم ليس فيه فإنه يعاقب عقاب المفتري المتعمد، سواء ارتكب هو الجرم ، ولصقه بغيره عن قصد ، وهـذا ما يدل عليه لفظ الإثم ، أم لم يرتكب أي جرم ، ولكن رمى به بريئاً قبل أن يتثبت ، وهذا ما يدل عليه لفظ الخطيئة .. والغرض ان المرء لا يجوز له أن يدين غيره بشيء حتى يكون على يقين منه ، تماماً كالشمس .

(ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شيء) . المراد بالطائفة الذين دافعوا وجادلوا عن السارق ، وضمير منهم عائد على قومه وأنصاره ، وان يضلوك ، أي يخدعوك بلحن القول وصلاح المظهر ، ولا يضلون الا أنفسهم ، لأن محاولة الاضلال تستلزم الضلال ، والمضل ضال وزيادة ، والمعنى المحصّل ان فريقاً من أنصار السارق وجماعته تآمروا على أن يخدعوك عن الحق ، وحاولوا أن يحملوك على الوقوف الى جانبهم في نصرة صاحبهم ، وكدت تركن اليهم مغتراً بما أظهروه لك من الصلاح ، ولكن الله عصمك منهم ، وأطلعك على مؤامرتهم ، ورد كيدهم الى نحورهم .

وهذه الآية رد صريح على من زعم من المفسرين ان النبي (ص) دافع وجادل عن الخائنين ، فان قوله تعالى : ولولا فضل الله عليك ورحمته . وقوله : وما يضرونك من شيء،لا يقبلان التأويل والشك في ان النبي لم يجادل عن السارق ، ولم يبرئه من السرقة والخيانة ، وان الذي فعل هذا غيره .

(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) . الكتاب القرآن،والحكمة هنا النبوة ، واذا وجب على محمد(ص)

أن يشكر الله ، حيث جعله خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلمه ما لم يكن يعلم فيجب على العرب أن يشكروا محمداً ، حيث أصبحوا به شيئاً مذكوراً بعد جاهليتهم الجهلاء ، ويشكروا الله ، حيث جعل أشرف خلقه ، دون استثناء منهم لا من غيرهم .

النجوى بالخير والاصلاح الآية ١١٤ - ١١٥ :

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجراً عَظِيماً★ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً★

اللغة :

النجوى والمناجاة سر بين اثنين أو أكثر ، وتأتي بمعنى المتناجين،قال تعالى : (واذ هم نجوى) . والمعروف ما اعترف به الشرع، ولم ينكره العقل . وابتغى الشيء وبغاه طلبه . والمشاقة المعاداة . والصلاء لزوم النار .

الإعراب :

من أمر بصدقة على حذف مضاف ، أي الا نجوى من أمر ، ومحل نجوى هذه المحذوفة النصب على الاستثناء المتصل ، ومن مجرور باضافتها . وابتغاء مفعول لأجله ليفعل . ومصيراً تمييز .

المعنى :

(لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) . بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة الذين يبيتون ما لا يرضى من القول ، ويجادلون عن الخائنين قال في هذه الآية : « لا خير في كثير من نجواهم » فضمير نجواهم يعود على هؤلاء بدلالة ظاهر السياق ، ولكنه في المعنى يعم كل نجوى في شؤون الناس ، لأن السبب الموجب عام لا يختص بفرد ، دون فرد،ولا بفئة دون فئة .. والصدقة بذل المال للبؤساء والمعوزين، والاصلاح بين الناس يوفر عليهم الكثير من المتاعب ، ويدفع عنهم الكثير من المشاكل ، والمعروف ما يعترف العقل والشرع به ويريانه حسناً ، والمنكر ضده ، ويشمل العلم وجميع الأعمال الحسنة ، ومنها الصدقة ، واصلاح ذات البين ، وخصهما الله سبحانه بالذكر للتنبيه على أهميتها .

قال الرازي : « ان مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية » .. وأجمع منها قوله تعالى : « ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وتسأل : ان الناس تتناجى في شؤون التجارة والصناعة والزراعة ، وما اليها من شؤون الحياة ، فهل هذا التناجي مما لا خير فيه ؟.

الجواب : ان هذا التناجي خير محض ما دام ضمن حدوده المشروعة ، ومنه ما هو واجب شرعاً وعرفاً وعقلاً ، وهو كل ما لا تتم الحياة إلا به .. والآية بمعزل عن هذا النوع من التناجي ، وانما تعرضت للذين يتناجون ويتحدثون عن الناس ، كما هو شأن البطالين ، يملؤون فراغهم بالقال والقيل ، والاشتغال بهذا طويل ، وهذا قصير .. وقد جاء لفظ (كثير) في الآية للدلالة على ان النجوى في شؤون الناس لا خير فيها إلا اذا عادت عليهم بالفائدة والنفع بجهة من الجهات .. أما التناجي في شؤون الحياة فلم تتعرض له الآية سلباً ولا ايجاباً .

(ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) . الأمر بالمعروف خير ، ما في ذلك ريب ، ولكن العامل به لوجه الله ، لا للكسب

والجاه أفضل من الذي يأمر بالمعروف ، ويفلسفه ، ويبين محاسنه وفوائـــده ولا يعمل به ، بل الحجة على هذا أقوى وأبلغ .. قـال تعالى : «انّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً – ٣٠ الكهف » . ولم يقل : من أحسن قـولاً .. ان الامر بالمعروف والدعوة اليه وسيلة ، والعمل هو الغاية ، ومن أمر به وأتمر كان ممن عناه الله بقوله : « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين – ٣٢ فصلت » . فالقول المعروف حسن ، ويزداد حسناً إذا اقترن بالعمل .. هذا ، الى أن الأقوال وان ترتب على ظاهرها آثار الاسلام، كالزواج والميراث ، ولكن لا يـــدل على الايمان الصحيح إلا الاعمال الصالحات ، قال الإمام علي (ع) : « فبالايمان يستدل على الصالحات ، وبالصالحات يستدل عـلى الايمان » .

(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنـــين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) . الشقاق العداوة ، وكل من يعصي الله فهو عدو لرسول الله (ص) . قال الإمام أمـــير المؤمنين (ع) : « ان ولي محمد من أطاع الله ، وان بعدت لحمته ، وان عدو محمد من عصى الله ، وان قربت لحمته » . ولكن المراد بعدو الرسول هنا كل من ظهر له الحق ، واقتنع به بينه وبين نفسه ، وقامت عليه الحجة كافية وافية ، ومع ذلك أنكره عناداً وتعصباً لهوى في نفسه ، كمن يعرف ان الإسلام حق ، أو انه أهدى من دين قومه ، ومع ذلك يتعصب لدين آبائه حرصاً على مصالحـــه الشخصية من مال أو جاه .

وذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في بشير بن ابيرق اللذي أسلم ، ثم ارتد ولحق بالمشركين،والمعروف من عادة المفسرين انهم يتسامحون في أسباب النزول ، ويذكرون له أية حادثة تقترن بزمن نزول الآيـة اذا كانت تناسبها ، وهـــذه الآية تنطبق على ارتداد بشير ، وعلى كل من عاند الحق (من بعد ما تبين له الهدى) .

ومعنى (نوله ما تولى) ان الله سبحانه يـَكـِلُ كل انسان الى ما انتصر به ، واعتمد عليه،فمن اعتز بمال أو منصب أو صحة أو عشيرة تخلى الله عنه ، وتركه الى ما اعتز به .

وفي الحديث القدسي : « وعزتي وجلالي لاقطعن أمل كل مؤمل من الناس».
وفي هذه الآية فوائد :

« منها » ان قوله تعالى : « نوله ما تولى » صريح في ان الانسان مخير لا مسير .

و « منها » ان قوله : « من بعد ما تبين له الهدى » دليل على ان من بحث ودقق ، ولم يتبين له الهدى فهو معذور ، تماماً كمن لم تبلغه الدعوة، على شريطة ان يكون متوجهاً الى طلب الحق ، والعمل به متى ظهر له .

و « منها » ان الانسان مكلف بما يفهمه من الدليل ، وغير مسؤول عن الواقع كما هو عند الله ، وان المطلوب منه مجرد البحث والتنقيب ، حتى يحصل له اليأس من وجود الدلائل والقرائن ، فإن أصاب الواقع بعد هذا البحث كان له أجران ، وان أخطأه فله أجر واحد ، كما جاء في الحديث .

و « منها » ما جاء في تفسير الرازي ان الشافعي سئل عن آية في القرآن تدل على ان الاجماع حجة ؟ فقرأ القرآن ثلاثمئة مرة ، حتى وجد قوله تعالى : « ويتبع غير سبيل المؤمنين » حيث دل على ان اتباع غير سبيل المؤمنين حرام فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجباً . وسبيلهم هو اجماعهم على الشيء.

وان دل هذا على شيء فإنما يدل على انه لا مصدر للاجماع في كتاب الله .. ذلك ان المراد بغير سبيل المؤمنين سبيل المشركين والمنافقين الذين يعاندون الله والرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، وهذا أجنبي عن الاجماع وبعيد عنه كل البعد .. بالاضافة الى ما قاله الشيخ محمد عبده : « ان الاجماع الذي يعنونه هو اتفاق مجتهدي هذه الأمة بعد وفاة نبيها ، والآية نزلت في عصره ، لا بعد عصره » .

يموت من أجل الحلوى :

ذكر صاحب تفسير المنار مثالاً لمن يؤثر الهوى على الهدى ننقله عنه للاستفادة منه ، وللتخفيف عن القارىء ، قال :

« ان صاحب الهوى يستحوذ عليه النفع العاجل لضعف نفسه ومهانتها .. فقد حكي ان الحجاج مدّ سماطاً عاماً للناس ، فجعلوا يأكلون ، وهو ينظر اليهم ، فرأى فيهم اعرابياً يأكل بشره شديد ، فلما جاءت الحلوى ترك الطعام ، ووثب يريدها ، فأمر الحجاج سيافه أن ينادي : من أكل هذه الحلوى ضربت عنقه ، فصار الأعرابي ينظر الى السياف نظرة ، والى الحلوى نظرة ، يرجح بين مرارة الموت ، ولذة الحلوى .. ولم يلبث ، حتى التفت الى الحجـاج ، وقال له : أوصيك بأولادي خيراً ، وهجم على الحلوى يأكل أكل مودعٍ للحياة .. فتركه الحجاج وشأنه » .

ان الله لا يغفر ان يشرك به الآية ١١٦ – ١٢٢ :

إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً★ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَرِيداً★ لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً★ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً★ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَـا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً★ أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً★ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْـدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً★

اللغة :

الدعاء الطلب ، ولكن يدعون هنا بمعنى يعبدون ، لأن من عبد شيئاً دعاه عند الحاجة . ومعنى اناث معروف ، والمراد بها هنا اللات والعزى ومناة ، لأن أسماءها مؤنثة ، وقيل : المراد بالأناث الأموات ، لأن العرب تصف الضعيف بالأنوثة ، والمريد بفتح الميم مبالغة في العصيان والتمرد . واللعن الطرد والاهانة . والنصيب المفروض الحصة الواجبة . والأماني جمع أمنية . والبتك القطع . والمحيص المهرب ، والميم فيه زائدة ، لأنه مصدر حاص يحيص ، يقال : وقع في حيص بيص ، وفي حاص باض ، أي في أمر يعسر التخلص منه ، وقال البيضاوي : المحيص اسم مكان ، وهو الأرجح ، وعليه تكون الميم من أصل الكلمة . والقيل والقال بمعنى واحد ، وهما مصدران لقال .

الإعراب :

ان يدعون (ان) نافية . وإلا أداة حصر . وإناثاً مفعول يدعون ، ومثلها شيطاناً . وجملة لعنه الله في موضع نصب صفة للشيطان . واللام في لأتخذن وما بعدها واقعة في جواب قسم محذوف . ولأضلنهم ولامنينهم ولآمرنهم ، كل فعل من هذه الأفعال الثلاثة قد عمل بشيء محذوف ، أي لاضلنهم عن الهدى ، وأمنينهم الباطل ، وآمرنهم بالضلال . والمفعول الثاني ليعدهم محذوف ، أي يعدهم النصر . وعنها متعلق بمحذوف حالاً من محيص ، أي كائناً عنها محيصاً ، ولو تأخر لفظ (عنها) لتعلق بصفة لمحيص ، ولا يجوز أن يتعلق بيجدون ، لأن يجدون لا تتعدى بعن . والذين آمنوا مبتدأ ، وخبره سندخلهم . وخالدين حال من الذين آمنوا . وأبداً منصوب على الظرفية ، ويدل على استغراق المستقبل. ووعد الله مفعول مطلق لسندخلهم ، لأنه يتضمن معنى الوعد . وحقاً حال من وعد الله ، ويجوز أن ينصب على المصدر ، أي حق ذلك حقاً . ومن أصدق استفهام ، فيه معنى النفي ، أي لا أحد أصدق ، ومحله الرفع بالابتداء، وأصدق خبر . وقيلاً تمييز ، تماماً كقولك : هو أكرم منك فعلاً .

المعنى :

(ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً) . تقدمت هذه الآية مع تفسيرها في الآية ٤٨ من هذه السورة ، ولا اختلاف بين النصين إلا في التتمة ، حيث قال هناك : « ومن يشرك بالله فقد افترى اثماً عظيماً » وقال هنا : « ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً » والمعنى واحد .

مرة ثانية التكرار في القرآن :

تكلمنا عن التكرار في القرآن عند تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٩٦ ، ونعطف عليه ما قاله صاحب تفسير المنار عند تفسيره لهذه الآية :

« ان القرآن ليس قانوناً ، ولا كتاباً فنياً ، يذكر المسألة مرة واحدة ، يرجع اليها حافظها عند ارادة العمل بها ، وانما هو كتاب هداية .. وانما ترجى الهداية بايراد المعاني التي يراد ايداعها في النفوس في كل سياق يعدها ويهيؤها لقبول المعنى المراد ، وانما يتم ذلك بتكرار المقاصد الاساسية ، ولا يمكن أن تتمكن دعوة عامة إلا بالتكرار ، ولذلك نرى أهل المذاهب الدينية والسياسية الذين عرفوا سنن الاجتماع وطبائع البشر وأخلاقهم يكررون مقاصدهم في خطبهم ومقالاتهم التي ينشرونها في صحفهم وكتبهم » .

(ان يدعون من دونه إلا إناثاً) . كان العرب قبل محمد (ص) يزعمون ان الملائكة بنات الله : « أفاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثاً انكم لتقولون قولاً عظيماً — ٤٠ الاسراء » . وقد حملهم هذا الاعتقاد على أن يتخذوا تماثيل يسمونها أسماء الاناث ، كاللات والعزى ومناة ، ويرمزون بالأصنام الى الملائكة التي زعموا انها بنات الله .. وكانوا يتقربون بها الى الله زلفى في بدء الأمر ، ومع مرور الأجيال تحولت تلك الأصنام عندهم إلى آلهة تخلق وترزق .. وهكذا تتحول وتتطور زيارة قبور الأولياء — عند الاعراب والعوام — من تعظيم الشعائر

وتقديس المبدأ الذي مات عليه صاحب القبر الى الاعتقاد بأنه قوة عليا تجلب النفع، وتدفع الضر .

(وان يدعون إلا شيطاناً مريداً) . أي ان عبادة المشركين للاصنام هي في واقعها عبـادة الشيطان نفسه ، لأنه هو الذي أمرهم بها فأطاعوا أمره ، ومن أطاع غيره ، وسلك مسالكه فهو عبد مأمور له .

(لعنه الله وقـال لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً) . النصيب المفروض الحصة الواجبة ، والمعنى ان الشيطان قال لله ، جل وعز : ان لي سهمـاً فيمن خلقتهم لعبادتك،وقلت عنهم فيما قلت : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون – ٥٦ الذاريات ، وان هذا السهم فرض واجب لي يطيعني ويعصيك .

وتسأل : ان ظاهر الآية يدل على ان الشيطان شخص حقيقي ، وانه يخاطب الله بقوة وثقة ، فهل الكلام جارٍ على ظاهره ، أو لا بد من التأويل ؟.

الجواب : نقل صاحب تفسير المنار عن أستاذه الشيخ محمد عبده ان في كل فرد من أفراد الانسان استعداداً لعمل الخير والشر ، ولاتباع الحق والباطل،والى هذا الاستعداد أشار سبحانه بقوله : « وهديناه النجدين – ١٠ البلد » ، وان النصيب المفروض للشيطان من الانسان هو استعداده للشر الذي هو أحد النجدين. وعليه يكون لفظ الشيطان كناية عن هذا الاستعداد .

وفي ص ٢٠ من المجلد الأول تكلمنا عن المراد من الشيطان .. وغـير بعيد أن يكون هذا القول الذي جاء على لسان الشيطان « لاتخـذن من عبادك نصيباً مفروضاً » أن يكون تصويراً لواقع العصاة الذين تغلّب فيهم جانب الاستعـداد للشر على جانب الاستعداد للخير ، وليس خطاباً حقيقياً مع الله سبحانه .

سياسة الشيطان والعلم الحديث :

وقال قائل : ان فكرة الشيطان سيطرت على عقول الناس يوم كان العلم مجرد كلمات تقال في حلقات الدرس ، وسطورٍ تملأ صفحات الكتب ، ولا تتجاوزها الى العمل الا قليلاً ، أما اليوم فقد أصبحت فكرة الشيطان بشتى تفاسيرها خرافة

وأسطورة بعد أن صار العلم مقياساً لكل حقيقة ، وأساساً لكل خطوة يخطوها الانسان ، وقوة في كل ميدان ، ومعجزة تحرك الحديد ليخرق الأرض آلاف الأمتار ، يفجرها أنهراً من الذهب ، ويطير في الجو الى القمر والمريخ ، يخاطب أهل الأرض من هناك بما يشاهد في رحلته .

الجواب : لا نظن أحداً يهوّن من شأن العلم وفوائده ، وانه قوة وثروة ، وان حاجة الناس اليه تماماً كحاجتهم الى الماء والصيام .. ولكن لا أحد يجهل ان العلم تماماً كالانسان فيه استعداد للخير والشر ، وانه حين يوجه الى الخير ينتج الطعام للجائعين ، والكساء للعراة ، والعلاج للمرضى ، وحين يوجه الى الشر يقتل ويدمر .. والشر هو الركيزة الأولى لسياسة الشيطان الذي نعنيه . وقد أصبح العلم اليوم في يد السياسة تتجه به الى الفتك والهدم ، والسيطرة والاستغلال .

وقد تضاعف نصيب الشر أو الشيطان – مهما شئت فعبر – بتقدم العلم وتطوره . كان أعوان الشر فيما مضى يتسلحون بقوة العضلات ، أما الآن ، وبعد ان بلغ العلم من الجبروت ما بلغ فإن حزب الشيطان يتسلحون بالذرة والصواريخ الموجهة ، وما اليها مما يزلزل الأرض من أعماقها .

وقرأت فيما قرأت ان أمريكا وضعت مخططاً لشراء شباب العلم في أي مكان وُجدوا أو يوجدون، وان سمسارها المتجول استطاع في بعض زياراته لبريطانيا أن يعقد صفقة مع سبعمئة عالم للهجرة لأمريكا ، ومعظم هذه العقول يستغلها الساسة الأمريكيون في صنع الأجهزة والآلات لغزو العالم كله ، والسيطرة على مقدراته، وهؤلاء هم الشيطان عدو الله والانسان .

أما المدارس العصرية المنتشرة هنا وهناك فأكثرها من نصيب الشيطان ، ولا شيء فيها يمت الى الدين والخلق الكريم بصلة .. وهكذا استجابت العقول الكبيرة والصغيرة في هذا العصر لدعوة الشر والشيطان الذي أعلنها بقوله : «لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً» .

(ولاضلنهم ولامنينهم) . اضلال الشيطان للانسان أن يزين له الحق باطلاً ، والخير شراً ، أو يوهمه انه لا حق ولا خير في الوجود ، ولا جنة ولا نار ، وان الدنيا ملك لمن يحوزها كما قال « نيتشه » .. وفي الحديث : « خلق ابليس

مزيناً ، وليس اليه من الضلالة شيء ، أما تمنية الشيطان للانسان فهو أن يخيل اليه ادراك ما يتمناه من طول الأجل ، والنجاة يوم الحساب والجزاء ، وما الى ذلك من الأماني الكاذبة ، والسعادة الموهومة .

(ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) . البتك القطع ، يقال : بتكه ، أي قطعه ، والتبتيك للتكثير والمبالغة في البتك . والانعام الإبل والبقر والغنم ، وكان العرب في الجاهلية يقطعون آذان بعض الانعام ، ويوقفونها للاصنام، ويحرّمونها على أنفسهم، ويأتي التفصيل ان شاء الله عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة المائدة : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب » .

وبعد ان كان الشر أو الشيطان يأمر حزبه في عصر الجاهلية بقطع آذان الانعام وتغيير خلق الله أصبح يأمرهم بالقاء قنابل النابالم على النساء والأطفال ، والقنبلة الذرية على المدن ك «هيروشيما» و«ناكازاكي» لافناء خلق الله .. وهذا من (حسنات) سيطرة الساسة على عبقرية العقول ، وجبروت العلم .

(ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله – أي يطيعه – فقد خسر خسراناً مبيناً) . حيث يصبح ضحية الأهواء والشهوات ، وأسير الأوهام والخرافات .

(يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غروراً) . حيث سار بهم على طريق التهلكة بعد ان زين لهم انه سبيل النجاة ، فالزاني أو شارب الخمر – مثلاً – يخيل اليه انه يتمتع باللذائذ ، وهو في واقعه يتحمل أعظم المضار دنيا وآخرة .

(ولا يجدون عنها محيصاً) . المحيص المخرج والمفر ، والمعنى ان حزب الشيطان من المشركين والمفسدين لا نجاة لهم من عذاب الله .. وبعد ان ذكر سبحانه الوعيد أردفه بالوعد على سنته المعهودة من اقتران الترغيب بالترهيب ، قال عز من قائل : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله ومن أصدق من الله قيلا). وفي هذه الآية ثلاثة تأكيدات : الأول التأبيد الذي دل عليه لفظ (أبداً) . والثاني وعد الله حقاً . والثالث ومن أصدق . والغرض من هذا التكرار التنبيه الى ان مواعيد الشيطان كاذبة، وأمانيه فارغة ، وأوامره باطلة ، وان قول الله هو الحق والصدق، وطاعته هي الخير والسعادة .

وتسأل : ان الوعد بالجنة في أكثر آياته يقترن الخلود فيها بالتأبيد ، وأكثر آيات الوعد بالنار لا يقترن الخلود فيها بالتأبيد ، فما هو السر ؟

الجواب : السر ان الخلود عبارة عن طول المكث ، وقد يكون الى الأبد ، وقد لا يكون .. ومن دخل الجنة فلا يخرج منها ، فناسب ذلك ذكر التأبيد ، أما من يدخل النار فقد ينقطع عذابه ، ويخرج منها ، ولهذا لم يقترن العذاب فيها بالتأبيد إلا في حالات خاصة ، كالشرك وقتل العمد .

من يعمل سوءا يجز به الآية ١٢٣ - ١٢٤ :

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً★ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً★

اللغة :

النقير النكتة في ظهر النواة ، وبها يضرب المثل في القلة .

الإعراب :

اسم ليس محذوف لدلالة الكلام عليه ، أي ليس الأمر بأمانيكم . ومن يعمل اسم شرط في محل رفع بالابتداء ، والخبر جملة يجز به . ولا يجد مجزوم عطفاً على يجز به وجملة (من يعمل سوءاً يجز به) لا محل لها من الاعراب ، لأنها

كلام مستأنف . ومن يعمل من الصالحات مفعول يعمل محذوف أي شيئاً . ومن الصالحات متعلق بمحذوف صفة لشيء . ومن ذكر أو انثى متعلق بمحذوف حال من الضمير في يعمل . وهو مؤمن مبتدأ وخبر ، والجملة حال ثانية . فأولئك مبتدأ ، والخبر يدخلون الجنة ، والجملة من المبتدأ أو الخبر جواب من يعمل .

المعنى :

ترتكز هاتان الآيتان على مبدأ بديهي ، لا يجادل أحد فيه ، ويرتفع بقيمته من مستوى التعديل والتغير بتغير الأزمان والأحوال، والتخصيص بالنساء أو الرجال، وهو « الانسان مجزي بأعماله ان خيراً فخير ، وان شراً فشر » .. وتكرر هذا المعنى بأساليب شتى في كتاب الله ، منها قوله في الآيتين : « من يعمل سوءاً يجز به .. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة » . ومنها : « ليجزي الله كل نفس ما كسبت – ٥١ ابراهيم » . ومنها : « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا الحسنى – ٣١ النجم » .. الى كثير من الآيات . وبعد هذا الاجمال نشرع بالتفصيل :

(ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب) . قال الجاحدون لمن دعاهم الى الايمان: سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، ان هذا الا خلق الأولين، وما نحن بمعذبين . وقال اليهود والنصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . وقال قائل من المسلمين : ان النار خلقت لغير المسلمين .. وهكذا كل أناس فرحون بما يدينون .. فرد الله عليهم جميعاً بقوله : « من يعمل سوءاً يجز به » كائنا من كان ، وليس بين الله وبين أحد نسب ولا سبب إلا الاخلاص والعمل الصالح ، وكفى دليلاً على ذلك قوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله أتقاكم » . وفي الحديث : ان الله يقول غداً : اليوم أضع نسبكم، وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟.

وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : « ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا واصطفانا، والله مالنا على الله حجة ، ولا معنا من الله براءة ، وانّا لميتون وموقوفون

ومسؤولون ، من أحب الغــلاة فقد أبغضنا ، ومن أبغضهم فقد أحبنا ، الغلاة كفار ، والمفوضة مشركون[1] » .

بين الرجل والمرأة :

(ومن يعمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة) . ما دام الذكر والأنثى سواء في التكليف والمسؤولية تحتم أن يكونا سواء في الجزاء. ومهما قيل في الفرق بين الرجل والمرأة في هذه الحياة فإنه لا فرق اطلاقـاً بينهما يوم الحق والفصل . فالمقارنة ان صحت بوجه ٍ ما فإنها لا تصح بحال من حيث الجزاء على الحسنات والسيئات . وسبق الكلام عن المرأة عند تفسير الآيـة ٢٢٨ من سورة البقرة ، فقرة « بين الرجل والمرأة » في الشريعة الإسلامية ، المجلد الأول ص ٣٤٣ .

وقوله تعالى : « وهو مؤمن » شرط لدخول الجنة ، كما هو صريح الآية: « فأولئك يدخلون الجنة » وليس شرطاً لغيرها من الجزاء والمكافأة عـلى العمل الصالح ، فالكافر اذا عمل الخير لوجه الخير،لا للشهرة والاتجار،كافأه الله عليه، لأنه عادل لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، كيف وهو القائل : « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » . وليس من الضروري أن تكون الجنة جزاء المحسن ، فقد يكون الجزاء في الدنيا ، أو في الآخرة بتخفيف العذاب ، أو لا بالجحـيم ولا بالنعيم . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٧٦ من سورة آل عمران فقرة « الكافر وعمل الخير » ، وعند تفسير الآية ٣٤ من سورة النساء .

---

[1] المفوضة هم الذين قالوا : ان العبد مستقل بأفعاله ، وليس لله فيها صنيع ، على عكس المجبرة الذين قالوا : ان الله يخلق الأفعال في العبد ، وليس للعبد فيها صنع ، أما أهل العدل فقالوا : لا جبر ولا تفويض ، بل بين بين .

ومن احسن ديناً الآية ١٢٥ – ١٢٦ :

وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً★ وَلِلهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً★

اللغة :

الحنيف المائل عن الزيغ والضلال . والخليل مشتق من الخلة بضم الخاء، وهي المحبة .

الإعراب :

ديناً تمييز . وممن أسلم متعلق بأحسن ، ولله متعلق بأسلم ، وهو محسن مبتدأ وخبر ، والجملة حال من الضمير بأسلم . وحنيفاً حال من ملة ابراهيم ، وفعيل يستوي فيه التأنيث والتذكير مثل ان رحمة الله قريب من المحسنين .

المعنى :

(ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) . المراد بأسلم استسلم وانقاد ، وبالوجه الذات والنفس ، وبالمحسن فاعل الحسنات وتارك السيئات . والمعنى ان الكامل هو الذي يرجو الله ولا يرجو سواه في كل شيء ، ويسلك السنن التي سنها سبحانه لخلقه في هذه الحياة ، وبهذا وحده يكون العبد قريباً من خالقه ، أما من يذل ويخضع لأرباب الدنيا طمعاً فيما لديهم من مال وجاه فما هو من الله في شيء ، حتى ولو قام الليل ، وصام النهار .

(واتبع ملة ابراهيم حنيفاً) . أي اقتدى بابراهيم (ع) الذي أعرض عن كل ما سوى الله،وقال لقومه : « اتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به – ٨٠ الانعام ».

وتسأل : لماذا قال تعالى : واتبع ملة ابراهيم ، ولم يقل ملة محمد ؟.

الجواب : أولاً ان ملة ابراهيم ومحمد شيء واحد : « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين – ٦٨ آل عمران » .

ثانياً : ان نبوة ابراهيم محل وفاق عند أهل الأديان جميعاً ، لا عند المسلمين فحسب ، فالاحتجاج بها على غير المسلمين أقوى وأبلغ .. ان صح التعبير .

(واتخذ الله ابراهيم خليلاً) . لقد اختص الله ابراهيم (ع) بمنزلة عظمى تكاد تكون فوق النبوة والرسالة ، قال الإمام جعفر الصادق (ع) : ان الله اتخذ ابراهيم عبداً قبل ان يتخذه نبياً ، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً ، واتخذه رسولاً قبل ان يتخذه خليلاً .

(ولله ما في السموات وما في الأرض) . فهو مالك كل شيء ، ومهيمن على كل شيء ، ومحيط بكل شيء .

وتسأل : ان هذا المعنى قد تكرر كثيراً في كتاب الله ، فما هو السر ؟.

الجواب : السر أن يتنبه الانسان ، ويبقى دائماً على ذكر ان الله وحده هو المتصرف بالكون ، وان أمره نافذ فيه ، وانه على صلة دائمة بعلمه وقدرته وحكمته ، ومتى شعرت النفس بهذه الحقيقة عملت على مرضاة خالقها باتباع منهجه ، وطاعة أوامره .. هذا ، الى ان التكرار يأتي لمناسبة تستدعيه، يدركها المفسرون أحياناً ، وتخفى عليهم حيناً ، وهي هنا ان البعض قد يتوهم ان الله اتخذ ابراهيم خليلاً على نحو ما نتخذ نحن الأخلاء والأصدقاء .. فدفع سبحانه هذا الوهم بأن الله جل وعلا هو الخالق المالك لكل شيء ، وان ابراهيم عبد تحت سلطان الملك ، ولكنه عبد مصطفى ، لا كسائر العبيد .

ويستفتونك في النساء الآية ١٢٧ :

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً★

اللغة :

الاستفتاء طلب الفتوى ، والافتاء اظهار المشكل ، والفتوى والفتيا بمعنى واحد. والقيام يطلق على معانٍ شتى ، والمراد بأن تقوموا هنا العناية والاهتمام .

الإعراب :

الله يفتيكم مبتدأ وخبر ، والجملة محكية بالقول . وما يتلى عليكم (ما) مبتدأ، والخبر محذوف ، أي المتلو في الكتاب أيضاً يفتيكم في شأن النساء،والجملة معطوفة على الجملة المحكية ، والمراد بالمتلو في الكتاب الآيات السابقة في أول السورة ، مثل قوله : « وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى » . وفي يتامى النساء متعلق بيتلى ، واضافة اليتامى الى النساء من باب اضافة الشيء الى جنسه،كساعة ذهب، أي من ذهب . والمستضعفين معطوف على يتامى النساء . وان تقوموا في محل جر، أي في أن تقوموا .

المعنى :

ذكر سبحانه في أول هذه السورة طرفاً من أحكام المرأة واليتيم،وعقبه بذكر

أهل الكتاب والمنافقين والقتال ، ثم عاد الى المرأة واليتيم ، وذكر بعض أحكامها كتكملة لما افتتح به السورة من أحكام الأسرة .. وهذه هي طريقة القرآن ينتقل من شأن الى شأن، ثم يعود الى الأول بقصد التأثير في القلوب، وغيره مما تستدعيه الحكمة والرفق بالعباد .

(ويستفتونك في النساء). أي يطلبون منك يا رسول الله ان تبين لهم أحكام النساء في الارث والزواج ونحوه . (قل الله يفتيكم فيهن) ويدل هذا على ان تشريع الأحكام لله وحده ، وليس للنبي منها الا التبليغ ، وثبت انه كان يُسأل عما لم ينزل به وحي فلا يجيب ، حتى ينزل عليه . (وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء) . أي ان الله يفتيكم في أمر النساء ، وأيضاً القرآن يفتيكم في أمرهن .

وتسأل : ان افتاء القرآن هو افتاء الله بالذات ، فعطف أحدهما على الآخر عطف للشيء على نفسه ؟.

الجواب : المراد بافتاء القرآن هنا ما تقدم بيانه بأول السورة ، وهو قوله تعالى : « وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ». وقوله : « وآتوا النساء صدقاتهن » الخ . والمراد بافتاء الله سبحانه ما بيّنه هنا مكملاً لما سبق ، وبديهة ان العطف يصح مع وجود الفارق بجهة من الجهات ، كاختلاف زمان الشيء الواحد أو مكانه .

(اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن) . أي ان الله والقرآن يبينان لكم حكم النساء اللاتي منعتموهن مما فُرض لهن من الارث والصداق .. فلقد كان عرب الجاهلية يظلمون المرأة ، ويعاملونها معاملة السلع والحيوانات . (وترغبون أن تنكحوهن) . كان الرجل منهم يضم اليتيمة الى نفسه، فان كانت جميلة نكحها وأكل مالها ، وان كانت دميمة منعها عن الزواج ، حتى تموت وأخذ مالها .. وربما سبّب لها الموت لهذه الغاية . (والمستضعفين من الولدان) . أي ويفتيكم أيضاً في شأن الصبيان الصغار الذين لا تعطونهم نصيبهم من الميراث ، وكانوا لا يورثون الا من يحمل السلاح ، فنهى سبحانه عن ذلك ، وجعل للذكر مثل حظ الانثيين، وهذا تأكيد لما سبق بيانه في أول السورة .(وان تقوموا لليتامى بالقسط).

أي ويفتيكم أيضاً أن تقوموا لليتامى بالعدل في أنفسهم وأموالهم، وان تعطوا كل واحد منهم حقه كاملاً انثى كان ، أو ذكراً ، صغيراً ، أو كبيراً . (وما تفعلوا من خير – مع اليتامى والنساء – فان الله كان به عليماً) يثيبكم عليه .

وخلاصة معنى هذه الآيــة ان المسلمـين طلبوا من النبي أن يبين لهم أحكام النساء ، فقال سبحانه لنبيه : قل لهم : ان الله قد بيّن لـكم فيما سبق طرفاً من هذه الأحكام ، وهو الآن يبين لـكم طرفاً آخر منها .. والمهم أن تعدلوا وتعملوا بها ، ثم بيّن سبحانه في الآية التالية حـكم المرأة التي خافت النشوز والإعراض من زوجها .

نشوز الزوج الآية ١٢٨ – ١٣٠ :

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَـلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ★ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَو حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ★ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً ★

اللغة :

النشوز الارتفاع ، ونشوز أحد الزوجين ترفعه عن القيام بالحقوق الزوجية . والشح الافراط في الحرص ، والفرق بينـه وبين البخل ان البخل يكون بالمال

خاصة ، أما الشح فيكون به وبغيره ، يقال : هو شحيح بمودتك ، أي حريص على دوامها ، ولا يقال : هو بخيل بمودتك ، كما جاء في مجمع البيان .

الاعراب :

وان امرأة (امرأة) فاعل لفعل محذوف دل عليه الفعل المذكور ، أي وان خافت امرأة خافت . ومن بعلها متعلق بخافت ، أو بمحذوف حال من (نشوزاً). وجناح اسم لا النافية للجنس . والمصدر المنسبك من أن يصلحا مجرور بفي . وأحضرت الأنفس الشح ، أحضرت تتعدى الى مفعولين بواسطة همزة التعدية ، والأنفس نائب فاعل ساد مسد المفعول الأول ، والشح مفعول ثان . وكل الميل قائم مقام المفعول المطلق ، أي لا تميلوا ميلاً كل الميل . وقيل : ان كل هي بذاتها مفعول مطلق ، لأن لها حكم ما تضاف اليه . فان كان مصدراً كانت مصدراً ، وان كان ظرفاً كانت ظرفاً . وفتذروها مضارع مجزوم عطفاً على فلا تميلوا . وكالمعلقة الكاف بمعنى مثل في محل نصب على الحال ، وصاحب الحال الهاء في تذروها .

المعنى :

(وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو اعراضاً) . قد يكون النشوز من الزوجة بامتناعها عن فراش الزوج ، أو خروجها من البيت دون اذنه، وتقدمت الاشارة الى نشوزها عند تفسير الآية ٣٤ من هذه السورة .. وقد يكون النشوز من الزوج بايذائها وعدم الانفاق عليها أو القسمة لها اذا كان عنده أكثر من زوجة ، وقد تعرضت هذه الآية لخوف الزوجة من نشوز زوجها أو اعراضه عنها ، والمراد بالاعراض جفوته الدالة على كرهه لها ، أما انصرافه الى أشغاله ومشاكله فعليها ان تعذره فيه ، وتصبر عليه ، ما دام غير كاره لها .
(فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً) . اذا خشيت المرأة أن يؤدي نشوز الزوج الى طلاقها ، أو تركها كالمعلقة لا مزوّجة ، ولا مطلقة ، إذا كان

كذلك فلا بأس عليه ، ولا عليها أن يتفقا فيما بينهما مباشرة ، أو بواسطة أحد الطيبين ، أن يتفقا ويصطلحا على أن تتنازل له عن بعض حقوقها المادية أو الأدبية ، لتبقى في عصمته ، وتحيا معه حياة هادئة .

(والصلح خير) من الشقاق والطلاق ، فقد جاء في الحديث : « أبغض الحلال الى الله الطلاق » وتجدر الاشارة الى ان ما تبذله المرأة لزوجها من أجل الألفة أو الطلاق لا يحل إلا اذا كان عن طيب نفس ، قال تعالى : « فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً — ٤ النساء » .

(وأحضرت الأنفس الشح) . أي ان الشح حاضر دائماً في الأنفس ، لا يغيب عنها ، حتى ساعة البذل ، فان اللوعة التي يحس بها الباذل ، ويخفيها عندما يبذل هي الشح بالذات ، والقصد من قوله : « وأحضرت الأنفس الشح» ان المرأة لا تتنازل عن حقها للرجل بسهولة ، ولا الرجل يتسامح معها من غير عوض ، ويجب أن لا يغيب عنا ان الآية الكريمة تتحدث عن حياة الزوجين مع عدم الوئام والوفاق ، أما مع صلاح الحال ، والتئام الأخلاق فلا موجب للبذل والتصالح ، بل لا يرى أحد الزوجين انه يملك شيئاً دون صاحبه،ما داما كذلك.

(وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) . هذه دعوة من الله سبحانه الى كل من الزوجين أن يحسن العشرة مع صاحبه ، ويتقي أسباب الخلاف والشقاق .

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) العدل بين النساء على نوعين : مقدور كالمساواة في الانفاق ، وطيب الحديث . وغير مقدور كالمحبة وميل القلب،بل والجماع أيضاً .. فقد ينشط الرجل للواحدة ما لا ينشط للاخرى.. والعدل بين النساء المطلوب هو العدل في الانفاق ، لأنه مستطاع ، أما العدل في الحب وما اليه مما لا يملكه الانسان فلا يكلف به ، وبهذا يفرق بين هذه الآية، وبين قوله تعالى في أول السورة : « وان خفتم أن لا تعدلوا بين النساء » . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : أما قوله : فان خفتم أن لا تعدلوا فانه عنى به النفقة ، وأما قوله : ولن تستطيعوا أن تعدلوا فانه عنى به المودة .

ونحن من الذين يؤمنون ايماناً قاطعاً بأنه لا شيء أصعب منالاً من العدالة ،

لأنها في حقيقتها وجوهرها التحرر من سيطـرة الشهوات ، كما جاء في بعض الأخبار ان العادل من خالف هواه ، وأطاع مولاه ، ولا يتسنى هذا الا للصفوة .

(فلا تميلوا كل الميل) مع الزوجة المحبوبة ، وتحرموا الأخرى من حقوقها (فتذروها كالمعلقة) لا مزوجة لها ما للزوجات ، ولا مطلقة تستطيع الزواج بمن تريد .

(وان يتفرقا يغن الله كلاً من سعته) . ينبغي قبل كل شيء أن يعمل الزوجان على ازالة أسباب الخلاف والشقاق بينهما ، لأن الصلح خير ، فان تعذر فالطلاق هو الأفضل دفعاً لأشد الضررين .. وفضل الله ورزقه يتسع للطرفين اجتمعا أو افترقا .. فقد يسخر للمطلقة رجلاً خيراً من الأول ، ويسخر للمطلق امرأة خيراً من الأولى .

والخلاصة ان ما تقدم يدور حول محور واحد هو « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » والامساك أفضل ، مع عدم المفسدة ، ومعها فالتسريح هو الأفضل ، فكما خلق الله علاجاً ناجحاً للأمراض الجسمية فقد خلق دواء منجحاً للأمراض الاجتماعية .

ولله ما في السموات وما في الأرض الآية ١٣١ - ١٣٤ :

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيّاً حَمِيداً ★ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ★ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ

بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلى ذٰلِكَ قَدِيراً★ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً★

الاعراب :

واياكم معطوف على الذين ، أي وصينا الذين أوتوا الكتاب ووصيناكم . وان اتقوا (ان) للتفسير بمعنى أي مثل كتبت اليه أن أفعل كذا ، أي إفعل كذا ، ويجوز أن تكون (ان) مصدرية ، والمصدر المنسبك مجرور بجار محذوف متعلق بوصينا ، والتقدير وصينا بتقوى الله . وكفى فعل ماض ، والباء زائدة ، ولفظ الجلالة فاعل ، ووكيلاً حال ، أو تمييز على معنى من وكيل .

المعنى :

(ولله ما في السموات وما في الأرض) . في المجلد الأول ، وفي هذا المجلد أيضاً تكلمنا عن التكرار في القرآن بصورة عامة[1] ونتكلم الآن عن تكرار هذه الآية خاصة ، لأنها أكثر الآيات ذكراً وتكراراً في القرآن ، ثم نشير الى تكرارها هنا بصوره أخص ، حيث ذُكرت بنصها الحرفي مرتين في آية واحدة، وأعيدت كذلك مرة ثالثة في الآية التي تليها بلا فاصل .

أما سبب تكرارها بوجه عام فلأن موضوعها الكون الذي يستدل به ، وبما يحويه على وجود الله وصفاته ، كالعلم والقدرة والارادة والحكمة فهو الدليل الجامع لجميع الدلائل والمدلولات بشتى أنواعها .. وعلى هذا يكون ذكر هذه الآية ذكراً للدليل على وجود الله وعظمته .

وأما ذكرها هنا ثلاث مرات فانه للإشارة الى فوائد ثلاث: الأولى قال تعالى

---

١ انظر ص ٩٦ من المجلد الأول ، وتفسير الآية ١١٦ و ١٢٦ من هذه السورة .

في الآية السابقة : (يغن كلاً من سعته) فناسب الاستدلال على هذه السعة بأن له ما في السموات والأرض . الثانية قال: (وان تكفروا فان لله ما في السموات وما في الأرض) أي هو غني عمن كفر لأن له ما في السموات وما في الأرض. الثالثة : قـال : (ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) . والمراد انه قادر على افناء من يعصي، وايجاد من يطيع ، لأن له ما في السموات وما في الأرض .. وعلى هـذا فكل مرة من المرات الثلاث لها سبب موجب ، ومقرونة بفائدة جديدة .

(من كان يريد ثواب الدنيـا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) . أي ان ثواب الدنيا والآخرة يمكن تحققها والحصول عليها ، مع الايمان والتقوى ، ومن ظن ان ثواب الدنيا لا يجتمع مع التقوى فهو مخطىء ، لأن مـا من شيء يحقق للانسان سعادته وكرامته في هذه الحياة إلا ويقره الدين ، بل يأمر به ، ويحث عليه بشرط واحـد ، هو أن لا تكون سعادته شقاء لغيره ، وكرامته امتهاناً لسواه .. اذن لا تصادم أبداً بـين ثواب الدنيا وثواب الآخرة ، وانما التضاد والتصادم بين الظلم وثواب الآخرة ، بين الغش والخداع والسلب والنهب ، وبين مرضاة الله ونعيمه وجنانه .

كونوا قوامين بالقسط الآية ١٣٥ – ١٣٦ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ

يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً★

اللغة :

القسط بكسر القاف العدل ، ومثله الأقساط . واللي المطل ، يقال : لوى فلان دَيْن فلان ، أي مطله ، وفي الحديث : « ليّ الواجد ظلم » أي مطل الغني جور .

الإعراب :

شهداء خبر ثانٍ لكونوا ، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير قوامين ، لأن قوّام اسم فاعل . وعلى أنفسكم متعلق بمحذوف ، أي ولو شهدتم على أنفسكم . ان يكن غنياً اسم كان محذوف ، أي ان يكن المشهود عليه غنياً . وقال : أولى بهما ، ولم يقل أولى به ، مع ان الضمير يُفرد ولا يُثنى اذا عطف بأو لأن العطف هنا جرى على المعنى ، لا على اللفظ ، أي الله أولى بغنى الغني وفقر الفقير ، لأن كل ذلك منه تعالى . وان تعدلوا يجوز أن يكون المصدر مجروراً باضافة مفعول من أجله محذوف ، والتقدير فلا تتبعوا الهوى كراهية العدل ، فكأنهم حرفوا الشهادة بغضاً بالعدل فنهاهم الله عن ذلك ، ويجوز أن يكون المصدر مجروراً بلام محذوفة ، أي لأن تعذلوا ، والمعنى اتركوا متابعة الهوى كي تصيروا موصوفين بصفة العدل .

بين الدين وأهل الدين :

ما رأيت آية في كتاب الله تتصل بالدين الا وأحسست بالبعد والتفاوت بين

الدين كما حدده الله في كتابه ، والدين كما نمارسه في سلوكنا .. نحن نتحدث عن الدين ، وندعو اليه على انه من الله ، وانه ليس لنا من أمره شيء، واننا عبيد له ، تماماً كما نحن عبيد لله .. هذا ما أعلناه وجهرنا به .. ولكن بين الدين كما أعلناه ودعونا اليه ، وبين سلوكنا الذي وصفناه بالدين – بون شاسع ، وتضاد واضح .. وان دل هذا على شيء فانما يدل على اننّا في حقيقة الأمر والواقع منافقون ، سواء أشعرنا بذلك ، أم لم نشعر .

ولو فسرنا الدين بأن الله فوّض تشريع الحلال والحرام الى الهيئة الدينية، كما يزعم بعض أهل الأديان ، لكان بينه وبين سلوكنا شيء من الانسجام ، اما ان نقول : ان الدين لله ، ومن الله ، ثم لا ننسجم معه في سلوكنا فهو النفاق بعينه .

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) . وفي الآية ١٥٢ من سورة الانعام : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا » ومعناه ان الدين حاكم علينا وعلى آبائنا وأبنائنا ، وانه اذا تصادمت المصلحة الشخصية مع الدين فعلينا ان نؤثر الدين ، ولو أدى ذلك الى ذهاب النفس والنفيس ، تماماً كما فعل سيد الشهداء الحسين بن علي (ع) .. ولو قارن واحد من الناس هذه الحقيقة القرآنية مع سلوكنا لانتهى الى اننا نؤثر مصالحنا ومصالح ذوينا على الدين ، واذا حقق ودقق في البحث آمن بأن المصدر الأول والأخير للدين عندنا هو المصلحة والمنفعة، لا كتاب الله ، ولا سنة رسول الله .

هذا هو واقعنا ، أو واقع أكثرنا ، أو واقع الكثير منا .. ولكن لا نشعر بهذا الواقع ، ولا نتنبه اليه ، لأن الأنانية قد طغت على عقولنا ، وفصلتنا عن واقعنا وعن أنفسنا ، وأعمتنا عن الحق،وأوهمتنا ان دين الله هو مصلحتنا بالذات، وما عداها فليس بشيء .

أقول هذا ، لا حقداً على أحد ، ولا بدافع الحاجة والحرمان .. فاني بفضل الله في غنى عن خلقه .. ولكن هذا ما أحسه في أعماقي ، ويحس به كثيرون غيري من العارفين المنصفين ، ولا بد لهذا الاحساس من واقع يعكسه – فيما

أعتقد – كما اعتقد انه لا دواء لهذا الداء إلا أن نتهم أنفسنا ، ونعتقد انّا عاديون كغيرنا ، لنا ميول وأهواء يجب أن نحذرها ونخالفها .. أقول هذا ، وأنا على علم بأنه صرخة في واد ، لأنه شكوى من أنفسنا لأنفسنا التي هي أعدى أعدائنا .

(ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) . في كل فرد من أفراد الانسان استعداد لتقبل الخير والشر ، وهو في الوقت نفسه مفطور على تخير الأول دون الثاني ، بحيث لو خُلي وفطرته لفعل ما يعتقد انه خير ، ولا ينحرف عنه إلا لعلة خارجة عن ذاته وفطرته .. ومما استدل به علماء الكلام على هذه الحقيقة ان العاقل لو خُيِّر بين ان يصدق ويُعطى ديناراً ، وبين أن يكذب ويُعطى ديناراً، ولا ضرر عليه فيهما لاختار الصدق على الكذب .

اذن ، العاقل لا يكذب إلا لعلة ، كالخوف أو الطمع ، أو هوى مع قريب، أو كراهة لعدو ، أو رحمة بفقير ، أو مجاملة لغني ، وما الى ذلك .. وقد نهى سبحانه عن الامتناع من الشهادة على الغني خوفاً أو طمعاً أو مجاملة ، وعن الامتناع منها على الفقير لفقره ومسكنته ، وقال ، عظم من قال : (ان يكن – المشهود عليه – غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) . أي أنه أرحم بالفقير منا، وأعرف بمصلحته ومصلحة الغني ، وما علينا نحن إلا أن نقول الحق ، سواء أكان لهما ، أم عليهما .

ولم يذكر سبحانه من الدوافع الموجبة للزيغ والانحراف إلا مجاملة الغني ، والرحمة بالفقير .. ولكن السبب عام ، فالحق يجب أن يقال في كل موطن ، والعدل يجب أن يُتبع حتى مع أعداء الدين .

(فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا) . أي لكي تعدلوا ، والمعنى على هذا انكم تصيرون من أهل العدل بترك الهوى ومخالفته . وقيل : التقدير كراهة ان تعدلوا،أي انكم تتبعون الهوى كرهاً بالعدل ، وان الله نهاهم عن ذلك . والأول أقرب .

العدالة :

واختلف الفقهاء في معنى العدالة ، وأطالوا الكلام ، فمنهم من قال : انها ظاهر الاسلام،مع عدم ظهور الفسق . وقال آخر : انها ملكة راسخة في النفس تبعث على فعل الواجب ، وترك المحرم . وثالث : انها السّتر والعفاف . ورابع انها ترك الكبائر ، مع عدم الاصرار على الصغائر .

وفي قوله تعالى : « فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا » ايماء الى أن العدالة هي مخالفة الهوى . ووصف علي أمير المؤمنين (ع) أخاً له في الله فيما وصف انه « كان اذا بدهه – أي فجأه – أمران نظر أيهما أقرب الى الهوى فخالفه » . وقال : « كان أول عدله نفي الهوى عن نفسه » .

وقال حفيده الإمام جعفر الصادق (ع) : اما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه ، حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه ، مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه .

(وان تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) . اللّيّ هو المطل والتسويف ، والمعنى لا تسوفوا في اداء الشهادة ، ولا تعرضوا عنها .. ثم هدد وتوعد بأن من يفعل ذلك يعلم به الله ، ويعاقبه عليه .

(يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) . قد يؤمن الانسان بالخالق المكون، وينكر النبوة والكتب السماوية ، وقد يعترف بنبوة بعض الأنبياء دون بعض ، وببعض الكتب دون بعض ، أو ينكر وجود الملائكة ، أو اليوم الآخر . وقد بينت هذه الآية أركان الايمان التي يجب أن يعترف بها كل من ترك الشرك والالحاد ، ويؤمن بها ككل لا يتجزأ ، وهي الايمان بالله وجميع رسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر .

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا هم الذين تركوا الشرك والالحاد، وبآمنوا الثانية الايمان الحقيقي ، لا الدوام والثبات على الايمان كما قال المفسرون، وبرسوله محمد (ص) ، وبالكتاب الذي نزل على رسوله القرآن ، وبالكتاب الذي أنزل من قبل كل كتاب سماوي نزل قبل بعثة الرسول الأعظم (ص) .

(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً). هذه الآية دليل واضح على ان الايمان بالغيب ركن من أركـان الاسلام ، وان من لا يؤمن به فليس بمسلم .. وسبق نظير هذه الآية ، مع تفسيرها في المجلد الأول ص ٤٥٥ الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

لا يثبت على كفر ولا ايمان الآية ١٣٧ - ١٣٩ :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً★ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً★ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً★

اللغة :

أصل البشارة الخبر السار الذي يظهر به السرور في بشرة الوجه ، فاذا قال شخص لآخر : بشارة ، أو أبشرك دون أن يذكر شيئاً فهم منه على سبيل الاجمال ان هناك شيئاً محبوباً ، ولا يستعمل في المكروه إلا مع القرينة ، ومنه قوله تعالى : وبشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً .

الإعراب :

خبر (لم يكن الله) محذوف ، والتقدير لم يكن الله مريداً لمغفرتهم ، أو للغفران لهم . وجميعاً حال من العزة ، أو من ضمير خبر ان المحذوف الذي تعلق به لفظ (لله) .

المعنى :

(ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً) قد يؤمن الانسان بدين من الأديان ، أو بمبدأ من المبادىء ، ويتعصب له ، ويناضل من أجله أهل الأديان والمبادىء الأخرى، ثم يدرس ويبحث ، فيتبين له مواقع الخطأ فيه ، فينفصل عنه ، وينضم الى صفوف الصالحين الذين كانوا بالأمس من ألد أعدائه .. وعلى هؤلاء أن يقبلوه ويرحبوا به ، وليس من حق أي انسان أن يعيب وينكر عليه هذا العدول بعد ان سلك الطريق الصحيح الذي ظهر له ، بل يجب أن يُمدح ويُكرم ، لأن الرجوع عن الخطأ فضيلة ، والاصرار عليه رذيلة .

هذا اذا ثبت ودام على ايمانه الجديد ، أما اذا عدل ، وأعاد سيرته الأولى، ثم عدل ، وأعاد .. وهكذا يفعل مرات وكرات،أما هذا فيجب نبذه وطرده ، بل يجب أن يعاقب بأقسى العقوبات وأشدها .. وهذا ما التزمت به أهل الأديان، وأرباب المذاهب السياسية قديماً وحديثاً ، لأن تقلبه هذا ان دل على شيء فانما يدل على انه ساخر ماكر ، ومفترٍ كذاب ، يلج في الفساد والغواية ، ويزداد من الإثم والضلالة كلما دخل وخرج .. وهذا وأمثاله هم المعنيون بقوله تعالى : (آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً) بهذا التقلب والتلاعب (لم يكن الله ليغفر لهم) ما داموا متزلزلين يتقلبون بين الكفر والايمان (ولا ليهديهم سبيلاً) لأنهم أضاعوا السبيل بسوء اختيارهم بعد ان عرفوه وسلكوه .

والخلاصة ان المؤمن هو الذي يثبت على ايمانه مهما تقلبت الظروف،واختلفت الأحوال،أما الذي يرتد مرة ومرة فهو أسوأ حالاً ممن ثبت على الكفر والالحاد.

(بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً) . قال الرازي : استعمل سبحانه البشارة بالعذاب للتهكم ، تماماً كما تقول العرب : تحيتك الضرب ، وعتابك السيف .

ويلاحظ بأن أسلوب القرآن أبعد ما يكون عن التهكم .. والأقرب ان المراد بالبشارة مجرد الاخبار ، وجاز استعمالها في المكروه لوجود القرينة ، كما أسلفنا

في فقرة اللغة .

(الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً) . كلٌ منا يريد أن يكون شيئاً مذكوراً في هذه الحياة ، وقد يحرص بعض الناس أن يشتهر بالطيبة والصلاح ، أو بالفهم والعلم،ولكن البعض يريد العزة والشهرة بأي شيء كان ، ويبيع دينه من أجلها للشيطان،ويتخذه ولياً يسمع له ويطيع .

وهنا يأتي السؤال في توبيخ واستنكار من رب العزة ، لا من سواه : أيطلب هؤلاء العزة من الشيطان وأوليائه الأدنياء الأذلاء ؟ وهل العزة الا بالايمان والتقوى ؟.. لقد أذل الاسلام بعزته جميع الأديان ، فكيف تُطلب العزة ممن كفر به ؟.

والمؤمنون الذين عناهم بقوله : « من دون المؤمنين » هم الذين يعتز بهم الإسلام ، لأنهم أعزوه وأعلوا كلمته بجهادهم وتضحياتهم .. وقد تكلمنا مفصلاً عن موالاة الكافرين عند تفسير الآية ٢٨ من سورة آل عمران ، فقرة « موالاة المؤمن للكافر » .

فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره الآية ١٤٠ – ١٤١ :

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَٱلْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ★ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً★

اللغة :

التربص الانتظار ، والاستحواذ الغلبة والاستيلاء .

الإعراب :

انْ اذا سمعتم (أنْ) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، أي انه ، والجملة من ان وما بعدها خبر ، والمصدر المنسبك في محل نصب مفعول لنزل ، والتقدير نزل عليكم المنع من مجالستهم عند سماع الكفر منهم ، وجملة يكفر بها حال من آيات الله . وضمير معهم عائد على محذوف ، والتقدير فلا تقعدوا مع الكافرين المستهزئين . واذا ملغاة لتوسطها بين الاسم والخبر . ومثل يوصف بها المذكر والمؤنث والمثنى والجمع ، يقال : هو وهي وهما وهم وهن مثله ، وقد أخبر بها في هذه الآية عن الجمع (انكم اذاً مثلهم) ووصف بها الاثنين في قوله تعالى : « أنؤمن لبشرينْ مثلنا » . والذين يتربصون (الذين) صفة للكافرين والمنافقين .

المعنى :

(قد نزل عليكم في الكتاب — أي من قبل — ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) . هذه الآية المدنية تُذكر المسلمين بآية نزلت في مكة قبل الهجرة الى المدينة ، وهي قوله تعالى : « واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في

حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين – ٦٨ الانعام ». أما سبب هذا التذكير فهو ان بعض المسلمين – كما جاء في التفاسير – كانوا يجلسون في مجالس المشركين بمكة ، وهم يخوضون في ذم محمد (ص) ، ويستهزئون بالقرآن ، والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون الانكار عليهم.. فنزلت آية الانعام تحذر المسلمين من المشركين ، وتأمرهم أن يعرضوا عنهم وعن مجالسهم حين يسمعون الكفر والاستهزاء بآيات الله .

وتمضي الأيام ، ويهاجر المسلمون الى المدينة ، وفيها يهود ومنافقون أظهروا الاسلام ، وأضمروا الكفر ، وأعاد بعض المسلمين السيرة الأولى ، وجالسوا اليهود والمنافقين بالمدينة ، وهم يخوضون في ذم الاسلام ونبيه ، فنزلت هذه الآية المدنية التي نفسرها، لتذكر المسلمين بآية الانعام السابقة ، وتأمرهم بمقاطعة الكافرين والمنافقين المستهزئين بآيات الله .

وأياً كان سبب نزول الآية ، أو المخاطب بها فانها عامة الدلالة على وجوب الاعراض عن كل من يخوض بالباطل ، ولا يختص هذا الوجوب بمن كان يجالس الكافرين في مكة ، والمنافقين في المدينة ، ولا بمن خوطب بهذه الآية بناء على انها موجهة لخاص ، لا لعام . وفي الحديث : الوحدة خير من قرين السوء . وفي ثان : اياكم ومجالسة الموتى ، فقيل : ومن هم الموتى يا رسول الله ؟. قال : كل ضال عن الايمان ، جائر في الأحكام . وفي نهج البلاغة : مجالسة أهل الهوى منساة للايمان ، ومحضرة للشيطان .

(انكم اذاً مثلهم) . الراضي بالكفر كافر ، وبالاثم آثم ، مهما كان نوعه باتفاق الفقهاء والعلماء ، وقد تواتر الحديث : العامل بالظلم ، والمعين له، والراضي به شركاء .. وبالاولى من رضي بالكفر . وفي نهج البلاغة : الراضي بفعل قوم كالداخل فيه ، وعلى كل داخل إثمان ، إثم العمل به ، وإثم الرضا به .

(ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) . ولنا ان نؤلف من قوله هذا ، وقوله : (انكم اذا مثلهم) ان نؤلف قياساً منطقياً ، يتألف من مقدمتين ينتجان قضية حتمية بديهية ، ونقول هكذا : كل من رضي بالكفر فهو كافر ، لقوله تعالى : (انكم اذا مثلهم) ، وكل كافر فهو في جهنم ،

لقوله : (ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم) اذن ، كل من رضي بالكفر فهو كافر .

(الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتحٌ من الله قالوا ألم نكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) . ترسم هذه الآية صورة لحال المنافقين اذا وقعت الحرب بين المسلمين والمشركين ، وتتلخص هذه الصورة بأن المنافقين كانوا يخرجون مع المسلمين في حروبهم للدس والتثبيط وتفتيت الصفوف ، وفي الوقت نفسه يتظاهرون بأنهم خرجوا لنصرة المسلمين ، وينتظرون : فان كان الظفر للمسلمين قالوا لهم: كنا معكم ، فنحن وأنتم شركاء في الغنيمة ، وان كان للمشركين قالوا لهم : نحن الطابور الخامس،فأين الأجر؟. وهكذا يمسكون العصا من وسطها .

وأبلغ ما قرأت في وصف المنافقين ما قاله علي أمير المؤمنين (ع) : « قد أعدوا لكل حق باطلاً ، ولكل قائم مائلاً ، ولكل باب مفتاحاً ، ولكل ليل مصباحاً » . وهؤلاء موجودون في كل عصر ، وتضاعف عددهم في البلاد العربية يوماً بعد يوم منذ ان ظهر فيها الذهب الأسود،واتخذوا الوطنية شعاراً لهم، تماماً كما تظاهر المنافقون بالإسلام في عهد الرسول (ص) .. فان تغلب الأحرار المناضلون على المحتكرين والمستغلين قال لهم منافقو العصر : ألم نكن معكم ؟ وان نجا المستغلون بفريستهم قالوا لهم : ألم نمنع عنكم الأحرار ؟.

وتسأل : لماذا عبّر سبحانه عن ظفر المسلمين بالفتح من الله ، حيث قال : « فان كان لكم فتح من الله » وعبر عن ظفر الكافرين بالنصيب حيث قال : (وان كان للكافرين نصيب) ؟.

الجواب : ان ظفر المسلمين هو ظفر للحق الذي يدوم ويبقى ما دام أهله متبعين لسنة الله وأمره من اعداد العدة ، فناسب التعبير عنه بفتح من الله ، أما ظفر الباطل فانه مؤقت لا يلبث حتى يزول أمام أهل الحق اذا اجتمعت كلمتهم على جهاده ونضاله .. وقديماً قيل : دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق الى قيام الساعة .

(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) . استدل الفقهاء بهذه الآية على ان الله سبحانه لم يشرع حكماً يستدعي أية سلطة ، وولاية لغير المسلم على

المسلم ، وفرعوا على ذلك كثيراً من الأحكام ، منها اذا كان أبو الطفل مسلماً، وامه غير مسلمة فلا حق لها في حضانة الطفل ، لأن الولد يتبع أشرف الأبوين ديناً ، ويكون حكمه حكم المسلم ، ومنها ان المسلم لا يجوز له أن يوصي بأولاده الصغار الى غير المسلم ، وان فعل بطلت الوصية . ومنها ان الأب انما تكون له الولاية على أولاده اذا اتحد معهم في الدين ، أما اذا كانوا مسلمين،والأب غير مسلم فلا ولاية له عليهم . ومنها ان حكم الحاكم غير المسلم لا ينفذ بحق المسلم ، وان كان حقاً .. الى غير ذلك من الأحكام .

يخادعون الله وهو خادعهم الآية ١٤٢ – ١٤٣ :

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالى يُرَاؤُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً★ مُذَبْذَبِينَ بَينَ ذٰلِكَ لَا إِلى هٰؤُلاءِ وَلَا إِلى هٰؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً★

اللغة :

المراد بيخادعون انهم كانوا يظهرون الايمان ، ويضمرون الكفر ، والمراد بخادعهم ان الله مجازيهم بالعقاب على خداعهم هذا . وكسالى جمع كسلان ، وهو المتباطىء المتثاقل . والمذبذب مَنْ يتردد بين جانبين ، ويتكرر منه ذلك .

الإعراب :

جملة وهو خادعهم مستأنفة لا محل لها من الاعراب ، كأنَّ سائلاً يسأل :

ما هو جزاء المخادعين ؟ فأجيب بأن وبال خداعهم يرجع عليهم . كسالى حال من الواو في قاموا . وجملة يراءون حال ثانية . وقليلاً نعت لمصدر محذوف ، أي إلا ذكراً قليلاً . مذبذبين حال من المنافقين . لا إلى هؤلاء ولا الى هؤلاء متعلق بمحذوف حال ، أي غير منسوبين لا الى المؤمنين ولا إلى الكافرين .

المعنى :

(ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) . المراد بخداعهم لله اظهارهم الايمان للرسول مع اضمارهم الكفر ، لأن من خان الرسول فقد خان الله ، قال سبحانه : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله – ١٠ الفتح » . والمراد بخداع الله لهم انه تعالى يعاقبهم على خداعهم ونفاقهم ، من باب اطلاق السبب وارادة المسبب ، وقد وصف الله تعالى نفسه في كتابه العزيز بالتواب والشاكر ، لأنه يقبل من التائب توبته ، ويثيب الشاكر على شكره .

(واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى) . وكيف ينشطون لها ، وهم بها كافرون ؟. لا يرجون ثواباً على فعلها ، ولا عقاباً على تركها ، وإنما أتوا بها صيداً للدنيا ، وطريقاً الى الكسب ، قال تعالى: « وانها لكبيرة إلا على الخاشعين – ٤٥ البقرة . »

وتسأل : اذا صلى بدافع التقرب الى الله ، ومع ذلك أحب أن يراه الناس ليحسبوه من الصالحين،أو ليدفع عنه تهمة التهاون بالدين،فهل يكون هذا رياء؟.

الجواب : كلا ، ما دام الباعث الأول هو أمر الله ومرضاته ، وما عداه تبع له .. فقد سئل الإمام الصادق (ع) عن الرجل : يعمل الشيء من الخير فيراه انسان ، فيسره ذلك ؟. قال : لا بأس ، ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يكن ذلك لذلك . أي اذا لم يكن الفعل لمجرد الاظهار فقط .

(يراءون الناس) . لأنهم لا يصلون لله،بل للصيد والربح . (ولا يذكرون الله إلا قليلاً) . أي الا حين يراهم الناس ، أما إذا انفردوا فلا يذكرونه

اطلاقاً ، قال الإمام جعفر الصادق (ع) : للمرائي ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده : وينشط إذا كان الناس عنده ، ويحب ان يحمد بما لم يفعل .

هل كل الناس مراؤن ؟

وتسأل : ما من أحد يظهر أمام الناس على حقيقته ، ويقول لهم كل ما يعتقد ، ومن الذي يقول لكل واحد ما يعرفه منه؟.ولو قال لعُدّ من المجانين، بل من الذي لا يفعل ويتصرف — أحياناً — على غير ما يحب ويريد ؟. ثم الى أين المفر من عادات المجتمع وقيمه ؟.

وهل باستطاعتك اذا التقيت بمن تكره،وابتدأك بقوله : أنا مشتاق الى رؤيتك. هل باستطاعتك أن تجيبه بأني أكره أن أراك ؟ واذا أجبته بهذا المكروه فهل أنت مصيب في نظر الناس ، بل وفي نظرك أيضاً ؟. وأخيراً ، هل كل الناس مراؤن منحرفون لأنهم لا يعتقدون بكل ما يقولون،ولا يؤمنون بكل ما يفعلون ؟

الجواب : فرق بين الرياء والمداراة ، فالرياء ان تظهر الصلاح نفاقاً وافتراء، لتقف مع الصالحين ، ولست منهم ، والمداراة ان تكون لطيفاً في معاملة الناس، دون أن تهدف الى شيء الا ان تعيش معهم في وئام ووفاق .. صحيح انك تتصرف — أحياناً — تبعاً لتقاليد المجتمع ، فتهني أو تعزي ، أو تبتسم وتحترم انساناً مجاملاً ، لا مؤمناً ، ولكن هذا تصرف سليم لا غبار عليه ، ولا تُعد معه مرائياً ما دمت في فعلك وتصرفك متفقاً مع المجتمع .. وأيضاً لا يجب عليك اذا صدرت منك خطيئة — وأينا المعصوم — ان تذيعها وتعلنها على الناس . أجل ، يجب ان لا تبدوَ لهم قديساً لا خطيئة له .

وصحيح أيضاً انك كاذب في قولك لمن تكره : أنا اشوق ، ولكنه كذب في المصلحة وحسن الخلق ، قال تعالى : « وقولوا للناس حسناً — ٨٣ البقرة ». وقال : « ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة — ٢٤ ابراهيم » . وقال: « اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولاً ليناً — ٤٤ طه » . وفي الحديث : « الكلمة الطيبة صدقة يثاب بها قائلها بما يثاب به أولو الفضل والاحسان » . وفيه

أيضاً : « أمرني ربي بالمداراة ، كما أمرني بالفرائض » . وأجمع الفقهاء على ان الكذب واجب اذا توقف عليه حفظ النفس البريئة ، وخلاصها من الهلاك ، وان الصدق حرام في النميمة والغيبة ، فالنمام صادق ، والمغتاب صادق ، ولكنهما مذمومان عند الله والناس[1] .

وبعد ، فان الرياء المحرم هو ان يتظاهر المرء أمام الناس بما ليس فيه ، فيريهم الخير والصلاح من نفسه ، ليحظى عندهم بمكان الصالحين الخيرين، وهو من الأشرار المفسدين .

(مذبذبين) . يتظاهرون تارة مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وهم في الواقع (لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) . بل الى منافعهم ومطامعهم .. يقبلون كل يد تقبض على منفعتهم،أو على شيء منها ، قذرة كانت اليد، أو طاهرة .

(ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً) . أي ان الله سبحانه قد تخلى عنهم، وأوكلهم الى أنفسهم لعنادهم وتمردهم على الحق،ومن كان هذا شأنه فلن يؤوب الى رشد . ولا بد من التنبيه الى ان حكمة الله تعالى تستدعي ان لا يتخلى عن عبده ، تماماً كما لا تتخلى الوالدة عن وليدها ، الا اذا كان العبد هو السبب الموجب لتخلي الله عنه لولوجه في العصيان والتمرد ، كما تتخلى الأم عن ابنها لغلوه في العقوق. وتقدم هذا النص القرآني بالحرف في الآية ٨٨ من هذه السورة، وتكلمنا عنها هناك مفصلاً ، فقرة « الاضلال من الله سلبي لا ايجابي » ، كما بسطنا القول في أقسام الهدى والضلال عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٧٠ .

لا تتخذوا الكافرين أولياء الآية ١٤٤ - ١٤٧ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

---

[1] نصوص الكتاب والسنة تقوم على أساس العمل بما فيه مصلحة ، وترك ما فيه مفسدة ، فحيث تكون المصلحة يكون الأمر ، وحيث تكون المفسدة يكون النهي ، ومن هنا جاز الكذب مع المصلحة، وحرم الصدق مع المفسدة المترتبة على الغيبة والنميمة .

أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً★ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً★ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجراً عَظِيماً★ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً★

اللغة :

السلطان الحجة . والدرك بسكون الراء وفتحها عبارة عن الطبقة أو الدرجة من الجانب الأسفل من الشيء . وتشعر هذه الآية ان دار العذاب طبقات بعضها أسفل من بعض . وشاكراً ، أي يجازي على الشكر ، كما بينا في الآية السابقة .

الاعراب :

من النار متعلق بمحذوف حالاً من الدرك . والذين تابوا (الذين) في موضع نصب على الاستثناء من الضمير في (لهم) . وما يفعل الله (ما) استفهام في موضع نصب بيفعل .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) . تقدمت هذه الآية مع تفسيرها في سورة آل عمران الآية ٣٠،فقرة أقسام الأولياء وموالاة المؤمن للكافر .

(أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً) . السلطان الحجة ، وكل من

لم يكن على بينة من دينه ، أو زاغ عن طريق الهداية بعد أن استبان له فقد جعل لله الحجة البالغة من نفسه على نفسه .. اللهم انّا نعترف بأنك لا تعاقب إلا بعد قيام الحجة ، وأيضاً نقر ونعترف بقيام الحجة علينا ، بل نهتز ونرتجف خوفاً من بطشك ، ونعوذ منه بعفوك وكرمك .. اذن لا داعي لأن توقفنا بين يديك للمحاكمة والحساب ، والتحقيق والتدقيق .

(ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً) . لأن العقوبة على قدر الجريمة ، ولا جريمة أعظم من النفاق الذي جمع بين الكفر والكذب ، وكلاهما من أمهات الرذائل .

(الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم الى الله فأولئك مع المؤمنين) . بعد ان هدد وتوعد سبحانه المنافقين بأشد العقوبات أرشدهم الى التوبة ، طريق الخلاص والنجاة ، فهي وحدها النصير والشفيع اليه تعالى .. وهي في يدهم وطوع ارادتهم ، فمن قصر وتوانى فلومه على نفسه .. وهذه حجة أخرى على كل مذنب يضيفها جل وعز الى حججه البالغة التي لا يبلغها عد ولا حصر ..

وعقدنا فصلاً خاصاً للتوبة والتائبين بعنوان التوبة والفطرة عند تفسير الآية ١٨ من هذه السورة . وقد أطال المفسرون الكلام في بيان الفرق بين معطوفات هذه الآية ، وهي اصلحوا واعتصموا وأخلصوا .. والذي نراه ان لفظ التوبة يتضمن هذه الأوصاف بكاملها ، ولا نجد فرقاً جوهرياً بينها ، وانما نص عليها واكدها للاشارة الى ما كان عليه المنافقون من التردد والتمرد ، وان الله سبحانه لا يقبل توبتهم ، ولا يجعلهم في عداد المؤمنين إلا اذا ثبتوا واستمروا على التوبة ، وانهم اذا ارتدوا بعد التوبة ، وفعلوا كما يفعلون فانهم يضيفون الارتداد الى كفرهم وافترائهم وذبذبتهم ، ولا جزاء للارتداد الا القتل في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة .

الله والإمام زين العابدين :

(ما يفعل الله بعذابكم) . أبداً .. انه غني عن كل شيء في ذاته وصفاته ،

والا لم يكن خالقاً ، وانما يحاسب ويعاقب جزاء وفاقاً .. ولا غنى لمخلوق عنه في وجوده وبقائه ، وجميع حركاتــه وسكناته ، وإلا لم يكن مخلوقاً .. والآن تعال معي – أيها القارىء – لنستمع بخشوع واجلال الى هذه النفحات من الإمام زين العابدين :

« اللهم اني امرء حقير ، وخطري يسير ، وليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة ، ولو ان عذابي مما يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه ، وأحببت أن يكون ذلك لك ، ولكن سلطانك أعظم ، وملكك أدوم من أن تزيده طاعة المطيعين ، أو تنقصه معصية المذنبين » .

ليست هذه المناجاة رموزاً تومىء الى الوجد والشوق لجمال القـدس وجلاله ، كما يفعل الصوفية ، ولا مجرد صلاة وخوف من عذاب الله ، وان دل عليه ظاهر الكلام ، وانما هي توجيه لكل قوي يريد البطش بالضعفاء الـذين لا حول لهم معه ولا طول .. وان الأولى والأليق بقدرته مع ضعفهم هو العفو والصفح ، وليس التعذيب والتنكيل .. ان القوة لا تكون فضيلة وكمالاً الا مع الاعطاء والتفضل. ان الحاجة أو الشراسة هي الدافع والباعث على التنكيل بمن لا يجـد مهرباً من القوي الا اليه .. والقوي الكامل غني عن المستضعفين ، منزه عما يشين .

وبعد ، فان العفو خير ، ونحن بحاجة اليه ، والله قادر عليه ، ولا أحـد أولى به منه ، فعفوه – اذن – كائن لا محالة .. نقول هذا ، ونحن من أخشى عباد الله .

(ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً) . يعلم من أطاع وشكر ، ويوفيه أجور المطيعين الشاكرين .. آمنا بالله وحده ، مبتهلين اليه سبحانه ان يوفقنا لشكره وطاعته .

الجزء السادس

لا كرامة لظالم الآية ١٤٨ - ١٤٩ :

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً★ إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيراً★

الإعراب :

بالسوء متعلق بالجهر ومن القول متعلق بمحذوف حال من السوء . ومن ظلم استثناء منقطع ، على معنى ولكن من ظلمه ظالم فله أن يجهر بالشكوى من ظلمه . ويجوز أن يكون استثناء متصلاً على تقدير حذف مضاف، أي الا جهر من ظلم، وهو الأرجح .

المعنى :

قال تعالى في تحريم الغيبة : « ولا يغتب بعضكم بعضاً - ١٢ الحجرات » . ومما قاله في تحريم الظلم : « ان لعنة الله على الظالمين - ٤٤ الاعراف » . وقال في الآية التي نفسرها : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) . واذا عطفنا هذه على آية الغيبة يكون المعنى لا يذكر بعضكم بعضاً بالعيوب والسيئات إلا من كان مظلوماً فله أن يعلن ظلامته ، ويجهر بسيئات من ظلمه .

ومعنى الظلم معروف ، اما الغيبة المحرمة فقد حددها الفقهاء بأن تذكر غيرك بما يكره في حال غيابه عنك ، كهتك عرضه والتفكه به واضحاك الناس منه ، سواء أكان ذلك بما هو فيه ، أم كان كذباً وافتراء .. واستثنوا من تحريم الغيبة الظالم لغيره ، والظالم لنفسه بتجاهره بالفسق وعدم مبالاته بما يقول ، ويقال له ، وفي مكاسب الشيخ الأنصاري ان موارد الاستثناء لا تنحصر في عدد ، لأن الغيبة

انما تحرم إذا لم يكن في التشهير مصلحة أقوى وإلا وجب الاعلان والتشهير تغليباً لأقوى المصلحتين ، « كما هي الحال في كل معصية من حقوق الله وحقوق الانسان ، وقد نبه على ذلك أكثر من واحد » .

وعلى هذا تجوز شرعاً الاضرابات والمظاهرات ضد حكام الجور ، بل قد تجب اذا انحصر الطريق في رفع الظلم بها،على شريطة ان لا تؤدي الى الشغب والاضرار بالغير ، لأن الله سبحانه لا يطاع من حيث يُعصى ، فالاسلام يرعى للانسان قداسته وكرامته ، حتى يعتدي على كرامة غيره ، وعندها ترتفع عنه وعن كرامته الصيانة والحصانة ، ويحل هتكه واذلاله .

وتجدر الاشارة الى ان الظلم لا يختص بحكام الجور وأعوانهم ، فأي انسان اعتدى على غيره بفعل أو قول ، أو منعه حقه ، أو مطله به فهو ظالم ، قال رسول الله (ص) : ليّ الواجد ظلم . وفي حديث آخر : الواجد يحل عرضه . والواجد هو الذي لا يفي بالدين مع قدرته على الوفاء .. وروى أهل البيت عن جدهم (ص) : « من عامل الناس ، فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم — فهو ممن كملت مروءته ، ووجبت اخوته ، وحرمت غيبته » . حتى الكاذب والمخلف بوعده لا حرمة له .. وهكذا يحفظ الاسلام حقوق الفرد ما دام قائماً بحقوق الانسانية التي تتمثل فيه وفي غيره ، ومتى هانت عليه كان أهلاً للاحتقار والهوان .

(ان تبدوا خيراً أو تخفوه) . هذا ترغيب في الخير سراً وعلانية . (أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفواً قديراً) . أجل ، يحسن العفو عن المسيء ، ولكن حين يكون العفو عنه خيراً له ، ولا ضرر فيه على المجتمع ، أما اذا كان وسيلة الى تشجيع المسيء على الاساءة والى انتشار الفساد فان العقاب هو المتعين ، والا اختل النظام ، وساد الأشرار ، واستحالت الحياة ، قال تعالى : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » . وقال : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » .

يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض الآية ١٥٠ — ١٥٢ :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ

وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً★ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً★ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً★

الاعراب :

ذلك تُستعمل بمعنى الافراد والتثنية والجمع ، وقد استعملت هنا في التثنية ، حيث أشير بها الى الإيمان ببعض ، والكفر ببعض . وحقاً نصب على المصدرية ، أي يحق حقاً ، أو حقّ حقاً .

المعنى :

(ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) . آمن اليهود بموسى والتوراة ، وكفروا بعيسى ومحمد ، وآمن النصارى بعيسى والانجيل وكفروا بمحمد والقرآن، وآمن المسلمون بالجميع ، لأن الإيمان في نظر الإسلام وحدة لا تتجزأ ، ولا سبيل عنده اطلاقاً الى التفكيك والتفريق بين عناصره ، وهي الإيمان بالله واليوم الآخر وملائكته وجميع رسله وكتبه ، ومن كفر بواحد منها فحكمه يوم القيامة حكم من كفر بالجميع .

(ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً) . أي بين الكفر والايمان، مع انه لا واسطة بينهما ، حتى المشكك يُعد مع الكفار .. واذا سأل سائل عن حكم الجاهل بنبوة نبي من الأنبياء أحلناه على تفسير الآية ١١٥ من سورة آل عمران، فقرة « حكم تارك الإسلام » .

(أولئك هم الكافرون حقاً) . وان آمنوا ببعض ، لأن الإيمان بالجميع وحدة لا تتجزأ .

(والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) . وهؤلاء هم المسلمون أتباع محمد بن عبدالله الذي أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء ، وقال : الأنبياء جميعهم اخوة ، دينهم واحد ، وأممهم شتى . وفي رواية ثانية : الأنبياء بنو علّات . وسبق الكلام مفصلاً عن ذلك عند تفسير الآية ١٣٦ من هذه السورة ، والآية ٢٨٥ من سورة البقرة، المجلد الأول صفحة ٤٥٥ .

فقالوا أرنا الله جهرة الآية ١٥٣ ـ ١٥٤ :

يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً★ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً★

اللغة :

لا تعدوا باسكان العين وتخفيف الدال بمعنى تجاوز الحد ، والمراد به هنا عدم العمل يوم السبت ، وقرىء بتشديد الدال بمعنى لا تعتدوا من الاعتداء .

الاعراب :

أكبر صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي سؤالاً أكبر . وجهرة أيضاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي رؤية جهرة . وبميثاقهم على حذف مضاف ، أي بنقض ميثاقهم ، والمرور متعلق برفعنا .

المعنى :

(يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء) . المراد بأهل الكتاب هنا يهود المدينة الذين وقفوا من محمد (ص) موقف العدو المتعنت ، وكادوا له الكيد المستمر،وكانوا أول من ابتلي بهم من أهل الكتاب .. ومن تعنتهم وقحتهم ما أشار اليه سبحانه في هذه الآية من طلبهم أن ينزل النبي عليهم كتاباً من السماء يشهد له ، على أن يروه رأي العين ، وبديهة انهم قالوا ذلك على سبيل التعنت ، لا طلباً للحجة ، لأن ما تقدم من معجزاته كافية وافية في الاقتناع لمن طلب الحق لوجه الحق .. وقد تولى الله تعالى الاجابة عن نبيه ، حيث قال عز من قائل :

(فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) . أي لا غرابة ولا عجب اذا سألوك يا محمد أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فلقد سألوا موسى أكبر وأعظم من ذلك ، سألوه ان يروا الله بالذات ، (فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات) . سبق تفسير سؤالهم هذا واتخاذهم العجل في سورة البقرة الآية ٥٤ ــ ٥٧ ، المجلد الأول ص ١٠٤ . وتكلمنا عن جواز رؤية الله وأقوال المذاهب في ذلك ص ١٠٧ .

ومعلوم ان الذين سألوا الرؤية جهرة ، واتخذوا العجل إلهاً هم اليهود الأولون، لا يهود المدينة .. ولكن هؤلاء راضون ومؤمنون بكل ما فعل الآباء والأجداد ، ومن هنا صحت النسبة اليهم .

(وآتينا موسى سلطاناً مبيناً) . المراد بالسلطان الحجة الظاهرة ، والبرهان القاطع ، ولكن اليهود يهون عليهم كل شيء ، ولا يكترثون بشيء إلا بواحد

من اثنين : اما المنفعة ، واما القوة ، ومن أجل هذا خوفهم الله سبحانه بالجبل الذي أشار اليه بقوله :

(ورفعنا فوقهم الطور) . الطور اسم الجبل الذي ناجى موسى عليه ربه ، وفي سورة التين : (وطور سينين) قال المفسرون : سينين وسيناء اسمان للموضع الذي فيه الجبل . أمر الله بني اسرائيل على لسان موسى أن يعملوا بالتوراة ، فأبوا ، فرفع الجبل فوقهم تخويفاً ، حتى قبلوا . وقوله تعالى (بميثاقهم) المراد بنقض ميثاقهم الذي قطعوه على أنفسهم بأن يلتزموا بالدين ، ثم رجعوا عنه ، ولولا الجبل لم يعودوا اليه . اذن ، فلا عجب اذا تمردت اسرائيل على الأنظمة الدولية ورفضت قرارات الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن ، ونقضت جميع العهود والمواثيق مرات وكرات ، ولولا الخوف لم تقف عند حد .. لا عجب ولا غرابة ، انها تنسجم بذلك مع تاريخ أسلافها الذين رفع الله فوق رؤوسهم الطور كي يفوا بالعهد والميثاق .

(وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً) . مر تفسيره في الآية ٥٨ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ١٠٩ . (وقلنا لهم لا تعتدوا في السبت) . أيضاً مر تفسيره في سورة البقرة الآية ٦٦ ، المجلد الأول ص ١٢٠ .

فبما نقضهم ميثاقهم الآية ١٥٥ – ١٥٩ :

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ★ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ★ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا

اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً★ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْــهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً
حَكِيماً★ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِــهِ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً★

اللغة :

غلف جمع اغلف ، وهو المغطى بغلاف . والبهتان الكذب الذي يتحير فيه من شدته .

الاعراب :

ما في قوله : (فبما نقضهم) ، زائدة ، أي فبنقضهم ، والمجرور متعلق بمحذوف ، أي لعنّاهم . الا قليلاً منصوب على الاستثناء من ضمير يؤمنون ، ويجوز أن يكون صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي ايماناً قليلاً ، بمعنى النقص والضعف . وعيسى ابن مريم عطف بيان من المسيح ، والكلمات الثلاث عيسى وابن ومريم بمنزلة الكلمة الواحدة ، مثل لا رجل ظريف في الدار – هكذا جاء في مجمع البيان – ورسول الله صفة لعيسى . ولفــي شك منه (منه) متعلق بمحذوف صفة لشك ، أي لفي شك حادث منه ، ولا يجوز أن يتعلق بشك ، لأنه لا يقال : شككت منه ، وانما يقال : شككت فيه . وما لهم به من علم (ما) نافية ، ومن زائدة وعلم مبتدأ ، وما لهم متعلق بمحذوف خبر . واتباع الظن منصوب على الاستثناء المنقطع . ويقيناً منصوب على المصدرية ، أي تيقنوا يقيناً ، ويجوز أن يكون صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي قتلاً يقيناً . وان من أهل الكتاب (ان) نافية،ومن أهل الكتاب متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير ما أحد كائن من أهل الكتاب .

المعنى :

(فبما نقضهم ميثاقهم) . أي لعناهم بسبب نقضهم الميثاق الذي التزموا به ، وأبرموه على أنفسهم ، وهو أن يؤمنوا ويعملوا بما جاءهم به موسى (ع) .. ثم غيّروا وبدّلوا ، وحرّموا ما أحل الله ، وحللوا ما حرم . (وكفرهم بآيات الله) . وهي الحجج والدلائل على نبوة عيسى ومحمد (ص) . (وقتلهم الأنبياء بغير حق) كزكريا ويحيي بعد ان قامت الأدلة على نبوّتهما . (وقولهم قلوبنا غلف) . أي مغطاة لا يصل اليها شيء من دعوة محمد (ص) ، قالوا هذا للرسول الأعظم تيئيساً له من ايمانهم بنبوته ، واستجابتهم الى دعوته . (بل طبع الله عليها بكفرهم) . جملة معترضة بين المعطوفات ، جاءت للرد على قولهم : (قلوبنا غلف) والمعنى ليست قلوبكم غلفاً بطبيعتها ، وانما كفركم بمحمد وتماديكم في الغي والضلال هو الذي جعلها صلدة كالحجارة ، أو أشد قسوة .

وبعد ان بلغت قلوبهم مبلغاً لا تنفتح معه للحق بحال أصبحوا كمن خلقهم الله بلا قلوب ، وبهذا الاعتبار صحت نسبة الطبع عليها الى الله سبحانه . (أنظر تفسير الآية ٧ من صورة البقرة ، ج ١ ص ٥٣) . (فلا يؤمنون الا قليلاً) . كعبدالله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسد بن عبيد الله وغيرهم . (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) . كرر سبحانه نسبة الكفر الى اليهود ثلاث مرات : الأولى بمناسبة ذكره لجحودهم آيات الله وقتلهم الأنبياء . الثانية بمناسبة قولهم : قلوبنا غلف . الثالثة عند ذكره لقولهم على مريم المنكر الذي لا يقوله الا اليهود الذين تناصرهم أمريكا « المسيحية » وتزودهم بالسلاح ليعتدوا على القدس ، وينتهكوا الشعائر الدينية التي يقدسها المسيحيون والمسلمون ، بخاصة الكنائس ومقابر المسيحيين[1] .

(وقولهم انّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) . وصفوه برسول

---

١ أكتب هذه الكلمات يوم ٢٨-٤-١٩٦٨ ، واسرائيل تعتزم اقامة عرض عسكري كبير في مدينة القدس المحتلة يوم ٢-٥-٦٨ ، على الرغم من قرار مجلس الأمن اللذي أصدره بالاجماع على الغاء هذا العرض .

الله تهكماً به وبدعوته . (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . لما صمم اليهود على قتل السيد المسيح ألقى الله شبهه على أحد المجرمين المستحقين للقتل ، وقيل : ان هذا المجرم هو يهوذا الذي قاد الحملة ضد عيسى ، فأخذه اليهود، وعذبوه وصلبوه معتقدين انه السيد المسيح، وبعد الصلب فقدوا صاحبهم،فارتبكوا وتحيروا ، وقالوا : ان كان المصلوب عيسى فأين صاحبنا ؟ وان كان المصلوب صاحبنا فأين عيسى ؟.

(وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه) . اختلف اليهود والنصارى في السيد المسيح (ع) ، ووقفوا منه موقفين متناقضين ، فقال اليهود : هو ابن زنا . وقال النصارى هو ابن الله . وأيضاً قال اليهود : صلبناه ، ودفن تحت الأرض الى غير رجعة . وقال النصارى : انه صُلب ودُفن ، ولكنه قام من تحت التراب ، ورجع الى الدنيا بعد ثلاثة أيام .. فرد الله سبحانه على الجميع بقوله: (ما لهم به من علم الا اتباع الظن) . والظن لا يغني عن الحق شيئاً ، والحق اليقين الذي لا ريب فيه هو ما أنبأنا الله به في قوله : (وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه) . هذه هي الحقيقة رفعٌ الى الله تعالى ، لا قتل ولا صلب .

وهنا تتوارد الأسئلة : كيف حصل الرفع ؟ ومتى ؟ قبل صلب الشبيه ، أو بعده ؟ وهل الرفع كان بالروح فقط ، أو بها وبالجسد ؟ وهل رفع الى السماء الثانية أو الثالثة ، أو غيرها ؟ وماذا يصنع هناك ؟ وهل ينزل قبيل الساعة الى الأرض؟ الى غير ذلك من الأسئلة التي أجاب عنها القصاصون بما يشبه الأساطير.

والقرآن الكريم لم يتعرض لشيء من ذلك من قريب أو بعيد ، وكل ما دلت عليه آياته ان السيد المسيح لم يُقتل ولم يُصلب ، وان الله رفعه اليه ، وان الذي قُتل أو صُلب شخص آخر ، تخيل القتلة انه المسيح ، ولا شيء في القرآن أكثر من ذلك ، ونحن لا نخرج عن نصوصه في مثل هذا الموضوع إلا بحديث متواتر.. بل لا نهتم بهذه الأسئلة وأجوبتها ما دمنا غير مسؤولين عنها ، ولا مكلفين بها. وسبق أن تعرضنا لما قيل في المسيح عند تفسير الآية ٥٨ من سورة آل عمران، فقرة الاختلاف في عيسى .

وللتفكيه ننقل هذه الاسطورة عن بعض التفاسير ، تقول الاسطورة : ان الله

رفع عيسى اليه ، وكساه حلة من نور ، وأنبت له جناحين من ريش ، ومنعه من الطعام والشراب ، وصيره من الملائكة يطير معهم حول العرش ، وجعل فيه طبيعتين : ناسوتية ، وملائكية ..

(وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) . أي ما أحـــد من أهل الكتاب الا ويؤمن بعيسى قبل أن يموت ذلك الاحد من أهل الكتاب ، فضمـير به يعود على عيسى ، وضمير موته يعود على أحد ، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى .. وقد جاء في بعض الروايات ان كل انسان عندمـــا يعاني سكرة الموت ينكشف له الحق عما كان يعتقده في دار الدنيا ، وهذه الآية تشهد بالصحة لتلك الروايات ، حيث دلت بظاهرها على ان كل كتابي يهودياً كان أو نصرانياً لا بد أن يؤمن ايماناً صحيحاً بعيسى بعد سكرة الموت ، فاليهودي الـذي كان يقول عن عيسى : انـــه ساحر وابن فاعلة يعدل عن ذلك ، ويؤمن بأنـه نبي مرسل ، وان امه صدّيقة ، والنصراني الذي كان يقول : انه ابن الله ، وثالث ثلاثة يؤمن بأنه عبد من عباد الله المخلصين .

وليس هذا بمحال في نظر العقل ، وقد أخبر به الوحي ، وكل ما أخبر به الوحي ،ولم ينكره العقل وجب التصديق به على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ، أما من لا يؤمن إلا بمـــا يقع تحت المجهر فلا يصدق – قطعاً – وعليه أن لا يصدق من يقول له : لك عقل وروح ووعي وعاطفة .. لأنهـا لا تقع تحت المجهر ، ولا تنالها المعدات والآلات بالاختبار والتحليل ، وصدق من قـــال : من فقد الايمان بالله فقد نفسه .

وتسأل : وأية جدوى من الإخبار بأن الحق ينكشف لأهل الكتاب عند سكرة الموت ، مع العلم أنهم في هذه الحال يعجزون عن ادراك ما فات ؟.

الجواب : الغرض من ذلك هو الحث على المبادرة الى تصحيح ايمانهم قبـــل أن تجتمع عليهم حسرة الفوت وسكرة الموت ، تماماً كالغرض من الإخبار عن الجنة والنار .

(ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) . يشهد غداً عيسى (ع) عـلى اليهود بأنهم ناصبوه العداء كفراً وعناداً لما جاءهم به من الله ، ويشهد عـلى النصارى

بأنهم غالوا فيه غلواً تجاوزوا ما أمرهم به من عبادة الله وحده ، « ما قلت لهم إلا ما أمرتني بـــه ان اعبدوا لله ربي وربكم – ١١٧ المائدة .. وكل نبي ، وطليعتهم محمد (ص) ، يشهد على من زاغ وانحرف من أمته عما جاءهم بـــه وبلّغهم اياه . « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك على هؤلاء شهيداً – ٨٩ النحل » .

فبظلم من الذين هادوا الآية ١٦٠ – ١٦٢ :

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً★ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَــذَاباً أَلِيماً★ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَـا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَــوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً★

الإعراب :

فبظلمهم وبصدهم متعلقان بحرمنا . وكثيراً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي صداً كثيراً . وقـــد نهوا عنه الجملة حال . وفي العلم متعلق « بالراسخون » . ومنهم متعلق بمحذوف حال من الضمير في « الراسخون » . والمقيمـين منصوب بفعل محذوف ، أي أعني أو أمدح المقيمين الصلاة ، وقـــال قائل : هذا من خطأ الكُتَّاب . ويرده ان الأئمة والقراء والعلماء لا يقرون أمة محمد (ص) على الخطأ في غير كتابة القرآن ، فكيف في كتابته ؟.

أجل ، يتجه هذا السؤال : لماذا نصب المقيمين الصلاة على المدح ، دون غيرها من المعطوفات ؟.

ونجيب : قد يكون ذلك لابراز قيمة الصلاة وعظمتها ، وانها عمود الدين والايمان ، اذا قبلت قُبل ما سواها ، وإذا رُدت رُد سواها . والصلاة مفعول للمقيمين . والمؤتون الزكاة خبر مبتدأ محذوف ، أي وهم المؤتون الزكاة .

المعنى :

(فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً) . ما زال الكلام عن اليهود وقبائحهم ، فقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة وقاحتهم بطلبهم رؤية الله جهرة ، وعبادتهم العجل ، واعتداءهم في السبت ، ونقضهم الميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء ، وقولهم قلوبنا غلف ، وافتراءهم على مريم ، وتبجحهم بقتل المسيح .. وذكر هنا صدهم عن سبيل الله،وأكلهم الربا والرشوة ، وانه سبحانه بسبب هذه القبائح والفضائح حرم عليهم في الدنيا بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم ولغيرهم .

(وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) . معطوف على بظلم من الذين هادوا . وقيل : ان اليهود أول من سنّ الربا وشرّع تحليله ، وتكلمنا عنه مفصلاً عند تفسير الآية ٢٧٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٣٣ . (وأكلهم أموال الناس بالباطل) . كالرشوة وغيرها من الوجوه المحرمة ، وقد وصفهم سبحانه في الآية ٤٢ من سورة المائدة بأنهم : « سماعون للكذب أكالون للسحت » . أما الطيبات التي حرمها عليهم فهي التي أشار اليها سبحانه بقوله : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانّا لصادقون » ١٤٦ الأنعام .

واذا قارنا بين سيرة اليهود منذ القديم،بخاصة في عهد موسى وعيسى ومحمد، وبين وسائلهم وطرائقهم اليوم لم نجد أي فرق بين يهود الأمس ويهود اليوم ، من حيث الضلال والفساد ، والعداء للانسانية وقيمها ، وعدم الخضوع الا (للطور) يُرفع فوق رؤوسهم.. وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان الشر

طبع أصيل في اليهود ، وجبلة لا تنفك عنهم ، ولا ينفكون عنها ، مهما تغيرت الأزمان ، وتطورت الأحوال ، تماماً كما لا ينفك اللدغ عن طبع العقارب ، ونفث السموم عن جبلة الأفاعي ، واذا وجد في كل انسان استعداد للخير والشر فان طبيعة اليهود متمحضة للشر وحده . واذا وجد منهم بين الحين والحين من يعرف الحق ، ويعمل به فانه قليل نادر ، والنادر لا ينقض القاعدة، بل يكرسها، وقد استثنى سبحانه هذه القلة بقوله :

(لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) . الراسخون في العلم هم العلماء العاملون بعلمهم ، لا المحيطون بما دوّن في الكتب ، والمحققون المدققون في أبحاثهم ونظرياتهم ، وان لم يعملوا – كما يتوهم – . وقد استوحينا هذا المعنى من قول علي أمير المؤمنين (ع) : « العلم يهتف بالعمل ، فان أجابه والا ارتحل عنه » .

وتسأل : ان الله سبحانه عطف (المؤمنون) على (الراسخون في العلم) وأخبر انهما معاً يؤمنون بالقرآن والتوراة والانجيل ، وهذا الإخبار يصح بالنسبة الى الراسخين في العلم من اليهود ، ولا يصح بالنسبة الى المؤمنين بمحمد (ص)، لأن معناه على هذا ان المؤمنين يؤمنون ، وهو أشبه بقول القائل : الواقفون يقفون ، والنائمون ينامون ، والقرآن منزه عن مثله ، فما هو التأويل ؟.

الجواب : ان هذا السؤال أو الإشكال انما يتجه لو فسرنا المؤمنين في الآية بالمؤمنين من صحابة الرسول من غير أهل الكتاب ، كما فعل صاحب مجمع البيان ، ولم يمنعه الرازي وصاحب المنار وأكثر المفسرين .. أما اذا فسرنا المؤمنين باليهود المقلدين للراسخين في العلم منهم فلا يتجه السؤال ، اذ يكون المعنى ان الراسخين في العلم من اليهود والآخذين بأقوالهم من أهل ملتهم يؤمنون بالقرآن والتوراة والانجيل ، أولئك يؤمنون استدلالاً ، وهؤلاء يؤمنون تقليداً . ونحن نميل الى هذا التفسير : ونرجحه على الأول .

(والمقيمين الصلاة) . وقد كثر الكلام حول نصب المقيمين ، حتى روي عن عثمان وعائشة انه لحن ، وأبطل الرازي ذلك بقوله : « ان المصحف منقول بالتواتر عن رسول الله (ص) فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه » . والصحيح انه

منصوب على المدح ، أي أمدح المقيمين الصلاة،والغرض الايماء الى فضل الصلاة وخطرها ، كما ذكرنا في فقرة اللغة . (والمؤتون الزكاة) خبر لمبتدأ محذوف ، أي وهم المؤتون الزكاة ، والمعنى ان المصلين الذين يستحقون المدح هم الذين يقرنون اقامة الصلاة بايتاء الزكاة . (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) عطف على (المؤتون الزكاة) . أما جزاء الجميع فقد أشار اليه بقوله : (أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً) .

انا أوحينا اليك الآية ١٦٣ – ١٦٦ :

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنَ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَرُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً★ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً★ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً★ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً★

اللغة :

الزبور الكتاب ، على وزن فعول بمعنى مفعول ، أي مكتوب .

الاعراب :

كما أوحينا الكاف بمعنى مثل نعت لمفعول مطلق محذوف ، أي وحياً مثل الذي أوحينا . ورسلاً الأولى مفعول لفعل محذوف ، تقديره وقصصنا رسلاً ، ومثلها رسلاً مبشرين ، أي أرسلنا رسلاً مبشرين ، ويجوز أن تكون بدلاً من رسل المتقدمة . ومبشرين حال من رسل ، ويجوز أن يكون صاحب الحال نكرة في بعض الموارد، كما في الآية لأنه مفيد. والمصدر المنسبك من لئلا يكون متعلق بالفعل المحذوف ، وهو أرسلنا . وحجة اسم كان ، وللناس متعلق بمحذوف خبرها ، وعلى الله متعلق بمحذوف حالاً من حجة . وبعلمه متعلق بمحذوف حالاً من هاء أنزله .

المعنى :

(إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبوراً) . الأسباط واحدها سبط ، وسبط الرجل ولد ولده، والمراد بالأسباط هنا الاثنا عشر سبطاً من اثني عشر ابناً ليعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، والزبور الكتاب بمعنى المكتوب ، والمراد بالوحي الى الأسباط الوحي الى الأنبياء منهم ، لا الوحي اليهم جميعاً .

وهذه الآية وما بعدها تتصل بالآيات السابقة ، ووجه الصلة ان الله سبحانه حكى فيما تقدم عن أهل الكتاب انهم يؤمنون بفكرة النبوة من حيث هي ، ويعترفون بأن لله رسلا ، ولكنهم لا يعترفون بهم جميعاً ، بل يؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض ، ومحمد من هذا البعض الذين كفروا بنبوتهم ، وبيّن سبحانه هناك ان من كفر بنبوة واحد من أنبيائه فهو كمن كفر بالله ، وان الايمان الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وملائكته وجميع كتبه ورسله .

ثم قرر سبحانه في الآية التي نفسرها وما بعدها ان من اعترف بمبدأ النبوة من حيث هو ، وآمن بنبوة واحد كائناً من كان يلزمه قهراً ان يؤمن بنبوة

محمد (ص) ، لأن الله سبحانه قد أوحى اليه كما أوحى الى غيره من الأنبياء ، وأظهر على يـده المعجزات كما أظهر على يد غيره « وما حصل به الاتفاق لا يكون سبباً للافتراق » ومن جزأ وفرق فقد فرق بين الشيء ونفسه .

(ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك) . بعد أن ذكر سبحانه جملة من أسماء الرسل في الآية السابقة قال لنبيه الأكرم: وهناك أيضاً غير هؤلاء من الرسل قصصنا عليك البعض منهم قبل تنزيل هذه السورة ، والبعض الآخر لم نقصصهم عليك .. وجاء في تفسير المنار ان أجمع الآيات لأسماء الأنبياء الآية ٨٤ من سورة الانعام : « ووهبنا له اسحق ويعقوب كلاً هدينـا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين » . ومنهم هود وصالح وشعيب، وهم من العرب »

قال سبحانه : (ورسلاً لم نقصصهم عليك) دون أن يشير الى عدد الذين لم يذكرهم لنبيه ، ولكن أهل الفضول أبوا الا الاحصاء ، وهم فيه بين إفراط وتفريط ، فمن قائل : ثلاثمئة وثلاثة عشر . وقائل : ألف ألف وأربعمئة وأربعة وعشرون ألفاً . وثالث : ثمانية آلاف نصفهم من بني اسرائيـل . ورابع : مئة وأربعة وعشرون ألفاً . وكل هذه الأقوال وغيرها رجم بالغيب ، والصحيح ان الله أعلم بعدتهم وهويتهم .

هل الأنبياء كلهم شرقيون ؟

وهنا تساؤل يعرض لكل انسان ، وهو : هل الأنبياء كلهم شرقيون ، ولا غربي واحد منهم ؟. وإذا كانوا كلهم من الشرق ، فهل فيهم من الصـين واليابان والهند ، وما اليها من بلاد الشرق الأقصى ؟. ثم على فرض ان جميع الأنبياء شرقيون ، فكيف نجمع بين هذا ، وبين المبدأ القائل : ان الله لا يترك الناس سدى ، وان حكمته ورحمته تقتضي أن يرسل اليهم جميعاً رسلاً «مبشرين

ومنذرين ، يُذكرونهم ويبصرونهم لئلا يكون لهم على الله حجه ؟ وهل يقبل هذا المبدأ التخصيص بشعب ، دون شعب ، وبجنس ، دون جنس ؟.

الجواب : ان هذا المبدأ الذي يقول : ان الله لا يترك الناس سدى ، وانه لا بد أن يلقي الحجة عليهم قبل الحساب والعقاب هو مبدأ عام لا يقبل التخصيص بأرض شرقية ، ولا غربيـة ، ولا بجنس أبيض أو أصفر أو أسود .. ولكن الحجة لا تنحصر بوجود النبي بذاته في كل بلد ، وفي كل جيل ، بل تكون به ، أو بكتاب منزل ، أو بشريعة إلهية يقوم عليها نواب عن النبي ، حتى اذا توفاه الله بقيت الحجة من بعده قائمة بين الناس ، قال أمير المؤمنين (ع) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة : « لم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل ، أو كتاب منزل ، أو حجة لازمة ، أو محجة قائمة » . والحجة النائب عن النبي ، والمحجة الشريعة التي أتى بها من عند الله ، فكل واحد من هذه الأربعة منفرداً أو منضماً الى نظيره تقوم به الحجة لله على الناس .

وبهذا نجد تفسير الآية ٣٦ من سورة النحل: « ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » . والآية ٣٥ من سورة فاطر : « وان من أمة إلا خلا فيها نذير » . والآية ٤١ من النساء : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » . فالمراد بالرسول في الآية الأولى ، وبالنذير في الثانية ، وبالشهيد في الثالثة — واحد من الأربعة : الرسول بشخصه أو نائبه أو الكتاب المنزل أو الشريعة القائمة ، ومعلوم ان الثلاثة الأخيرة تنتهي الى النبي ، ولهذا صح اسناد الشهادة وما اليها الى النبي .

وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو : لماذا لم تذكر العقل مع ما ذكرت من الحجج ، مع ان الله يحتج به كما يحتج بالنبي ؟.

الجواب : ان العقل حجة ما في ذلك ريب ، ولكنه حجة مستقلة في معرفة وجود الله ، أما فيما عداها كمعرفة اليوم الآخر ، وحلال الله وحرامه فانه يحتاج الى موقظ ومنبه يرشده اليها ، ويرسم له المنهج الصحيح لادراكها ، فوظيفـة العقل في هذا الميدان الذي نحن بصدده هي أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول من موجبات الإيمان ، ودلائل الهدى الى خير الدنيا والآخرة، ومتى فهم عن الرسول أقر وأذعن من غير تردد .

وبعد هذا التمهيد الذي لا بد منه لمعرفة موضوعنا نعود الى السؤال : هل كل الأنبياء شرقيون ؟ ونجيب : كلا ، واذا لم تصل الينا أخبار المرسلين لأمم الغرب ، وبعض أمم الشرق فليس معنى هذا ان الله لم يرسل اليهم أحداً منهم.. وأيضاً ليس من الضروري لالقاء الحجة على أهل الغرب أن يكون الرسول منهم وفيهم ، بل قد يكون شرقياً ، ومع ذلك تعم رسالته الشرق والغرب ، ويكون التبليغ بواسطة خلفائه والمندوبين عنه أو عنهم ، كما هو الشأن في محمد (ص) الذي خاطبه الله بقوله : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٢٨ سبأ » . وبقوله : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين - ١٠٧ الأنبياء »

وقد أشارت بعض الكتب الدينية الموغلة في القدم الى ان رسالة محمد (ص) عامة وانها رحمة للعالمين ، وفوق ذلك ذكرت اسم أبي لهب بالحرف ونصبه العداء لرسول الله (ص) ، قال عبد الحق فدياري في كتاب محمد في الأسفار الدينية العالمية :

« ان اسم الرسول العربي مكتوب بلفظه العربي احمد في « السامافيدا » من كتب البراهمة . وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ، ونصها ان أحمد تلقى الشريعة من ربه ، وهي مملوءة بالحكمة .. وان وصف الكعبة ثابت في كتاب « الآثار فافيدا » وانه قد جاء في كتاب « زندافستا » الذي اشتهر باسم الكتاب المقدس في المجوسية، جاء الإخبار عن نبي يوصف بأنه رحمة للعالمين يدعو الى إله واحد لم يكن له كفؤاً أحد ، ويتصدى له عدو يسمى أبو لهب »[١] .

ومحال أن يصدر هذا الإخبار من غير الخالق .. انه وحي من الله الى نبي من أنبيائه ، ما في ذلك ريب .. وإلا فمن الذي يتنبأ ويصدق في نبؤته انه بعد آلاف السنين أو مئاتها يوجد رجل يسمى أحمد ، ويدعو الى عبادة الواحد الأحد،

---

١ كتاب محمد في الاسفار العالمية مطبوع باللغة الانكليزية ، ونقل عنه العقاد في كتاب العبقريات الإسلامية تحت عنوان الطوالع والنبوات ، ونقلنا نحن عن العقاد .

ويتصدى له عدو ، اسمه أبو لهب ؟... ان في هذا الاخبار دلالة واضحة صادقة على أمرين: الأول صدق محمد في نبوته ، وعموم رسالته . الثاني ان الله سبحانه قد أرسل في القديم البعيد انبياء لم نسمع بهم ولا بقصصهم . ثم ما يدرينا ان الذين نقرأ أو نسمع عنهم باسم الحكماء كانوا من الأنبياء ، وان تعاليمهم كلها أو جلها قد دَرست أو حرفت ؟.

وبعد ، فان بعثة الأنبياء للشرق والغرب موضوع هام، ويتسع لكتاب مستقل، أما هـذه المناسبة ، وهي تفسير قوله تعالى : « ورسلاً لم نقصصهم عليك » فانها لا تتسع لأكثر مما ذكرنا ، وربما تجاوزنا ، ونرجو الله سبحانه أن يتيح لهذا الموضوع العلمي النافع من يتمتع بالعلم والصبر على البحث والتنقيب .

(وكلم الله موسى تكليماً) . م يذكر الله سبحانه موسى مع من ذكر من الأنبياء في الآية،وأفرد له هذه الجملة ، لأنه تعالى قد خصه بالتكليم من دونهم، مع العلم ان الجميع قد تلقوا كلامه جل وعلا ، ولكن لتلقي لهذا الكلام صوراً ذكرها جلت كلمته في الآية ٥١ من الشورى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً » .. اذن تكلم موسى كان من وراء حجاب .. ولكن لا يعلم أحد طبيعة هذا الحجاب ، وكيف تم ، وقد سكت الله عن ذلك ، فنسكت نحن عما سكت الله عنه ، وعلى أية حال فان تخصيص موسى بالتكليم لا ينقص من مكانة سائر الأنبياء ، ولا يدل على انه أفضل وأكمل ، كلا ، فان ارسال الروح الأمين الى خاتم النبين هو أعلى المراتب وأكملها .

(رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . ان قاعدة لا عقاب بلا بيان كما يعبر الفقهاء ، أو لا عقوبة بلا نص كما يقول أهل الشرائع الوضعية ، ان هـذه واضحة بذاتها لا تحتاج الى دليل ، بل هي دليل على غيرها .. وحيث ان الله سبحانه لم يترك الانسان سدى ، بل أمره ونهاه ، ولا بد من ابلاغه الأمر والنهي ، حتى تقوم عليه الحجة لو خالف ، والا كانت الحجة له فيما لا يُعرف إلا بالوحي ، وحيث ان الرسل وسطاء بين الله وخلقه في تبليغ أحكامه ووعده ووعيده ، لذلك أرسل الله مبشرين ومنذرين

لئلا يدع مجالاً لاعتذارات وتعلات : « ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله – أي من قبل البيان – لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزي – ١٣٤ طه » . وتكلمنا عن قاعدة قبح العقاب بلا بيان في ج ١ ص ٢٤٧ .

(ولكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً) . الشهادة تكون بالأقوال ، وتكون بالأفعال ، كشهادة الكون بوجود المكون وقدرته ، وشهادة البذل بكرم الباذل وجوده ، وشهادة الاقدام بشجاعة المقدِم وبأسه ، وهذه الشهادة أدل وأقوى من شهادة الأقوال التي يتطرق اليها الشك والريب .

ومن الشهادة بالأفعال شهادة الله لمحمد (ص)،حيث زوده بالدلائل والمعجزات على صدقه ، ومنها القرآن الكريم الذي أنزله الله عليه بعلمه ، ومعنى (بعلمه) ان القرآن من علم الله ، لا من علم المخلوقين الذي هو عرضة للأخطاء والأهواء، أما شهادة الملائكة فانها تبع لشهادة الله التي تغني عن كل شهادة ، ولذا قال تعالى : « وكفى بالله شهيداً » .

وبعد ، فما من أحد الا ويود لو صدّقه الناس فيما يقول ، ولكن العاقل لا يهتم اطلاقاً ان كُذّب ورُدّت عليه أقواله ، .ما دام على يقين من صدقه .. وهذا ما تهدف اليه الآية ، فكأن الله سبحانه يقول لنبيه : لا يهمك تكذيب من كذّب بنبوتك ، واعراض من أعرض عن دعوتك ، ما دمت عندي صادقاً مصدقاً .. فهذه الآية تهدف الى ما تهدف اليه الآية ٨ من فاطر : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون » .

كفروا وصدوا عن سبيل الله الآية ١٦٧ – ١٧٠ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً★ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً★

إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً★ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً★

الاعراب :

لم يكن الله ليغفر لهم خبر كان محذوف أي لم يكن مريداً ليغفر لهم،والا طريق جهنم نصب على الاستثناء المتصل من الطريق التي وقعت نكرة في سياق النفي . خالدين حال . وخيراً خبر كان المحذوفة مع اسمها ، أي يكن الإيمان خيراً ، وقيل مفعول لفعل محذوف ، أي وآتوا خيراً .

المعنى :

(ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً) . قال الرازي وغيره من المفسرين : هذه الأوصاف تنطبق على اليهود ، لأنهم كفروا بالإسلام ، وصدوا غيرهم عنه بالقاء الشبهات في قلوب البسطاء .

(ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً الا طريق جهنم خالدين فيها أبداً) . يرى بعض المفسرين ان الآية الأولى مختصة باليهود، وهذه بالمشركين،وان اليهود قد صدوا عن الإسلام بإلقاء الشبهات، وان المشركين صدوا عنه بالظلم ، حيث أعلنوا الحرب على محمد (ص) ، ودارت بينه وبينهم المعارك أكثر من مرة ، ولا يغفر الله لهم ولا لغيرهم ما داموا على الضلال ، ولا يرشدهم في الآخرة الا الى طريق جهنم ، لأنهم في الدنيا سلكوا طريق الضلالة ، وانحرفوا عن طريق الهداية رغم الإنذار والإخطار . وقوله أبداً دليل على خلودهم في النار ، وعدم انقطاع العذاب عنهم ، ولولا لفظ التأبيد لكان لفظ الخلود محتملاً للدوام والاستمرار ، ولطول أمد المكث في جهنم .

(يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم) . المراد بالرسول محمد (ص) ، والنداء عام لكل انسان في كل زمان ومكان ، لأن الإيمان برسالة محمد ودعوته ايمان بالحق ، ووجوب الايمان بالحق لا يختص بفرد ، دون فرد ، ولا بوقت دون وقت ، وقوله تعالى : (بالحق من ربكم) يشعر بأن الإسلام لا يقر أي سلطان الا سلطان الحق ، فمن أعطاه الطاعة فهو عند الله من المقربين ، ومن عصى (فان لله ما في السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً) . لا تخفى عليه طاعة من أطاع ، ولا معصية من عصى ، وقضت حكمته ان يجازي كلاً بما يستحقه من الثواب والعقاب .

لا تغلوا في دينكم الآية ١٧١ - ١٧٣ :

يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلى اللهِ إلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً★ لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلهِ وَلَا المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً★ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً★

اللغة :

الغلو مجاوزة الحد . والاستنكاف الامتناع عن الشيء أنفة وكبراً . والاستكبار أن يجعل الانسان نفسه كبيرة فوق ما هي عليه .

الإعراب :

المسيح مبتدأ . وعيسى عطف بيان . ورسول الله خبر . وكلمته عطف على الرسول . وجملة ألقاها حال . وثلاثة خبر لمبتدأ محذوف ، أي آلهتنا ثلاثة . وخيراً مفعول لفعل محذوف ، أي وقولوا خيراً . والمصدر المنسبك من أن يكون مجرور بمن محذوفه،والمجرور متعلق بسبحانه،وجميعاً حال من ضمير فسيحشرهم .

المعنى :

لا نعرف ديناً أكّد وتشدد في عقيدة التوحيد كالإسلام ، فلا شبيه ولا ند لله ، ولا حلول ولا اتحاد « ليس كمثله شيء » هذا هو الأساس الذي ترتكز عليه عقيدة الاسلام ، ومن الطريف قول من قال : « إذا كان الله قادراً على كل شيء فينبغي أن يكون قادراً على أن يخلق إلهاً مثله ؟.. ووجه الطرافة أو الغرابة في هذا القول انه يجمع بين صفة الخالق والمخلوق ، والعابد والمعبود في ذات واحدة، وبديهة ان المخلوق لا يكون إلهاً خالقاً .. اللهم الا عند من قال: ان في المسيح طبيعتين : لاهوتية وناسوتية . وتكلمنا عما قيل في السيد المسيح عند تفسير الآية ٥٨ من سورة آل عمران ، وعن التوحيد ونفي الشريك والأقانيم الثلاثة عند تفسير الآية ٥٠ من سورة النساء التي ما زلنا معها في التفسير،وتكلمنا عن الغلو عند تفسير الآية ١٢٨ من سورة آل عمران ، ونعود ثانية الى هذا الموضوع لقوله تعالى :

(يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق) . قال كلٌ من اليهود والنصارى قولاً تجاوزوا فيه الحق .. فاليهود أنزلوه الى الحضيض،

والنصارى رفعوه الى الالوهية ، وقال المسلمون فيه ما قاله القرآن ، وهو قول وسط بين القولين ، وكان الخطاب في الآيات السابقة موجهاً الى اليهود ، وهو في هذه الآيات موجه الى النصارى بدليل قوله تعالى : (ولا تقولو ثلاثة) وهذا هو الغلو في الدين ، والقول على الله بالباطل ، لأنه تعالى منزه عن الشريك والشبيه ، والحلول والاتحاد ، والولد والصاحبة .

القرآن والمبشرون بالتثليث :

(انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه). هذه هي حقيقة عيسى، وبها قال المسلمون .. رسول الله ، وكفى تماماً كابراهيم وموسى ومحمد وسائر الأنبياء .. ووقفنا مع المبشرين بالمسيحية في مكان سابق من هذا التفسير ، ونقف معهم الآن عند تفسير هذه الآية ، لأن لهم قصة معها ، ستعرفها مما يلي ، ونبدأ الحديث بالسؤال ، كعادتنا في ارادة الايضاح ، ليمضي القارىء معنا الى النهاية من غير سأم أو ملل .

سؤال : كيف يكون عيسى كغيره من الأنبياء ، وقد ولدوا جميعاً من آبائهم ، وولد هو من غير أب خارقاً لما هو مألوف ومعروف ؟.

وتولى سبحانه بنفسه الاجابة عن هذا السؤال ، وأوجزه بهذا الايجاز الرائع : (وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) . ومعناه بضرب من الشرح والتفصيل ان قول النصارى : وُلد عيسى من غير أب قول صحيح ، وصحيح أيضاً قولهم : ان هذا يخالف المألوف .. ولكن الخطأ الجسيم في قولهم : ان هذه المخالفة دليل على ربوبية عيسى .. ووجه الخطأ انه لا ملازمة بين عدم الابوة ، وبين وجود الربوبية، وإلا فانه يلزم ان يكون آدم رباً ، بل هو أولى بالربوبية من عيسى – على منطقهم – لأنه خلق من غير أب وأم ، وعيسى تولد من امه مريم .. هذا ، الى ان خرق العادات ليس بعزيز ، فقد كانت النار برداً وسلاماً على ابراهيم ، فينبغي أن يكون رباً ، لأن ما حصل مخالف للمألوف .

ثم هل يكثر على من خلق الكون العجيب من لا شيء، خلقه بكلمة واحدة ، وهي (كن فيكون) ، هل يكثر عليه أن يخلق بهذه الكلمة رجلاً من غير

أب ؟ هل خلْقُ عيسى (ع) أعظم من خلق السموات والأرض ؟ : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون – ٥٧ غافر » .. فكلمة (كن فيكون) هي نفس الكلمة التي أطلقها الله على عبده عيسى في قوله : (وكلمته ألقاها الى مريم) ومعنى إلقائها الى مريم ان الله أعلمها على لسان ملائكته بهذا المولود : « اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح ابن مريم – ٤٥ المائدة » . فالكلمة هنا هي الكلمة هناك .

أما الروح التي نعت بها سبحانه عيسى في هذه الآية وغيرها فالمراد بها الحياة التي لا مصدر لها الا هو جل ثناؤه ، وان الله سبحانه قد وهبها لعيسى ، كما وهبها لطينة آدم : « اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي – ٧١ ص » . فالروح في طينة آدم هي الروح في رحم مريم . فما يقال في تلك يقال في هذه ، والفرق تحكُّم .

وحاول المبشرون من رجال الكنيسة أن يوهموا من لا علم نه بالكتاب وأسرار اللغة ان قوله تعالى : (وكلمته وروح منه) هو حجة لهم لا ردّ عليهم بعد أن فسروا كلمة الله وروح الله بالمعنى المساوي لله وصفاته ، لا بأثر من آثار قدرته وعظمته ، كما هو الحق .. ولو جاءت (كلمة الله وروح الله) في سياق آخر لحملنا المبشرين في تفسيرهم الخاطىء على غير المكر والخداع .. ولكن المبشرين قد انتزعوا الكلمتين – بسوء نية – من بين نهيين : أحدهما نهي عن الغلو في السيد المسيح (ع) ، وثانيهما نهي عن القول بالتثليث ، ونسبة الولد اليه تعالى ، ثم فسروا الكلمتين بما يتفق مع أغراضهم ومقاصدهم ، كما لو جاءتا في قاموس من قواميس اللغة .. ولا معنى لهذا الا التدليس والتلبيس .

ونعيد الآية بمجموعها احترازاً من غفلة القارىء عنها : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله غير الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم انما الله إله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً) .

فهل بعد هذا النص مبرر لتفسير كلمة الله وروح الله بذاته وصفاتــه ؟ بل لا مبرر لهذا التفسير ، حتى ولو جاءت الكلمتان في القرآن منفردتين مستقلتين، لا يسوغ هذا التفسير بوجه من الوجوه ، مع نسبتها الى القرآن الذي قال بلسان مبين : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ــ ٧٣ المائدة » . أبعد هذا التكفير الصريح يقال : ان القرآن يؤيد النصارى في قولهم : المسيح هـو الله ، أو ابن الله ، أو فيه صفة من صفات الله ؟ وإذا كان القرآن حجة في بعض آياته أو كلماته فيجب أن يكون حجة أيضاً في قوله : (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) . وفي قوله : (يا أهل الكتاب لمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون)[١] واذا لم يكن القرآن حجة في قوله هـذا فيجب أن لا يكون حجة في غيره ... أما الايمــان بالجميع ، واما الكفر بالجميع ، والتفليك خداع وتدليس .

لقد أساء المبشرون أو الكثير منهم الى السيد المسيح ، والى أنفسهم ، أساءوا بالتحريف والتزييف الذي ذكرنا منه كلمتين على سبيل المثال ، دون الحصر .. ولنفترض ان رجلاً عادياً انخدع لهم ، فهل يكون هذا ربحاً للمسيح والمسيحية ؟ وماذا تكون النتيجة لو انكشف له الغطاء ، كما انكشف تطوعهم لصالح جهـة معينة ، ولم يُجدهم التستر باسم التبشير ، والدعوة الى الصلاة والتكبير .

(لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) . لأنـه لا طريق لهم الى ثواب الله ، والنجاة من عذابه إلا الاخلاص في العبودية له وحده. (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً) . وهناك ينتظرهم العذاب الأليم . ولا شيء عندنا لتفسير قوله تعالى : (فأما الذين آمنـوا وعملوا الصالحات الى آخر الآية ، لأنها أوضح من أن تُفسر .. حتى قولي : وهنـاك

---

١ وأغرب مـا قرأت قول بعض المبشرين والمستشرقين : ان محمداً أخـذ تعاليمه من الانجيل والاحبار ، ونسأل هؤلاء : هل أخـذ محمد هاتين الآيتين ، ومـا اليهما من الآيات والأحـاديث التي كفرت النصارى ، ونعت عليهم مـا اعتقدوا ومـا حرفوا من دين السيد المسيح (ع) ، هل أخـذ محمد هـذه التعـاليم من الانجيل ورجـالات الكنيسة في عصره ؟.. إذن ، يكون هـذا اعترافاً منهـم بالكفر عـلى أنفسهم ..

ينتظرهم العذاب الأليم قلته لمجرد الاستهلاك وملء الفراغ ، كما لاحظ القارىء.. وهكذا فعل غيري من أهل التفاسير ، قال شيخهم الطبري : « لن يستنكف يعني لن يأنف... ومن يستنكف يعني من يتعاظم » . وقال فيلسوفهم الرازي: « لن يستنكف قال الزجاج: أي لن يأنف .. ومن يستنكف المعنى من استنكف». إلى آخر الآية ١٧٣ .. ومثله كثير ، وهو ما عناه الشاعر بقوله : (وفسر الماء بعد الجهد بالماء) .

وقد فعلوه عن علم وعمد ، لا لشيء إلا لأن مفسر القرآن الكريم يجب - بزعمهم - أن يفسر كل ما جاء فيه ، وان كان واضحاً ذاهلين عما قالوه في تفسير قوله تعالى : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات » وان المحكمات هي الواضحات ، وان توضيحها من أشكل المشكلات.

قد جاءكم برهان الآية ١٧٤ - ١٧٥ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً★ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً★

اللغة :

البرهان الحجة . والمراد بالنور هنا القرآن . والاعتصام بالله الامتناع به من المكروه .. والمراد بالصراط المستقيم الدين القويم .

الإعراب :

صراطاً مفعول ثانٍ ليهديهم ، لأنها بمعنى يُعرفهم . واليه متعلق بمستقيم ،

لا بيهديهم ، أو بمحذوف حالاً من الصراط ، والمعنى يهديهم الله صراطاً مؤدياً اليه تعالى .

المعنى :

(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) . تعرضت الآيات السابقة لمحاجة اليهود والنصارى ، وبعد أن أقام سبحانه الحجة على الجميع دعا الناس عامة الى الإيمان بمحمد (ص) والقرآن الكريم ، فقد اتفق المفسرون على ان المراد بالبرهان محمد ، وبالنور المبين القرآن ، وكل من سنة محمد وكتاب الله برهان قاطع على احقاق الحق ، وابطال الباطل ، ونور ساطع يهدي للتي هي أقوم ، لأنهما ينطقان بالوحي عن الله ، لا عن سواه : « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الي وما أنا الا نذير مبين - ٩ الاحقاف » .. « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - ٣١ آل عمران » .

أما الدليل على انهما وحي من الله ، وانهما برهان ونور فلا يتلخص بكلمات تقال في تفسير آية من الآيات ، وقد وضع المتخصصون فيه مئات الكتب ، وذكرنا الكثير مما جاء فيها في مطاوي هذا التفسير ، وسنذكر أيضاً الكثير كلما دعت المناسبة ، وعلى طالب الحق ان يبحث ويتتبع .. أجل ، شيء واحد نسأل هذا الطالب ان لا يذهل عنه ، وهو أن يقارن بين تعاليم القرآن ، وتعاليم غيره من كتب الأديان .. وأيضاً يقارن بين تاريخه وتاريخها ، والمراحل التي مرت بها عبر القرون والأجيال .. ويبحث أيضاً بصورة خاصة عن عدد الأناجيل واشتهارها ، وكم كانت في القرن الأول والثاني الميلاديين ؟ ولماذا انعقد المجمع المسكوني في نيقية سنة ٣٢٥ م الذي ضم ألفين وأربعين أسقفاً يمثلون جميع الكنائس في العالم المسيحي ؟ وماذا تم في هذا المجمع ؟ وهل اتفق جميع الأساقفة على ان عيسى إله ، أو ان فئة منهم قالت : انه بشر مخلوق ، وأخرى قالت : هو إله ؟ وهل تعرض هذا المجمع للعنصر الثالث روح القدس ، وأتى على ذكر ألوهيته ، أو ان الذي أقر ألوهية هذا العنصر هو المجمع الذي انعقد في القسطنطينية

سنة ٣٨١ م ، ولم يعرف هذا العنصر من قبل هذا التاريخ .

نرغب الى طالب الحق أن يبحث عن هذه الجهات ، ونحن معه في النتيجة التي ينتهي اليها اية تكون .

(فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً) . الضمائر الثلاثة في به ومنه واليه كلها تعود الى الله .. وبعض المفسرين فرّق بين الرحمة والفضل بأن الرحمة تكون في الدنيا ، والفضل يكون في الآخرة . وقال آخر نقلاً عن ابن عباس : ان الرحمة هي الجنة ، وان الفضل ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت .. ويلاحظ بأن هذا أراد أن يفرق فجمع ، لأن هذا الوصف هو للجنة بالذات .. أما نحن فلا نرى أي فرق بين رحمة الله وفضله .. ويكفي لصحة العطف المفارقة في اللفظ .. وعطف بعض المترادفات على بعض في اللغة العربية كثير ومستحسن ، ويسمى بعطف التفسير

ومعنى الآية بمجموعها ان من آمن بالله ، واتكل عليه ، دون سواه فهو في رحمة الله وفضله دنيا وآخرة ، أما في الدنيا فان الله يمنحه التوفيق والهداية الى الطريق المؤدية الى الحق ، لا ينحرف عنه أبداً ، واما في الآخرة فروح وريحان وجنة نعيم ، وأخصر تفسير لهذه الآية الكريمة قول علي أمير المؤمنين (ع) : « ربٌّ رحيم ، ودين قويم » . وكل امرىء وما يختار .

الله يفتيكم في الكلالة الآية ١٧٦ :

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ إِن امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ★

الإعراب :

في الكلالة متعلق بيفتيكم ، لا بيستفتونك كما قيل. وامرؤ فاعل لفعل محذوف أي ان هلك امرؤ هلك،وهذا المحذوف لا يجوز ذكره واظهاره ، لأن الموجود يغني عنه . وجملة ليس له ولد حال من ضمير هلك . وله اخت أيضاً الجملة حال . وهو يرثها الجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب . واختلف المفسرون والنحاة في اعراب (فان كانتا اثنتين) . واعراب (وان كانوا اخوة) وسبب الاختلاف ان ألف كانتا ضمير يعود على الاختين ، وواو كانوا على الاخوة ، كما هو المفهوم من السياق ، وعلى هذا يكون المعنى فان كانت الاختين أختين ، أو الاثنتين اثنتين . وان كان الاخوة اخوة .. وليس من شك ان كلام القرآن منزه عن مثل هذا .

وذكروا وجوهاً كثيرة لصحة هذا التعبير أرجحها - فيما نظن - ما قاله صاحب البحر المحيط : ان المراد بضمير كانتا الوارثتان ، لا الاختان ، ويدل على ذلك سياق الكلام ، وان هناك صفة محذوفة لاثنتين ، والصفة والموصوف خبر كانتا ، والتقدير هكذا : فان كانت الوارثتان اثنتين من الاخوات ، أي اختين ، وهذا كلام مستقيم ، لأن الوارثتين أعم من الاختين ، فقد تكونان بنتين ، وقد تكونان جدتين أو عمتين أو خالتين . وكذلك ضمير كانوا يعود على الورثة ، ويكون المعنى وان كان الورثة اخوة للميت .

ورجالاً ونساء بدل من اخوة ، ويسمى بدل مفصل من مجمل . وان تضلوا على حذف مضاف مفعول لأجله ، أي يبين الله لكم مخافة ضلالكم .

المعنى :

(يستفتونك - يا محمد - قل الله يفتيكم في الكلالة) . الكلالة في اللغة الاحاطة ، ويراد بها في الميراث قرابة الانسان ، ما عدا الوالدين والأولاد ، كالاخوة والأعمام ، لأن الوالدين كالعمودين ، وقد يوصف الميت المورِّث

بالكلالة على معنى انه قد ورث غير أولاده ووالديه ، وقد يوصف بها الحي الوارث ، على معنى الوارث من غير صنف الآباء والأبناء ، والنتيجة واحدة في الوصفين ، وقد جاءت لفظة الكلالة في آيتين من القرآن الكريم ، وفي سورة النساء بالذات ، الأولى في أول السورة ، والمراد بالكلالة هناك اخوة الميت من أمه فقط . والآية الثانية هي هذه التي نفسرها ، والمراد بالكلالة فيها اخوة الميت وأخواته لأبيه وأمه ، أو لأبيه فقط .

(ان امرؤ هلك ليس له ولد) . ذكر ولا أنثى ، لأن الولد يطلق على كل مولود ، قال سبحانه : « ما اتخذ الله من ولد - ٩١ المؤمنون » . وأيضاً ليس له أحد الوالدين ، لأن لفظ كلالة يومىء الى ذلك ، بالاضافة الى الإخبار . (وله أخت فلها نصف ما ترك) . المراد بالأخت هنا الشقيقة ، وهي الأخت من الأب والأم ، ومع عدمها تقوم مقامها الأخت من الأب فقط ، أما الأخت من الأم فقط فقد سبق بيان حكمها في أول السورة الآية ١١ . واذا لم يكن مع الأخت الشقيقة أو من الأب فقط ولد ولا أحد الوالدين تأخذ النصف بالفرض ، والنصف الثاني بالرد ، وتنفرد وحدها بجميع التركة عند الشيعة سواء أكان للميت عصبة أو لم يكن ،أما السنة فيعطون النصف الباقي للعصبة ان كان ، والا أخذت الأخت جميع التركة ، فالخلاف بينهم وبين الشيعة في حال وجود العصبة فقط .

(وهو يرثها ان لم يكن لها ولد) ذكر ولا أنثى ، ولا أحد الوالدين ، ويحرز جميع التركة بالارث باجماع المذاهب . (فان كانتا اثنتين) . أي كانت الوارثتان اثنتين من الأخوات الشقيقات ، أو من الأب فقط، كما قدمنا في فقرة اللغة .. وأجمعت المذاهب الإسلامية على ان حكم البنات حكم البنتين ،دون تفاوت، وعليه يكون المعنى فان كانتا اثنتين فصاعداً . (فلهما الثلثان مما ترك) الميت أخاً كان أو اختاً .

(وان كانوا اخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين) . بعد ان بيّن نصيب الأخت المنفردة ، ونصيب الأختين وما فوق اللتين أو اللاتي لا أخ معها أو معهن ، بعد هذا بيّن حكم اجتماع الأخوة والأخوات بأنهم يقتسمون للذكر

مثل حظ الانثيين . وتقدم الكلام مفصلاً ومطولاً عن ارث البنات والأخوات عند تفسير الآية ١١ من هذه السورة مع أقوال السنة والشيعة وأدلتهم ومحاكمتها، وبيان الحق بالأرقام .

وبانتهاء تفسيرنا لسورة النساء ينتهي المجلد الثاني ، والحمد لله الذي وفقنا للملك ، وهو سبحانه المسؤول أن يوفقنا لاكمال بقية المجلدات بالنبي وآله ، عليه وعليهم أزكى التحيات ، وأفضل الصلوات .

الفهرس

سورة آل عمران	٥
التوراة والانجيل	٦
المحكم والمتشابه الآية ٧ – ٩	٩
لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم الآية ١٠ – ١٣	١٥
أرباب المال	١٧
حب الشهوات الآية ١٤	١٩
السعادة	٢٠
اؤنبئكم بخير من ذلكم الآية ١٥ – ١٧	٢٢
ثمرة الايمان	٢٤
الله والملائكة وأولو العلم الآية ١٨ – ٢٠	٢٤
ان الدين عند الله الاسلام	٢٦
تفترق أمتي ٧٣ فرقة	٢٩
الذين يقتلون النبيين الآية ٢١ – ٢٢	٣١
الأمر بالمعروف مع خوف الضرر	٣٢
أيضاً اليهود الآية ٢٣ – ٢٥	٣٣

تؤتي الملك من تشاء الآية ٢٦ ــ ٢٧	٣٦
موالاة المؤمن للكافرين الآية ٢٨ ــ ٣٠	٣٨
أقسام موالاة الكافر	٣٩
التقية	٤١
محبة الله الآية ٣١ ــ ٣٢	٤٥
ام مريم الآية ٣٣ ــ ٣٧	٤٦
فاطمة ومريم	٥٠
زكريا الآية ٣٨ ــ ٤١	٥١
يا مريم ان الله اصطفاك الآية ٤٢ ــ ٤٤	٥٥
فضل القرآن على النصارى	٥٦
من هي سيدة نساء العالمين ؟	٥٨
يا مريم ان الله يبشرك الآية ٤٥ ــ ٥١	٦٠
الممتنع عقلاً والممتنع عادة	٦١
من أنصاري الى الله الآية ٥٢ ــ ٥٤	٦٥
الحق وأرباب المنافع	٦٦
الله خير الماكرين	٦٨
متوفيك ورافعك الآية ٥٥ ــ ٥٨	٦٩
الاختلاف في عيسى	٧٠
مثل عيسى كمثل آدم الآية ٥٩ ــ ٦٣	٧٣
الأنبياء والمعصية	٧٥
المباهلة	٧٥
أهـــل البيت	٧٨
تعالوا الى كلمة سواء الآية ٦٤ ــ ٦٨	٧٩

وما يضلون إلا أنفسهم الآية ٦٩ ـ ٧١ ٨٣
الاسلام قوة للاديان السماوية ٨٤
آمنوا وجه النهار واكفروا آخره الآية ٧٢ ـ ٧٤ ٨٦
من أهل الكتاب أمين وخائن الآية ٧٥ ـ ٧٦ ٨٩
لا حياة الا للمستميت ٩٠
لا دين لمن لا عهد له الآية ٧٧ ٩٢
يلوون ألسنتهم بالكتاب الآية ٧٨ ٩٣
كونوا ربانيين الآية ٧٩ ـ ٨٠ ٩٥
تضامن الأنبياء الآية ٨١ ـ ٨٣ ٩٧
بين النبي والمصلح ٩٨
آمنا بجميع الأنبياء الآية ٨٤ ـ ٨٥ ١٠٢
كيف يهدي الله الكافرين الآية ٨٦ ـ ٨٩ ١٠٣
ثم ازدادوا كفراً الآية ٩٠ ـ ٩١ ١٠٥
المال هو المحك الآية ٩٢ ١٠٧
بنو اسرائيل والطعام الآية ٩٣ ـ ٩٥ ١١٣
أول بيت الآية ٩٦ ـ ٩٧ ١١٥
الكفر بآيات الله الآية ٩٨ ـ ٩٩ ١١٨
طاعة الكافر كفر الآية ١٧٠ ـ ١٠٣ ١١٩
الأمر بالمعروف الآية ١٠٤ ١٢٣
الاختلاف بعد النبي الآية ١٠٥ ـ ١٠٩ ١٢٦
أمة محمد الآية ١١٠ ـ ١١١ ١٢٩
ضربت عليهم الذلة الآية ١١٢ ١٣٣
ليسوا سواء الآية ١١٣ ـ ١١٥ ١٣٦

حكم تارك الإسلام	١٣٧
لا يجدي مع الكفر شيء الآية ١١٦ – ١١٧	١٤٢
بطانة السوء الآية ١١٨ – ١٢٠	١٤٣
وقعة أحد الآية ١٢١	١٤٧
اذ همت طائفتان الآية ١٢٢	١٤٩
وقعة بدر الآية ١٢٣ – ١٢٧	١٥٠
ليس لك من الأمر شيء الآية ١٢٨ – ١٢٩	١٥٣
لا تأكلوا الربا الآية ١٣٠ – ١٣٣	١٥٤
صفات المتقين الآية ١٣٤ – ١٣٦	١٥٦
قد خلت من قبلكم سنن الآية ١٣٧ – ١٣٨	١٥٩
نكسة ٥ حزيران	١٦٠
ولا تهنوا الآية ١٣٩ – ١٤١	١٦٢
ثمن الجنة الآية ١٤٢ – ١٤٣	١٦٥
الشعارات الدينية	٢٦٦
تغيير الأخلاق والأفكار	١٦٧
وما محمد الا رسول الآية ١٤٤ – ١٤٨	١٦٨
الأجل محتوم	١٧١
لكل امرىء ما نوى	١٧٣
ان تطيعوا الذين كفروا الآية ١٤٩ – ١٥١	١٧٥
صدقكم الله وعده الآية ١٥٢	١٧٦
فأثابكم غماً بغم الآية ١٥٣ – ١٥٥	١٧٩
سر الفشل	١٨٣
لا تكونوا كالذين كفروا الآية ١٥٦ – ١٥٨	١٨٤

ولو كنت فظاً الآية ١٥٩ – ١٦٠	١٨٧
محمد رمز عظمته	١٩٠
وما كان لنبي أن يغل الآية ١٦١ – ١٦٤	١٩٤
الاسلام يفعل الأعاجيب	١٩٦
اصابتكم مصيبة الآية ١٦٥ – ١٦٨	١٩٨
أحياء عند ربهم يرزقون الآية ١٦٩ – ١٧١	٢٠٢
الذين استجابوا لله والرسول الآية ١٧٢ – ١٧٥	٢٠٤
الشيطان شحاذ ومهندس	٢٠٧
الذين يسارعون في الكفر الآية ١٧٦ – ١٧٨	٢٠٨
الكافر وعمل الخير	٢١١
تمييز الخبيث من الطيب الآية ١٧٩	٢١٣
ولله ميراث السموات والأرض الآية ١٨٠ – ١٨٢	٢١٦
الغني وكيل لا أصيل	٢١٧
القربان والنار الآية ١٨٣ – ١٨٤	٢٢٠
كل نفس ذائقة الموت الآية ١٨٥ – ١٨٦	٢٢٢
وظيفة علماء الدين الآية ١٨٧	٢٢٥
ان يحمدوا بما لم يفعلوا الآية ١٨٨ – ١٨٩	٢٢٧
الله وأولو الألباب الآية ١٩٠ – ١٩٥	٢٢٩
الذين كفروا والذين اتقوا الآية ١٩٦ – ١٩٨	٢٣٤
المؤمنون من أهل الكتاب الآية ١٩٩ – ٢٠٠	١٣٥
التقوى	٢٣٧

سورة النساء

خلقكم من نفس واحدة الآية ١	٢٤١

أموال اليتامى الآية ٢	٢٤٥
وان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة الآية ٣ ـ ٤	٢٤٦
تعدد الزوجات	٢٥٠
ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الآية ٥ ـ ٦	٢٥٢
الإيمان بالله ومشكلة العيش	٢٥٤
للرجال نصيب الآية ٧ ـ ١٠	٢٥٧
للذكر مثل حظ الانثيين الآية ١١ ـ ١٢	٢٦٠
تلك حدود الله الآية ١٣ ـ ١٤	٢٦٨
يأتين الفاحشة الآية ١٥ ـ ١٦	٢٦٩
يعملون السوء الآية ١٧ ـ ١٨	٢٧١
التوبة والفطرة	٢٧٥
وعاشروهن بالمعروف الآية ١٩ ـ ٢١	٢٧٨
من طلب المزيد عوقب بالحرمان	٢٨١
الزواج مبادلة روح بروح	٢٨٣
المحرمات في الزواج الآية ٢٢ ـ ٢٣	٢٨٣
والمحصنات من النساء الآية ٢٤ ـ ٢٥	٢٩١
زواج المتعة	٢٩٥
يريد الله ليبين لكم الآية ٢٦ ـ ٢٨	٣٠٠
لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الآية ٢٩ ـ ٣٠	٣٠٣
الكبائر الآية ٣١	٣٠٥
واسألوا الله من فضله الآية ٣٢ ـ ٣٣	٣٠٩
يدعو الله ويعمى عن سبيله	٣١١
الرجال قوامون على النساء الآية ٣٤ ـ ٣٥	٣١٣

وبالوالدين احساناً الآية ٣٦	٣٢٠
يبخلون ويأمرون الناس بالبخل الآية ٣٧ ـ ٣٩	٣٢٢
قرين الشيطان	٣٢٤
ان الله لا يظلم مثقال ذرة الآية ٤٠ ـ ٤٢	٣٢٦
لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى الآية ٤٣	٣٢٩
المريض والمسافر واليتيم	٣٣٣
يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا الآية ٤٤ ـ ٤٧	٣٣٦
اسرائيل وقوى الشر	٣٣٧
ان الله لا يغفر ان يشرك به الآية ٤٨ ـ ٥٠	٣٤١
دليل التوحيد والأقانيم الثلاثة	٣٤٤
يؤمنون بالجبت والطاغوت الآية ٥١ ـ ٥٢	٣٤٧
لا يؤتون الناس نقيراً الآية ٥٣ ـ ٥٥	٣٤٩
بدلناهم جلوداً غيرها الآية ٥٦ ـ ٥٧	٣٥٢
تأدية الأمانة والعدل في الحكم الآية ٥٨ ـ ٥٩	٣٥٤
من هم أولو الأمر ؟	٣٥٧
يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت الآية ٦٠ ـ ٦٣	٣٦٣
وما أرسلنا من رسول الا ليطاع الآية ٦٤ ـ ٧٠	٣٦٧
من هم الصديقون ؟	٣٧١
خذوا حذركم الآية ٧١ ـ ٧٣	٣٧٣
الحرب بين الأمس واليوم	٣٧٤
يشترون الحياة الدنيا بالآخرة الآية ٧٤ ـ ٧٦	٣٧٧
كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة الآية ٧٧	٣٨٠
أينما تكونوا يدرككم الموت الآية ٧٨ ـ ٧٩	٣٨٣

فما أرسلناك عليهم حفيظاً الآية ٨٠ ـ ٨٢ ٣٨٧
اليهود وإعجاز القرآن ٣٨٩
الأسرار الحربية واذاعتها الآية ٨٣ ٣٩٠
لا تكلف الا نفسك الآية ٨٤ ٣٩٢
الشفاعة والتحية الآية ٨٥ ـ ٨٧ ٣٩٣
طرق متنوعة لاثبات المعاد ٣٩٦
فما لكم في المنافقين فئتين الآية ٨٨ ـ ٩٠ ٣٩٧
الاضلال من الله سلبي لا ايجابي ٣٩٩
ستجدون آخرين الآية ٩١ ٤٠٣
لا قتل ولا قتال في الاسلام ٤٠٤
قتل الخطأ والعمد الآية ٩٢ ـ ٩٣ ٤٠٦
اظهار الاسلام كاف في اثباته الآية ٩٤ ٤٠٩
القاعدون والمجاهدون الآية ٩٥ ـ ٩٦ ٤١١
علي وأبو بكر ٤١٤
أرض الله واسعة الآية ٩٧ ـ ١٠٠ ٤١٦
الفقهاء ووجوب الهجرة ٤١٩
بين هجرة الرسول من مكة وهجرة الفلسطينيين ٤٢١
صلاة الخوف الآية ١٠١ ـ ١٠٣ ٤٢٣
ولا تهنوا في ابتغاء القوم الآية ١٠٤ ٤٢٦
الدفاع عن الخائنين الآية ١٠٥ ـ ١١٣ ٤٢٨
النجوى بالخير والإصلاح الآية ١١٤ ـ ١١٥ ٤٣٤
يموت من أجل الحلوى ٤٣٧
ان الله لا يغفر أن يشرك به الآية ١١٦ ـ ١٢٢ ٤٣٨

مرة ثانية التكرار في القرآن ٤٤٠
سياسة الشيطان والعلم الحديث ٤٤١
من يعمل سوءاً يجز به الآية ١٢٣ – ١٢٤ ٤٤٤
بين الرجل والمرأة ٤٤٦
ومن أحسن ديناً الآية ١٢٥ – ١٢٦ ٤٤٧
ويستفتونك في النساء الآية ١٢٧ ٤٤٩
نشوز الزوج الآية ١٢٨ – ١٣٠ ٤٥١
ولله ما في السموات والأرض الآية ١٣١ – ١٣٤ ٤٥٤
كونوا قوامين بالقسط الآية ١٣٥ – ١٣٦ ٤٥٦
بين الدين وأهل الدين ٤٥٧
العدالة ٤٦٠
لا يثبت على كفر ولا ايمان الآية ١٣٧ – ١٣٩ ٤٦١
لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره الآية ١٤٠–١٤١ ٤٦٣
يخادعون الله وهو خادعهم الآية ١٤٢ – ١٤٣ ٤٦٧
هل كل الناس مراؤون ؟ ٤٦٩
لا تتخذوا الكافرين أولياء الآية ١٤٤ – ١٤٧ ٤٧٠
الله والإمام زين العابدين ٤٧٢
لا كرامة لظالم الآية ١٤٨ – ١٤٩ ٤٧٧
يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض الآية ١٥٠ – ١٥٢ ٤٧٨
فقالوا أرنا الله جهرة الآية ١٥٣ – ١٥٤ ٤٨٠
فبما نقضهم ميثاقهم الآية ١٥٥ – ١٥٩ ٤٨٢
فبظلم من الذين هادوا الآية ١٦٠ – ١٦٢ ٤٨٧
إنا أوحينا اليك الآية ١٦٣ – ١٦٦ ٤٩٠

هل الأنبياء كلهم شرقيون ؟	٤٩٢
كفروا وصدوا عن سبيل الله الآية ١٦٧ ـ ١٧٠	٤٩٦
لا تغلوا في دينكم الآية ١٧١ ـ ١٧٣	٤٩٨
القرآن والمبشرون بالتثليث	٥٠٠
قد جاءكم برهان الآية ١٧٤ ـ ١٧٥	٥٠٣
الله يفتيكم في الكلالة الآية ١٧٦	٥٠٥